

د. محمد مفتاح

مفاهيم موسّعة لنظرية شعرية اللغة - الموسيقى - الحركة



الجزء الثالث
أنغام ورموز



د. محمد مفتاح

مفاهيم موسّعة
لنظرية شعريّة
اللغة - الموسيقى - الحركة

الجزء الثالث
انغام ورموز

د. محمد مفتاح

مفاهيم موسّعة
لنظرية شعريّة

اللغة - الموسيقى - الحركة

الجزء الثالث

أنغام ورموز



الكتاب

مفاهيم موسعة
لنظرية شعرية
الجزء الثالث
أنغام ورموز

المؤلف

محمد مفتاح

الطبعة

الأولى ، 2010

عدد الصفحات : 352

القياس : 17 × 24

الترقيم الدولي

ISBN: 978-9953-68-444-8

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء (المغرب)

ص. ب : 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف : 522 303339 - 522 307651

فاكس : 522 305726 +212

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت (لبنان)

ص. ب : 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف : 01750507 - 01352826

فاكس : 01343701 - (+9611)

www.ccaedition.com

Email: cca@ccaedition.com

cca_casa_bey@yahoo.com

فهرس المحتويات

11 تقديم
13 مدخل : الآلة والمتن
13 تمهيد
14 I - الآلة
14 1 - المبادئ الماورائية
14 2 - المبادئ العينية
16 3 - الموسيقى / الشعر
28 4 - المفاهيم المشتركة
32 5 - المحاكاة
35 II - المَثن
38 خاتمة

القسم الأول

الأنغام

43 الفصل الأول: المحبرة والرَّحبة
43 تمهيد
44 I - شعر التَّكوين
44 1 - قضايا
52 2 - سُلْطَة الذَّاكِرَة

54	II - لحن الوجود
55	1 - رحم الولادة
58	2 - نقطة التكوين
60	III - نظريات
60	1 - تذكير
63	2 - أشكال
82	3 - بنية ارتيائية
89	خاتمة
91	الفصل الثاني: الانفراد والاجتماع
91	تمهيد
92	I - الآليات
92	1 - منعطف الجسد
93	2 - تعدّد الوظائف
94	3 - التناس
112	4 - الثّقان
117	5 - التّشاكل
118	II - ما قبل التحقق
118	1 - المقاطع
120	2 - القوالب العروضية
121	3 - مكونات اللحن
123	III - ما بعد التحقق
124	1 - توافق الألوان
125	2 - توافق أسماء الأعلام
126	3 - توافق الوحدة والاجتماع
129	خاتمة

131 الفصل الثالث: الفاء والباء
131 تمهيد
132 1 - تشييد الانتظام
140 2 - جغرافيا القتل
140 أ - فاس التاريخ
143 ب - فاس المجتمع
144 ج - فاس الثقافة
145 3 - البصمة
145 أ - السواض
149 ب - الصومنة
149 1 - التفكير بالصوت
167 2 - التفكير في الصمت
169 4 - تدلال الدوال
170 أ - البنية المركبة المضمونية
171 ب - البنية الدليلية
172 ج - توليف البنيات
175 خاتمة
177 خلاصة القسم الأول

القسم الثاني

الرموز

181 الفصل الأول: العبارة والإشارة
181 تمهيد
182 I - التفانن
182 1 - الصومنة

184	2 - التعبير بالموسيقى
187	3 - التمثيل
188	4 - التشكيل
189	II - توافقات
190	III - السمفونيا الخامسة
190	1 - التجميع الاختزالي
194	2 - الاختزال التمطيبي
197	3 - اختزال المسافة الزمنية
205	4 - التراتب الاختزالي
211	IV - دلالات
211	1 - الاستراتيجية التنازلية
213	2 - الاستراتيجية الاتصالية
214	3 - استراتيجية التهويل
216	4 - المربع الذهبي
221	V - يوم القيامة
222	1 - الكارثة الحقيقية
222	2 - فنية ما بعد الحداثة
224	VI - البنية الشاملة
226	خاتمة
227	الفصل الثاني: الْحِجَارَةُ وَالْقِيَارَةُ
227	تمهيد
227	1 - التقريب
233	2 - ما بعد التقريب
233	أ - الرمزية الصوتية
237	ب - المرددات

241	3 - البناء بالموسيقى
241	أ - الموسيقى المقامية
244	ب - الموسيقى التوافقية
248	ج - التسلسلية
249	د - التقليلية
250	4 - وحدة البناء
250	أ - الأسس العميقة
256	ب - وظائف
258	5 - دلالات
262	6 - رموز
265	7 - تعزيز
267	خاتمة
269	الفصل الثالث : البشير والنذير
269	تمهيد:
270	1 - أحجارٌ مُنْطَظَةٌ
275	2 - ألحان الحجارة
281	3 - استحجار الوجود
285	4 - استنْغَامُ الكون
295	5 - استشكال العالم
299	6 - تجليات الأشكال
309	7 - مفارقة الحجارة
311	خاتمة
313	خلاصة القسم الثاني
315	خلاصة الجزء الثالث

319	مخرج : الحصيلة والأفق
319	تمهيد
320	1 - الحصيلة
320	أ - الشعر في الدماغ
322	ب - في الحركة حياة
323	1 - الحركة الموسيقية
324	2 - الحركة الجسدية المعبرة
325	3 - دلالات الحركة
326	4 - حركة النص
327	ج - تنظيم الحركة
332	د - آليات التنظيم
340	هـ - الوجود تنظيم
341	2 - الأفق
342	أ - هندسة الدماغ
343	ب - مَنزلة الموسيقى
345	ج - الموسيقى والشعر
346	د - خصوصية الشعر
348	هـ - التَّفَان
349	و - المقارنة
349	ز - أبدية الشعر
350	ح - أفق الأفق
351	بعض المراجع المعتمدة
351	(1) بالعربية
352	(2) بغير العربية

تقديم

اقترحنا أنموذجاً لشعرية موسعة مؤسسة على مبادئ، ونظريات، وقواعد، في جزأين؛ دعونا أولهما بـ (مبادئ ومسارات)، وأسمينا ثانيهما بـ (نظريات وأنساق)؛ وقد استنزلناه من التنظير إلى التطبيق على عروض الخليل بن أحمد، وبلاغة حازم، وشعر المتنبي، وابن الخطيب، والمجاطي...

ألفنا الأنموذج من مصادر مشتركة مندمجة تركيبياً؛ وهي أوليات معرفية، ورياضية ومنطقية، وتنظيمية، وحركية؛ وهذا التوليف جعلنا أقدر على توليد المفاهيم، وأدق في التحليل، وأضبط في التأويل، وأكثر إدراكاً للعلائق الوثيقة بين النص، ومبدعه، والمحيط؛ ومن المؤكد أن المهتمين سيرون مقدار وجاهته، وقوة فعاليته، ومدى آفاقه، من خلال تلك النتائج، فينسجون على منواله كما هو، أو ينقصون منه، أو يزيدون عليه، أو يرفضونه جملة، وتفصيلاً، «ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات».

تعزيراً لِمَا أنجزناه في الجزأين المذكورين خصصنا الثالث هذا: (أنغام ورموز) إلى تفكيكات دقيقة لنماذج شعرية مغربية، ومشرقية، للمهدي أخريف، وعبد الرحمان بوعلي، ورشيد المومني، وحسن نجمي، ومحمد بنيس، وأدونيس، ومحمود درويش؛ وقد فصلناه إلى مدخل، وقسمين، ومخرج.

حرصنا على أن نذكر، في المدخل، بِمُكُونَاتِ الأنموذج، وأن نناقش مسألة تحقيق المتن؛ ثم تعرضنا، في القسم الأول، (أنغام) إلى بعض القضايا التي تشغل بَالِ الشاعر المعاصر، مثل هوية الكتابة الشعرية، والثَّقَان، ورمزية الفضاء، والزمان؛ ثم تناولنا، في القسم الثاني، (رموز) علاقة الأشعار ببعض الأحداث التي غيرت مجرى التاريخ العربي، كالمقاومة، والخيانة، والمراهنة؛ وأما المخرج فلخصنا فيه الأنموذج، حتى يمكن استيعابه، وتطبيقه... من جهة

أولى، واستشرّفنا به آفاقاً جديدة تتعلق بتحديد ماهية الشعر، وبتبيين علائقه بالعلوم، والفنون، وباقتراح كيفيات لتلقيه في إطار إبدالات القرن الواحد والعشرين من جهة ثانية.

القارئ للكتاب يرى أننا لم نكتف باستخلاص تلك المضامين فحسب، وإنما ألقينا أضواءً على الأشكال الفنية التي وظفها كل شاعر بحسب طاقته، وتبعاً لما يبتغيه، ورصدنا طرق إنشاده، وهيئة إشاراته، وطبيعة حركاته؛ إذ هاتيك الأشكال، وهذه الطرق.. هي ما يميز شاعراً من شاعر، وقصيدة من قصيدة، ومقطعاً من مقطع، وتركيباً من تركيب، ومفردة من مفردة، وكلمة من كلمة؛ وعليه، فإننا سعيينا إلى وضع معالم لنحوٍ كلي للشعرية من ناحية، وإلى رصد تضاريس، ونتوءات كل تجربة من ناحية ثانية.

ذلك جهد المقل، والله ولي التوفيق.

د. محمد الغزواني مفتاح

مدخل الآلة والمتن

تمهيد

أَعْلَنَّا، منذ الأسطر الأولى، أن عملنا هذا يبتغي التدقيق في قضيتين أساسيتين؛ أولاهما ضاربة في أعماق الطبيعة البشرية، وهي ما يتعلّق بالإيقاع في اللغة، وفي الشعر بصفة خاصة؛ وثانيتهما طارئة بفعل التحولات الفلسفية، والثقافية، والفنية، والمجتمعية؛ وهي ما يخص النثر، والصّواف⁽¹⁾؛ على أننا لم نَدْعُ أننا أبناءُ بَجْدَتَيْهِمَا، وإنما شهدنا على أنفسنا أن كثيراً من المهتمّين قبلنا أَلْقَوْا بدلانهم في غيابات جُبَيْهِمَا لعلّهم يَظْفَرُونَ بِبُلَالَةٍ من إدراكهما، والتعرف على مكوناتهما. بأولئك المهتمّين من الباحثين والأساتيد الرُّؤَادِ اقْتَدَيْنَا، وبمجهوداتهم اهتدينا، على الرغم من ضآلة معرفتنا، لكننا بقول الشاعر امتثلنا:

وَلَيْسَ الْعِلْمُ (يَأْتِي) بِالتَّمَنِّي وَلَكِنْ أَلْقِ دَلُوكَ فِي الدَّلَاءِ
تَجِثْكَ بِمَلِيهَا يَوْمًا، وَيَوْمًا تَجِثْكَ بِحَمَاةٍ، وَقَلِيلٍ مِنْ مَاءٍ⁽²⁾

جِزْصًا مِنَّا عَلَى مَجِيءِ الدَّلْوِ فَتَلْنَا سَبَبَيْنِ مَيِّتَيْنِ مِنْ مفاهيم علم الموسيقى النَّبِيلِ الدَّقِيقِ، ومن نظرية نسقية تراعي تضافر العلوم والفنون.

(1) لا يخفى على القارئ تُعَدُّ التسميات لهذا النوع من الإبداع لدى غير المهتمّين العرب، ثم نُقِلَ ذلك إلينا. ونقترح نحن ما يلي: (1) ما يجمع الشعر والنثر (الشُّعْرَةُ)، (2) ما هو منشور (الثَّيْبَةُ) قياساً على القصيدة، (3) وما يكون كلمات متوالية بدون نقط أو فواصل... (الصّوَف).
(2) التجأنا إلى هذا الأسلوب لنمتع القارئ فيقبل على ما سينتظره من تحليلات لا تتقبلها الذهنية الأدبية بيسر وسهولة.

I — الآلة

وإذ قَدَّمْنَا كثيراً من المُمَغْطَيَات، والتحاليل، في الجزأين السابقين، فإننا نكتفي هنا بتجميع قطع لصنع آلة⁽³⁾ يستطيع من أراد أن يستعملها في تفكيك بنية الشعر المعقدة. هكذا سنذكره بالمبادئ الماورائية⁽⁴⁾، وبالتحليلات العينية، وتوليفها، وبدلالاتها ورموزها، كما سنلَفِتُ نظره إلى مسألة المتن، وتداعياتها.

1 — المبادئ الماورائية

نعني بالمبادئ الماورائية الحركة، والتوليف، والانتظام، من حيث إن كل ما في الكون متحرك، في ائتلاف، وانتظام، أنواعاً من الحركة ملائمة لطبيعته، وللغايات التي يريد أن يَصِلَ إليها؛ والحركة إما أن تكون طبيعية محكومة بقوانين آلية تكلفت بتبيانها ابستمولوجياً الفيزياء، والكيمياء، وإما أن تكون متعلقة بِحَيٍّ أَبَان كَيْفِيَّاتِيَّهَا علماء البيولوجيا والأعصاب؛ ومَهْمَا كان انتماء الحركة، فإنها قد تكون سريعة، أو بطيئة، أو بين البُطْءِ، والسرعة؛ أو قد تكون مستقيمة، أو متقهقرة، أو منحنية، أو عمودية. ما يعنينا هنا هو الحركة الإنسانية التي اهْتَمَّتْ بها العلوم العصبية، والنفسانية.

عكف علماء الأعصاب على دراسة الحركة الإنسانية، فَبَيَّنُوا أسبابَها، ومراحلَها، وقوانينَها، وأهدافَها، وطبيعتها الجسدية، والذهنية، ومواقعها الدماغية... في تفاصيل يعسر على غير المختص أن يتابعها؛ وأما علماء النفس فتحدثوا بِلُغَتِهِم الاستعارية عن الساعة الزمنية الباطنية الضابطة للحركة، والبرامج الحركية؛ تتبع الأولون مسار الحركة من مداخلها إلى مخرجها، واكتفى الآخرون بمخارجها، يقطع النظر عن صحة الحركة أو عِلَّتِهَا⁽⁵⁾.

2 — المبادئ العينية

المخرج يجعل الحركة عينية متجلية في رد فعل عن شيء (سبب) مرئي، أو غير مرئي؛ وقد تكون طبيعية تلقائية، أو قصدية هادفة؛ كل حركة تُخَزَّن في الذاكرة تصير بنية مرجعية لمعالجة المعلومات الجديدة بالمقايضة عليها. وبهذا

(3) الآلة (Organon): مجموعة مبادئ خاصة بالبحث العلمي أو الفلسفي.

(4) المبادئ الماورائية: les Principes Métaphysiques، أو مبادئ المبادئ.

(5) انظر فصل (المبادئ الحركية) في الجزء الأول، والفصل الرابع (النظرية الموحدة) من الجزء الثاني.

تفاعل معلومات البنية مع المعلومات الجديدة، فَتَنْمَى المدارك الإنسانية، والمعارف. ويقوم النسق البصري المكون من باحات في القِشْر بِدَوْرٍ مُهِمٍّ في العمليات الحركية. ويقدم علماء الأعصاب المعرفيون، والمختصون في وظائف المكونات الدماغية خرائط متعددة يَزْمُرُونَ إليها بحروف وأرقام، مثل . . . V5، V4، V3، V2، V1؛ لكن هذا التتابع لا يعني التسلسل، كما أن الحدود بين الباحات غير محددة، على أن هناك اعتقاداً في أنها مُتْرَاثِيَّة، بحيث إن كل واحدة منها تدقق في التمثيلات المنتجة بسابقتها⁽⁶⁾.

هناك اختلاف بين علماء التشريح الدماغية، وبين الباحثين في وظائف باحاته، وبين علماء الأعصاب المعرفيين، في قضايا كثيرة، وتفاصيل عديدة، لكن ذلك شأنهم، لأن لنا مآرب أخرى من أبحاثهم؛ أولها التراتبية بما تؤدي إليه من تدرّج، وترتيب؛ ثانيها الانتظام؛ وكل من المأربين (المبدأين) مبدأ ما ورائي يحكم الغِيَبِيَّات، والذهنيات، والعينيَّات. وضعته البشرية (والحيوانية) لتعيش؛ وما نهتم به هنا الانتظام العيني الذي يتجلى في كل مظاهر الحياة البشرية؛ على أن ما سَرَكَزَ عليه، هو حركة النَّصِّ الشعري، وحركة الشاعر المُشْدَد.

سنرصد أنواع الحركة لدى الشاعر، من حيث خواص الاستقامة، أو الانعكاس، أو القهقري، أو العمودية، أو الانحنائية، أو اللولبية، أو الدورية، أو الدائرية، أو المُثَلِّثِيَّة . . . مركزين على ما هو ثابت، ومنبهين إلى ما يرجع إلى طابع المتحرك الذي قد يكون مَرْدُهُ إلى بَنِيَّتِهِ الجسدية، أو تقاليد جماعته، أو إلى المعطيات الاجتماعية، والجغرافية⁽⁷⁾. لهذا نفترض أن هناك ثوابت حركية بين أدونيس، ودرويش، وبنيس، ونجمي، وأخريف، وآخرين، وهناك مميزات حركية لكل واحد مِنْهُمْ. ومعلوم أن الثوابت هي ما يشيد عليها النحو، والدلالة، حتى يمكن التواصل بين أناس مختلفي اللغات، والثقافات، كما هو الشأن في لغة الصم البكم، وفي كثير من الموسيقى؛ وأما الخصوصيّات فهي ما يميز ثقافة من ثقافة، وشخصاً من شخص.

نفترض أن ثوابت الحركة هي حركة الرأس، بما تحويه من وجه، وعينين،

Gazzaniga et AL, Neurosciences Cognitives. La Biologie de L'esprit. De Boeck Université, Paris, (6) 2001. Ch. 10, pp. 371-421 (379-394-395-397); Ch. 4, pp. 121-161 (133-134-157-159).

(7) تناولنا بعض هذا في (المبادئ الحركية)، وفي (النظرية الموحدة)، وسَنَقْصِلُ القول فيه بالفصل الرابع (الإشارة) من هذا الجزء.

وشفتين. فالوجه المستبشر غير الكئيب، والعينان اللامعتان غير الكسيرتين، والشفتان الممطتان غير المُنْقِصَتَيْن؛ وهي حركة اليد اليمنى، أو اليسرى، أو هما معاً؛ فقد تنوب حركة واحدة مِنْ يد واحدة عن مفردات تعبيرية كثيرة؛ على أن حَصَرَ عدد الثوابت تابع للتصور النظري، وعلى نوع المقايضة. فإذا مَا قَسْنَا الحركة الجسدية على اللحن الموسيقي، فإن هذا الاختيار يؤدي إلى تفضيل الأساسية، والثابتة، وما تحت الثابتة كما هو الشأن في الموسيقى التوافقية، أو إلى ما يطابق ذا الأربع أو الخمس في الموسيقى المقامية القديمة، والوسيلة، أو إلى تَغْدَادٍ يصل إلى اثني عشر على شاكلة الموسيقى التي تسمى بهذا الاسم.

3 - الموسيقى/ الشعر

أَلْحَحْنَا، في كثير من المرات، على أن الموسيقى هي أم، وأب اللغة الإنسانية اللسانية، باعتماد على أبحاث أناسية كثيرة؛ على أن إلْحَاحَنَا كان على الْمُبْدَأِ دون التفصيل، لأن الموسيقى في تجلياتها موسيقات، تبعاً للصيرورات التاريخية التي تخضع لها المجتمعات، أو تصنعها؛ بناء على هذا، فإنه يمكن التذكير بالتحقيب الآتي: (1) سيادة المقامية في الحقبة الإغريقية - الرومانية - العربية الإسلامية التي امتدت إلى القرن الثاني عشر XII^e . (2) ثم التناظرية التي امتدت من XII^e - $XVII^e$ ، ثم التوافقية من $XVII^e$ - XIX^e ، فالإثنا عشرية XIX^e - XX^e - والموسيقى المعاصرة (من منتصف XX^e إلى يومنا هذا)؛ ومن بينها التقليدية.

شاعت الموسيقى الشرقية - الإغريقية - الرومانية - العربية، في حوض البحر الأبيض المتوسط، وامتداداته؛ والموسيقى ثالثة في عُلُوم الأعداد، والهندسة، والفلك. وجوهرها عقيدة التناسب الماورائية، والرياضية، بين كل ما في الكون. وَيَعَكِسُ هذه العقيدة الفلاسفة، والمتصوفة، والموسيقيون، والأطباء، والبلاغيون. ومن بين هؤلاء ابن سينا، وإخوان الصفاء.. وابن عربي، وابن الخطيب.. والخليل بن أحمد.. وابن طفيل، وابن رشد الحفيد.. وعبد القاهر الجرجاني، وحازم القرطاجني⁽⁸⁾. هكذا رأوا التناسب، بين الطبائع، والطبوع، في الموسيقى، وفي الشعر، واستخدمت الموسيقى في العلاج، وَحَدَّدَت للطبوع والأشعار آثاءً من الليل وأطراف من النهار، واستُحْسِنَ قَصْرُ بعض الموسيقى، والقريض، على بعض

(8) يُراجع القسم الثاني (المسارات) من الجزء الأول.

الفصول دون أخرى؛ في هذه العقيدة يَنْبَغِي النظر إلى كثير من شعر المتنبي، وشعر الطَّرَبَات، والمولدِيَّات والسَّمَاعِيَّات؛ والنموذج الأمثل لكل هذا آثار لسان الدين بن الخطيب السلماني الأندلسي (ت. 776)⁽⁹⁾.

استمرت هذه العقيدة في الموسيقى المتداولة في العالم العربي، والإسلامي، وخصوصاً في بلاد الغرب الإسلامي (تونس والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى...)، لكنها توقفت في أوروبا، منذ القرن السابع عشر بالإرهاصات الأولى للموسيقى التوافقية التي أعادت النظر في الموسيقى المقامية، ثم اختزلتها في السلم الكبير، والصغير؛ وجوهر هذه الموسيقى التوتر، والاسترخاء، والتقابل بين ما هو أساسي، وما هو ثانوي، والعناية بالختم؛ إلا أن هذا الإبدال الموسيقي لم يَنْسَخْ، بكيفية نهائية، ما سبقه من مضامين المقامات، ومن تناظرات؛ رجع باخ إلى المنهاجية التناظرية، وكذلك فعل تلامذته، بل إن موزارت وَفَّقَ بين التناظر، والتوافق⁽¹⁰⁾. لا يعنينا التاريخ هنا، وإنما نسعى إلى أن نؤكد أن هذا الإبدال الموسيقي لم تتعرف عليه الثقافة العربية إلا في القرن العشرين بكيفية مؤكدة في إجمال، لا في فلسفة، وتفصيل؛ على أن استيحاءنا من هذا الأنموذج الموسيقي، لتحليل قصيدتي المتنبي، يؤدي إلى نتيجتين على الأقل؛ إحداهما أن ما فعلناه مجرد إسقاط غير تاريخي؛ وثانيهما أن جوهر الأنموذج ثوابت بشرية متعالية عن مقتضيات الأخوال؛ ونقر أننا استندنا إلى هذه الحقيقة؛ ذلك أن مكونات الفعل البشري الأساسية متطابقة في الصيرورة، وفي التنظيم بأنواعه، وفي التوجه نحو أهداف معينة⁽¹¹⁾؛ وعليه، فإن التعمق في دراسة هذا الإبدال لن يكون إلا ذا فائدة جلية لفهم أشعار العرب، وموسيقاها.

ازداد الاتصال بين الثقافات، والحضارات، بالرحلات، وبالاستعمار، وبالاستشراق، وبالمعارض... وبدأ المهتمون يُعِيدُونَ قراءة التراث القديم، والوسيط... فانبثقت فنون، وعلوم جديدة؛ هكذا أُعيد تَجْزِيءُ الطنين، والرجوع إلى التناظر، وإحياء ذي الأربع، وذي الخمس، وعُمِّمَ التصنيف في النغمات، فأُنشِئَ

(9) انظر فصل (تناغم الأكوان) بالقسم الثاني (المسارات) من الجزء الأول (مبادئ ومسارات).

(10) لمزيد من التفاصيل انظر:

- F. Escal, Contrepoints. Musique et Littérature, Méridiens Klincksieck, Paris, 1990.

- E. Bresson, La Musique, Belin, Paris, 1993.

(11) نحرص ما أمكن على تجنب السُّبَابِيَّة المتطرفة التي لا تخدم قضايانا الإنسانية والثقافية والسياسية.

إبدال الاثني عشري، ثم التسلسلي... بخصائصه المعروفة من استقامة، وعكس، وقهقري، ونقل للأوضاع النغمية، وبثورته ضد التوتر، والاسترخاء، والموضوعة، والأساس، والمهيمن، والدور...؛ تَسَرَّب هذا الإبدال إلى بعض الشعر المعاصر: لا موضوعة؛ ولا مركز جذب، وإنما هناك شذرات مستقلة بنفسها يمكن أن تنالها القهقري، أو العكس، كما يَبَيَّنُ ذلك من خلال تحليل نموذج لمحمد بنيس؛ ويمكن تعميم ذلك التحليل فيما دعوانه بـ (الصُّوَف) أي تلك القصائد التي تخلو من النقط، والفواصل، والأقواس... والروابط النحوية؛ على أن المحلل ملزم بأن يذهب أبعد من الظاهر حتى يَسْتَنْبِط الموضوعة، والدلالة... إذ ليس هناك فوضى للفوضى⁽¹²⁾.

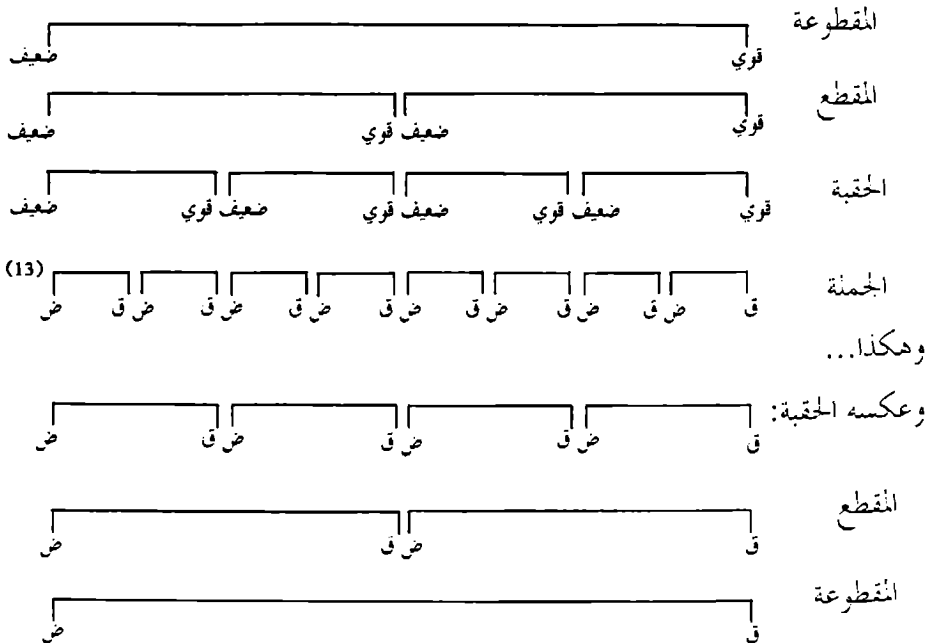
بَرَزَ إلى جانب هذا الإبدال، وتَعَايَشَ معه تيار الموسيقى المعاصرة، منذ المنتصف الثاني من القرن العشرين. ويُدْعَى الموسيقى الإلكترونية الصوتية التي هي مزيج من الموسيقى المجسمة والإلكترونية؛ إنها توليف للمواد الصوتية مهما كانت طبيعتها: زفرقة العصفير، وحفيف الأشجار، وهزيم الرُّعْد، وجلبة القطار، أو من أصوات منتجة آلياً؛ ما يعنينا هو أن هذه المبتدعات الموسيقية لها ما يضاهيها شعرياً؛ فهناك الشعر المجسم الذي يجمع بين العلامات السيميائية، واللغوية؛ وهناك أشعار إلكترونية. وقد مارس بعض الشعراء العرب التَّجْسِيمِيَّة؛ ثم شَغِفَ بِهَا مجموعة من الشعراء المغاربة الذين أنجزت حولهم أبحاث ذات قيمة. وأما الشعر الإلكتروني، فقد لا يكون له مستقبل في عالمنا الذي ما زال مُحْتَاجاً إلى التَّغْيِير باللغة الطبيعية طَوْعاً، أو كَرْهاً.

وإذ تَبَيَّنَ الأصل الموسيقي للشعر، فإننا لا نهدف جعل المقطوعات الشعرية نسخاً من مثيلاتها الموسيقية في جميع المستويات، لأن هذا الصَّنِيع غير موجود، لكننا نبتغي تأكيد ما هو متداول بين النَّاس من أنَّ أهمَّ مكوّناته الموسيقي، ثم نتجاوزه إلى التنقيب عن المضاهاة بين البَيِّنَتَيْن، كما فعلنا في شعر المتنبي، ومحمود درويش، ومحمد بنيس؛ ولغيرنا أن ينجز مثلاً أو أحسن، عَبَرَ تاريخ الموسيقى، والشعر، المديد؛ على أن هناك حقبة معينة صار الشاعر ينسج فيها قصائده على شاكلة المقطوعات الموسيقية، فيستوحي ما يَكْتُبُ من مبادئ

(12) نحرص ما أمكن على استنباط الانتظام من الفوضى لنستطيع بناء فكر منظم ومتنظم يربط المسببات بأسبابها الحقيقية، ويتصرف على هُدًى من التخطيط وتحديد الأهداف.

التناظرية، أو التوافقية، أو الاثنتي عشرية، أو التجسيمية، أو (الإلكترونية) أو التَّقْلِيلِيَّة؛ هكذا يجد القارئ تراكم الشعر على الموسيقى، أو الموسيقى على الشعر، وبؤر جذب، وهيمنة، وتسلسلاً بين شذرات مستقلة، وأصواتاً مُبْعَثَرَة، ومفردات متراكبة متراكمة؛ كلمات بعضها فوق بعض.

وإذ كانت الموسيقى أصلاً، والشعر فرعاً، فإن كثيراً من مفاهيمها يمكن أن يقتبس لتفكيك بنية القصائد بصفة عامة، وبنية النثر والَصَوَاف بصفة خاصة؛ ومنها البنية التجميعية، والبنية الوزنية، والبنية التَمْطِيطِيَّة. تُغْنِي البنية التجميعية استجابة القارئ/ السامع إلى ذروة بنيوية خلال مسافة زمنية محددة في كل مجموعة مجموعة مجزأة متساوية، ثم يتابع التجزيء إلى ما لا يتجزأ، بحسب ثنائية: قوي/ضعيف، ثم يبعد ما هو تزيين، أو ذو أهمية محدودة... إلى أن يبقى على ما هو أكثر أهمية؛ ويمكن تقديم التخطيط الآتي:



(13) نشير إلى أن مفهوم الجملة غير قار. فقد يقتصر إطلاقها على ما هو معروف في النحو، وقد تكون أوسع بكثير من ذلك في الموسيقى؛ وبناءً على هذا تكون الموضوعات شاملة لعدة جُل، أو الجملة محتوية على عدة موضوعات، ويتطلب هذا الاضطراب إعادة النظر في المفاهيم بِتَبَيُّ ترتيب جديد لا يعير كبير اهتمام لأصل المصطلح. وهذا ما سيعثر عليه القارئ فيما بعد.

والوزن قد يكون ثنائياً، أو ثلاثياً، أو رباعياً؛ والزمن القوي يكون دائماً في الأول مهما كان نوع الوزن، ويكون في الأول، والثالث إذا كان رباعياً، كما أن الأخير لا يكون إلا ضعيفاً مهما كان الوزن، وبهذا يكون تأجيلاً، أو توطئة لما بعده في بداية الحقل الموالي.

وتوضيح هذا:

النبضات : 1 2 3 4 1 2 3 4 1 2 3 4

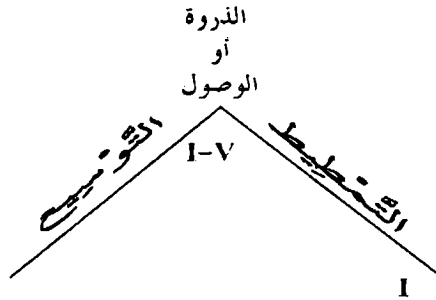
• • • • • • • • • • • •

الوزن الثنائي : • • • • • • • •

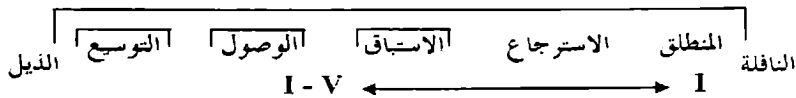
الوزن الثلاثي : • • • • • • • •

الوزن الرباعي : • • • • • • • •

وأما البنية التمطيطية فتمثل الاستجابة الإيقاعية لذروة المنطلق/الحل البنيوي، أو البداية البنيوية، والنهاية البنيوية؛ وحالاته المثلى (I - V - I) أو (V - I)⁽¹⁴⁾، ولا يعني أن تمطيط المنطلق يحصل في استقامة، فهناك التمطيط المتكرر، والمتماثل، والمتماس، أو المنقطع، أو المستبق، أو المسترجع؛ وإذا ما أردنا أن نمثل العملية التمطيطية فإنها تكون كالتخطيط الآتي:



إلا أن الأمر قد يكون أعقد من هذا؛ مثل:



(14) لمعرفة أنواع الإقلاع والمحت، أو الاستفتاح والاختتام، يُراجع فصل (التعبير الإيقاعي) من قسم (نظريات وأنساق).

إلا أن القارئ يمكن أن يسأل عن المعايير التي استُندَ إليها لإنجاز عمليتي التجميع، والاختزال في التمثيط، وفي الوزن، وفي المسافة الزمنية، لِيَتَعَرَّفَ عليها، ويوظفها لحل ما يعترضه من مشاكل في تحليل النص الشعري المعاصر؟! وجواباً عن التساؤل، فإن محلي الموسيقى، وتبعهم بعض اللسانيين، أجهدوا أنفسهم لوضع نوعين من القواعد؛ أحدهما دعي بقواعد التكوين السليم، والثانيهما سُمِّيَ بقواعد تفضيل اختزال على اختزال، أو تقطيع على تقطيع؛ القواعد الأولى هي: المجموعة الواحدة الكاملة، ثم احتواء المجموعة المذكورة على مجموعات صغيرة، ثم تجاور المجموعات؛ والثانية؛ هي تجنب المجموعة التي تحتوي على حدث واحد، وتفضيل تجاور النغمتين الكبيرتين (القرب)، وتفضيل ما يحدث تحويلاً (التغيير)، وتفضيل التناظر بين المكونات، وتفضيل المتوازيات.

قواعد التكوين السليم للوزن؛ هي ارتباط كل بداية بنقرة قوية، تتلوها ضعيفة أو ضعيفتان، وعدم اجتماع نغرتين قويتين، وتساوي المسافة بين النغمات؛ وقواعد التفضيل؛ هي التوازي، والاعتماد على النقرة القوية السابقة، والحدث ذو النقرة القوية، والأحداث المنبورة؛ وأما قواعد التكوين السليم للتميط فهي اختيار حدث ليكون رأساً للتميط، والتنازل التمثيطي، وترباط هذا التنازل؛ وقواعد التفضيل هي اعتبار أهمية المسافة الزمنية، ومراعاة الاتصال في تقطيع المسافة الزمنية، وفي النهاية ذات الأهمية.

وقد تناول محللو الموسيقى، والخطاب، هذه القواعد بالمدارسة، فبنوا بعضها، وأدمجوا في قاعدة واحدة ما جاء متعدداً، وأوضحوا الغامض منها؛ هكذا اقترح بعضهم ما أسماه بقواعد البروز؛ وهي الإخبارية، والتفخيم، والكشافة، والتكرار؛ ووضع قواعد للتقطيع، مثل التوازي، والمماثلة، والاتصالية، والبنية الثنائية، أو الثلاثية، أو الرباعية؛ وبناء على مجهودات اللاحقين يستطيع القارئ أن يتغلب على صعوبات (النظرية التوليدية للموسيقى التوافقية)، فيستفيد منها.

هكذا، بذل محللو الموسيقى، واللسانيات، أوقاتاً كثيرة لصياغة قواعد لتجزئة المقطوعات الموسيقية الشعرية؛ ومع أن كثيراً منها يعتمد على تلقي المستمع، والقارئ، مما يجعلها تتسم بالنسبية، وبالتعدد، وبالتداخل، فإن كثيراً

منها يمكن أن يوظف، أو يستأنس به، في تحليل التناثر، وتفكيك الصّواف. ذلك أن الشعر العربي المعاصر متنوع الأشكال. فقد يسود الصمت/البياض أحياناً، ويهيمن الصوت/السواد أحياناً أخرى، ويكون هناك تساوٍ تارات أخرى؛ وإذا كانت الموسيقى صمتاً/صوتاً من جهة، وبياضاً/سواداً من جهة ثانية، فإنه من المتعين أن يُراعَى المكونان معاً لتحقيق الإيقاع. ما هو مكتوب له إيقاع، وما هو غير مكتوب فيه إيقاع؛ لكن ضبط زمن الإيقاع يقتضي حصره في الفضاء الذي يتحقق فيه، ممّا يُخالف القول الآتي: (الهندسة في الزمان) فيصير (الزمان في الهندسة). توضيحاً لهذا سننظر في السطرين المواليين:

رَأَيْتُ قَصِيدَتِي الْأُولَى
تَطِيرُ بِخَفَّةِ الزَيْتُونِ وَالْحَنَاءِ وَالْخَلْخَالِ

مقاطع المكتوب :	قُصَّار — أَقْصَر — قَصِير — طَوِيل — أَطُول — طُوَال
	cv — cvc — cvcc — cvv — cvvc — cvvv _c
العلامات الموسيقية الصوتية	◌ — ◌ — ◌ — ◌ — ◌ — ◌
أسمائها	ذات الثلاث — ذات السنين — ذات السن — السوداء — البيضاء — المستديرة
العلامات الموسيقية الصمّية :	◌ — ◌ — ◌ — ◌ — ◌ — ◌
أسمائها	البُرْقَة — النَّمْحَة — الوَمْضَة — الطَّرْفَة — اللحظة — الوقفة
مقاطع البياض :	قُصَّار — أَقْصَر — قَصِير — طَوِيل — أَطُول — طُوَال
علاماتها	◌ — ◌ — ◌ — ◌ — ◌ — ◌
المقياس	4 — 2 — 1 — 1/2 — 1/4 — 1/8
القيم	4 — 2 — 1 — 1/2 — 1/4 — 1/8

تطبيقات:

صِيْب

طويل
C V V

م

السوداء

فَ

قصار
C V

م

ذات الثلاث
أسنان

نُ

قصار
C V

م

ذات الثلاثة
أسنان

أَيّ

أقصر
C V C

م

ذات
السنين

رَ

قُصَّار
C V

م

ذات الثلاث
أسنان

$$1 \frac{5}{8} = 1 + \frac{1}{8} + \frac{1}{8} + \frac{1}{4} + \frac{1}{8}$$

لَيّ

طويل
C V V

م

سوداء

أُو

طويل
C C V

م

سوداء

تِلّ

أقصر
C V C

م

ذات
السنين

دَ

قُصَّار
C V

م

ذات الثلاث
أسنان

$$2 \frac{3}{8} = 1 \quad 1 \quad \frac{1}{4} \quad \frac{1}{8}$$

$$\frac{4}{4} = 4 = 2 \frac{3}{8} + 1 \frac{5}{8} \text{ المجموع:}$$

خِفْ

أقصر
C V C

م

ذات
السنين

بَ

قُصَّار
C V

م

ذات الثلاثاء
أسنان

رُ

قُصَّار
C V

م

ذاتُ الثلاث
أسنان

طِبْ

طويل
C V V

م

سوداء





تَ





قُصَّار
C V





م

ذات الثلاث
أسنان

$$1 \frac{5}{8} = \frac{1}{4} + \frac{1}{8} + \frac{1}{8} + 1 + \frac{1}{8}$$

ثُو	زَيّ	تَرّ	فَ
طويل	أَقْصَر	أَقْصَر	قُصَّار
c v v	c v c	c v c	c v
			
سوَدَاء	ذات السَّيْنِ	ذات السَّيْنِ	ذات الثلاث أَسْنَان
$1 \frac{5}{8} = 1$	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{8}$

نَا	حَنْ	وَلّ	نِ
طويل	أَقْصَر	أَقْصَر	قُصَّار
c v v	c v	c v c	c v
			
سوَدَاء	ذات السَّيْنِ	ذات السَّيْنِ	ذات الثلاث أَسْنَان
$1 \frac{5}{8}$	$1 + \frac{1}{4}$	$1 + \frac{1}{4}$	$1 + \frac{1}{8}$


خَالْ	خَلْ	وَلّ	ءِ
أَطْوَل	أَقْصَر	أَقْصَر	قُصَّار
c v v c	c v c	c v c	c v
			
بِيضَاء	ذات السَّيْنِ	ذات السَّيْنِ	ذات الثلاث أَسْنَان
$2 \frac{5}{8} = 2 + \frac{1}{4} + \frac{1}{4} + \frac{1}{8}$	$1 + \frac{1}{4}$	$1 + \frac{1}{4}$	$1 + \frac{1}{8}$

ينتج من هذا أن السطر الأول فيه تفاعلان؛ قيمتهما: $(1 \frac{3}{8}) + (2 \frac{3}{8}) = 4$ ؛ ومعنى هذا أن الوزن رباعي: . لكن ما قيمة البياض؟ يتوقف الجواب عن معرفة عدد أزمنة السطر الثاني؛ وهي: $1 \frac{5}{8} + 1 \frac{5}{8} + 1 \frac{5}{8} + 2 \frac{5}{8} = 7 \frac{4}{8}$ ؛ ومعنى هذا أن الحاصل كما يلي: $7 \frac{4}{8}$ ؛ أي أن عدد الأزمنة المفترض هو ثمانية (8) على قيمة الزمن التي هي أربعة (4). وعلى هذا، فإن البياض، والسواد في السطر الأول مُتَسَاوِيَانِ، وأما السطر الثاني فيبقى للبياض: $\frac{6}{8}$.

وإذا ما أردنا أن نبين البياض/الصوت بالتدوين في السطر الأول، فإننا نقترح ما يلي:

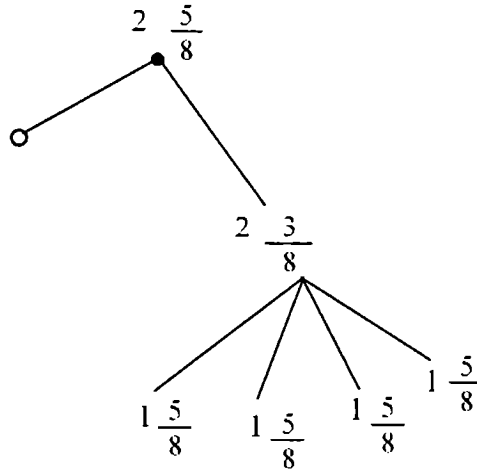
أطول	طويل	قصير	قصير	طوال
				
اللحظة	الطرفة	الومضة	الومضة	الوقفة
2	1	$\frac{1}{2}$	$\frac{1}{2}$	4

وأما السطر الثاني فيكون كالآتي:

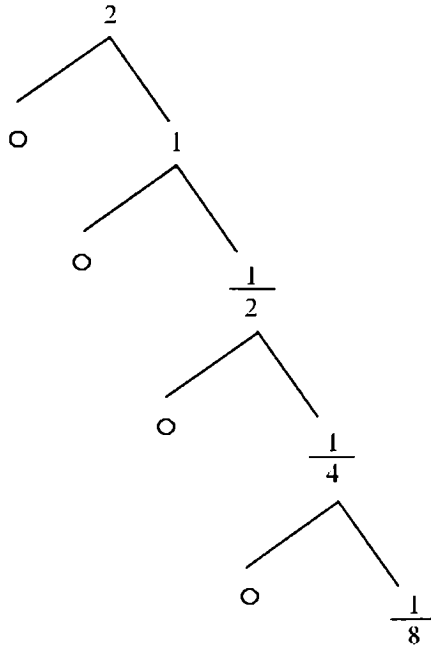
قصير

الومضة
 $\frac{1}{2}$

يتبين من هذا التحليل أن القيم الزمنية لكل مقطع تفرز بين المقاطع بعكس ما تنبئ النظرية النظامية التي لا تفرق بين (C V C) وبين (C V V)؛ فهي تعتبر كلاً منهما طويلاً، في حين أن المقترح الذي نُقدِّمه يجعل عدَدَ أزمنة (C V C): $(\frac{1}{4})$ ، و(C V V): 1.

أن مفهوم التَّراتُّبِية حاسم بحيث يُبَيِّنُ درجات الإيقاع ومراتبه:



هذا على مستوى التفعلة كلها، لكن أجزائها محكومة أيضاً بالتراتب:



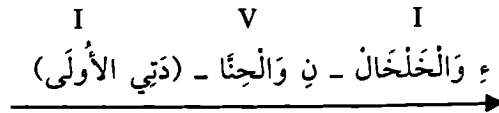
على أن هذا الصنيع يتناقض مع تقرير بعض المحللين للموسيقى: لا تَتَجَاوَرُ نَقْرَتَانِ قَوِيَّتَانِ. وقد تَحَادَّثَا فِيمَا يَلِي: (أو - لي)، و(تَز - زِي)، و(وَل - جِن)،

و(وَل - خَل)؛ إلا أننا نعتقد أن هناك فروقاً زمنية بينهما، إذ من المفروض أن يكون لِكُلِّ صوت مقدار زمني معين في حَالَتِي الإِفْرَادِ، والِتْرَكِيبِ. ويُمكن التأكّد من هذا باستعمال جهاز قياس سرعة تنفيذ الحركات الموسيقية⁽¹⁵⁾. ومعنى هذا أن الثنائية الحادة يجب أن يعاد النّظر فيها، وأن يتبنّى بدلاً منها التدرج، والترتيب، بمراعاة الفروق الزمنية بين الأصوات، وبين الحركات التي هي الفتحة، والكسرة، والضمّة. وهكذا نفترض أن هناك عدم تطابق بين القيم الزمنية الصوتية الخاصة بالحركة، وبالصوت، وبالمقطع، إلا في مثل بعض الحالات مثل هذه:

(قَا - قَا)،	أو (سَا - سَا)،	أو (كَسْ - كَسْ)،	أو (صَرْ - صَرْ).
CVV - CVV	CVV - CVV	CVC - CVC	CVC - CVC

نعم، هناك زيادة أو نقص في الأعداد على القيم الزمنية، لكنّ الممارسات الموسيقية، والنظريات التحليلية للموسيقى، والقوانين الرياضية⁽¹⁶⁾، من حيث تكبير المسافة، أو تَصْغِيرُهَا، ومن حيث التجزئِ غير المتساوي للمسافة الزمنية⁽¹⁷⁾، ومن حيث تحويل المسافة بالزيادة، أو بالتّقصّ⁽¹⁸⁾، تجيز ذلك.

يفيض محللو الموسيقى التوافقية في الحديث عن الانطلاق، والمحط، كما أن البلاغيين والنقاد اهتموا منذ القديم بالمطلع، والمقطع، وبِالافتتاح، والاختتام. وقد يوحى حديثهم عن المقطوعة، أو القصيدة بصفة خاصة، في حين أننا نعالج سطرين فقط؛ على أننا حين نَتَأَمَّلُهُمَا نجدُهما يحتويان على بداية، ومحط⁽¹⁹⁾، أو افتتاح، واختتام. ولعل الأمر هكذا:



إذا بذل علماء الموسيقى مجهودات جمة لوضع علامات، وقيم للصمت،

(15) جهاز قياس سرعة تنفيذ الحركات الموسيقية: (Métronome).

(16) تكبير المسافة أو تصغيرها رياضياً يعبر عنه بـ (Homothétie).

(17) المسافة الزمنية: (Time-Span).

(18) الزيادة (Dièse)؛ النقص (Bémol) ويعبر عنهما معاً بـ (Altération).

(19) البداية: (Beginning)؛ النهاية (Ending-Cadence).

فإن محللي الخطاب بصفة عامة، والشعر بصفة خاصة، ما كادوا يفعلون، وإنما يعتمدون على ما يضعه الكتاب، أو الشعراء، من علامات غير لغوية؛ لذلك، فإنه آن الأوان لبذل جهد يسد هذه الثغرة، حتى يمكن مراعاة الأصوات البشرية التي تعتمد على قدرات فيزيولوجية محدودة تحتاج إلى التوقف للتنفس، ولو لَحِيظَةً. وسنفترض أن موقعه يكون على المقاطع خَلاً الْقُصَار في بعض الحالات. وبناء على هذا، فإن أوقاف السطرين المذكورين تكون كالآتي:

رَأَيْ، ثُ قَصَب، دَتَبِي أَلْ، أَوْ، لَى

تَطِب، رُ بِخَفْ، فَع الز، زَيْ، ثُو، نِ وَالْ، جِنْد، نَأ، ءِ وَالْ، حَلْد، خَالْ.

جَوْهَرُ الموسيقى الإيقاع، وهو لب الشعر أيضاً، لكنه مشروط بالطاقة البشرية، إذ هو مؤسس على التنفس، وعلى دقات القلب؛ وكل تجاوز للقدرة البشرية يجعل الإنسان شبيهاً بالآلة، وبكل ما هو غير شاعرٍ بالأدب. تَجِبُ مُراعاة الإنسان في كل عمل فني لذلك يَتَعَيَّنُ عدم تجاوز خصائصه الجسمية.

4 - المفاهيم المشتركة

تبين لنا مما سبق أن المفاهيم الموسيقية الممزوجة بمفاهيم لغوية تستطيع أن تساعد على تقطيع الصَوَافِ، وعلى ضبط الإيقاع الملفوظ، والصَّامِتْ؛ وبناء على عملية المزج هذه، فإننا سنتناول الخلية⁽²⁰⁾، والنواة⁽²¹⁾، والمكرورة⁽²²⁾، والموضوعة⁽²³⁾، والحقبة⁽²⁴⁾، والجملة⁽²⁵⁾، والمقطوعة⁽²⁶⁾. ويمكن أن تسمى هذه المفاهيم المترحلة؛ وموطنها الأضليُّ هو العلوم الخالصة من فيزياء، وكيمياء، وطب، ثم وضعت رحلها في التحليل الأدبي، والموسيقى.

(20) الخلية: (Cellule).

(21) النواة: (Noyau).

(22) المكرورة: (Motif).

(23) الموضوعة: (Thème).

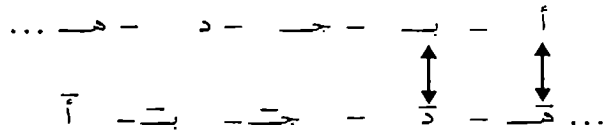
(24) الحقبة: (Période).

(25) الجملة: (Phrase).

(26) المقطوعة: (Pièce).

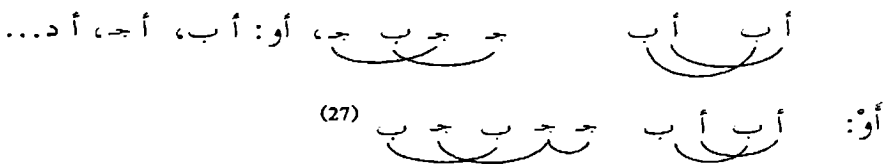
يجد الباحث مداخل للنواة، والخلية، في المعاجم، والموسوعات الطبية، حيث تعرفان بكل دقة؛ النواة هي الجزء المركزي للخلية المتحكم في كل أنشطتها، والخلية العنصر المكوّن لكل ما سيتولّد عنها، وهي تتطور بسرعة، أو ببطء، أو غير متطورة؛ وقد افترض التحليل الأدبي هذه المعاني لاستثمارها في تحليل النص اللغوي؛ هكذا تحدث المهتمون بالخطاب، والأقوال، عن نواة النص، وخليته، وكيفية تطوره، أو انقسامه، أو فوضاه؛ وكما أن الكائنات الحية مختلفة، ف كذلك النصوص اللغوية متنوعة؛ منها الوصفي، ومنها الحوار، ومنها التقريري... من حيث شكل التعبير؛ والعلمي، والشعري، والحكاوي، من حيث المضمون؛ على أن الأنواع مهما اختلف شكلها، ومضمونها، فإن هناك بنية عميقة ذات عناصر تحكم نمو أي نص.

لقد حصرت السيميائيات الفرنسية الباريزية عناصرها في أربعة مكونات علاقية؛ هي التضاد، والتداخل في الإثبات، والتداخل في النفي، والتناقض؛ وقد أبتأ، في مدخل الجزء الثاني (المنهاجية والإشكال) أن الحصر في الأربعة عناصر يضيق ما هو فسيح؛ وقد اقترحنا هناك طرفين متقابلين متناظرين، أو غير متناظرين، يكون لكل واحد منهما مكونات غير محصورة إلا لضرورة منهاجية. ويمكن التمثيل لهذا بـ:



إلا أن الأمر لا يتم بهذه الخطية، وإنما هذا ليس إلا وضعاً مرآوياً من بين احتمالات كثيرة، كالقلب (أ ب ع ب أ)، أو الإبدال (أ ع ب د)، أو التجميع (د ع أ ب إلى غير ذلك مما رأيناه في الموسيقى التناظرية، والتسلسلية.

قد تتكرّر هذه المكوّنات مرة بعد أخرى كالآتي:



فقد أعيد: (أ)، و(ب)، و(ح)؛ ويعبر عن هذه الإعادة في الموسيقى بالمكرورات؛ وهي تدوين لحني، أو إيقاعي، قد يُطوّل، أو يُقصر، أو يُغيّر؛ وهي شكل تزييني أحياناً؛ إلا أن هذه العملية تسمى في ميادين العلوم الخالصة بـ(التشاكل)⁽²⁸⁾؛ يعرف في المعاجم الطبية بأنه أيّ واحد ذو مكونات مختلفة يجمع بينها نمطٌ ذرّيّ واحد (الحديد، والهيدروجين، والأكسجين، لا تختلف إلا بكتلة نواتها)؛ وفي المعاجم الكيميائية هو عناصر كيماوية متطابقة لا تختلف إلا بكتل ذراتها.

افترض هذا المفهوم غريماص وجعله من المكونات العميقة، ثم استثمره في تحليل الخطاب السردية بصفة خاصة، ثم تلقفه تلامذته منه فوسّعوه. ومن يراجع مدخل (التشاكل)، وما كتب حوله، وفيه، يجد أنهم يؤكدون ضمان المفهوم للوحدة بتكرار مُقوّم دلالي صغير طوال سلسلة مركبيّة، مما يؤدي إلى انسجام الخطاب/القول على مستوى التركيب، والدلالة، والأصوات، كما هو الشأن في الخطاب الشعري.

ضمان وحدة الرسالة في السيميائيات هو الموضوع في تحليل الخطاب، والموسيقى؛ وتعرف بأنها «كل فكرة تركيبية (لحنية)، أو إيقاعية دائماً، أو دلالية (تناغمية) ذات خصائص قابلة لأن تُنمى، أو تُنوع»⁽²⁹⁾. والموضوعة قد تكون العنوان، أو البداية، ثم تنفرع إلى موضوعات صغرى في تكرار، وتطور، وخصوصاً في النصوص/المقطوعات التقليدية التي تكون فيها البداية تتوقع النهاية، والنهاية تعود على البداية؛ وأما النصوص الحديثة، والمعاصرة، فكثير منها مبعر، أو متراكم، ولا يدور حول موضوعة معينة.

تنمو الموضوعة وتتطور بالتحويل، والقلب، والإبدال، والعكس، والحذف، والتشتت، والبعثرة؛ ومهما كانت المظاهر التي تتجلى، فإن هناك

(28) التشاكل: (Isotopie) انظر المعاجم الطبية، ومعجم السيميائيات:

A.J. Greimas, J. Courtés, Sémiotique. Dictionnaire Rationné de la théorie du Langage. Hachette Université, Paris, 1979, pp. 197-199.

(29) نص التعريف الموسيقي: F. Escal, op. cit., p. 27.

«كل فكرة لحنية أو إيقاعية أو تناغمية أحياناً ذات خصائص معينة، قابلة لأن تُنمى أو تنوع»؛ وهو تعريف منقول عن: (Science de la musique).

نظاماً وراء الفوضى، مثلما يجد القارئ ذلك في أشعار المتنبي، وأدونيس.. . وموسيقى بتهوفن، وفاغنر. وقد ألمحنا إلى مشابهة بين قصيدة (الأرض) لمحمود درويش، وبين أية سمفونية محكمة التأليف، من حيث إن المفاهيم المذكورة أعلاه أساس التأليف في الميدانين. ولهذا ارتأينا أن مفهوم التناص غير مُوفٍ بغيرُ الوصف والتحليل، فاقترحنا مفهوم (الثَّقَان)⁽³⁰⁾.

عملية «الاستيضاع»⁽³¹⁾ محكومة بالزمن، من حيث إنه مستقيم له بداية، ونهاية، قياساً على ما له بداية، ونهاية، أو من حيث إنه دوري يتجلى في التكرار، والإعادة، أو من حيث إنه لولبي متعرج مُنْحَنٍ ليس له اتجاه مَضْبُوطٌ. ومهما كان نوعه، فإن له محطات تدعى بالحقبة⁽³²⁾ التي هي عبارة عن أحداث مترابطة، أو مسافة زمنية تفصل بين مرحلتين؛ والأهم في هذا كله هو المسافة الزمنية المملوءة بعناصر مترابطة؛ وخواص الفضاء، والزمان. والعناصر، والتوليف لِمَفَاهِيم مجردة تشمل اللغة، والموسيقى، والصيرورة الزمنية، والرياضيات.. .؛ الحقبة، إذن، هي مَجْمَعُ شَيْئَيْنِ أو حَدَثَيْنِ.. . أو موضوعتين؛ وهي نقطة التلاقي بين ما انتهى، وما ابتدأ. وإذ هي أحداث مترابطة في مسافة آمادٍ تكون قصيرة في زمن ضيق، فإنه قد يكون هناك اتجاه نحو الفوضى، لكن مركز الجذب، الذي هو البداية، يَرُدُّ المياها إلى مجاريها، وقد تكون ذات مَدَى طويل مُجْمِلٍ لعدة أحقاب؛ وفي هذه الحالة تدعى تحقيق المدى الطويل⁽³³⁾ في مدرسة الحوليات الفرنسية، وتسمى في التحليل الموسيقي والخطابي بالجملة.

عملية «الاستعظام»⁽³⁴⁾ المتجلية في النواة، وفي الخلية، وفي المكرورة، وفي الموضوعة، وفي الحقبة، وفي الجملة، تمثيل عميق انعكس في بنية سطحية هي المقطوعة التي تشمل النص، والخطاب معاً، وفي الشعر، وفي الموسيقى جميعاً؛ وتبيان هذا:

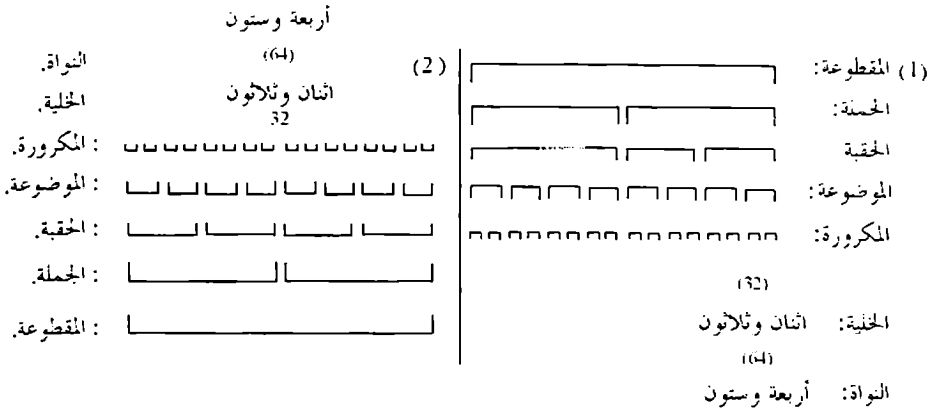
(30) هذا المفهوم من اقتراحنا؛ ويمكن أن يكون نظيره الفرنسي: (inter art).

(31) اجتهد مِتْنًا يَغْنِي: وضع الموضوع (ات).

(32) الحقبة: (Période).

(33) المدى الطويل: (la Longue durée).

(34) وضع الأعظام مُفْرَدٌ عَظَمَ (Grandeur).



5 - المحاكاة

إن هذا المستوى من البُنيّة وصل إليه المبدعون في الموسيقى، وفي الشعر، بالمحاكاة⁽³⁵⁾، والتقليد، والتعلم؛ لذلك، فإن الحديث عن المحاكاة هو كشف عن سر من أسرار الحيوان، والإنسان، في هذا الكون، فلا حياة لهما بدون محاكاة، وتقليد، وتكثيف، ولا إبداع من دون المرور من بوابتيها؛ وآلياتها هي الأنساق الحسية من بصر، وسمع، وذوق، وشم، والأنساق الذهنية من تذكر، وتخيّل، وتعلّل...؛ إلا أن درجات الإدراك تختلف من نوع إلى نوع، ومن نسق إلى نسق؛ الإدراك الإنساني يختلف درجة عن الإحساس الحيواني، والقنوات المؤدية إلى المراكز الآمرة، والمخزنة تختلف، بحسب النسق الإدراكي؛ وهناك مُدركات يشتغل فيها النسق البصري أكثر من النسق الحسي، أو العكس...

تحاكي الحيوانات مُحيطها الثباتي، أو الصخري⁽³⁶⁾ حتى تُموّة لِلنَّجاة بِجِلْدِها، أو للاعتداء على غيرها، وتبدأ محاكاة الولدان مَنْ يحيط بهم، وخصوصاً الآباء، منذ الشهور الأولى، ويُعيدون إنتاج الحركات، والمواقف منذ السنة الثانية، هكذا يحاكي الصغير الكبير، والمغلوب الغالب، والمتفوق من

(35) المحاكاة: (imitation).

(36) - Voir, Jean-François Dortier, Le Dictionnaire des sciences humaines, Delta, Paris, 2004, pp. 232-334.

أكثر منه تفوقاً... إلى غير ذلك من النماذج التي تعتبر مثلى، الممارسة تأثيرها في غيرها بجدارة، واستحقاق، أو بدعاية زائفة؛ وبناءً على هذا، فإن المحاكاة لها دور كبير في تسهيل عملية التعلم، ونقل المعارف، والتجديد، والاختراع؛ ذلك أن المحاكاة تتأسس على تشبيه شيء بشيء، واستعارة شيء إلى شيء، ووصل شيء بشيء، والاتفاق على ربط شيء بشيء؛ سواء أكان التشبيه، والاستعارة، والكناية، والرمز، والأمثلة، لها علاقة ما بشيء ما، أم كانت تلك العلاقة متوهمة.

الحديث عن المحاكاة ودورها في الحياة الحيوانية والبشرية ذو شجون خَصَصَتْهُ المؤلفات، والأبحاث، والمقالات، والمعاجم، بعناية فائقة؛ فهي من المفاهيم التي صارت أعم من النظريات؛ إذ نجد الباحثين في الأساطير، وفي الدين، وفي الفلسفة، وفي الفنون، مثل التشكيل، والنحت، والشعر، يتخذونها مركزاً يُدِيرُونَ عليها تَوْصِيفَاتِهِمْ، وتحليلاتهم، بحسب تصورات كل باحث منهم، ومعتقداته، ومناهجه، منذ آراء أفلاطون المثالية إلى الحسائيين الجدد بنزعاتهم المختلفة، ومن الكمالين الذين يريدون أن يجعلوها عاكسة للذات، والأفعال، والصفات الإلهية، إلى أصحاب الخريشات على الصفحات، أو على الجدران... ومن قصائد المتنبي إلى حروف مُبَعَّرَةٌ على أديم ورقة.

وإذ المجال فسيح، فإنه علينا أن نتبنى منهجية مثلية.

لعل أهم مثل يضرب في الثقافة العربية الإسلامية يكمن فيما كتبه بعض فلاسفة الإسلام، مثل ابن سينا؛ إلا أن شرطنا في التأليف يفرض علينا أن نعتمد على آراء متفلسف بلاغي أسلوب. ذلك هو حازم القرطاجني⁽³⁷⁾. وظف حازم معلوماته الحكمية، والرياضية، والمنطقية، والبلاغية، للحديث عن المحاكاة وجهته الحكمة لأن يأخذ بحقيقة المطابقة (ما في الأذهان يطابق ما في الأعيان)، وبكمال الوجود المترتب الأجزاء المتناسبة (مَنْ لَمْ يَعْرِفِ النَّسَبَ لَمْ يَعْرِفِ اللَّهَ)، وبالنظر إلى الاستحالة، والنقصان، والاختلاط، والتنافر. وبهذا كانت المفارقة المؤسسة التي انبثق عنها التفكير بالمقابل الذي يتجلى في الماوريات، وفي

(37) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، 1980، ص. 19، 21، 23، 30، 74، 89، (91 - 129).

التناسب الطبيعي، والعددي، والهندسي، والمنطقي؛ وهو يتقوم من طرفين متناظرين مُتَحَادِيَيْنِ، أو بينهما وسط، أو أوساط لا حصر لها؛ فإذا كان التحاذي فتلك الاثنينيّة، وإلا فإن هناك الثلاثية أو...؛ هكذا تحدث حازم عن الصدق/الكذب؛ التناسب/التنافر؛ التحسين/التقبيح؛ الحسن/القبح؛ مجرد الخيال وبُحث الفكر/ما هو زائد على الخيال، وبحث الفكر؛ الإجمال/التفصيل...؛ إلا أن أغلب هذه الاثنينيّات ليست إلا مُجَرَّدَ طرفين متقابلين بينهما وسط، أو أوساط..

لقد استطاع حازم أن يتعامل مع المفارقة بحصافة، من حيث إنه استطاع أن يبقى ضمن رؤيا المطابقة، والهوية، والمقولات الأرسطية التي منها الجنس، والنوع، والكيف، والوضع، من جهة أولى، وأن يعتبر مكونات الشعر التخيلية التي قد توحى بالكذب، وقد تهتم بالقبح، وقد تُثَبِّتِي على الوهم من جهة ثانية. ذلك أن الشعر محاكاة للموجود، وللمفروض، وللمُخسّوس، وللمُعقُول، وللحقيقة، وللکذب، وللحسن، وللقبح...؛ لكن لا تناقض. ذلك أن الله خالق كل شيء، وهو على كل شيء قدير؛ هذه هي الرؤيا العميقة التي هَيَمَت في أغلب عهود الثقافة العربية الإسلامية التي يكوّن الشعر أهم دَعامتها.

تلك رُؤَى العصور القديمة، والوسيط، والملخصة في مواقف حازم من المحاكاة إلا أن العهود الحديثة، والمعاصرة، عرفت اتصلاً متشعباً متعدد القنوات بين الثقافات؛ لهذا، فإن موقف الإنسان العربي من ثقافة غيره، وكيفية تعامله معها، وقبولها، أو رفضها، أصبح شديد التعقيد، تبعاً لرؤى المتلقين، وظروفهم الخاصة، والعامّة. لذلك اقترحنا مفاهيم متعددة بعيدة عن الأحكام الاختزالية الجائرة؛ وهذه المفاهيم هي القولية، والتمثل، والتكيف، والتحضّن، والإبعاد، والتأغرب⁽³⁸⁾؛ نعني بـ «القولية» أن هناك فطريات بشرية كونية تجعل تصورات ثقافية متطابقة مشتركة بين جميع الأمم، مثل الضروريات، والحاجيات الطبيعية التي هي أساس المحافظة على الحياة... والفكرية مثل المحاكاة، والمقايسة، والتشبيه؛ والتمثل يعني ما يكون لدى المرء من مخزون معرفي من جهة، لكن الحياة تغمره بأوضاع جديدة يحترق في كيفية التغلب على معضلاتها

(38) فصلًا القول في هذه المفاهيم في كتاب مشكاة المفاهيم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، 2000، وخصوصاً فصل (التنظير بالخيال).

من جهة ثانية؛ وفي هذه الحال فإنه يلجأ إلى الآليات الفكرية المذكورة لفهم الجديد بخصائص القديم؛ والتكليف يدل على عكس ما سبق بحيث تصير الثقافة الوافدة أضلاً والثقافة الوطنية فرعاً، فتعدل بعض مكوناتها، أو تغير، أو تزال، حتى تصير ملائمة لِلْمُسْتَحْدَثَاتِ وَالْمُسْتَجْدَاتِ؛ وتستخدم آلية التحصُّن من الثقافة «الدَّخِيلَة» حينما يكون ضررها أكثر من نفعها في مَنَاطِط الحياة المختلفة، ممَّا يؤدي إلى الإخلال بنواميس العمران، فتبعد إبعاداً، حتى لا يَخُونُ المثقف الواعي مَسْئُولِيَّتَهُ، الرائد لأهله؛ على أن هناك من ينخرط انخراطاً في ثقافة غيره، فيكون من الصَّابِثِينَ الَّذِينَ يُبَدِّلُونَ بِالْإِسْتِشْرَاقِ الْإِسْتِغْرَابَ، وبِالْأَصِيلِ النَّافِعَ الدَّخِيلَ الضَّارَّ.

إن هذا التعقيد على مستوى الافتراض من ثقافات غيرنا يُوجِبُهُ الْبَاحِثُ على مستوى التحليل. ذلك أن هناك أجناساً تعبيرية صارت متداخلة متقاطعة؛ مثل الشعر، والرسم، والتشكيل، والخُرُوبَاتِ، وَالْعَلَامَاتِ السِّمِّيَّاتِ. ويقتضي هذا الوضع من الباحث أن يجدد في المفاهيم. ذلك أن (التناصر) صار غير إجرائي، وكذلك (النُّصْنَصَة)، لذلك اقترحنا (التَّفَانَّ). والداعي إلى هذا هو أن الرسم لا يصح تحليله بمفاهيم لسانية خالصة، ولا النص الشعري بمصطلحات التشكيل، لأن آليات الإدراك مختلفة، من حيث إن هناك ما يُدْرِكُ بالنسق البصري، وهناك ما يُحَسُّ بالنسق السمعي. . .؛ وهناك ما يتعرف عليه بهما معاً. وقد تعرضنا إلى هذا في فصل (المبادئ المعرفية)؛ إلا أن الباحث يمكن أن يصوغ مبادئ ما وراثية تتعالى عن تقسيم العمل في الْبَاحَاتِ، والمجزوءات الدماغية/الذهنية، مثل مفهوم الانتظام، ومفهوم الرُّكِيْزَة القشرية الأساسية. وقد نبهنا إلى هذا في فصل (المبادئ التنظيمية)، وفصل (النظرية الموحدة).

II — الْمَثْن

حَرَضْنَا فِي بَحْثِنَا أَنْ نَقْرَحَ مَبَادِيَّ مَا وَرَائِيَّة، وَإِنْسَانِيَّة، وَعَيْنِيَّة، قَصْدٌ وَصَفُ الْكُونِ، وَتَفْسِيرُهُ، وَرِصْدُ السَّلُوكِ الْبَشَرِيِّ، وَتَأْوِيلُهُ، وَتَشْخِصُ حَالَةٍ مَعِينَةٍ فِي سِيَاقٍ تَارِيخِيٍّ مُحَدَّدٍ. وَسَنُعْنَى فِي هَذِهِ الْفَقْرَةِ بِحَالَةِ الشَّعْرِ الَّذِي سَيَكُونُ مَتْنًا لَنَا، مَعَ مَا قَدْ يَثِيرُهُ اخْتِيَارُ الْمَثْنِ مِنْ اعْتِرَاضَاتٍ؛ وَهُوَ عَيِّنَاتٌ مِنْ شَعْرِ الْمَهْدِيِّ أَخْرِيفَ، وَحَسَنَ نَجْمِي، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بُوْعَلِي، وَرَشِيدَ الْمُؤْمِنِي، وَأَدُونِيْسَ،

ودرويش، وبنيس... ولو اتسع المجال لوجد كل شاعر مكانه في هذا المؤلف، لكن ما يشفع لنا هو الدفاع عن قضيتهم العادلة⁽³⁹⁾.

تمتد العينات على مدى يزيد على أربعين سنة، وهذا الامتداد الزمني يطرح مسألة التحقيق التي هي موضوع سِجالٍ لِمَا تُثيرُهُ من عديد المشاكل؛ منها: هل يصح مقايضة تحقيق شعرنا على ما هو رائج في الميدان عند الباحثين الغربيين؟ مَا مُسْتَنَدُ التحقيق؟ ما المفاهيم المستعملة فيه؟ من المعروف أن هناك بعض الاختلاف في التحقيق لدى الغربيين أنفسهم؛ إلا أن الشائع منه هو العصور القديمة، والوسيطه إلى القرن السابع عشر، وما بعد السابع عشر إلى القرن العشرين، ومن القرن العشرين إلى يومنا هذا. فهل يصح هذا التحقيق للثقافة العربية الإسلامية؟ لعل ما هو ملائم لتطوير التاريخ العربي هو التحقيق بالعهد القديم، والوسيطه، التي هي مستمرة، ومهيمنة على الأذهان، والرؤى، إذ لم نمر بأحقاب الإصلاح، والتنوير، والصُّنَاعَة؛ وهذه الصيرورة التاريخية مترابطة الحلقات أسلم بعضها إلى بعض، فشملت المجتمع، والعلوم، والدين، والاقتصاد، والسياسة، والثقافة؛ وإذا تساهلنا، فقد تكون هناك حقبتان؛ إحداها ما ذكر إلى آخر القرن التاسع عشر، وثانيتها مُستمرّةٌ ممّا ذكر إل يومنا هذا، مع الإقرار بأن اتصالنا بثقافة غيرنا شبيهة بِتَغَبَّاتٍ طائر، ومُقَابَسَاتٍ، لا تلبث أن تصبح اعتقاداً راسخاً رُسُوخَ الآيات القرآنية، والإنجيلية، مما يجعلها من قبيل الظلام لا من طليعة التنوير.

يكون مستند التحقيق الأحداث الكبرى سواء أكانت سياسية، أم علمية، أم معرفية، أم أدبية؛ فإذا كانت سياسية، فذلك العصر السياسي، وإذا كانت علمية، فذلك الإبْدال⁽⁴⁰⁾، كما بين ذلك طوماس كون، وإذا كانت في التصورات الفلسفية المعرفية، فذلك الإبْستيمي⁽⁴¹⁾، كما هو مقترح ميشيل فوكو، وإذا كانت في الأدب، فتلك المُنْعَطَفَات الكبرى، كما هي لدى مدرسة التلقي⁽⁴²⁾ الألمانية،

(39) ومع ذلك، فإننا سننجز بعد هذا العمل دراسات مفصلة على مَتَنِ أوسع.

(40) الإبْدال، أو الأنموذج (Paradigme).

(41) يمكن ترجمة الإبْستيمي (Epistémè) بـ (الأغْرُوفَة) على صيغة أطروحة، وأرجوحة...

(42) نظرية التلقي: La Théorie de la réception أو (Réception Théory) ذات منشأ ألماني، ثم انتشرت في العالم، ومنه العالم العربي، فترجم بعض المهتمين نصوصاً متعلقة بها، وعقدوا ندوات حولها.

وخصوصاً ياووس؛ وقد اجتهدت مدرسة الحوليات⁽⁴³⁾ الفرنسية في أن سمت المسافة الزمنية الطويلة، بين حدث كبير وآخر مثله، التحقيب بـ (الآماد البعيدة) ودعت ما كانت قصيرة بينهما بـ (الآماد⁽⁴⁴⁾ الضيقة)؛ والأبحاث الجادة المجتهدة المنظرة تعتمد تحقيب المسافات الزمنية الفسيحة.

في ضوء هذا، فإن ما يقترح من تحقيقات لدى بعض الشعراء، وبعض النقاد، في العالم العربي، ينبغي أن لا يؤخذ مأخذ الجد. فكيف يعقل أن يكون لسنوات السبعين، أو الثمانين، أو التسعين... أو العشرة بعد الألفين، شعراؤها الممتازون عن غيرهم في كل عشر عشر؛ فإذا ما صح هذا، فإن شعر أدونيس في سنوات السبعين هو غير شعره في سنوات التسعين...؛ وقد يتجرأ من يرغب في التمايز أن يجعل لكل أسبوع، أو شهر... أو سنة شعراءها! إن هذا الموقف ناتج عن عدم التمييز بين البنية السطحية⁽⁴⁵⁾، والبنية العميقة⁽⁴⁶⁾، تجيز الأولى أن يكون هناك اختلاف بين قصائد الشاعر الواحد، بل بين صيغ القصيدة الواحدة إذا كتبت عدة مرات؛ وأما الثانية، فلا تكون فيها قطائع أو إستيميات، أو إبدالات، أو منعطفات، إلا في حالات قصوى نادرة، وإنما الشائع هو الاتصال⁽⁴⁷⁾، لا الانفصال⁽⁴⁸⁾، بين النظريات، والمذاهب، والحقب، وكل ما في الكون، واستيعاب الجديد للقديم واجتيافه؛ وعليه، فلا قطيعة مطلقة عند الباحثين الجادين إلا من كان يعتنق النسبانية⁽⁴⁹⁾ المتطرفة، كما أنه لا جمود في الأفكار، والموضوعات، والإبداع، إلا من كان يعتقد في الجوهرانيات⁽⁵⁰⁾.

قد يعترض معترض فيقول: إن ما ندعو إليه هو السير بغير عَصَا في بَحْرِ لُجِّي، وبغير بَوْصَلَة توجه نحو الهدف المنشود، وهو خبط عشواء في قَيَافٍ بدون

(43) الحوليات (Les Annales)؛ وهي مجلة تهتم بالتاريخ الشامل. وقد أسسها المدافعون عن هذه الوجهة من البحث.

(44) الآماد الضيقة، أو الحقب القصيرة هي (La Courte durée).

(45) البنية السطحية: (La Structure superficielle).

(46) البنية العميقة: (La structure profonde).

(47) الاتصال: (Continuité).

(48) الانفصال: (Coupure-Discontinuité).

(49) النسبانية: (Le Relativisme).

(50) الجوهرانية: (L'Essentialisme).

دليل خَرَيْب! نُؤْمِنُ على قوله لَوْ أَنَّنَا نُنْكَرُ التحقيب على الأدب العربي الحديث جملة، وتفصيلاً، لكننا نسعى إلى تَحْقِيبِ يَجْرِي في مَجَارِي العادات الإبداعية الإنسانية؛ ولعلَّ ما يَتَبَيَّنُ هُوَ تجزئ الشعر العربي الحديث والمعاصر إلى أمدين بعيدين؛ أولهما أمد التفعلة التي صيغ فيها الشعر العمودي، وغيره من الأنواع الأخرى، كالמושحات، والأجزاء، والعامَّيات المختلفة؛ وثانيهما حقبة (الشعرية)، و(النَّثِيرَة)، و(الصُّوْف)؛ على أن هذه القسمة الكبرى لا تعني النقاء المطلق؛ إذ هناك بعض الشعراء المعاصرين ينتقلون من سَجَلٍ إلى سَجَلٍ في الديوان الواحد، بل في القصيدة المفردة، كما أنها لا تعني القطيعة المطلقة في الرؤيا، والمضمون.

ما يجعل الاتصال بين كل أنواع الشعر وأشكاله مستمراً هو استعمال اللغة الطبيعية التي تعكس تصوُّراً معيناً لانتظام الكون يتجلَّى في المعارف، وفي التشبيهات، والاستعارات، والكنائيات. وقد تحدثنا عن هذا في فصل (المبادئ التنظيمية)، وفلسفة انتظام الوجود العيني في فضاءات معينة، وأزمة خاصة يعيش فيها أناس من لحم، ودم بَوْتَامٍ أحياناً، وتَدَافُعٍ أحياناً أخرى، وفلسفة انتظام المعنى التي تفلسف الجسد وتولد منه الدلالات، في إطار، وإبدال البدن الذي شاع في السنوات الأخيرة، وتتجاوز فيه وظائف الأعضاء، ومنافعها. هكذا تصير العين تَمْشِي، والأذن تُبْصِرُ. بحسب مبدأ (كل شيء يشبه كل شيء بجهة من الجهات). إن الشاعر المعاصر لا يحدث القطيعة الجذرية ما دام أسير الاستعمال لُغَةً طبيعية صارت أكثر تعابيرها، وتصوُّراتها من قبيل الأساطير، والفكر اللاعقلاني. فهل في مستطاعه أن يبتدع لغة ذات دلالات جديدة؟! لقد فعل ذلك الموسيقيون في خلقهم موسيقى رقمية ذات أصوات جديدة!

خاتمة

توخينا من هذا المدخل تقديم خلاصات مركزة حول ما دعوانه بـ (الآلة) التي عَيَّنَّا بِهَا كل مكونات النظرية، وعناصرها، حتى نُسَهِّلَ على القارئ ربط التنظير بالتطبيق فيما سيمر به في هذا الجزء من دون الرجوع إلى الجزأين السابقين؛ لهذا ذكرناه بالمبادئ الحركية، والمعرفية، والتوليفية، والتنظيمية، وبالعروة الوثقى التي لا انفصام لها بين الموسيقى/الشعر، وبمبادئ تفكيك

المقطوعات/ القصائد، مع تقديم أمثلة توضيحية، ومع تنبيهه إلى مواطن المفاهيم، وتَرْخُلِهَا من مجال إلى مجال.

على أننا لم نكتف بتقديم الآلة الصورية، بما تحتويه من افتراضات، وتمحيصات، وتحليلات، لكننا تَجَاوَزْنَاهُ إلى محاولة الكشف عن سر تقدم البشرية. ذلك هو المحاكاة في صيرورتها، وأدوارها، وفي المواقف منها في العصور الوسيطة، والحديثة، والمعاصرة، ممثلين بحازم القرطاجني، وبإنتاج بعض الشعراء المعاصرين، وبقوة الأشياء؛ إنَّ هذا المفهوم يؤدي إلى طرح مسألة المتن والتحقيب، والاتصال، والانفصال في الممارسات الإنسانية. وقد تبين لنا، بعد التأمل، أنَّ لا قطيعة في الإبداع الشعري/ الموسيقي ما دام يستعمل اللغة الطبيعية، وما بَرَحَ يُوظف الآلات المصطنعة، والأصوات المعروفة؛ على أن بعض الموسيقيين المعاصرين اقترحوا أصواتاً رقمية حتى يحدثوا القطيعة المنشودة، في حين أن الشعراء لا يزالون خاضعين لمضامين اللغة! على الرغم من أنهم وظفوا وسائل أخرى مثل فضاء الصفحة، والبياض، والصمت، وتحطيم الجملة النحوية.

القسم الأول

الأنغام

الفصل الأول

المحبرة والرَّحبة

تمهيد

تَبَيَّنَ لَنَا فِي آخِرِ فِقْرَةٍ مِنَ الْمَدْخَلِ أَنَّ الشَّاعِرَ الْعَرَبِيَّ الْمُعَاَصِرَ يَتَصَرَّفُ فِي مَتَّاحِ ثِقَافِي مُتَعَدِّدِ الْأَمَكْنَةِ وَالْأَزْمَنَةِ وَالْمَشَارِبِ؛ فَهُوَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَرَاثٌ عَرِيقٌ، وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى قَضَايَا وَجُودِيَّةٍ وَإِنْسَانِيَّةٍ تَنَاولَهَا فَلَاسِفَةٌ، وَشُعْرَاءٌ، طَوَالَ كُلِّ الْأَزْمَنَةِ؛ وَمَنْ بَيْنَهَا الْإِحْسَاسَ بِعَدَمِ الْجَدْوَى مِنْ كُلِّ مَا فِي هَذَا الْكَوْنِ، وَبِالْغُرْبَةِ فِي هَذَا الْعَالَمِ السَّيِّئِي الْعَبَثِيِّ الَّذِي يُوْدِّي إِلَى الْجَنُونِ. وَلَعَلَّ خَيْرَ مُعَبِّرٍ عَنْ هَذِهِ الْقَضَايَا الْمَذَاهِبُ الرُّومَانِيَّةُ، وَمَا تَلَاهَا مِنْ دَادِيَّةٍ، وَسُورِيَالِيَّةٍ، وَلَاعِقْلَانِيَّةٍ. وَقَدْ تَوَاتَرَتْ بَعْضُ الْمَقُولَاتِ الْمَرْوِيَّةِ عَنْ شُعْرَاءٍ، وَفَلَاسِفَةٍ حَتَّى صَارَتْ كَأَنَّهَا دُسْتُورُ شُعْرَاءِ الْحَدَاثَةِ، وَمَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ.

انْتَقَلَتْ هَذِهِ الْمَوَاقِفُ مِنَ الْوُجُودِ، وَمِنْ الْحَيَاةِ، وَمِنْ الشَّعْرِ، إِلَى الْمُبْدَعِينَ الْعَرَبِ، فَبَدَأُوا يَتَحَدَّثُونَ عَنْ عَمَلِيَّةِ الْإِبْدَاعِ، وَأَحْوَالِهَا، وَعَنْ مَاهِيَّةِ الْكَيْثُونَةِ، وَالْعَدَمِ، وَعَنْ دَلَالَةِ الصَّوْتِ، وَالصَّمْتِ؛ وَقَدْ جَسَدُوا أَفْكَارَهُمْ هَذِهِ فِي سَوَادِ الصَّفْحَةِ، وَبِيَاضِهَا، فَبَغِثُوا فِيهَا الْكَلِمَاتِ، وَالْحُرُوفَ، وَالْأَصْوَاتِ، أَوْ رَاكَمُوا كَلِمَاتَ بَعْضِهَا فَوْقَ بَعْضٍ، أَوْ رَسَمُوا عَلَامَاتٍ غَيْرَ لُغَوِيَّةٍ عَلَيْهَا.

لَمْ يَبْقَ الشُّعْرَاءُ الْمَغَارِبَةُ غَيْرَ مَكْتَرِثِينَ بِهَذِهِ الْقَضَايَا، لَكِنْ انْخَرَطَ بَعْضُهُمْ فِي إِثَارَتِهَا، وَفِي تَوْظِيفِهَا بِشَعْرِهِ. وَمِنْ بَيْنِهِمُ الْمَهْدِيُّ أَخْرِيفُ فِي دِيْوَانِ «بَيْنَ الْحَبْرِ وَبَيْنِي»، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بُوْعَلِي فِي دِيْوَانِ «أَعْدَنِي... إِلَى رَجَمِ الْمُحْبَرَةِ»، وَرَشِيدُ الْمُؤْمِنِي فِي دِيْوَانِ «هَكَذَا سُدِّي»؛ وَنَسْتَخْلَصُ مِنْ هَذِهِ الدَّوَاوِينِ ثَلَاثَ مَوْضُوعَاتٍ «أَوَّلَاهَا مَوْضُوعَةُ الْحَبْرِ، وَثَانِيَتُهَا مَوْضُوعَةُ الْمُحْبَرَةِ، وَثَالِثُهَا مَوْضُوعَةُ

الرَّحْبَة، ثم سنرى كيفيات تجليتها، والتعبير عنها؛ أي التعرف على شعر التَّكْوِين، ولحن الوجود.

I - شعر التَّكْوِين

1 - قضايا

يطرح ديوان «بين الحبر وبينني» عدّة قضايا شغلت الشعراء والنقاد منذ مدة طويلة، لكن ازداد الاهتمام بها في المُتَنَصِّف الثاني من القرن الماضي حينما صار يعتبر الوجود العام علامات؛ هكذا اهتم النقاد والشعراء بمقادير البياض، والسود، والصمت، والصوت، وبالأشكال للحروف، وبالأوضاع، وبالالاتجاهات.

أ - سجن الحبر

إن دلالة المكتوب الشعري ليست منحصرة فيما هو صوت مسموع، أو سواد مُتَجَلٍّ في علامة صوت/حرف، أو نقطة، أو فاصلة...؛ لكنها موجودة في الصمت بأنواعه، وفي البياض بمقاديره أيضاً؛ لهذا، فإن أهل الموسيقى لم يكونوا يعبثون حينما جعلوا الصوت، والصمت قسيمين، في البيئة اللحنية الإيقاعية، ولم يكن الفلاسفة كذلك يُزْجَوْنَ أوقات الفراغ حينما نظروا إلى البياض/السود، والصَّمت/الصوت، كدلالة على العدم، والوجود.

مسألة دلالة الصمت/الصوت، والبياض/السود، امتدادٌ لمعضلة التواصل باللغة وبغير اللغة. ذلك أن الجنس البشري استعمل الإشارات، والحركات، والرسوم، والأصوات، والأوضاع، والأحوال، قبل اللغة؛ وعليه، فإن اللغة، وإن كانت وسيلة راقية، فإنها ليست إلا واحدة من بين بدائل متعددة، بل إنها تعجز عن التعبير في مقامات كثيرة، كما نبه إلى ذلك، منذ أحقاب ذوات عدد، بعضُ الفلاسفة، والمتصوفة، والشعراء. موقف المحدثين، والمعاصرين من عجز اللغة المنظوقة، أو المقيدة بالحبر، ليس جديداً، لكنه عود على بدءٍ، في ظروف غير الظروف⁽¹⁾.

(1) انظر القسم الثاني (الأنساق) من الجزء الثاني، وخصوصاً (نَسَقُ الدَّلَالَات) و(النسق الموحد).

ب - انسلاخ الشخصية

يطرح ديوان «بَيْنَ الْجَبْرِ وَبَيْنِي» مسألة لحظة الإبداع، وهي ليست جديدة على التأملات الإنسانية التي حاولت أن توجد تأويلات مقبولة لأحوال بعض الأناس المتميزين، مثل الأنبياء والرسل والشعراء؛ ويمكن تلخيصها في وجهتي نظر؛ إحداهما تدَّعي أنهم مجنونون أو مسحورون⁽²⁾ . . .؛ وثانيتهما ترى أنهم مُنْسَلِخُونَ؛ ومعنى «الانسلاخ» أن الإنسان العادي يصير في لحظة الإبداع «مَلَكًا» يستطيع أن يأتي بما لَمْ يقدر عليه من لَمْ تَغْتَرِه تلك الحال⁽³⁾ . . .؛ وإذا كان هذا التأويل مقبولا ضمن رؤيا انتظام الكون، وتناغمه، فإنه قد تعترضه صعوبات بالتصورات المعاصرة، مثل علم النفس، وعلم التحليل النفسي، وعلم الأمراض العقلية؛ وخروجاً من هذا الإحراج، اقترح مفهوم (موت المؤلف)؛ أي أن النظر يجب أن يركز على النص من حيث هو⁽⁴⁾. فقد يكون هذياناً، وهشّة، وأحلاماً، وكوابيس . . . وتُبْوَآتٍ؛ إلّا أنَّ مبدعه، في حياته الواقعية، ماهر حاذق مفاوض مُسَاوِم⁽⁵⁾. وَيُسْتَخْلَصُ من هذا أن هناك ثلاثة أركان أساسية تقام عليها بنية النص الشعري؛ أولها الإنسان العادي الخائض في معترك الحياة الدنيا، وثانيها الإنسان في حال الإبداع؛ وثالثها النصّ الشعري بهويته الخاصة.

يرصد الباحث هذه الرؤيا الشمولية من خلال الحديث عن الإبداع، وعوامله، وآثاره في قضاء - زمان، وعن سلطة النص التي تتحكم في شخصيتي الشاعر الشعرية، والعادية⁽⁶⁾. هكذا يبدأ الشاعر كلامه بالحديث عن (هذا المقعد) الذي يجلس عليه تَهَيَّئاً للكتابة فتتداعى عليه الأفكار، والأحلام، والأوهام، فيصير شخصاً آخر تواجهه أوراق بيضاء تعبر عن عدم تَلْتَمِسُ منه أن يهبها شيئاً من الوجود تارة، وتتحدها أن يزودها ببعض الحياة إذا كان من أهل الخوارق حقاً، فينتفض، ثم يحاول أن يصير منهم:

(2) كما سجل ذلك القرآن الكريم.

(3) انظر القسم الأول (المبادئ) من الجزء الأول، وفصل (المبادئ المنظمة). ثمة رأي ابن خلدون وتعليه.

(4) هذا هو رأي البُنْتَوِيْن.

(5) كل هذه الآراء تبقى من قبيل التأملات والافتراضات، ذلك أن حل مثل هذا الإشكال يتوقف على ما نَتَقِيهِ إليه علوم الدماغ والذهن: علم الأعصاب، وعلم وظائف الأعضاء . . .

(6) تراجع: المهدي أخريف، بين الحبر وبينني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، 2006.

أوراقي دائماً بَيَّضَاءَ
يَبْدُو أَنِّي آخَرُ بِالْفِعْلِ
أَمَامَ الصَّفْحَةِ⁽⁷⁾.

هكذا صار ذاتاً مجذوبةً مجنونة حَمَقَاءَ حالمة مُزْدَوِجَة، وأضحى الفضاء - الزمان شيئاً آخر، وأصبح الشعر مخالفاً لتقاليده...؛ في حالات الجنون، والانسلاخ، لا يبقى أي شيء له دلالة قارة معقولة، إنما يدل على أشياء متعددة حَتَّى يَبِيتُ لَا يَدُلُّ عَلَى أَي شَيْءٍ: الأوراق غير الأوراق، والحبر غير الحبر، والشاعر غيره والكتابة غيرها...؛ إنه اللَّاتَحْدِيدُ وَاللَّائِقِينَ وَاللَّأَدْرِيَّةُ:

فَيَا مُتَنَصِّفَ اللَّيْلِ
اغْذُرْنِي

فَأَنَا لَسْتُ إِيَّاكَ
أَنَا لَسْتُ أَنَايَ⁽⁸⁾

كل شيء مختلط في عالم عمائي سَدِيمِي تُهَيِّمُنُ اللَّأَجْدَوِي فِيهِ، وَيَسُودُهُ التَّشَاؤُمُ. يريد أن يمحو هذا المقعد أمامه، ويمحو ما كَتَبَتْ يَدَاهُ، ويمزق الأَوْرَاقَ فلا تبقى منها إِلَّا حُبَيِّبَاتٍ، لأنه لم ينفعه تَهَجُّدُهُ، ولا مكابِدَتُهُ، وإنما ما فاز به هو ازدواج الشخصية؛ هذه هي الموضوعات الأساسية: عجز اللغة، وقصور الكتابة الشعرية، وعدم جدواها؛ وهي ما تَدُورُ عَلَيْهِ قصائد الديوان. لهذا، فإن أشعاره تَتَنَاصُّ، وَتَتَشَارَحُ⁽⁹⁾ دَاخِلِيًّا، وَذَاتِيًّا.

يجرد من نفسه (من صفحة لأخرى)⁽¹⁰⁾ شخصاً آخر فيتحدَّثُ عن غلبة الصمت على الصوت، وسيطرة العدم على الوجود الحقيقي؛ وإذا كان هناك من وجود فليس إلا مظاهر مزيَّفة مُعَلَّبة في قَوَافٍ، وليست جواهر أصيلة تعكس الأبعاد الإنسانية؛ إن العدم الشعري، أو الوجود الحقيقي، هو ما ليس شعراً؛ ذلك أن

(7) انظر المرجع المذكور فويقه، ص. 5-8.

(8) المرجع نفسه، ص. 8.

(9) هذا ما أسميناه في أبحاث سابقة بـ(التناص الداخلي).

(10) المرجع المذكور، ص. 9-12.

مخلوقات الكلمات، وكائنات القوافي ليست إلا سجوناً أو عُلباً، وإذ هي كذلك، فإنه يجب التخلص منها؛ وسبيل التخلص هو المحو لما كتب، ثم إعادة كتابته في تحرر، وانعتاق من برائن الواقع، ومخالب اللغة، وأشراك الأوهام السرابية الخادعة الزبديّة الذاهبة جُفاءً المعتمدة على «أبواق الصوت»، و«مكبرات الصمت».

الكتابة الشعرية التي من هذه الأزومة سجن للتحرر، وتضييق للمتسع، وإفقار لجوهر الوجود، وحلم مُزَعَجٍ لمن هو في سُبَات عميق، وأحلام لذيدة؛ الانشغال بالكتابة كوابيس مخيفة تنغص حياة صاحبها، وحائط يُسَيِّجُ كينونة الكاتب/ الشاعر، ويَحُدُّ من انطلاق خياله؛ ومهما حاول أن ينقذ نفسه فلات جِنِّ مَهْرَب. إنه الجنس الأدبي الموروث، والتقاليد الثقافية، وأعراف الاستعمال اللغوية. الحائط - النص - الشاعر - كيانٌ واحدٌ فاقد للإحساس، وللشعور، مثله مثل هذه البنيات الضخمة التي يروعك مَظْهَرُهَا، وَيَسُوِّكُ مخبرها؛ إنها شعرية الإيهار لا شعرية الألباب، والجواهر؛ الشاعر مُحَاطٌ بكل الحواجز في حياته: هي الحياة المادية، والتقاليد، واللغة، والسياسة، والأخلاق.

لكل هذا تَتَشَطَّى شخصية الشاعر إلى واقعية خاضعة لكل تلك الظروف، وإلى متمرّدة؛ هكذا يعيش الشاعر في «يا أنا»⁽¹¹⁾ حياة تعيسة تجعل الأرض تضيق بما رُحِبَتْ، فيحاول أن يُغَيِّرَهَا بقطرة حبر على الصفحة، لكن هذه القطرة طلقة حرب باغية تؤدي إلى جريمة، فتدخل صاحبها إلى سجن الصفحة؛ كما أن الحروف حروب، والكلمات لكلمات قاضية، والقصائد بيوت عنكبوت، وأغانٍ تشيد بـمَاضٍ مزيّف يؤدي إلى امتلاء بالهواء ما أَسْرَعَ ما يَتَسَرَّبُ إلى خارج بثقب صغير شبيه بِسُمِّ الخياط! على أن التمرد يدعو إلى البحث عن الحبر المطلق، والتجربة الشاملة المتمنعة عن كل قيد، وإلى التأمل في صفحات الكون الفسيحة، وإلى لغة الصَّفَاء، والأخوة، والمحبة، وإلى بياض القلوب، والسَّرَائِرِ.

ثالث المفارقة هو الحبر، والحرف، والصفحة، من حيث إنَّها مداخل إلى الإعتام، والظلام، والسجن؛ ومن حيث إنَّها مسالك إلى الشفافية، والنور، والحرية؛ ومن حيث إنَّها تكتفي بظواهر الأشياء، ولا تنفذ إلى كنه المَوْجُودات؛ ومن حيث إنَّها سبيل إلى إدراك الحقيقة بعين البصر، والبصيرة، كما هو شأن

(11) المرجع المذكور، ص. 25-27.

الأنبياء، والرسل، والعارفين، ومُلهمي الشعراء؛ الفرق بين هبة النبوة، والرسالة، والجِزْمَان منها، ناتج عن كنه الحرف؛ لكن الشاعر في أوضاعه الحالية تتأبى عليه الحروف الحق، فينقطع عليه الإلهام، فيبقى حائراً تأثيهاً، فلا هو من الأناس العاديين، ولا هو من عباد الله المُخلَّصين:

أَنَا

أَنَاكَ فِي مَكَانٍ آخَرَ أَنَا

حُرُوفُكَ الَّتِي عَلَى اللِّسَانِ

تُذَيِّبُنِي وَلَا تَلِينُ.

مَا لَدَى الشَّاعِرِ الْآنَ هُوَ سَجَنَ صَفْحَةٍ بِيضَاءَ، لَهَا أَعْلَى، وَأَسْفَلُ، وَشَرْقُ، وَغَرْبُ، وَيَمِينُ، وَشِمَالُ؛ إِنَّهَا قِطْعَةٌ مَحْدُودَةٌ بِحَيْطَانٍ عَالِيَةٍ سَمِيكَةٍ تَمْنَعُ مِنْ بَدَاخِلِهَا مِنْ كُلِّ انْفِلَاتٍ، وَهَرُوبٍ، إِنَّهَا شَبِيهَةٌ بِسُورِ الصِّينِ؛ الشَّاعِرُ، إِذَنْ، مَسْجُونٌ فِي سِجْنٍ مَسْجُونٍ؛ إِنَّهُ يُضَارَعُ لِلخُرُوجِ مِنْ وَضْعِهِ بِأَحْلَامٍ مَدْسُوسَةٍ فِي حُرُوفٍ صَمَاءَ بِكَمَاءٍ سَطْحِيَّةِ الدَّلَالَةِ، وَالْإِيحَاءِ، إِنَّهَا خَرِبَشَاتٌ، أَوْ مَا يَشْبَهُ الْمَسَامِيرَ عَلَى بِيَاضِ صَفْحَةٍ، أَوْ كَامِيرًا غَرِيبَةً تَلْتَقِطُ صُورًا بِغَيْرِ ضَوْءٍ. وَلَنْ يُجِدِّيَ اسْتِعْمَالَ مَنْشُطَاتٍ، أَوْ وَسَائِلَ كِتَابِيَّةٍ جَدِيدَةٍ تَعْتَمِدُ عَلَى تَشْتِيَةِ الْحُرُوفِ عَلَى جِهَاتِ الصَّفْحَةِ الْأَرْبَعِ؛ لَكِنْ هَذِهِ الْحِيلُ لَنْ تُوْدِيَ إِلَّا إِلَى «لَغْوٍ لَا يَنْضَبُ»⁽¹²⁾.

وإلى ما يشبه حفلات التنكر، وإلى ما يحاكي سجع الكُهَّانِ.

هكذا، فإن:

- النَّصُّ يَأْسُ

- النَّصُّ مَلَلٌ

- النَّصُّ خَمْرَةٌ

«النص يأس» من حيث إن البياض أولى من السَّوَادِ، والصمت أجدر من الصوت؛ و«النص ملل» يُزَجَّى بِالْهَيْئَاتِ يَضِيعُ فِيهَا الْمَالُ، وَالصَّحَّةُ، وَالْوَقْتُ؛

و«النص خمرة» من حيث تحقيق لذّة عابرة، ونزوة شهوات عارضة، وإثارة أحلام، وهلوسات؛ حروف النص كؤوس الخمرة، وألفاظه أثوابه، ومعانيه خمازه، ومقاصده فقدان الوعي، وهيمنة الهسترة، وتحكم الهُو؛ أنبذة حانة مَارُوخَا تُسْكِرُ وَتُهْلِسُ الْكَارِعَ، فتتراءى له خيالات توهمه أنه يخلق عالم القصيدة في ستة أيام، ثم يستوي على العرش في اليوم السابع، ويخال أن الأكواب، والسقف، والطاولات، تتحرك وتُغْرِيه وتقول له: هَيْتَ لَكَ! هكذا يصير مُتَحَرِّراً من كل رقابة، فيأتي من الأقوال، والأفعال، ما قد يكون في الدرك الأسفل من السُّوقية:

مَا يَغْنِينِي

أَلَا أَشْبَهَ مَا أَكْتُبُ

أَلَا يُشْبِهَنِي الْمَعْنَى الْمُتَلَبِّكُ⁽¹³⁾.

ج - مقاصد النص

النص ذو سلطة قوية تصير إلى حد الأسطورة، والسحر؛ نقطة منه تسع البحر، والبرّ، وتجمع كل ما تفرق، وهو حاكم مُسْتَبِدٌّ يتحكم في صاحبه، ويوجهه حسب مشيئته؛ النص يكتب صاحبه، وليس العكس، على الرغم من توهم الكاتب أنه يستطيع التصرف في اللغة، وفي تنقيحها؛ إنه يستولي على كل شيء، وتنفذ إرادته، فإذا عُصِيَ أمرُهُ رفع عصاه القوية، فانساق الشاعر إلى جَبَرُوتِهِ لتحقيق رغباته؛

النص سكرة لما يحدثه من هلوسات وازدواج للشخصية؛ ألفاظه مثل كؤوسها تثير النزق، والطيش، والتوهمات، فيعتقد الشارب أنه في أسمى مقامات الإبداع، وقادر على تحقيق المستحيل؛ ولما يزول تأثير الخمرة يكتشف الشاعر أنه استهلك ذاته بِحَشَرَجَاتٍ في التفاهة، والأجدوى، وأن إنشاده لم يكن إلا نقيق ضفادع مؤرقاً مزعجاً؛ النقيق يذهب سدى في الفضاء، وكلام النشوة يَمْحُوهُ واقع الحياة، والأحلام اللذيذة تطردها الكوابيس السوداء.

(13) المرجع المذكور، ص. 44.

● النص:

يَتَرَبَّعُ

عَرْشَ

الْبَيْتِ⁽¹⁴⁾

● الشخصية المتشظية

- يَدْعَوِيْ أَنْكَ اِثْنَانِ بِرَبِّي الْوَاحِدِ⁽¹⁵⁾

- أَضْبِطْ إِيقَاعَ جُثُونِ

الكَلِمَاتِ بِنَضْوِي⁽¹⁶⁾

- مَا يَغْنِينِي

- أَلَا أَشْبِهَ مَا أَكْتُبُ

أَلَا يُشَبِّهَنِي الْمَعْنَى الْمُتَلَبِّكُ⁽¹⁷⁾

- أَنْكَ اِثْنَانِ

بِلَا جِنْسٍ وَأَنَا بَيْنَكُمَا

هَمْزَةً وَضَلَّ خُتْنِي

د - مَأْزِق

النص مُسْتَبِدٌّ من جهة، وتافه من جهة ثانية؛ وإذا كان الوضع هكذا، فإن الحبر مُفْسِدٌ لِلنَّظَامِ، ومُفَقِّرٌ لِلشَّراءِ، لأن ما يكتب بالحبر ليس إلا واحدةً من بين وسائل تعبيرية أخرى؛ وبهذا، فإن التكرار له مُضِرٌّ مهما كانت الصعاب،

(14) المرجع المذكور، ص. 46.

(15) المرجع المذكور، ص. 40.

(16) المرجع المذكور، ص. 42.

(17) المرجع المذكور، ص. 44.

والنقائص؛ إنه مثل العنوان الذي ليس إلا مرشداً ومُنبِّهاً؛ الحبر فُقَاعَاتُ،
والشعر ألفاظٌ ملتقطةٌ من هنا، وهناك، وشغل لأوقات الفراغ، والعطالة،
والبطالة، وسجن لما التقط في بحر رتيب ذي ماء أجاج؛ الشاعر يداري
الأسوات، والحروف، والكلمات، والتراكيب، والمعاني، لِيَتَّقَاذَ له، فتصير
نصاً؛ لكن النص لا يلبث أن يصير لَصّاً شَرِساً يَسْتَوِلِي على كل شيء. فما
المخرج؟:

عَلَّمَ صَوْتَكَ

أَنْ يَتَّبَعَ صَمْتِي

(الصوت - الحبر - الشعر) ثالوث لَعِينٌ، من حيث إنَّه صرَّاحٌ مزعج، أو
صرخة في وادٍ، أو نداء استغاثة في بَيْدَاءٍ، ومن حيث إنه شَبِيهٌ بِجَلْدٍ عُمَيْرَةٍ،
ومن حيث طُغْيَانُهُ وجبروته واستبداده:

مِنْ خَلْفِي أَكْدَاسٌ⁽¹⁸⁾

بَيَاضَاتٍ

لَمْ تَكْنِسْهَا الْأَفْلَامُ..

خُرُوفٌ

تخرج من صَوْتٍ

أَهْوَجَ

فِي خَلْقِي

بَعْضٌ مِنْهَا يَتَرَّاسِقُ

بِالرَّمَقِ الْمُتَيِّسِ

مِنْ صَمْتِي⁽¹⁹⁾

(18) المرجع المذكور، ص. 44.

(19) المرجع المذكور، ص. 55.

وَيَبَيِّنُنَا، كَمَا تَرَوْنَ،

أَلْعَبَانِ

يَخْشُرُنَا فِي رُبْعٍ سَتِيْمٍ

مِنْ وَرَقٍ

وَيُطْلِقُ الْعَبَانِ لِلْبَيَاضِ⁽²⁰⁾

2 - سُلْطَةُ الذَّاكِرَةِ

ذلك (الأَلْعَبَانِ) هو التقليد الشعري الحديث، والمعاصر، الذي صارت له قواعد لَعِبٍ يجب على الشاعر أن يتبعها؛ منها كيفية التعامل مع الصفحة؛ ومنها الملتقطات التي يَبْنِي بها النَّصُّ؛ وهي من علامات سيميائية متنوعة: رسوم، وتشكيل، وأشكال هندسية، وأعداد، ومؤشرات تنظيمية، ومن مستويات لغوية متعددة: أحرف جرداء، وكلمات لقيطة، ومعان سوقية مقتبسة من أشعار رديئة، أو جيدة؛ كل ما يراه الشاعر، أو يسمعه، أو يذوقه، أو يشمه، أو يلمسه، يخزنه في ذاكرته فيوظف منه بعض ما يحتاج إليه، مع التبديل، والتغيير، والتحويل، وأنواع التمطيط، وضروب الاختزال.

ليس هناك من جديد، إلا في هذه الألاعيب في بنيات المعنى، وفي تَمْزِيقِ أشلاء المعجم، وفي تلوين الإيقاع بمساحيق بُبَاغٍ: «في سُوْقِ الثَّرِّ السُّودَاءِ».

هكذا صار الشعر بِضَاعَةً يروج لها بِشِعَارَاتٍ ما بعد الحداثة على صفحات جرائد جدية محفوظة، أو هزلية رَصِيفِيَّة، أو متياسرة، أو محافظة. المهم أن تسوق الصورة، والبضاعة المزيّنة، بمساحيق تزول فلا تبقى إلا الدمامة، والهلوسات؛ بل إن الأدهى، والأمر، هو أن الشاعر الذي كان يبذل جهداً

(20) المرجع المذكور، ص. 58.

فكرياً، وجسدياً في الكتابة الحبرية استبدل بها الآن الكتابة الرقمية التي دعاها
«نَصّاً بِالْإِيمَاءِ»

ووسمها أحياناً بأنها بصاقٌ على الصفحة يكون مضيئاً، وَلَمَّاعاً؛ هكذا
صارت القصيدة الشعرية تمارين من نوع جديد يدعى الشعر الإلكتروني صنو
الموسيقى الإلكترونية؛ وهكذا تغير الوسيط من الحبر إلى البصاق، ومن الصفحة
إلى الشاشة، ومن معاناة اليد مع القلم إلى جَسِّ الأزرار، أو الإيماء إِلَيْهَا، ومن
تشكلات الحروف، والأصوات ذوات الدلالات الرمزية العريقة، إلى ما يشبه:

«رُسُوماً جَنَسِيَّةً»

يقول في قصيدة (سَهْلٌ جِدّاً)⁽²¹⁾:

لَا يَدَ لِي

فِي هَذِي الصَّفَحَاتِ

أُحَاوِلُ

أَنْ أَكْتُبَ شَيْئاً

مِنْ غَيْرِ وَسِيطٍ

نَصّاً بِالْإِيمَاءِ

.....

يَكْفِي

أَنْ أَبْصُقَ مَا أُمْلِيهِ

عَلَى الصَّفْحَةِ

.....

سَوْفَ يُطَالِعُهُمْ فِي الشَّاشَةِ

رَبِيقِي النَّاشِفُ

(21) المرجع المذكور، ص. 66-68.

يُلْقِي بِقَصَائِدٍ مِنْ زَبَدٍ

عَارِمٍ

لَنْ تَلْبَثَ أَنْ تَبْدُو، عِنْدَ التَّمْجِصِ

رُسُوماً جَنَسِيَّةً

لَا يَدَّ لِي فِيهَا

ومع هذا، فإن هناك أنواعاً من مُتَلَقِّي هذا الشعر؛ هناك عشاق الشعر الخالص الذين لا يرون في هذه التمارين إلا خريشات، وألاعيب صبيان لا تستحق الاهتمام، وهناك الدُّرَيْدِيُّونَ التفكيكيون الذين يتلاعبون بالكلمات، وبالألفاظ، ويمكرون بها، لكنها تتلاعب بهم، وتُخَادِعُهُمْ، وتُمَكِّرُ بِهِمْ؛ وهناك الشعراء الذين في قلوبهم مرض، فيشنون الغارة، أو يقدحون في الصَّنْعَةِ.

يطرح ديوان «بين الحبر وبينني» معضلة الإبداع الشعري المعاصر، وماهيته، وعوامله، ومآزقه، وتطوره، ووسائله. وقد عبرنا عن هذه القضايا جميعها بـ«سجن الحبر»، و«انسلاخ الشخصية»، و«مقاصد النص»، و«مأزق الشاعر»، و«سلطة الذاكرة»، و«عملية التأويل»؛ وقد اخترنا قصيدة «بين بياضين»، نموذجاً، لنحللها حتى نبين الأشكال التي صاغ فيها تلك القضايا.

II — لحن الوجود

مِمَّن تناول هذه القضايا جزئياً أو كلياً شعراء آخرون؛ منهم عبد الرحمان بوعلي في ديوان «أعدني... إلى رحم المحبرة»، ورشيد المومني «هكذا ذهب سدى». وحتى لا يكون تناولنا موضوعياً صِرفاً للاستدلال، والتنظير للكتابة بصفة عامة، وللكتابة الشعرية بصفة خاصة، فإننا سنحاول أن نقارب كل المكونات الشعرية الأساسية مُبَيِّنِينَ تضافرها، وتداخلها، للتعبير عن الموضوعات الشعرية التي هي عملة رائجة بين الشعراء الآن.

قسم الشاعر عبد الرحمان بوعلي ديوانه «أعدني... إلى رحم المحبرة»⁽²²⁾

(22) عبد الرحمان بوعلي، أعدني... إلى رحم المحبرة، بركان - المغرب، 2007.

إلى عدة مجموعات؛ أولاهها تحتوي على أربع مقطوعات، والخامسة منها تشمل خمس ترنيمات؛ وثانيتهما فيها مقطوعتان هما (6) و(7) ويَتَفَرَّعُ رقم (7) إلى أربع، ثم يتلو هذا رقم (8) الذي يَنْشِطُرُ إلى اثنين، ثم يتبعه (9) فـ (10) الذي ينكسر إلى خمس قطع، ثم يليه (11) الذي يتشعب إلى ثلاث، ثم يتوج بـ (12).

نعتقد أن هذا الترقيم ليس اعتباطياً؛ ذلك أن للأعداد رمزية في كل الثقافات الإنسانية، ومنها الثقافة العربية كما يتجلى ذلك في الْقُرْآنِ، وفي الحديث. وقد أسندت هذه الثقافات دلالات إلى الأرقام الآتية:

- الواحد هو علة وجود الكون

- الاثنان علة خلق الوجود

- الثلاثة واسطة بين طرفين

- الأربعة القوة والاكتمال

- الخمسة شِدَّةُ الإحساس

- الستة هي الكمال

- الاثنا عشر نهاية الكمال.

الملم بالثقافة العربية الإسلامية يعلم أن الله واحد أحد خالق من كل زوجين اثنين يَلِدَانِ ثالثاً، وأن العناصر أربعة، والفصول الأربعة...، وأن أركان الإسلام خمسة، وأصابع اليد خمسة...، وأن العالم خلق في ستة أيام...، وأن عدد الشهور عند الله اثنا عشر شهراً...؛ كما أن المطلع على التراث الموسيقي يجد أن الواحد هو المبدأ للألحان، وتتكون المسافة بين نغمتين، والنغمة الثالثة هي الوسطى، والأربعة هو الذي بالأربع، والخمسة هو الذي بالخمس... والنغمات الإثنتا عشرة هي السلم الموسيقي المعروف.

1 - رحم الولادة

تلك رموز (أعذني... إلى رَجَمِ المحبرة) ومناخه على الإجمال، وأما على التفصيل فهو يعبر عن هموم الشاعر المعاصر بصفة عامة، والشاعر الإسلامي المغربي بصفة خاصة. هكذا تحدث أحياناً، بصراحة، عن افتقاد الشعر

الباذخ، وعن الشك في فائدته إن وجد، وعن عجز اللغة عن النفوذ إلى ما بعد ظاهر الأشياء، وتكلم تارات بلغة الإشارة إلى تلك القضايا؛ وهكذا، فإننا نفترض أن هناك قصيدتين خاصتين بها؛ هما (سماء أخرى)⁽²³⁾، و(أسطراب الغيمة والوقت)⁽²⁴⁾؛ ففي القصيدتين حديث عن المرأة التي هي رمز للقصيدة الشعرية المسكونة بالحزن المليئة بالكآبة المفعمة بالتشاؤم:

- وخديجة حُلْمٌ . .

دَاهَمَنِي فِي الْفَجْرِ . .

وَشَاكَسَنِي

حَتَّى صَارَ مِدَاداً

لِقَصَائِدٍ لَمْ أَكْتُبْهَا،

- وَأَيَّنَ قَصَائِدُكَ الْمَسْكُونَةَ بِالْحُزْنِ.

- مَا أَشْهَاكَ خَدِيجَةٌ . .

حِينَ أَضْمُكِ بَيْنَ الْأَوْرَاقِ الْبَيْضَاءِ⁽²⁵⁾

إذا كان المِدادُ عند أخريف سِجْناً وحرماناً من الحرية والانعقاد من جهة، وتغبيراً عن الهموم والأحزان من جهة ثانية، فإن هذه المفارقة يجدها القارئ عند بوعلي أيضاً: ذلك أن المحبرة رمز لإخراجه من ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ إلى نور المعرفة في أيام الطفولة الأولى حتى صار يلتمس العودة إليها:

أَعِدْنِي يَا حَجَرَ الْوَضْلِ

أَعِدْنِي . . .

لِدَمِ الْمَحْبَرَةِ التَّائِيهِ وَالْمَجْنُونِ⁽²⁶⁾.

(23) المرجع المذكور، ص. 11-18.

(24) المرجع المذكور، ص. 19-27.

(25) المرجع المذكور، ص. 14-16.

(26) المرجع المذكور، ص. 80.

لكن مِدَادَ المِخْبَرَةِ هو دَمٌ تائه مجنونٌ أخرجته من سعادة الفِطْرة إلى شَقَاءِ
المعرفة والضلالة، والوَهْمِ، والدَّناءة، والقُبْحِ:

سَأَعْلَمُ أَبْنَاءِي كَيْفَ يَنْسَوْنَ النَّهَارَ
وَكَيْفَ يَكْرَهُونَ الشَّعْرَ وَالشُّعْرَاءَ

.....
سَأَعْلَمُهُم أَبْجَدِيَّةَ أُخْرَى،

وَأَغْنِيَاتٍ جَمِيلَةً،

وَكَيْفَ يَطِيرُونَ بَعِيداً بَعِيداً
عَنْ كُلِّ ضَلَالَةٍ أَوْ وَهْمٍ⁽²⁷⁾.

المعنى الأساس هو الندم على الحياة الماضية، وإعلان الإفلاس. والقصيدة
الأخيرة (ما يشبه السيرة الذاتية)⁽²⁸⁾ توضيح لمكونات الإفلاس، وعوامله؛ وهي
مَوْضُوعَةٌ تعاطي الشعر التي شغلت الشعراء المعاصرين من المشاركة والمغاربة:
القصائد، والخيال، بمثابة المرض المزمن، ومد اليد إلى أوراق العشب، أو
القبض على الرَّمَادِ أفضل من استعمال اليد في ورق الكتابة؛ والشعر ضلالة،
ووهم، والأجدر أن لا يحتفل به الإنسان. هكذا صار الشاعر المغربي يعزف على
أوتار المتشائمين مثل الماغوط، ومن هم على شَاكِلَتِهِ من الذين هم غارقون في
نَعَمِ الأدب، لكنهم يقفون ضده، وخصوصاً الأدب الرث، والشعر الغث. وأما
الذي يعبر عن جواهر الأشياء، فما أحوج الإنسانية إليه:

ما أقسى - يا امرأة -

أن نفقد بوصلة الشعر الباذخ

في عالمنا المجنون⁽²⁹⁾

(27) المرجع المذكور، ص. 120.

(28) المرجع المذكور، ص. 115-126.

(29) المرجع المذكور، ص. 87.

2 - نقطة التكوين

مهما تشاءم الشعراء، فإنهم ليسوا بمستطيعين أن يتخلصوا من جوهرهم ويتخلوا عن ذاتهم؛ وجوهر الذات هو عشق اللغة، والولءُ بها، باعتبارها هي أساس الوجود. لذلك يجدُّ القارئ في دواوين الشعراء الثلاثة، وخصوصاً «هكذا سدي»⁽³⁰⁾ الحديث عن النقطة، والحروف:

وإلى أي حروفٍ أعدَّ الفَهْدُ كُلَّ هَذِي النُقْطِ السُّودَاءِ التي يَطُوفُ بها في مَتَاهَةِ الغابة⁽³¹⁾؟ ونقطة الوجود تحدث عنها بعض المتصوفة، والقبالة، وبعض أهل السيمياء.. ثم تلقفها شعراء الحداثة، وما بعد الحداثة؛ وهناك إلحاح على بعض الحروف، مثل الثون، وذكر القلم، والسطر، والقراءة، والكتابة، والمعنى، والدلالة، والتأويل. تُكُونُ النقطة، واللغة.. مَدَارَ حديث «هكذا سدي»، لذلك يجدها القارئ في غير مقطوعة، وخصوصاً (قطة المحبرة)⁽³²⁾؛ هكذا، فإن هناك نقطة سوداء زنجية نَبَعَتْ من محبرة شاعر كبير مُحَكِّكٍ يَكْتُبُ وَيَمْحُو حتى تَلين له قناة اللغة والقصيدة. وقد أَوْضَحَ هذا في مقطوعة (النقطة)⁽³³⁾، التي تبحث عن حروف مبدعة خلاقة لا عن حروف عاجزة للتعبير عن حقيقة الوجود، وعن بياض الصفحة، وسوادها، اللذين لهما دلالات ومغازٍ، وعن شعر جيد، لا رديء، وعن متلقٍ حصيف يستطيع أن ينظر في العماء، وينجو من شرك المتاهة، ويهتدي إلى نهج قَويم في تِيهِ الظلام، فيستخلص معاني ودلالات.

كثير من إشارات «هكذا سدي» وبعض قصائده تجعل النقطة أصل الكون الشامل: (كُنْ)، فكانت السماوات، والأراضي، والأفلاك، والعناصر...؛ وكانت الحروف، والكلمات؛ الشُّعْرُ مخلوق الشاعر الذي يسعى أن يسوي خلقه في أحسن تقويم. لكن هيهات! القصيدة من حيث هي، والمعاصرة بصفة خاصة، ليست إلا نسيجاً مزركشاً منمنماً ذَا أطْياف ألوان تتداخل وتمتزج؛ الشاعر لص

(30) رشيد المومني، هكذا سدي، فاس - المغرب، 2007.

(31) المرجع المذكور، ص. 12.

(32) المرجع المذكور، ص. 121.

(33) المرجع المذكور، ص. 125.

أعمى، أو كالأعمى، بما أثاره الواقع في عَيْنَيْهِ من غبار جعل عين البصيرة، والبصر، عمشاء، ويحجاب اللغة المليئة بالتزييف، وبالإضمار، وبالتكنية، وبالتعمية، وبالتورية، وبسَدِّ الجسد المنيع الذي يَحُولُ دون نور المعرفة اليقينية، وبسجن الجبر الذي يُجِلُّ الفسيح الواسع إلى ضيق حرج. تتطلب المعرفة اليقينية التَّخَلُّصَ من حبس الواقع، والجسد، واللغة، والانطلاق إلى الواقع الممكن المتعدد، وترويض الجسد، حتى يفارق المادة فينتفتح على عوالم الروح، وتفكيك اللغة، وهدم وظائفها المعتادة؛ أي الخروج من المنطق الديكارتى: «أنا أفكر، إذن، فأنا موجود» إلى الهلوسات الشعرية: «أنا لا أفكر، فأنا موجود»؛ أو شئنا نتصرف في القول المأثور: «لئاس نيام، فإذا ماتوا استيقظوا» بـ «الشعراء أناس عاديون، فإذا تَهَلَّوْهُوا أَبْدَعُوا».

ليست الكتابة الشعرية رصف مفردات، أو تلاعباً ببياض الصفحات، أو توليف حذلقات، لكنها معاناة. لهذا صار «المحو» من قبيل الموضوعات الأساسية في الشعر المعاصر لدى هذا التيار من المبدعين:

يَتَعَهَّدُ

بِالْمُخَوِّ

مَا

يَتَعَهَّدُهُ⁽³⁴⁾

بِالْكِتَابَةِ

ليست الكتابة الشعرية متاحة لعديمي الموهبة الكسالى، لكنها عذاب لذيد يعانیه الشعراء الْمُضْطَفُّونَ الأخيار الذين ينسلخون من الإنسانية إلى «الملكية» في لحظة من اللحظات، فيرون الكون وحدة واحدة؛ هي القصيدة الشعرية. هكذا يصير كل ما في الوجود حروفاً، وكلمات، وبَيَاضاً، وسواداً، وبحوراً شعرية. وقصيدة (بَحَارُ مالِك بن الرِّيب)⁽³⁵⁾ تُبَيِّنُ هذه الرؤيا؛ هناك بَحْرُ المراثي، وبَحْرُ الزمهرير، وقطيع اللغة، واستغاثة الريشة بأنامل الماء، والحكي المُخَلَّلُ في ماء

(34) المرجع المذكور، ص. 20. وقد بَارَّ على هذه الأسطر بخط غليظ في آخر صفحة بيضاء.

(35) المرجع المذكور، ص. 93-98.

الأساطير، وأوهن البيوت ما بنت أيديهم؛ كما أن (جناح القصيدة)⁽³⁶⁾ تَعَكِسُهَا:

هَذَا الْجَنَاحُ
مِنْ هَجَسٍ دُكْنَةٍ كَثُومٍ
لِذَلِكَ أَطْمَأَنَّ لِلْبَيَاضِ رِيشُهُ الشَّيْبُ بِأَخْرَفٍ مُحَجَّبَةٍ

.....

هَذَا الْجَنَاحُ لَيْسَ جَنَاحاً
هُوَ ظِلُّ فِكْرَةٍ طَارَتْ لِلتَّوُّ مِنْ رَأْسٍ ثَمَلَةٍ
قَدْ تَكُونُ رَأْسَكَ

.....

أَوْ
رَأْسَ قَصِيدَةٍ مَسَّتْ أَعْيُنَهَا أَجْنِحَةُ الْأَرْقِ
فَأَطَبَقَتْ أَجْفَانَهَا.

III — نظريات

إذا كانت النقطة هي سرُّ التَّكوين، وعلة الوجود بما فيه من حضارات، وثقافات، فإنه لا غرابة أن يقرر الباحث أنها أساس الموسيقى، وإذ الموسيقى نواة اللغة والشعر، فإننا سننظر في البنية الموسيقية لدواوين «بين الحبر وبينني» و«أعدني... إلى رحم المحبرة»، و«هكذي سدي». يتجلى المكون الموسيقي في عناوين بعض القصائد، وفي كيفية تجزئتها إلى مقطوعات، وفي ذِكْر بعض المفردات المستعملة في ميدان الموسيقى.

1 - تذكير

على أننا لن نُكْتَفِي بهذا القول العام، وإنما نرى أن نذكر بالمذاهب

(36) المرجع المذكور، ص. 146.

الموسيقية الأساسية التي عرفها جزء من البشرية على الأقل؛ وهي المقامية، والتناظرية، والتوافقية، والتسلسلية⁽³⁷⁾، والتقليدية.

سادت المقاميّة التي تأسست على مبادئ ميتافيزيقية (وحدة الوجود)، وانتظامية (اتصال الأكوان)، وتطابقية (كل شيء يطابق كل شيء) ورياضية (تناسبية وتنافية)، ثم على قواعد إجرائية، مثل الطنين، وأجزائه، وذو الأربع، وذو الخمس، وذو الكل مرة واحدة، وما تألف منه ومن أحد السّابقين، وذو الكل مرتين بمكوناته من المفروضة، ورئيسة الرئيسات، والمتوسطات، والمتصلات، ورئيسة الحادّات، وحادة المفترقات، ونهاية إفراط الحادّات.

ما يهمنا أكثر هو تطابق مكونات الوجود، وخصوصاً بين ما في العالم العلوي الذي هو فوق القمر، وبين العالم السُّفلي الذي هو تحت القمر، وخصوصاً الإنسان؛ وبناء على هذه النظرية، فإن كل ما في الكون من موجودات ظاهرة، وخفية، تماثل، وتتشابه؛ وخير مصداق لهذه النظرية الخطاب الشعري بصفة عامة، والمقطّوعات، والقصائد الحديثة والمعاصرة بصفة أخص. ويظهر أن الصيرورة التاريخية العقلانية لا تغير من جوهره ما دام يستعمل اللغة الطبيعية.

هيمن بعد القرن الحادي عشر إلى بداية القرن السابع عشر المذهب التناظري الذي يتأسس على التقابل بين مكون مكون، وبين واحد، أو اثنين، أو أكثر، كما بينت ذلك كتب البلاغة في باب المقابلات، والمتضادات، وكتب الموسيقى الخاصة. وإذا ما سلمنا أن التناظر من بين مكونات الفكر الإنساني، فإن الحديث عن مبدئه يصير تحصيل حاصل؛ لذلك يجب أن ينصب التفكير على أنواعه، ودرجات كل نوع، وعلى وظائفه؛ وهذا ما اهتمت به الأبحاث قديماً، وحديثاً، وخصوصاً السيميائيات؛ وأما إذا جعلنا المفارقة منه، فإنه يصير لُبّ كثير من الشعر المعاصر.

فرض مذهب التوافقية نفسه منذ بداية القرن السابع عشر إلى يومنا هذا؛ وهو وليد العقلانية، وبداية الثورة الصناعية، والعلوم التجريبية المخبرية؛ لذلك، فإن مكوناته هي التراتبية، بما تقتضيه من أساس، وثابت، وجوهري

(37) يُراجع القسم الثاني (المسارات) من الجزء الأول لمعرفة مكونات الموسيقى المقامية، والجزء الثاني (النظريات والأنساق) للاطلاع على مبادئ التناظرية والمقامية والتسلسلية.

وثانوي، والصيرورة بما تعنيه من بداية، ونهاية، والتنبؤية وما تستلزمه من ملء لأنواع الفراغ، وتخلص من الدخيل؛ يتصافر في هذا المذهب ما هو إنساني بما هو ظرفي، وهذا ما جعله يصمد أمام الهزات التي تعرض لها منذ نهاية القرن التاسع عشر؛ وهكذا كلما اعتقد الناس أنه احتضر أعادت له الحياة مذاهب أخرى؛ وإذا ما صح هذا، فإن البنية الشعرية، وخصوصاً ما كان مركباً منها، محكوم به.

انبثق المذهب التسلسلي لإزالة مفاهيم التوافقية، مثل الهيمنة، والأساس، والثابت، والمحط، وأنواعه. وقد تبني السلم الملون ذا الاثنتي عشرة نغمة متكافئة لا تهيمن إحداها على أخرى؛ وقد منحت له الخواص التالية: التسلسل، والقهقري، وعكس القهقري...؛ وهو بهذا عاد إلى نظرية التناسب الرياضية التي تأسست عليها الموسيقى الخالصة، والموسيقى الشعرية. وما يعنينا هنا هو أن ننبه إلى أن بعض الشعراء المعاصرين الأوربيين التجأوا إلى هذه التقنية لكتابة بعض أشعارهم مما كان له صدئ، ورَجْعُهُ، لدى بعض شعراء العربية الذين استفادوا من هذه التجارب.

طلع التيار التقليلي⁽³⁸⁾ في سنوات الستين بالولايات المتحدة الأمريكية. وينبني هذا التيار على الاقتصاد في الوسائل المستعملة بحسب شعار: الأقل هو الأكثر⁽³⁹⁾؛ ويذكر الباحثون في هذا التيار أن النحاتين، والتشكيليين، ورسامي المصطنعات، والموسيقيين، تبنوه، ومع أنهم لم يذكروا الشعراء، فإننا نُحْمَنُ أنهم أسهموا في اعتناقه؛ وقد دعيت آثار الموسيقيين بـ (الموسيقى التكريرية)؛ وإذا ما صدق تخميننا، فإننا نجعل منه (الأشعار التكريرية)، والشذرات التي انبثقت في هذا المناخ؛ وخصائص هذه الموسيقى؛ هي:

- العودة إلى التوافقية.

- تكرار الجمل، أو المكرورات، أو الخلايا، مع بعض التنويع المتدرج، بحيث إنها تستعمل ربع الطنين، بل ثمن الطنين في مرونة، وعدم دقة، وفي أقل

(38) التقليلي (Minimaliste)؛ وهو استدراك على ما قدمناه في الجزأين السابقين. ولْتَرَجَّعْ الشبكات العنكبوتية.

(39) الأقل هو الأكثر: (The Less is More)؛ وسنزيد هذا توضيحاً في الفصل الثالث.

عدد ممكن؛ وقد وجدت هذه الموسيقى رواجاً، ونجاحاً، في الهند، وفي أندونيسيا، وفي أفريقيا الملونة، كما أن نبضاتها مطردة؛ ومن السهولة بمكان مضاهاة كثير من الشعر المعاصر بهذه الموسيقى؛ فهناك كثير من نصوصه عبارة عن شذرات، وتكرارات، في تراكيب قليلة، مع المحافظة على قوالب تفعيلية مطردة.

يتضح مما قَدَّمنا أن هذه المذاهب التي توالى لم يَجِبْ بعضها بعضاً، وإنما كان يعدل، أو يغير، اللاحق السابق. وهكذا، فإن كثيراً من نبهاء المجددين من الموسيقيين كانوا يعودون إلى التراث للاستفادة منه. قد عاد باخ إلى التناظرية، واستوحى منها التَّسْلُسليون، وقد رجع التقليليون إلى التوافقية، مما جعل هذه المذاهب تتعايش مع بعضها بعض في حقبة وَاجِدَةٍ؛ ويفرض علينا هذا الوضع أن نفترض من مخزوناتنا جميعاً لتحليل موسيقى الشعر، كما يوجب علينا أن لا ندعي أن الشاعر العربي اطلع عليها، ووظفها في شعره عن قصد؛ لكن يصح الزعم أنه حاكى ما رآه، أو سمعه، أو قرأه، فنسج على منواله، مع بعض اطلاع على الظروف التي أدت إلى إنتاجه، أو بدونها. على أن ما نلزم به أنفسنا هو أن هناك ثوابت إيقاعية يشترك فيها الشاعر العربي مع غيره من شعراء العالم كله، وأن هناك مادة يجب التعامل معها باحتراز، وتحفظ، حتى لا يصير المقصود هو البرهنة على صحة النظرية.

2 - أشكال

لهذا، فإننا سنختار نماذج لنَحْلُلَهَا ضمن هذا المنظور من الدواوين الثلاثة؛ وأولها هو قصيدة (بين بياضين)؛ لكن ما هو الشيء الذي بين بياضين؟ إذا أردنا أن نكون حَرْفِيَّين فهو السواد، أو الشعر المكتوب؛ وإذا أُخْبِتْنَا أن نصير رَمَزِيَّين فهو الوجود العيني بين عديمين، أو الشاعر قبل الوجود، وبعد انتهاء الوجود.

للإجابة عن هذه التخمينات علينا أن ننظر في كيفية تحليلها؛ سنَتَّبِعُ طريقتين؛ إحداهما أفقية، وثانيتهما عمودية. تتجلى الأفقية في تتابع المقاطع وتواليها، وسنرصد الحدود بينها بتكرار بعض التراكيب التي تتخذ منطلقاً لتنمية الموضوعات؛ وها هي: أولاً: (1) في وضع رفوفي (1 - 30)؛ (2) في وسع حروفي (31 - 34)، (3) في وسع حروفي (35 - 60)، (4) في وَسْعي (61 - 96)؛

ثانياً: (1) في وسعك (97 - 99)، (2) في وسعك (100 - 101)، (3) في وسع يسوا (102 - 104)، (4) بل في وسع (105 - 107)؛ ثالثاً (1) قالوا (108 - 113). يتحدث في (أولاً) عن الرفوف، والحروف، والذات في ضمير المتكلم؛ وفي (ثانياً) يتكلم عن وسع الآخرين بكاف الخطاب، أو بضمير الغيبة؛ وفي (ثالثاً) يلخص الرأي العام.

أ - بنية توافقية

إلا أن هذه الخطية ترافقها العمودية؛ ذلك أن حديثه عن عدة موضوعات يتأتى: الحديث عن الحروف، وشهادتها، وشكواها، وعجزه، وكتابته أقوالاً مزيفة، ثم يعيد، ويبيد في هذه المعاني، ثم يستأنف الحديث عن الكراس الذي هو بمثابة القفطان المرصع بالحروف كيفما اتفق، وبالكلمات المحطوبة بليل، وعن الحيرة، وعن اليأس؛ لكنه لا يستسلم، بل إنه يسعى إلى حفظ المظاهر بالاستمرار، أو بإرجاء العمل إلى الظرف الملائم، أو بنقل الخطاب إلى ميتا نص، أو بنغي النص في صمت. ويجعل هذا التآني تماثلات بين بعض المقاطع: الأول مع الأخير والرابع مع الرابع: $I-V-I = I-V-I$ ؛ $IV-V = IV-V$.

في ضوء هذا سنبرز الثلاثيات التي تتكون منها القصيدة؛

أولها ثلاثية الكتابة: (40-1): (do-Mi-sol).

(1) البحث عن النص (11-1) (do)، (2) النص حائط (30-14) (Mi)، (3) قوة البياض (40-31) (Sol).

ثانيها ثلاثية تفاهة الكتابة: (89-41): (Mi-Sol-do).

(1) تأليف (67-41) (Mi)، (2) جميع (82-68) (Sol)، (3) حيرة (89-83) (do).

ثالثها ثلاثية التحلي عن الكتابة: (113-90): (Sol-do-Mi).

(1) الغرق في الدواة (96-90) (Sol)، (2) نعي النص (107-97) (do)، (3) اللأشيء (113-108) (Mi).

بالإنسان، و«الرفوف» بالكتب؛ وعليه، فإن هناك الأثلوثات الآتية.

- الرفوف - الحائط - الإنسان

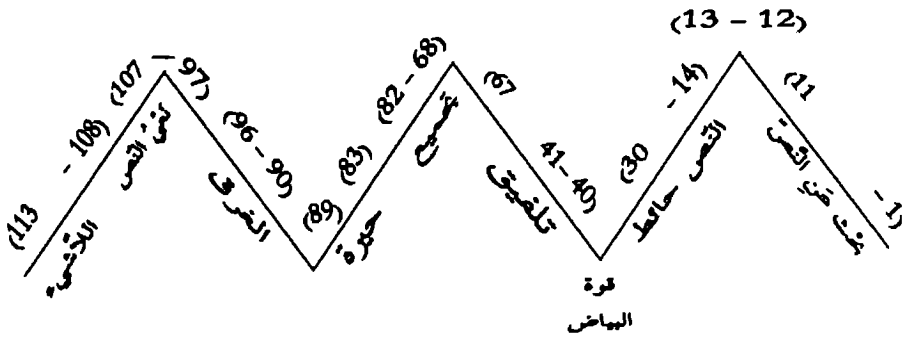
- الشيء - الإنسان - الحدث

(الحائط) الإنسان (الرفوف)

- الإنسان - اللوح - اللغة

الإنسان (الرفوف) (الحائط)

وإذا صح هذا في هذه الأثلوثات، فإنه كذلك في الأخريات؛ لكننا لن نفعل، وإنما نترك لمن أراد أن يقوم بذلك؛ على أن واجب البحث يفرض أن نبه إلى أن وراء هذه الأثلوثات والعلائق بينها ما يدعى بـ (التمطيط)؛ ويعني أن هناك بداية، أو منطلقاً، أو نواة تمطيط، بقوة، أو بضعف، أو بتقدم، أو باستباق، إلى أن تصل إلى الذروة، ثم تبدأ تنحط بالكيفيات نفسها إلى النهاية؛ وما بين البداية، والذروة، وما بين الذروة، والنهاية يسمى بـ (الجهة)؛ يحكم القصيدة هذه هذا النوع من الإيقاع العميق الذي نبه الشاعر إليه بالسليقة أحياناً، وبترك أمر التحديد إلى القارئ أحياناً أخرى. لهذا يمكن توضيحه في الخطاطة الآتية:



تفاهة الكتابة التخلي عن الكتابة

ثلاثية الكتابة

القسم:

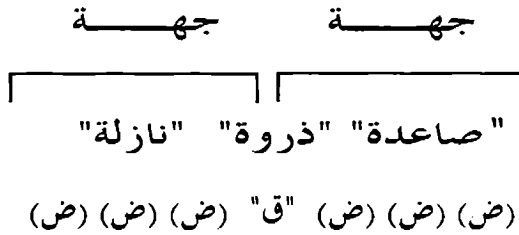
القمة الأولى: لا فرق إذن بين بياضين...؛ القمة الثانية: في غربة أحلام حدائي؛ القمة الثالثة: عليك بِثَقْلِ اللعبة للميتا نص نهائياً.

السفوح:

السفح الأولى: في وسع رفوفي؛ السفح الثاني: ومِنْهَا...؛ السفح الثالث:

الثَوْنُ ولا سطح؛ السفح الرابع: لا شيء.

هناك تناوب بين المسار الطالع إلى القمة، والمسار النازل منها؛ وكل مسار يمكن أن يحتوي على ثلاث درجات، مما يجعل القمة موقعاً وسطاً؛ وهذا يحقق ما سمي برقم سَبْعَةِ السَّحْري⁽⁴⁰⁾:



ومبدأ أن المجموعات ذات المكونات الضعيفة يجب أن تحتوي على مكون واحد قوي؛ ومعنى هذا أن هناك ثلاث «ذرى»، وأن ما تحتها أَرْبَع وعشرون؛ وما يهيمن في القصيدة هو التمثيط التجميعي؛ إذ ليس هناك تكرار تام للتراكيب، وإنما يكرر بعضها فقط: (في وسع رُفوفي - في وسع حروفي - في وسع حروفي - في وسعي)؛ في وسعك.. في وسعك - في وسع بيسوا - بل في وسع)؛ و(قالوا - قالوا) لكن هذا الأخير قد يكون من قبيل التقديم.

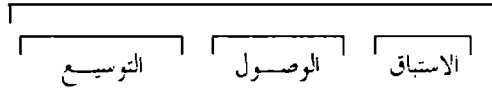
يؤدي هذا إلى افتراض أن النص الشعري ينمو بالاستباق؛ هكذا يمكن اعتبار التراكيب الآتية مِنْ تَوَع الاستباق:

(40) لفهم هذا التحليل يجب الرجوع إلى الفصل الأول والثاني بالقسم الأول من الجزء الثاني.

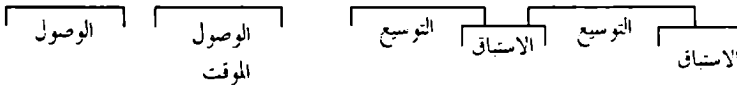
- أئمة شيء يحدث بالفعل... وما من شيء يحدث...
- أبحث عن نصي الغائب... إن كان النص هو الغائب...
- أنا قَدْوَتِي الحائط... دَعَكَ من الحائط والمَبَكِي...
- مُنْذُ سنين وأنا بالعتبة... أنا بالعتبة...

وإذا كان الاستباق يحدث توتراً بالسؤال في انتظار الجواب، والبحث الذي يؤدي إلى الحصول على شيء، أو لا شيء، أو الإيمان بشيء، ثم النهي عنه، أو التنبية إلى ما سَيَحْصُل من تفاصيل؛ وعليه، فإن المستبق سيكون هو الوصول، أو التوقف، أو توسيعه بعض التوسيع:

الجهة التمطيطية



إلا أن الأمر قد يكون أعقد من هذا في القصائد المركبة



إلا أن التحليل يمكن أن ينزل إلى مستوى الأقوال الجزئية:



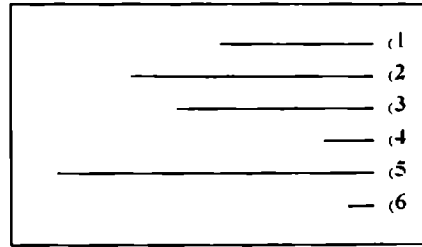
ب - بنية إيقاعية

ركزنا فيما سبق على جزء من النظرية الإيقاعية، وهو التوافقات التي تربط بين مكونات القصيدة؛ وها نحن الآن نخص بالحديث مكوناً آخر، وهو الوزن،

وما يقتضيه من مقاييس؛ وأساس البنية الوزنية هو النقرة، أو النبضة بصفة عامة، وحينما تجزأ القطعة إلى أقسام متساوية من حيث المدة الزمنية، فذلك هو المقياس الذي تُسندُ إليه قيم زمنية؛ والمقياس يمكن أن يكون ثنائياً، أو ثلاثياً، أو رباعياً؛ وأما ما زاد على هذا، فإنه مركب.

وسنرصد مقاييس هذه القصيدة معتبرين الصوت، والصُّمْتُ، كشأن الموسيقيين، أو السواد، والبياض كفعل الشعريين؛ ويتطلب هذا الاعتبار أن نأخذ أطول سطر بالمقياس إلى غيره، ثم نحيطه بشكل هندسي لِتُحَاصِرِ الصوت، والصمت، ثم نحلل المكتوب إلى مقاطع، مع إسنادنا، لِكُلِّ واحدٍ منها، قيمةً عديدة ترجع إلى قيمة مطلقة، وما تبقى يكون هو زمن الصمت؛ لتوضيح هذا، نعالج الأسطر الستة الأولى من (بين بياضين):

المقياس: $\frac{4}{4}$



- المقاطع : في وُسْ ع رُ فُو في

- أسماؤها : طويل أقصر قصار طويل قصار طويل

- الهياكل : c v v c v c c v c v c v

- علامات : م م م م م م

الزمن

- القيم : 1 $\frac{1}{4}$ $\frac{1}{8}$ $\frac{1}{8}$ 1 $3\frac{1}{2} = 1$

أ ثَمْ مَ تَ شَيْ ءُ نَ سَ يَحْ دُ

ثُ بِلْ فَعْلَ لَ - $2\frac{3}{8}$

هـ نَا 1 $\frac{1}{8}$ -

يتضح من هذا ما يلي:

(1) أن مقدار زمن الصوت والصمت ليس مُرتَبَطاً بمقدار امتداد السَّوَادِ؛ ذلك أن سطر (5) أطول من سطر (1) لكنه أقل قيمة زمنية منه؛ ومعنى هذا أن نوع المقاطع هو ما يحدّد قيم الصوت، والصمت، الزمنية. فقد يكون مقطع (طوال) أكثر زمناً من سطر ذي مقاطع (قصار). وبهذا، فإن حاسة البصر تَتَخَذُ أحياناً.

(2) أن قيمة الصمت/البياض في السطر (1): ؛ أي ومضه: γ $\frac{1}{2}$ ؛ وفي السطر الخامس: $\frac{1}{4}$ ؛ أي طرفه $\frac{1}{4}$ ؛ ولمحة $\frac{1}{4}$ ؛ وفي السطر السادس: $\frac{3}{4}$ ؛ أي لحظة —: 2، وومضة γ $\frac{1}{2}$ ، ولمحة $\frac{1}{4}$.

(3) على أنه من الممكن إنقاذ نظرية البصر بمراعاة مقدار السواد، والبياض، بتصغير القيم الزمنية، كأن يقترح لـ (طوال): 1، (أطول) $\frac{1}{2}$ ، و(طويل) $\frac{1}{4}$ و(قصير) $\frac{1}{8}$ ، و(أقصر) $\frac{1}{16}$ ، و(قصار) $\frac{1}{32}$.

(4) أن المهم هو أن «بين الحبر وبينني» يهيمن عليه البياض، والصمت، واقعاً، ومعجماً؛ فمن حيث المعجم، فإن أطول أسطره لا يتجاوز ستّ كلمات، وأقصرها حرف، أو كلمة واحدة، كما كان يلجأ أحياناً إلى نقط الحذف؛ وأما من حيث المعجم، فإن الشاعر كثيراً ما عبر عن أنه يعيش في مكان ضيق حرج؛ فهو جالس على هذا المقعد ذي الحيز الصغير الموحى بالخلوة وَالْوَحْشَةِ، وهو مُنْخَصِرٌ في هذه الصفحة التي هي مجال لرصف الأوهام، وتَضْفِيفِ المعجز، وهو في (هَنا) التي يكتسحها البياض، وهو في هذه الحبسة التي تنقذه منها نقط الحذف الفاجر فَأَ، أو هو يوظف هذا الإبداء، والإعادة.

خاتمة

«بين الحبر وبينني» بيان عن الكتابة الشعرية المعاصرة في إطار نظرية ما بعد الحداثة، من حيث إن النص عبارة عن مجموعة من الموضوعات، والأفكار، والتراكيب، والمفردات، يُؤلّف بينها في فضاء الصفحة التي تصير شبيهة بالفسيفساء. هكذا أشار الشاعر إلى أعلام من الشعراء، والفنانين، وإلى قضايا، وموضوعات، وحكايات؛ وقد انتقد هذا النوع من الإبداع في القصائد الأخيرة بالديوان: اِخْتِلَاسٌ مِنَ الشعر العالمي، وإغارة على شعر المجاطي، وشعراء

العرب القدامى، مع محاولة إخفاء تلك الأفعال بتمويهات ذكية، وتجميلات مصطنعة، وركوب مطية الميتانصية.

«بين الحبر وبينني» كتاب نقد صيغ شعراً، لأنه تناول أهم ما هو رائج من مفاهيم في النقد المعاصر؛ على أننا لم نكتف بتحليل مضمونه، وإنما تناولنا البنيات التي صيغت فيها تلك القضايا من خلال اختيار نموذج (بين بياضين)؛ الشاعر، إذن، يعبر عن مناخ فكري عالمي يخضع لتحولات جذرية متعددة الأبعاد.

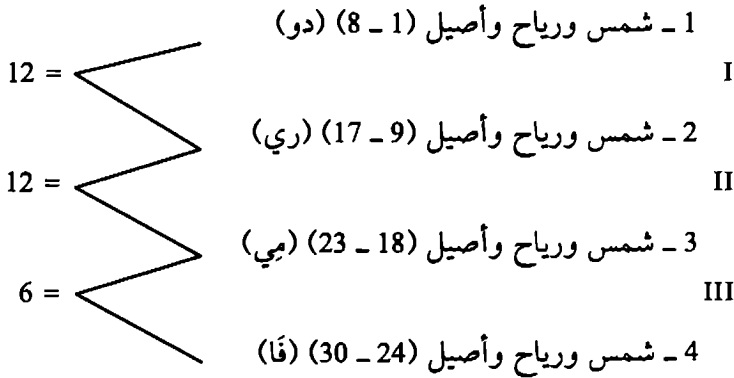
ج - بنية ممتزجة

في هذا الإطار سنتعرض إلى الأساس الموسيقي لـ «أعدني... إلى رحم المحبرة»، و«هكذا سُدى». يوحى «مفتتح» بدلالة مُعَيَّنة في التأليف الموسيقي، إذ يكون مقدمة لما يليه، كما هو شأن «ترنيمه» و«مَوَال» و«رباعية» و«صَوْت» التي تحيل على الموسيقى الدينية اليهودية، والمسيحية، وعلى النوبات الأندلسية. هكذا كتب «خمس ترنيمات لبحر هادئ»، و«مَوَال للعام 2006»، و«رباعية الزمن الألياب»، و«صوت آخر»؛ ديوان «أعدني... إلى رَحِمِ المَحْبَرَةِ» مقطوعات شعرية منسوجة على منوال التأليف الموسيقي

توضيحاً لهذه الأقاويل، فإننا سَنُبَيِّنُ تركيب بعض المقطوعات، ثم نحاول أن نفحص ذلك التركيب في إطار التقاليد الموسيقية التي أشرنا إليها. يبدأ الديوان بـ «مفتتح»، وهو ثقیل الأنغام، و«وردة الليل... وردة الأمس»، وهي خفيفة الإيقاع؛ وهاتان المقطوعتان استهلال، وعمل، يمهدان إلى صلب الموضوع؛ ويمكن أن نصنف مقطوعاته بحسب الأنغام إلى ثلاثيات، ورباعيات، وخماسيات، وسداسيات، بحسب تجزيء الشاعر، أو بقراءتنا؛ يمكن تقسيم مقطوعة (دعوة) إلى ثلاثية، وكذلك انعطاف سريع؛ و«خمس ترنيمات...» و«قريباً من حجر الأرض»، و«عادة»، و«مَوَال...» و«أشياء لا توصف»، و«الأمني البلهاء... إلى رباعية؛ وهناك ما يمكن أن يجزأ إلى خماسيات، مثل «زهرة أخرى»، وما هو خماسية بوضع الشاعر، مثل: «سماء أخرى»، و«إسطرلاب الغيمة والوقت»؛ إلا أن هناك ما هو أعقد من هذا بحيث تتولد عن كل نغمة نغمات فرعية، مثل «إيماءات الولد الدائري»، ومثل سداسية «أعدني... إلى رحم المحبرة».

يتبين من خلال هذه المعطيات أن هناك طنيناً بين نغمتين، وَطْنَيْنَيْنِ بين ثلاث نغمات، وَطْنَيْنَيْنِ ونصف من أربع نغمات...؛ وإذا سرنا في هذا الطريق، فإن كل مقطوعة شعرية هي مقطوعة موسيقية تتجلى في عدد من الأنغام، والطُّنَّينات، تبعاً للتقاليد المرعية؛ ومن بينها ما يسمى بالموسيقى المقامية التي تعتمد على ربع الصوت، والطنين، وأعدادها، لِيَكُونَ هناك تولىف موسيقي اشتهر منه ذو الأربع، وذو الخمس، وذو الكل مرة واحدة، وذو الكل مرتين؛ إلا أنه ليس من الضروري أن تُطبَّق هذه الخطاطة حرفياً. فقد نعثر في الشعر على نصف طنين، أو ثلاثة أرباع طنين، أو طنين، أو طنين وربع، أو طنين ونصف، أو طنين وثلاثة أرباع طنين... أو طْنَيْنَيْنِ ونصف (رباعية)، وطْنَيْنَيْنِ وثلاثة أرباع... أو ثلاثة طنينات ونصف (خماسية)، أو ثلاثة طنينات وثلاثة أرباع طنين...؛ والموسيقى القديمة والمعاصرة تسمح بهذا.

توضيحاً لهذا سنختار مقطوعة «شمس أخرى»؛ وعلى الرغم من الشاعر لم يمنح أجزاءها أرقاماً، فإننا سنعتمد على تكرار بعض التراكيب لتقطيعها:



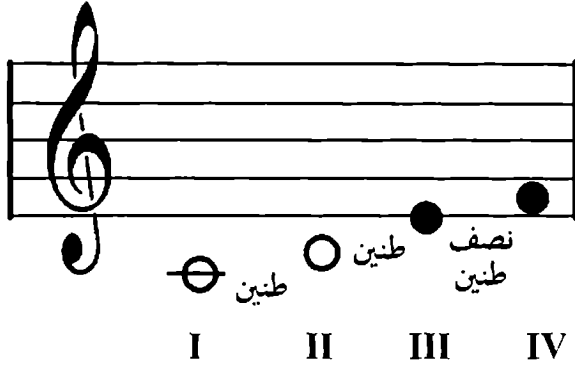
يفرض أن تكون المقطوعة من الذي بالأربع؛ أي أنه ما يتكون من طْنَيْنَيْنِ وبقية؛ سواء كانت البقية في الأول، أو في الوسط أو في الأخير؛ وهكذا، فإن:

$$(12) = (8 - 1) \text{ طنين (دو - ري)}$$

$$(12) = (17 - 9) \text{ طنين (ري - مي)}$$

$$(06) = (30 - 24) \text{ ن. طنين (مي - فا)}$$

وتبيان هذا أن مجموع الأسطر هو ثلاثون؛ وإذ كل طنين يحتوي على أربعة أجزاء، وهناك طنينان ونصف؛ أي: $10 = 2 + 4 + 4$ ، فإن حاصل القسمة $30/10 = 3$ لكل جزء طنين؛ يعني $12 = 4 \times 3$ ؛ وبناء على هذا، فإن معتمد التجزيء سيختلف عما يقدمه التركيب. وتدوينه موسيقياً كما يلي:



ويطلق على النغمة أيضاً اسم المسافة التي لكل واحدة منها وظيفة خاصة؛ وهي على التوالي: الأساسية، وما فوق الأساسية، والوسطى، وما تحت الثابتة؛ وما هو أساسي في هذا التدوين، هو: (I - IV). تتحدث (الأساسية) عن الشمس، والأصيل، والرياح، والغيوم، والشط، والرمال، والتوزيعات الخارجة من أرض خَضْرَاء الضاربة أوتاداً لخيام في الشاطئ، وتعرضت (ما فوق الأساسية) إلى متقابلات كالحضور، والغياب، والملائكة، والشياطين، وثورة البركان، وهدوئه، والعقم، والإنجاب، وأوضحت (الوسطى) الصِّراع بين الماضي، والحاضر، والتواريخ، والمواويل، واليأس، والأمل، والعمى، والإبصار؛ وتمثل (ما تحت الثابتة) سذاجة الأطفال المَهوسين بلعبهم، ولهوهم، وانشغالهم فيما لا يفيد؛ ويوضح هذا أن المقطوعة/اللحن تُصَوَّرُ وضعاً متذبذباً بين الأمل/اليأس، بدون ترجيح جهة على جهة، كما تدل على ذلك النهاية المعلقة: (I - IV).

على أنه من الممكن قراءة هذه المقطوعة بدون اعتبار لما هو أساسي، ولما هو ثانوي، وإنما كل قسم مستقل بنفسه؛ حديث عن (الغيوم)، و(الأغاني...) و(التواريخ...)، و(المضي إلى الحديقة...)؛ ولهذا يصح عكس هذا الترتيب،

والرجوع به الْقَهْقَرَى: (المُضِيُّ إلى الحديقة .)، فـ (التواريخ .)، فـ (الغيوم)، كما يمكن أن يكون الأمر هكذا: (الغيوم، التواريخ)، و(الأغاني - المضي إلى الحديقة).

ما يلفت الانتباه في هذه المقطوعة و(في غيرها) قلة العناصر المكونة للبنية التركيبية: مركب اسمي، ومركب فعلي، مع التقديم والتأخير؛ كما يظهر التقدير فيما يدور عليه الحديث، لكنه يعاد، ويكرر في تماثل، وتوازٍ. ولعل مقطوعات «أعدني... إلى رَجَم المحبرة» جميعها تندرج ضمن هذا التقليل والتقدير؛ إلا أنه أساس التوافقات؛ وهذه تعديل لتعداد المقامات؛ وجميعها تتأسس على التقابلات.

إذا اتفقنا على هذا، فَلَنَتَقَدَّم خطوة للتعرف على أعداد القوالب العروضية/ الإيقاعية سواداً، وبياضاً؛ تحتوي المسافة الأولى، والثانية على (80) قالباً، لكل واحدة منهما أربعون، وأما نصف المسافة فيضم (20) قالباً؛ والقالب هو (فَعْلُنْ - فَعْلُنْ)؛ على أننا لَنْ نَكْتَفِيَ بِالْجَنْبِ، لكننا سنهتم بالبياض أيضاً؛ أو فلنقل بالصمت/ الصُوت. ذلك أن البياض والسواد يتكاملان لإنتاج المعنى والإيقاع؛ لهذا، فإن قراءة الأسطر تستلزم التوقف في أواسط الأسطار، وفي نهايتها، تبعاً للقيمة الزمنية المخصصة لكل علامة.

أشرنا قبل إلى فقر المكونات التركيبية والمعجمية التي تعاد وتُكَرَّرُ؛ وتزداد درجات التكرير حينما تكتب الأسطر بكيفية أخرى:

1 - شمس ورياح وأصيل، وغيوم تمرق فوق رمال الشط...

2 - شمس ورياح وأصيل، وتُؤَيِّجَات تخرج من أرض خضراء...

3 - فتضرب أوتاداً (فوق الشُّط)

4 - وَتَقِيمُ حَيَّاماً (فَوْقَ الرَّمْلِ)

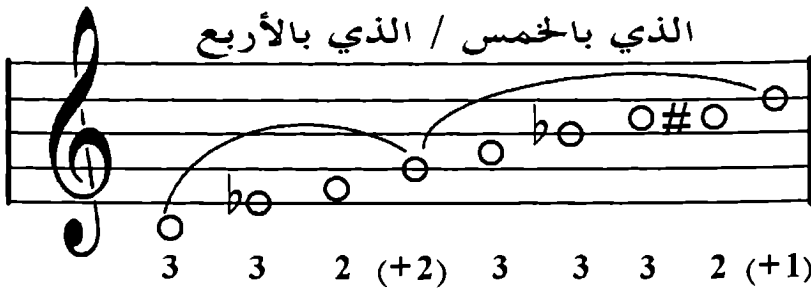
شكل كتابة الأسطر له دور مهم في دلالة المقطوعة، لذلك، فإن الشاعر ملزم بأن يتفطن إلى الفروق بين الكتابة السطرية، وبين الكتابة النثرية، وكذلك المحلل الذي ينبغي أن لا يقتصر على ما يراه بِصَرِّهِ، لكن عليه أن يستخدم بِصِيرَتِهِ أيضاً.

وإذا اخترنا مقطوعة جزأناها إلى الذي بالأربع، فإننا سنتناول مقطوعة (زهرة أخرى)، وسنقسمها إلى الذي بالكُلْ، اعتماداً على المكررات التركيبية:

- 1 - أعرف أن طريقي . . . (1 - 3). (ضو).
- 2 - أعرف أن جبال . . . (4 - 6). (ري).
- 3 - أعرف أن الوحشة . . . (7 - 8). (مي).
- 4 - أعرف أن . . . (9 - 12). (فا).
- 5 - أعرف أن الصوت . . . (13 - 15). (صول).
- 6 - ولذا، أترك سهمي . . . (16 - 18). (لا).
- 7 - لَعَلَّ الزهرة . . . (19 - 20). (سي).
- 8 - أو تخرج . . . (20 - 21). (ضو).

سيراً على التقاليد الموسيقية الإغريقية والعربية وبعض الاجتهادات المعاصرة، فإننا سنعتبر أن ما بين مكررة ومكررة ثلاثة أجزاء من الطنين؛ ومعلوم أن ذا الكل مرة واحدة يتألف من ذي الأربع، ومن ذي الخمس؛ وعليه، فإن التدوين يكون كالاتي:

الذي بالكل مرة واحدة



يقرر المختصون أن النغمات الأساسية، هي: (I - IV - V) يتحدث (الأساس) عن الفَجْ العميق الذي يتسرَّب منه الضوء المنبعث من البحر الهادي،

ويؤكد (فيما قبل الثابتة) عن الدم المسفوح للقاء ذات ضفيرة متعجرفة، وفي (الثابتة) يعبر عن يقين صوت مشدود إلى اللون الأزرق، والأحمر؛ وأما في الثانويات فالكلام عن ذوبان جبال الحب، ومُضيّ الليل، والعمل الإيجابي، والأمل في الحب، والطمأنينة؛ مدار الحديث إذن عن الأمر المصحوب بالعمل؛ وإذا ما توافرت له أسبابه فإن الرّجاء يتحقق: (I - V - I).

إلا أن المقطوعة تتحدث عن موضوعات الطريق المضيء، وجبال الحب، والوحشة، وكبرياء المرأة، ويقين الواصل؛ وكل موضوعة مستقل بعضها عن بعض، إذ ليس هناك وصل لغوي بين المكررات (الموضوعات)، فلا أدوات عطف، ولا ضمائر؛ لكن ما يجمع بينها هو تماثل التركيب:

فعل، وأداة، وجملة، ومكملات

ومحور الذات الشاعرة المتجلية في ضمير المتكلم؛ وهكذا، فإن المقطوعة عبارة عن دفعات عاطفية متتالية تعبر عن توتر عنيف، وعن عزم حاسم لعدم الاستسلام.

على أن القصيدة الأخيرة (إيماءات الولد الدائري) معقدة تستلزم تأنيلاً كبيراً؛ ومما يساعد على التغلب عليه المكررات، وتجزئ الشاعر؛ وبناء على هذا، فإن كل مجموعة أبيات عبارة عن الذي بالأربع، وعن الذي بالخمسة، أو عن أساسية، وما فوق أساسية، ووسطى، وما تحت ثابتة، وثابتة.

(1) - عدم المكوث (الأساسية) I.

- أفول الشمس (ما فوق الأساس) II.

- عدم السفر بعيداً (الوسطى) III.

- عدم كونه نَورَساً (ما تحت الثابتة): IV.

(2) - عدم تذكر أيام الطفولة (الأساس) I.

- عدم استطاعته مدّ اليَد (ما فوق الأساس) II.

- عدم تذكر أفعاله الأولى (الوسطى) III.

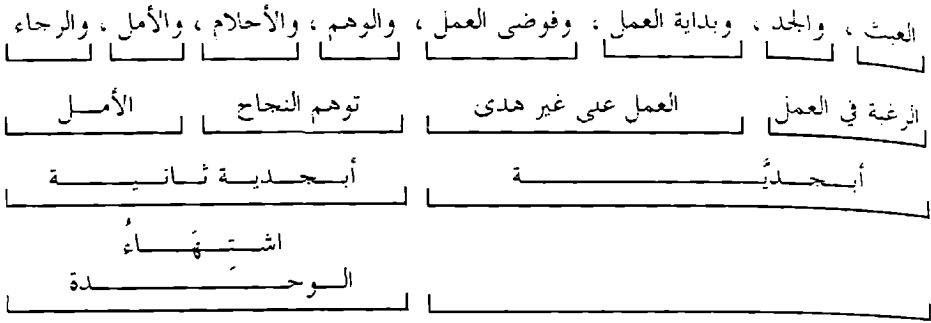
- عدم كونه نَورَساً (ما تحت الثابتة) IV.

- (3) - الولد السعيد (الأساس) I .
 - الرؤيا المبتهجة (ما فوق الأساس) II .
 - الرسم فوق صفحة الماء (الوسطى) III .
 - التمعن في صفحة الماء (ما تحت الثابتة) (I - IV) ؛
 (4) - الولد المتأمل (الأساس) I .
 - مرور الوقت (فوق الأساس) II .
 - الاختلاء بالنفس (الوسطى) III .
 - تعاقب الليل والنهار (ما تحت الثابتة) IV .
 - انقضاء النهار (الثابتة) V : (I - V) ؛
 (5) - تعليم الأبناء كيفية نسيان النَّهار (الأساس) I .
 - تعليم الأبناء كيفية كراهة الشعر (ما فوق الأساس) II .
 - تعليم الأبناء كيفية السباحة (الوسطى) III .
 - تعليم الأبناء كيفية الصيد (ما تحت الثابتة) IV .
 - تعليم الأبناء كيفية السير بتؤدة (الثابتة) V : (I - V) .
 (6) - تعليم الأبناء أبجدية أخرى (الأساس) I .
 - تعليم الأبناء أغنِيَات جميلة (ما فوق الأساس) II .
 - الطيران بعيداً (الوسطى) III .
 - الابتعاد عن الضلالة والوهم (ما تحت الثابتة IV) . (I - IV) .
 (7) - الاشتهااء (الأساس I) .
 - تحقيق الشهوة (ما فوق الأساس II) .
 - لحظة الغفوة (الوسطى III) .
 - نورس (ما تحت الثابتة IV) .
 - الوحداية (الثابتة V) : (I - V) .

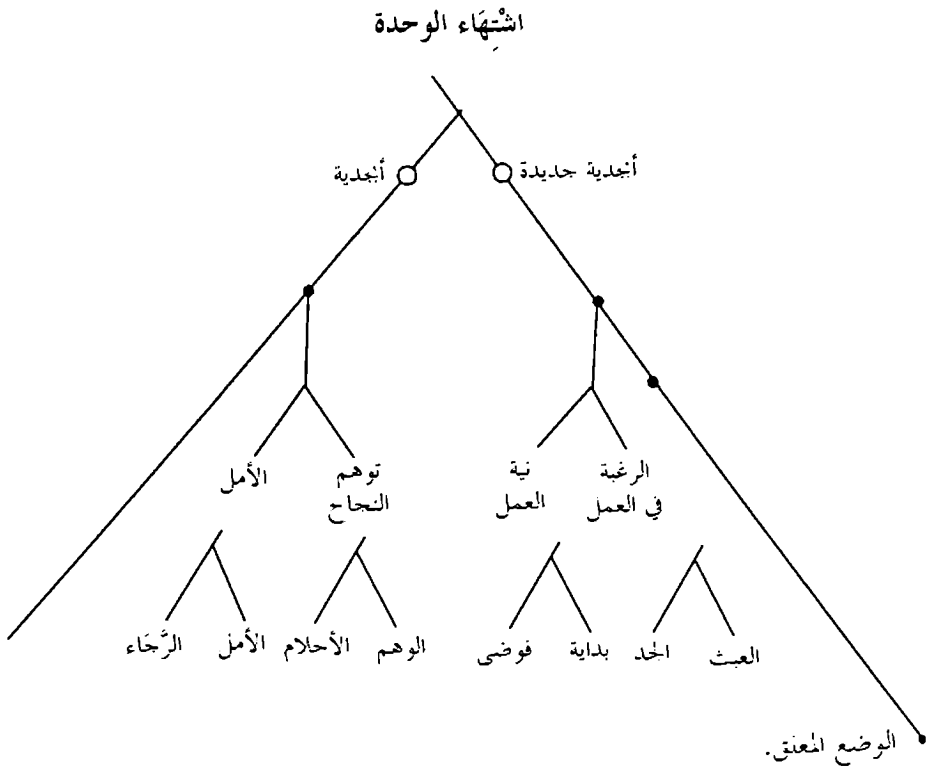
- (8) - بلا مجداف (الأساس I).
 - بلا رؤية (ما فوق الأساس II).
 - إيصاد الأبواب (الوسطى III).
 - توهم مجيء الجد (ما تحت الثابتة IV).
 - مثل الغمامة (الثابتة V): (I - V).
 (9) - طُيُورُ البَجَع (الأساس I).
 - الغيوم (ما فوق الأساس II).
 - ملء أوقات الفراغ (الوسطى III).
 - ملء الأماكن الفارغة (ما تحت الثابتة IV).
 (10) - السهول (الأساس I).
 - الجبال (ما فوق الأساس II).
 - قصر العمر (الوسطى III).
 - الدعوة للحياة في الوحدة IV. (I - IV).

يبدأ هذه المقطوعة بالحديث المتأسف عما لم يقم به، ولم يسع إلى تحقيقه ليصير خُراً طليقاً مثل طير النورس (1، 2)، لأنه غفل، وأزجى أوقاته في فراغ، أو في عبث شبيه بفعل الأطفال، (3، 4)؛ لهذا، فإنه يرغب في أن يعلم أبناءه المفيد ليفعلوه، وينبههم إلى الأوهام، والضلالة، فيَجْتَنِبُوهَا (5، 6)؛ ومن بين ما يَجِبُ أن يبتعد عنه مُخَالِطَةُ الأنام، لكنه لم يَسِرْ على هدى، وإنما صار يخبط خبط عشواء، لأنه لم يهتئ الأسباب والوسائل (7، 8)، بيد أنه لم يفقد الأمل في مجيء أوقات جميلة، وخلوات مُفِيتَة (9، 10)؛ هكذا بقي متأرجحاً بين وضعي الامتلاك (نورس)/النقد (إنسان)؛ والعيش في العماية/النور؛ والعبودية/وهم الحرية؛ ووهم الحرية/التيهان؛ إنه وضع مُعَلَّقٌ بين (I - IV) وبين (I - V).

وعليه، فإن المقطوعة تتحدث عن:



هكذا تنمي المقطوعة بنية عميقة مجردة يمكن تسميتها بـ (اشتهاؤ الوحدة) للخروج من مأزق الاجتماع، مما يتطلب تحصيل مؤهلات جديدة تخالف ما هو معروف، لتحفيز الهمة على العمل؛ لكن الوضع ليس من البساطة بمكان، وإنما هو شديد التعقيد، ممّا جعله يَبْقَى معلقاً، ومزيداً من الإيضاح، فإننا نقترح التشجير الآتي:



وهذه البنية العميقة يمكن اختزالها إلى أن ترجع إلى نواتها الأصلية؛ هكذا يمكن حذف (الرجاء)، و(الوهم)، و(فوضى العمل)، و(الجد) في مرحلة أولى، ثم يزال (الأمَل)، و(الأحلام)، و(بداية العمل) و(العبث) في مرحلة ثانية؛ و(توهم النجاح) و(نية العمل) في مرحلة ثالثة؛ و(الرَّجَاء) و(الرغبة في العمل) في مرحلة رابعة، و(أبجديّة) في مرحلة خامسة؛ ما يبقى، إذن، هو أبجدية جديدة/ الوضع المعلق؛ على أن هذا الاختزال ليس مُتَعَسِّفًا، لأن بنية المقطوعة تسمح به؛ فهي مليئة بالتكرار، وبالتماثل، وبالتوازي، مما يسوغ توظيف المنهاجية المتبعة في هذا المجال، ويجعلها غير متكلفة.

بيد أن الإيقاع ليس موحدًا، فليس هناك قالب واحد، وإنما يتداخل (فَعْلُن - فاعِلُن) مع (فَعُولُن)، مما يحقق تقابلًا إيقاعيًا يُنبئ عن تقابل معنوي؛ الشاعر يتمنى، لكن متمنياته لا تتحقق، وهو لم يُحَلِّقْ فلذلك لم يكن مثل طائر النورس، ولم يُضغْ إلى قَلْبِهِ لِيَلْمَحَ شيئاً يقيه من العناء، ولم يتذكر الطفولة، فلذلك لم يصِرْ حُرّاً طَلِيْقًا؛ ويلاحظ هذا التداخل أيضاً على مستوى تناوب البياض، والسود، لكن الإيقاع الشعري يتكون منهما معاً، سواء أكانا متساويين أم كان أحدهما أكبر من الآخر؛ وإذ أثبتنا الطريقة التي يمكن أن تستخدم لمعرفة ذلك، فإننا نكتفي بالتذكير بها فقط؛ وهكذا، فلنأخذ مفردة واحدة؛ مثل:

وَحِيداً

المقاطع	:	و	حـ	دَن
أسمائها	:	قُصَّار	طويل	أقصر
الهيكل	:	c v	c v v	c v c
علامات الزمن:		⏏	⏏	⏏
أسمائها	:	ذات ثلاث	سوداء	ذات
		أسنان		سنين

- قيمها : $\frac{1}{8}$ 1 $\frac{3}{8}$ = $\frac{1}{4}$ 1.

وإذا ما افترضنا أن المقياس الزمني : فإن ما يتبقى للبياض ؛ هو : $2\frac{1}{4} = 1\frac{3}{4} - \frac{4}{4}$ أي
(لحظة 2)، و $(7\frac{1}{4}$ لمحّة)؛ وأما ما من حيث الزمن القوي، أو الضعيف، فإنه تابع
لنوع المقطع وقيّمته ؛ لهذا، فإن :

< < < <

(آه، لَو أَتْنِي مَكْنُتُ قَلِيلًا قَلِيلًا)

آ	:	قوي
هـ	:	أَقْلُ قُوَّةً
لَو	:	أَقْلُ قُوَّةً
أَنْ	:	أَقْلُ قُوَّةً
ن	:	أَضْعَفُ
ني	:	قوي
م	:	أَضْعَفُ
كث	:	أَقْلُ قُوَّةً
ت	:	أَضْعَفُ
ق	:	أَضْعَفُ
لي	:	قوي
لَنْ	:	أَقْلُ قُوَّةً
ق	:	أَضْعَفُ
لي	:	قوي
لَا	:	أَقْوَى

خاتمة

تبين لنا مما اخترناه من نماذج أن البنية اللغوية السطحية، وبنية بياض الصفحة، جاءت كاشفة عن البنية العميقة الموسيقية، والصمتية؛ وهي بنيات تعبر عن حالات الحزن، والحيرة، والاضطراب، واليأس، والشك من جهة، وحالات الفرح، والثبات، والسكون، والأمل، واليقين، من جهة. فقد ندم الشاعر على ما فرط في جنب العمل الصالح وإن كان لمن الجادين المخلصين، لكنه لم ييأس من روح الله؛ هذا الوضع المعلق هو من خواص تفكير الشاعر المعاصر الذي يعيش في ارتياب دائم.

3 - بنية ارتيابية

هذا الوضع يتجلى بوضوح في ديوان «هَكَذَا سُدىً»؛ إنه ارتياب يهيمن على الشاعر والمؤول معاً؛ يجمع هذا الديوان بين المسطور، والمنثور، مما جعل فضاء الصفحة حلبة للصراع بين البياض، والسواد، وبين الصمت، والصوت، كما أن بعض مقطوعاته لا تقدم مؤشرات لغوية، أو رقمية، يستند إليها لتجزئ المقطوعة؛ على أنه فصل أحياناً بين الفقرات بالبياض، أو بالتبشير الخطي. وقد ارتأينا أن نقارب (بحار مالك بين الرئب) لنبرز من خلالها تقنيات الشاعر لتوصيل رؤياه الفنية.

سَنَتَّخِذُ هَادِياً لَنَا، جَوْساً خِلالَ أبيات المقطوعة، بعض المعالم التي يقدمها لنا الشاعر، مثل علامات الرقم من تعجب، واستفهام، ونقط، ومثل التبشير على بعض التراكيب، ومقدار البياض، والسواد، وكيفية تجلياتهما في الصفحة؛ وتوهم الاشتراك المعنوي، والمفارقات الصّادمة لعادات القارئ اللغوية، والفكرية، وتداخل الإيقاع، أدت إلى توافقات دلالية. هكذا يجد القارئ:

عَجَبًا!

فَمَاذَا... عَلَى رَأْسِي؟

(... من جَدِيدٍ).

(...) الْمَغْنَى.

(...) الطرايش.

(...) الرُّوح.

(...) القَتِيلَةُ.

وهناك أربعة تَبْشِيرَات يقع أولها، وثانيها، وثالثها، في نهاية كل مقطع، وأما الرابع، فيأتي في نهاية صفحة بيضاء مكتوباً بكيفية متدرجة، كما أن هناك ستة مقاطع سوداء: ثلاثة كبيرة، وثلاثة صغيرة؛ وأما الوحدات اللغوية فيمكن توهم الاشتراك المعنوي فيها، مما يؤدي إلى المفارقة الصادمة:

● كَدَمَاتٌ أُنِيقَةٌ يَلُونُ رَائِحَةَ الْبَنْفَسَجِ عَلَى أَفْخَاذِ الْغَيْومِ مِنْ طُولِ احْتِكَاكِهَا بِالْهَوَاءِ.

● كَدَمَاتٌ (مؤلمة) يَلُونُ سَمَنْجُونِيٍّ عَلَى أَفْخَاذِ (النساء) من طول احتكاكها (بالهوى). (الجنس).

● (كلمات) أُنِيقَةُ بِلُونِ المِدادِ السَّمَنْجُونِيٍّ عَلَى (أديم الصفحات) من طول احتكاكها (بالقلم). (الكتابة).

● المفارقة: كدَمات/ كلمات؛ لون البنفسج/ أثر الاحتكاك؛ النساء/ الغيوم؛ الغيوم/ الصفحات...

لتبيان التوافقات الدلالية، فإننا سنلجأ إلى تَجْزِيءِ المقطوعة، معتمدين على التبشير الكتابي، والبياضي؛ لهذا، فإن النغمات تكون كالآتي:

● كَدَمَاتٌ... بِأَنَامِلِ الماء.

● نحن الآن... عَلَى رَأْسِي.

● والغبار... أَبَادُونًا.

● فَخُوضِي... أَخْوَاشِ الرُّوحِ.

● أَكِيدُ... أَرْوَاحَ الْقَتِيلَةِ.

I - تتحدث عن : أدوات الكتابة :

- الكدمات (الكلمات)

- الغيوم (المداد)

- الرغبة في الكتابة

- الحاجة إلى الكتابة

II - تَتَكَلَّمُ عن : أشكال الكتابة :

- البحر الشعري

- خدعة الحكي والأساطير

- زَيْفُ الكتابة

- حَمَاقَات الكتابة

III - تحتوي على مكونات الكتابة :

- المداد

- الصفحة

- البَيْت الشعري

- البحث عن المعنى

IV - تشتمل على التّدوين :

- شكل تدوين الكلمات

- تسويد الصفحة

- إغراء القلم

- تشييد بيوت واهية

٧ - تعبر عن كنه الكتابة :

- مزاولة الكتابة

- فعل الكتابة

- أَلَمَ الكتابة

- استنباط القريحة

IV - توضح غايات الكتابة الزائفة

- قريحة باردة

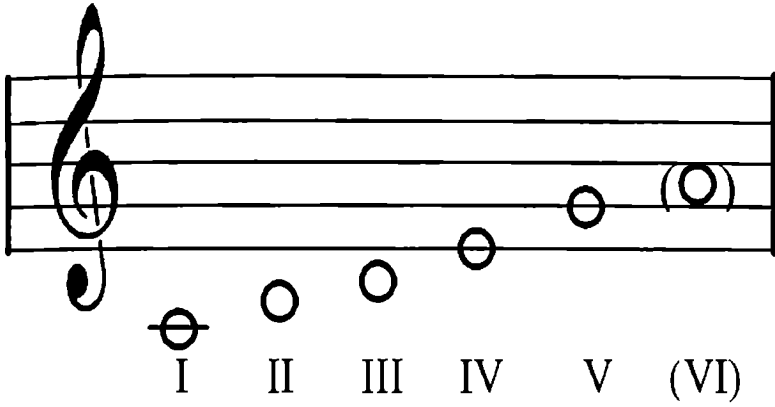
- التدجيل بالكتابة

- قتل الحقيقة بالقصيدة

- اللأْمَعْنَى.

يتبين من هذا أن الموضوعة المهيمنة هي الكتابة؛ على أن بعض القراء يمكن أن ينازع في هذا، فلا يرى تلك الموضوعة إلا واحدة من بين موضوعات أخرى، مثل الجنس، والتَّديُّن، والتَّمَيُّع؛ هناك حديث عن الرّائحة، والأفخاذ، واللباس الغجري، والإغراء، والجَزَّ من القميص، وعن الملائكة، والبوذيين... وعن الفيض؛ وعليه، فإن المقطوعة الشعرية تعبر عن ضرورات الحياة البشرية؛ وهي موضوعات متداخلة لا تُهَيِّمُ إحداها على الأخرى؛ كما أنها تركز على إبراز المفارقة على جميع المستويات: الرقص/الموت؛ الحلم/اليقظة؛ التعقل/التحمق؛ القتل/الإحياء؛ الحرارة/الزَّمْهَرِير؛ المقدس/المدنس؛ البراءة/الحيلة.

من المحتمل أن تتحقق هذه المفارقة على مستوى النغمات أيضاً؛ وتبيان هذا لمن لا يعرف قواعد الموسيقى سواء أكانت مقامية، أم تناظرية أم توافقية أم تسلسلية:

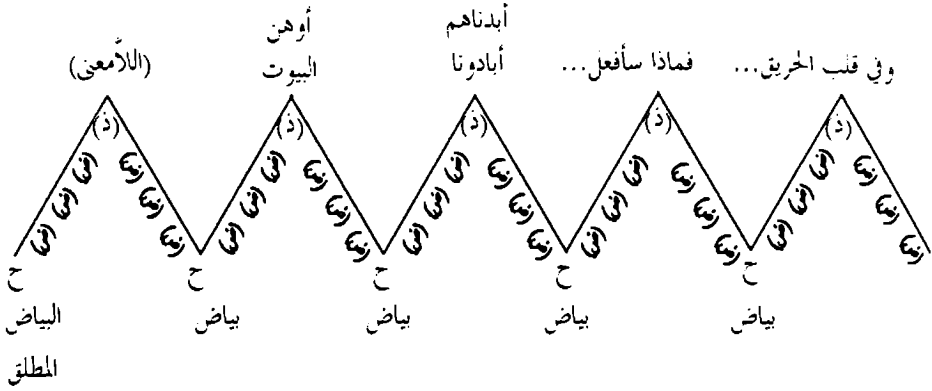


ما هو أساسي (I - IV - V)؛ أي (أدوات الكتابة، وتدوين الكتابة، وكنه الكتابة، وكنه الكتابة)؛ وأما هو ثانوي فهو: (II - III)؛ أي (أشكال الكتابة، ومكونات الكتابة)؛ وإذ الأمر هكذا، فإن عملية الاختزال تجوز في هذه البنية؛ هكذا يمكن اتباع الخطوات الآتية لتحقيقها:

أدوات الكتابة - أشكال الكتابة - مكونات الكتابة - التدوين - كنه الكتابة - الكتابة الزائفة					
اللامعنى		تدوين الكتابة		أدوات الكتابة	
الكتابة المزيفة		مكونات الكتابة			
اللامعنى				أدوات الكتابة	
الكتابة المزيفة					
اللامعنى					
الكتابة المزيفة					

وكما تمّ الاختزال، فإنه يمكن أن ينجز التمثيط الذي يحصل بالتنافر، والتناسب، منطلقاً من الحضيض إلى الأوج، ونازلاً من الأوج إلى الحضيض،

مع الأخذ بعين الاعتبار نوعاً من التدرج في حالتي الترقى، والانحطاط. وستتخذ هَادِيَنَا لرصد هذه العمليات صنيع الشاعر نفسه الذي يتأسس على التبشير الكتابي، والبياضي:

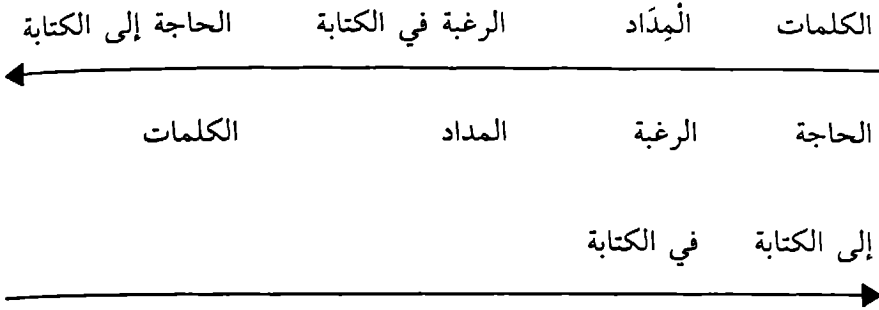


على أن مُحَلِّلاً آخر قد يَنَازِع في هذا الصنيع فيرى أن المقطوعة تنقسم إلى مقطعين رئيسيين:

(1) من البداية إلى: أبدناهم
أبادونا؛ وهو يحتوي على مكونات الكتابة، وأشكال الكتابة، والتباس أدوات الكتابة.

(2) من أبدناهم
أبادونا إلى النهاية، وهو يضم تدوين الكتابة، وكنه الكتابة، واللامعنى بحيث إنَّ كل مقطع يقابل الآخر؛ أي:

مكونات الكتابة (ع) تدوين الكتابة؛ وأشكال الكتابة (ع) كنه الكتابة؛ وأدوات الكتابة (ع) اللامعنى. إلا أن الطرفين يكمل بعضهما بعضاً في هذا التقابل؛ هكذا يُقابل: (VI) (I)؛ و (V) (II)؛ و (IV) (III)؛ على أنه من الممكن مقابلة تسلسل بتسلسل، كأن يقترح ما يلي:



يتبين من هذا أن المقطوعة تحتل أن تقرأ مقامياً وتناظرياً وتوافقياً وتسلسلياً، لأنها ليست خالصة مخلصاً لكيفية من التأليف، لكن فيها تداخلاً، وتشابكاً على مستوى الإيقاع العميق الذي يتجلى في الأصوات وفي المفردات، وفي التراكيب وفي الدلالة؛ لتوضيح تشابك وتداخل البنية الإيقاعية ننظر في المثال الآتي:

كَدَمَاتٌ أُنَيْقَةٌ بِلَوْنٍ رَائِحَةِ الْبَتْفَسَجِ عَلَى أَفْخَاذِ الْغُيُومِ مِنْ طُولِ اخْتِكَاكِهَا
بِالْهَوَاءِ.

كَدَمَاتٌ	فَعِلَاتُنْ
أُنَيْقَةٌ	مُتَفَعِّلُنْ :
بِلَوْنٍ رَا	مُتَفَعِّلُنْ :
رَائِحَةِ الْبَتْفَسَجِ	فَعِلُنْ :
أَفْخَا	فَعْلُنْ :
ذَالْغُيُومِ	فَاعِلُنْ
مِنْ طُولِ	فَعُولُنْ
لِاخْتِكََا	فَاعِلُنْ
كَهَا بِأَلِ	فَعُولُنْ
هَوَاءٍ	فَعُولُنْ :

أوضحنا في موضع سابق أن: /فَعُولُنْ/ع/فاعِلُنْ، وأن المتولدات عن/

فعولن/هي/مفاعيلن - مفاعِلَتُنْ/، ومنتجات/فاعِلن/هي/فاعلاتن - مستفعلن - متفاعِلن/. وقد قررنا حينئذ أنه يقع الانتقال من تفعلة إلى تفعلة دَاخِلُ البنية الواحدة، فيكون الإيقاع متناسباً، ومن تفعلة إلى تفعلة من بنية معاكسة، فيكون الإيقاع متنافراً؛ وواضح من المثال أن ما يهيمن هو التناسب، وقد يشي بالتنافر؛ وعليه، فإن هناك تداخلاً بين الإيقاعات؛ كما أن هناك تَبَرُّاً ذا مستويات عديدة تبعاً لطبيعة المقاطع:

الطوال: رَاءٍ... لَى أ... وَاءٍ؛ أي أربعة أزمنة: (مستديرة:).

الطويل: مَاءٍ، نِي، رَاءٍ، خَاءٍ، يُو، طُو، كَاءٍ؛ أي زمن واحد (سوءه ٣).

أقصر: ثُنْ، ثُنْ، لَوْ، بَلْدْ، ثَفْ، سَجْ، أَفْ، ذَلْ، مِثْنْ، لِحْ/بَلْ؛ أي ربع زمن (ذات سنين: ٤).

يجد القارئ التداخل على مستوى البياض، والسَّواد، أيضاً؛ في مقطوعة (بحار مالك بن الريب) يكتسح البياض السواد أحياناً، ويهيمن السواد على البياض أحياناً أخرى، كأن تكون الصفحة بيضاء إلا جزءاً قليلاً منها؛ وقد لاحظنا أنه يكمل إيقاع السواد، فيكونان معاً نهايةً بنوية يعكسها فضاء البياض، وتكثيف خطي، ومعنوي.

خاتمة

يجد القارئ المعتاد على الشعر العربي القديم، وعلى الشعر الذي يعبر عن المعاني بوضوح، صعوبة جملة لإدراك معاني كثير من النصوص الشعرية المعاصرة. ويدراً هذه الصعوبة بالقول المأثور: «إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل»، أو بالسخرية من شعر: «خبز، وزيتون، ومغفرة من رَبِّ رحيم». والدواوين الثلاثة التي وظفناها لإنجاز هذا الفصل قد تُعَدُّ من قبيل الكلام الباطل، أو الهذيان، وإن كان يتجلى فيها بدرجات متفاوتة.

لو أننا سائرنا هذه الآراء الرائجة لدى كثير من النَّاس لَرَفَعْنَا القلم واستَكَنَّا إلى راحة القلب والعقل، لكننا أَبَيْنَا إلا أن يكون القلم مُعَلِّماً لنا، والقلب، والعقل، في عذاب المعرفة السَّرْمَدِي. لهذا حاولنا تقديم منهاجية ملائمة تقرب هذا الشعر إلى القراء زُلْفَى مهما اختلفت أنواع ثقافتهم، وأعمارهم، وتجعل ذلك

الهديان، أو الجنون، أو الحُمَق، أو السحر... منطقاً استدلالياً، وعقلاً خالصاً، وحكمة حكيمة، وحقيقة الحقائق؛ هكذا تبين لنا أن تلك الدواوين الثلاثة تحتوي على قضايا شغلت المفكرين، منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا، كقضية قدرة اللغة، أو عجزها عن التعبير عن السرائر، والظواهر، ومسألة كنه الكتابة الشعرية، ودورها في العالم المعاصر.

لقد استندت تلك المنهاجية إلى حقائق علمية أكدت عضوية الكائن البشري في هذا الكون، وإلى أطروحات فلسفية اعتمدت على فلسفة انتظام الكون، وإلى طرق إجرائية اقتبست من علم الموسيقى؛ وبهذا زعمنا أن تلك الدواوين ذات رؤية بعيدة المدى تجمع بين الكوني، والمحلي، والمجتمعي، والذاتي، بوسائل تعبيرية تظهر غير مألوفة بالنسبة لمن لم يدخل مضائق العلوم المَعْرِفِيَّة، ويتعرف على مكوّناتها.

الفصل الثاني

الانفراد والاجتماع

تمهيد

تناولنا في الفصل السابق ثلاثة دواوين تحدثت عن أزمة الشعر، والشعراء، في سياق عام وخاص؛ وتفرض ضرورة التاريخ أن يعبر ديوان «على انفراد» عن القضية نفسها، لكنه لا يَقِفُ عندها وحدها، وإنما يتعداها للكلام عن هموم أخرى تَشْغَلُ تجربته الشعرية. وقد نبهت دراسات قيمة إلى ما اهتم به حسن نجمي، مثل تداخل الأجناس الفنية، وخصوصاً الشعر، والتشكيل، واندماج الذات بالمجتمع، وتفاعل السياسي مع الإبداعي...؛ وقد تنوعت المستندات المعرفية التي اعتمدت عليها تلك الدراسات، فاستوحى بعضها من تصورات فلسفية مثالية، ومن مقاربات تذوقية انطباعية؛ واقتبس بعض آخر منها مفاهيم سيميائية، وبلاغية معاصرة.

سنحاول، في مقاربتنا هذه، أن نسير في الطريق الذي خططنا، وألْزَمْنَا به نَفْسَنَا للسَّير فيه؛ ذلك هو محج العلوم المعرفية المعاصرة، بما تفتضيه من أطروحات فلسفية، وعلمية، وهو رصد أصداء الحياة العامة العالمية، والعربية، والمغربية، في الآثار الإبداعية، ولا سيَّما ما كان متصلاً منها بمصير الأمة، في مفهومها الشامل، والخاص، وهو اقتراح مفاهيم إجرائية مرتبطة أوثق الارتباط بالمادة المحللة، تجنُّباً للمبالغات الناتجة عن توظيف مفاهيم مضللة للمبدع، وللمتلقي معاً؛ إن المفاهيم الواصفة المستمدة من الإبدال العلمي المعاصر تعصم من السقوط في المثالية المفرطة، وفي الواقعية الفجة، وفي شرك لَذَّةِ الأساليب التي تُكوِّنُ شعراً على شعر معاً؛ وسَتَقْدُمُ بَيِّنَاتُنَا على هذه الدعوى في ثلاث

فقرات أساسية؛ أولاً تختص بآليات تحقق النص، وثانيها بما قبل التحقق، وثالثها بما بعد التحقق.

I — الآليات

يقتضي هذا التصور أن يعاد النظر في كثير من المفاهيم الرائجة في تحليل الخطاب الشعري، وفي السُردِيَّات، وفي غيرها؛ ومن بين تلك المفاهيم (التناس). وعلى الرغم من أنه من مواليد ما بعد الحداثة، ورواجه وانتشاره، فإن معطيات الوقت الحاضر العلمية، والفنية، والنصية، توجب تدقيقه، وتفريجه؛ لهذا، فإننا سنُدمجه، ومفاهيم أخرى، في مقولة عامة؛ هي (التذاكر)؛ وبهذا نضع المفاهيم الآتية: (1) التناس، (2) التَّبَايُض، (3) التَّفَان، (4) التشاكل.

1 — منعطف الجسد

يتلخص جوهر المقولة في أن الإنسان (والحيوان) له نسق حسي عام يتفرع إلى أنساق تقتبس المعلومات من العالم الخارجي؛ وهي النسق السمعي، والنسق البصري، والنسق الذوقي، والنسق الشَّمِي، والنسق اللمسي. وقد نالت هذه الأنساق عناية تحليلية فائقة من قبل الأطباء والعلماء... والفلاسفة الإدراكيين الجدد المَدْعُوعِينَ بـ (فلاسفة الذهن). وقد وسم هذا الاهتمام العام بـ (منعطف الجسد)⁽¹⁾؛ وجل أبحاث هؤلاء تُنَبِّه إلى أن ما يدرك بالأنساق الحسية يُنْتَقَى منه، ويغربل، ويَصْفَى، لأنها ليست مجرد آلة لاقطة للمادة الخام كما هي؛ فهي تحلل، وتركب، وتزيد في المدرك، أو تنقص منه، بل وتنخدع أحياناً. إن ما ينتقى، ويؤلف، يخزن في باحة تسمى (الذاكرة)⁽²⁾؛ وقد أفاض المختصون في تحليل مكوناتها، وتسميتها، وتصنيفها، وتبيان وظائفها؛ هكذا يجد القارئ حديثاً عن ذاكرة المدى الطويل، والقصير، والإجرائية، والدلالية، والمرحلية... والحكاية، والأسطورية، والنظرية؛ على أن ما يهمنا التنبيه إليه هو أن الذاكرة مُتَزَمِّنة، وَمُتَمَكِّنَةٌ، وَمُتَقَوِّلَةٌ؛ أي أنها في صيرورة دائمة، وليست شيئاً قاراً جامداً، كصندوق، أو وعاء، لكنها تتكون من مجزوءات تتحرك وتعمل، وتنفعل، في مكان خاص من الدماغ.

(1) يراجع فصل (المبادئ المعرفية) بالجزء الأول.

(2) انظر الفصل المذكور أعلاه.

2 - تَعَدُّ الوظائف

هكذا يسلم العلم الخالص بنسبية الإدراك، تَبَعاً لفعل الأنساق التي تَنَسِّم بالمحدودية؛ وإذ الأمر هكذا، فإن الطاقات التعبيرية للغة الطبيعية غير كافية؛ وقد تنبه إلى هذا الوضع كثير من المفكرين القدامى، لكن هذه الوجهة من النظر انتشرت لدى أهل الحداثة، وما بعد الحداثة؛ على أن هناك اجتهدات نظرية وعملية حاولت أن تعدد وظائف اللغة حتى يمكن التغلب على فقر اللغة وعجزها⁽³⁾؛ وبهذا لم تبق وظيفتها الوحيدة التواصل⁽⁴⁾، لكنها أسندت لها وظائف أخرى ثقل، أو تكثر، بحسب وجهات النظر؛ وأهمها هي التفاعل⁽⁵⁾، والتداوت، والتذويت⁽⁶⁾؛ وما أسهم في هذا الجهد نظرية الأفعال الكلامية، والتداوليات، وما تفرع عنهما، كما أن المناخ العلمي الفلسفي كان سبباً قوياً في شيوع ثقافة التعدد، والاتحاديد، واللايقين⁽⁷⁾. في ضوء هذا يجب فهم المفارقة السائدة الآن: الادعاء بعجز اللغة من جهة، وتبني تعدد المعاني، والفيض الدلالي من جهة⁽⁸⁾.

تتجلى هذه المفارقة التي بَارَها مناخ ما بعد الحداثة في إبداعات شعرية، وتشكيلية، وهندسية، وموسيقية كثيرة. ذلك أن مِنْهَا أعمالاً تتسم بالتكرار لعناصر، أو مكونات، قليلة، رتبة مُطَرَّدة، ظهرت في أمريكا بالمنتصف الثاني من القرن العشرين، ثم تَسَرَّبت إلى أوروبا، مقلدة ما هو موجود في الشرق الأقصى (الهند، وأندونيسيا) وفي إفريقيا (الملونة خصوصاً)، ومحاكية لثقافاتهما الشعبية⁽⁹⁾؛ كما أن كثيراً من الإبداعات متشعبة، فوضوية، عمائية، سديمية، هجينة⁽¹⁰⁾؛ إن لكل من الاتجاهين أنصاره؛ هناك الداعون إلى التعبيرات الفطرية عن

(3) من بين هؤلاء ياكسون ومن تبعه، مما هو معروف لدى المهتمين.

(4) وجهة نظر المدرسة اللسانية الوظيفية.

(5) النظرة التداولية التي ابتدأت مع أوستين، وسورل، وخصوصاً ما يدعى بالأفعال الكلامية.

(6) يراجع في هذا الشأن نظرية التَلَفُظ التي ألقت فيها كتب كثيرة.

(7) نظريات ما بعد الحداثة العلمية والأدبية.

(8) لا ضير في وجود المفارقة لأن عليها تُؤَسَّسُ النظريات العلمية والفلسفية... وغيرها.

(9) ينظر في هذا ما يكتب حول النظرية التقليدية في الفنون.

(10) تُطَالَعُ الأدبيات حول نظرية الكوارث، والعماء.

الطبيعة المادية، والبشرية الأولية، فلجأوا إلى الحديث عن الحياة اليومية، وإلى الشذرات التعبيرية؛ وهناك المنادون بالتعقيد، وبالأليقين، وبالاتباس في المعرفة، وفي الفكر؛ من بين أولئك الاتجاه التقليدي، ومن بين هؤلاء أدباء، وفلاسفة، ما بعد الحداثة؛ على أن المناطق، وبعض اللسانيين التوليديين، وبعض السيميائيين حاولوا أن يستبدلوا باللغة الطبيعية اللغة الاصطناعية الرمزية. كما أن المهتمين بالتواصل، وبدراسة الحركة، ودلالاتها، أبانوا في أبحاثهم أن اللغة ليست إلا وسيلة من بين أدوات تواصلية أخرى.

ضمن هذا السياق يجب أن توضع دراسات الشعرين للبياض، والسواد في الصفحة، ولعلاقة الصمت بالصوت، والكلام بالوقف، تبعاً لما فعله أسلافهم في دراسة أنواع الوقف من تام، وناقص، وطبيعي، واصطناعي، للدلالة على معان معينة، ومغاز خاصة⁽¹¹⁾، واقتداء بأهل الموسيقى، وتقنينهم للصوت، والصمت؛ لهذا، فإننا سنستخضر كل هذه المعطيات لقراءة ديوان «على انفراد»⁽¹²⁾.

3 - التناص

إذا تذكرنا مقولة (التذاكر) ومفاهيمها، فإن ما سنعالجه هو التناص، ونعني به أنواع حضور اللغة الطبيعية، سواء أكانت كلمة، أم تركيباً لغوياً ذا قول، أو جملة، أو نصاً، في كتابة شخص، بمعناها الأصلي، أو بالتصرف فيه ضرورياً من التصرف؛ ونقصد به أيضاً تكرار الأصوات والحروف، والكلمات، والتعابير، في النص الواحد، وتداخل النصوص، وتحاورها في عدة نصوص داخل مجموع واحد؛ وبناء على هذا أسميناه النوع الأول (التناص الخارجي)، والنوع الثاني، والثالث (التناص الداخلي).

أ - التناص الخارجي

يتألف (التناص الخارجي)⁽¹³⁾ من مكونات عديدة؛ منها أسماء الأعلام،

(11) نشير إلى القراءة، وإلى نظرية الوقف التي تبحث فيها مدرسة سلكرك. ينظر فصل (النظرية الإيقاعية) من الجزء الثاني.

(12) حسن نجمي، على انفراد، منشورات عكاظ، الرباط، 2006.

(13) تناولنا هذا في كثير من كتبنا.

ولغة الحياة اليومية، واستحضار مناخ قصائد، وأشكال تعبيرية، وتشكيلية. وتنظيرات نقدية.

1 - أسماء الأعلام

أول ما يثير الانتباه هو ما يدعى بـ (عتبات النص) التي تتجلى في ذكر أسماء الأعلام، مع بعض أقوالهم، أو بدونها؛ مثل إسحاق الموصلي، وأ. زن كوان، ومحمود درويش، وبورخيس، ورولان بارت، ومحمد شكري، وأدونيس...؛ وهناك الإهداء إلى أشخاص لهم إسهامهم في الأدب، والفن، مثل سَعْدِي يوسف، وصبحي حديدي، وجلال الحكماوي، ويحيى بن الوليد، وإدريس الخوري، وعبد الله شقرون، ومحمد بَهْجَاجِي...؛ وَتُكَوَّنُ هذه الأسماء الموردة أقوالها، أو المهدى لها، مفاتيح لقراءة الديوان، أو لمعظم قصائده على الأقل؛ ذلك أن ذكر اسم الشخصية فوق المقطوعة، أو في أي موقع مِنْهَا، يجعله مُوجَّهاً إلى مضمونها، وإلى معناها، وإلى دلالاتها، بدرجة من الدرجات؛ إن ذكر تلك الأسماء يُكَوَّنُ منها مادة إبداعية، بأقوالها، ومكتوبها، وسلوكها، يوظفها الشاعر لخدمة أطروحته، وأسلوبه، ومناخ تفكيره؛ وأوضح دليل على هذا القصيدة المعنونة بـ (رولان بارت)⁽¹⁴⁾ التي صيغت في ضوء بعض ما جاء في كتاب «وقائع»، مع التنويع عليه؛ وهو يستوحي من حياة القاص إدريس الخوري، وآثاره لتأليف قصيدته⁽¹⁵⁾، وهو يتخذ اسم عبد الله شقرون ليجعل وسيلة للحديث عن نهر أبي رقرق⁽¹⁶⁾، أو اسم صمويل لِيَتَعَرَّضَ إلى محنة العراق⁽¹⁷⁾، أو اسم بورخيس⁽¹⁸⁾ لِيَتَّخِذَ ذريعة ينمي عليه موضوعة الليل/النهار؛ والنور/الظلمة؛ والعماء/الرؤية.

2 - لغة الحياة اليومية

إذا كانت أسماء الأعلام وجهت نصوصه، وحددت مقاصدها، ومداهها، فإن

(14) حسن نجمي، على انفراد، مرجع سابق، ص. 28-30.

(15) المرجع المذكور، ص. 70-71.

(16) المرجع المذكور، ص. 64-65؛ 85.

(17) المرجع المذكور، ص. 91.

(18) المرجع المذكور، ص. 13-16؛ 17-18.

مفردات اللغة الشعبية كان لها دور كبير في ربط نصوصه بموضوعات، وتعابير قد لا يتقبلها من اعتاد على عتاقة اللغة الفصيحة إلا على مَضَضٍ؛ ذلك أن هناك حديثاً عن السكر، والتَبَوُّل، والحانة، والمكان النجس، والتَّقْيُّؤ، كما أن هناك استعمالاً لبعض التشبيهات الجزئية الجارحة، مع اعترافه بقساوتها:

فِي طَنْجَةٍ، عَلَى الشَّاطِئِ، رَأَى عُمَالَ الْبَلَدِيَةِ الْمُسَيَّنِينَ يُنْظَفُونَ الرَّمْلَ.

(كأنوا مثلاً حَشَرَاتٍ مُنْهَذَةٍ مُتَبَاظِمَةٍ... في فداحة التَّشْيِيهِ)⁽¹⁹⁾.

والألفاظ الدَّخِيلَة، مثل: «الأوطوسطوب»، و«الماندارين»، والتعابير الأعجمية المكتوبة بحروف لاتينية⁽²⁰⁾. إنها مفردات، وتعابير، واستعارات، وتشبيهات، مستمدة من سِجَلَاتٍ أطر فكرية معينة خاصة بمجموعات ذات أوضاع ثقافية، واجتماعية، يعيش أغلبها حياة خاصة؛ لكن الشاعر جرى على ديدن الشعراء الطلائعيين الحداثيين، وما بعد الحداثيين، فأوجد لها مكاناً في ديوانه.

3 - مناخ التمرد

في ضوء تردد أسماء عديدة، مثل أدونيس، ودرويش، وسعدي يوسف... وغيرهم، يمكن أن تقرأ عدة قصائد من الديوان؛ ولعل خير ما يمثل هذا قصيدة (في الطريق إلى كالا) (عن يَانِيْس رِيْتَسُوس⁽²¹⁾)؛ يشير الشاعر إلى مضامين وخصائص ومناخ ثقافي معين:

لَوْلَا إِيْمَاءُكَ وَالْإِبْرُوتِيكَا، وَالْحَائِكُ عَلَى أَوْتَارِ الْكَلِمَاتِ، وَلَيْلُكَ الْهَلِينِي،

لَوْلَاكَ، يَا صَدِيقِي - كَيْفَ كُنْتُ سَأَفْتُ كُلَّ هَذَا الْمَلْحِ الَّذِي تَحْخَرُ فِي

شَرَايِينِ الْقَصِيدَةِ؟

بل إن كثيراً من قصائد الديوان نسجت من استحضار آثار بعض الأسماء التي ادخرت الذاكرة بعضاً مما عندها، كما هو شأن قصيدة (برج السُّدْرِيَّة)⁽²²⁾، إذ

(19) المرجع المذكور، ص. 28.

(20) المرجع المذكور، ص. 33-34؛ 40.

(21) المرجع المذكور، ص. 21-25.

(22) المرجع المذكور، ص. 32-34.

يذكر فيها بودلير، وأبولينير، وبير جان جوف... وأدونيس، ومحمود درويش، وريتسوس... والمُعْتَنِينَ الشَّهِيرِينَ شارل أزنافور صاحب (البوهيمية)، وإديث بياف شادية (لا أندم على شيء)؛ إنه تجميع لأسماء؛ كل واحد منها يوحي بتغيير، أو بفكرة، أو بمناخ من الفرح، أو الحزن؛ وسواء أكان المناخ نتيجة قصائد شعرية، أم مناخ موسيقي/شعر، فإنه مَلِيءٌ بالقلق، والقَرْفِ والاشمئزاز؛ إنه مناخ الفلسفة الوجودية بِمُتْهَدَاتِهِ وتَدَايِعَاتِهِ: (الاهتمام بالمهمشين، والثورة الطلابية، وفلسفة الاختلاف...).

4 - روح شعراء ما بعد الحداثة

تتغلغل في أعماق قصائد الديوان روح شعراء الحداثة، وما بعد الحداثة، من حيث الأسلوب السردى، أو الوصفى، ومن حيث المفردات اللغوية، حتى إن كثيراً من القصائد، والشذرات تشبه التاريخ، أو السيرة الذاتية، أو الأناسة الوصفية، أو التعابير اليومية في حياة الناس العادية؛ لقد كتب الشاعر بعض قصائده في أسلوب الأناسة الوصفية التي تميل إلى الاستقصاء، والتفصيل، والتدقيق، مثلما يجد القارئ: (في الطريق إلى كالا)⁽²³⁾ التي يتحدث فيها بدقة عن بعض الأقوام، ولغاتها، وعن ريتسوس وحياته، وعن محتويات منزله؛ إنه وصف دقيق يُمكن أن يستثمره الباحث الأناسي الوضعي، والدارس للثقافة والحضارة؛ وهو في (شبه أوطوبيوغرافيا)⁽²⁴⁾ يكتب شيئاً من سيرته الذاتية؛ ففي هذه القصيدة أوصاف دقيقة وسرود مفصلة عن جغرافية مسقط رأسه، وعن الأشكال الهندسية، والمعمارية التي تدرك بحاسة البصر، وعن أنواع الروائح التي تدرك بحاسة الشم، وعن مذاق الشواء الذي يتوصل إليه بحاسة الذوق، وعن أدوات الدراسة التي تلمس باليد، وترى بالعين.

هكذا يوظف الشاعر كل حواسه لتوصيف محيطه عن عَمْدٍ وسبقٍ إِضْرَارٍ؛ يقول⁽²⁵⁾:

... وَكُنْتُ أَنْبَأْتُ كُلَّ حَوَاسِّي بِاللَّهِيبِ، وَلَمْ تَبْقَ لِي غَيْرُ

(23) المرجع المذكور، ص. 21-25.

(24) المرجع المذكور، ص. 39-40.

(25) المرجع المذكور، (الوميض)، ص. 103.

رَغْبَتِي فِي اللَّمْسِ، فَأَمْسَكْتُ بِنَحَاسِ الشَّمْعَدَانِ لِأَتَعَرَّفَ عَلَى عُزْرِكَ،
وَتَلَطَّفْتُ بِضَرَازَتِي فَقَرَّبْتُ عُشْبِكَ مِنْ أَنْفَاسِي . . .

لكنه لا يكتفي بذلك، وإنما يتيح الفرصة لملكاته الخيالية التخيلية أن تقوم بدورها أيضاً؛ على منوال تلك الآليات الحسية، والخيالية، ينسج قصيدة (ذاهباً إلى مسقط رأسه)⁽²⁶⁾، و(بائعة الخبز)⁽²⁷⁾؛ يكاد الشاعر في قصيدة (ذاهباً . . .) أن يُشَبِّهَ آلة تصوير التقطت كل مُؤَثَّنَاتِ ذلك الفضاء، بما فيه من نشاط اجتماعي، وتجاري، وعمراني، وإداري، وديني . . . حتى إن هذه القصيدة لتصلح أن تكون وثيقة قيمة للأناسي الوصفي، وللباحث الاجتماعي، وللمؤرخ؛ وأما قصيدة (بائعة الخبز) فيضاهيها ما يطلق عليه «كناش الحالة المدنية»، إذ يتحدث فيها عن أمه، وتعدد زواجها، وأولادها الكثيرين، لكنه يتجاوز تسجيل هذه الوقائع الموضوعية إلى تصوير معاناة عميقة، والبحث عن وسائل لتخفيف منها، مثل الصلوات، والأدعية، والأذكار.

وإذ إن السيرة الذاتية تحرص على توصيف فضاء التكون، وزمانه، ومجتمعه، فإن جوهرها هو الكلام عن الذات؛ وهذا ما تكلفت به قصيدة (باختصار شديد عنها)⁽²⁸⁾ التي يبوّج فيها بأسراره، وخصوصياته، فيقدم معلومات عن زوجه، وأولاده، حيث تقاسم كل شيء: الحب، والخبز، والفكرة، والخطوة، والأمل، واليأس، وترصد المتربصين.

تلك قصائد تعيد الشعر إلى وظائفه الحيوية الأولى، من حيث إنه يكون متصلاً بالبيئة، ومرتبطة بالمجتمع، وملتحمة بالذات، في كل الأزمنة، وفي كل الأمكنة، وفي كل المجتمعات، لكن بحسب ما تقتضيه الرؤيا الشعرية المتبناة؛ وهكذا، كان الشعر الإغريقي، وهكذا كان الشعر الذي تحدث عن الأطلال، والأمطار، والأنواء . . . والحدائق، والقصور . . . والمغامرات الذاتية؛ وهكذا كان الشعر في تيارات أدبية عالمية . . . ولا يزال الأمر هكذا إلى أن تقوم ساعة الإنسان على هذا الكون.

(26) المرجع المذكور، ص. 41-42.

(27) المرجع المذكور، ص. 43-44.

(28) المرجع المذكور، ص. 45-48.

هناك من اعتاد على الصناعة الشعرية المتفلسفة المثالية المغرقة في انتقاء المفردات والتعابير، فلا يرضى عن هذا النوع من الشعر الذي يتحدث عن اليومي، والشعبي، في لغة عادية تكاد تخدش الحياء أحياناً؛ وأولئك المعتادون صنفان؛ أحدهما متفلسف يتحدث عن معان لا وجود لها إلا في مخزونه الثقافي؛ هكذا تصير القصائد العادية تتحدث عن الكينونة المطلقة، ورؤيا النقي، ومذهب اللذة، والرموز الكونية...؛ وثانيهما متشبع بالثقافة العربية الإسلامية الخالصة في تقاليدها الشعرية المشهود لها بالرقى، ويسمو الصناعة. هكذا يتساءل حينما يقرأ مثل هذا الشعر: أين هذا من «معجز أحمد»⁽²⁹⁾؟ وأين هذا من «فروسية أحمد»⁽³⁰⁾؟!

إن هذه المواقف المعيارية منافية لصيرورة التاريخ، ومختزلة لوظائف الفن، من حيث إنها تمنع، صراحة، أو ضمناً، تعدد أساليب التعبير عن القضية الواحدة. هناك الشعر المتفلسف، وهناك الشعر الشبيه بما يروج بين الناس من أحاديث، وهناك شعر الخُرَيشات...؛ كما هو الشأن لدى الأمم الغربية بصفة خاصة؛ كما كان هناك موسيقى مقامية، وتناظرية، وتوافقية، وتسلسلية، وتقليدية، وهناك أنواع من المذاهب الفلسفية... وضروب من المناهج التاريخية...؛ إن الحدائي، والمابعد حدائي، والأصيل المعاصر، عليه أن يدرك أن الصيرورة التاريخية فوق إرادة الأفراد، وأن حاجات المجتمعات تخلق ما يُشبعها، فلا مثل فنية مطلقة! ولا معايير أبدية! إنما هناك ضروريات، وحاجيات، وتحسيّيات، تنوع طرق التعبير عنها بتعدد مواهب المبدعين.

5 - تأثير النقد المعاصر

إن اعتراضات المعترضين ليست بخافية على كثير من الشعراء المعاصرين، وخصوصاً من ينجز نصوصاً تثير الاستغراب. لذلك يجد القارئ أن بعض الشعراء طرحوا مسألة الكتابة بصفة عامة، والكتابة الشعرية بصفة خاصة⁽³¹⁾؛ وبهذا صار الشاعر يتناص مع الناقد ويحاكيه، جاذباً أو ساخرأ. في هذا الإطار، كان الشاعر

(29) إشارة إلى شعر المتنبي.

(30) تلمح إلى ديوان «الفروسية» لأحمد المَجَاطي.

(31) فصلنا القول في هذا، ينظر ديوان المهدي أخريف «بين الجَنَرِ وبينِي»، دار توبقال للنشر/المغرب - الدار البيضاء، 2006.

حسن نجمي يتقمص شخصية الناقد، حيناً بعد حين؛ هكذا يجده القارئ في قصيدة (أنا وبورخيس) يقتبس منه القولة الآتية: «إنه يملئ عليّ هذه القصيدة، وأنا لا أستسيغ ذلك»⁽³²⁾؛ وقد حولها إلى سطر شعري؛ هو:

هَذِهِ الْقَصِيدَةُ لَيْسَتْ لِي

ثم تحدث عن الإملاء، والأسطر، والسعال بين كلمة، وكلمة، واغتيال قصيدة الآخرين، والكلمات المضادة، والكلمات الغادرة، وأنواع الصمت من قصير، وعميق، وعالٍ، والشتات، والتشظي:

- والصمت يُلْمَعُ بِالْبَيَاضِ غِيَابَ الْكَلِمَاتِ⁽³³⁾

- ورغم بَلَاغَةِ الشّتاتِ التي كانت تُصِرُّني بعيداً⁽³⁴⁾.

يتبين من هذا أن صنيع بعض الشعراء الذين يختارون نوعاً من الشعر الذي يَخْرِقُ القواعد المتعارف عليها لا يعانون عجزاً في المَخْزُونِ اللغوي، ولا فقراً في الملكة الشعرية، ولا كُسَاحاً في الخيال، ولا نقصاً في التحصيل المعرفي، يكون ذلك الشعر هو نوع من الرؤيا لِلْكَوْنِ، وللحياة، وللمجتمع، وللفنّ، كما يُؤَكِّدُ ذلك كبار نقاد الشعر. فإذا كان الشاعر له مقاصد، فإن النص له مقاصد؛ وحينما يختار التعبير عن موضوعه ما، فإنه يصير حينئذ أسير ما اختار؛ فإذا هدف إلى التعبير عن حياة عادية، فإن لغة هذه الحياة تفرض نفسها، وإذا سعى إلى الكلام عن تجربة إبداعية، فإنه يستعين بما يصلح أن يكون منطلقاً للوصول إليها؛ هكذا يجد القارئ أن الشاعر اختار قصة يوسف ليستوحي منها قصيدة (يوسف)⁽³⁵⁾. وقد اقتبس الآية السابعة من سورة يوسف التي تتحدث عن إخوته، وابتلائه، وإلقائه في غيابات الجُبِّ، وما تلا ذلك من أحداث، ووقائع.. وأحال على حكايات ألف ليلة وليلة لتمثيل المقاساة والمعاناة؛ وفي قصة يوسف آيات لِمُتَّعِظِينَ، وفي حكايات ألف لَيْلَةٍ وليلة عبرة للمعتبرين؛ ولعل الآيات والعبر هي أن الإبداع لا يكون إلا نتيجة الابتلاء، والمحن، والاختبار!

(32) حسن نجمي، على انفراد، (أنا وبورخيس)، ص. 15-16.

(33) المرجع المذكور، (وجه الطفل)، ص. 68.

(34) المرجع المذكور، (تاريخ الليل)، ص. 97-98.

(35) المرجع المذكور، ص. 49.

خلاصة ما تقدم أن التناص وُلِدَ في مناخ ثقافي عام؛ هو مناخ ما بعد الحداثة الذي من سماته: إعادة إحياء تقاليد سحرية الأصوات، والمفردات، وأسماء الأعلام، والاحتفال بلغة الحياة اليومية، وتفضيل البساطة على التعقيد، والتمازج بين فنون متعددة، وتقديم المبدع لإبداعه⁽³⁶⁾.

ب - التناص الدَّاخِلِي

تلك أنواع من العلاقات بين النصوص أسميناها بـ (التناص الخارجي)؛ لكن هناك ضرباً من العلاقات بين الأصوات، والمفردات، والتراكيب، والمعاني، وقد اقترحنا لها لقب (التناص الدَّاخِلِي)؛ على أننا سنجزئه إلى نموذجين؛ أحدهما التناص بين أجزاء المقطوعة الواحدة، وثانيهما التناص بين مقطوعات الديوان الواحد.

1 - التناص في المقطوعة الواحدة

يشمل هذا النوع الأصوات/الحروف، والمعجم، والتركيب، والمعنى؛ نعني بالأصوات/الحروف ما تتكون منه الألفبائية العربية؛ وقد أفاض فيها المختصون قديماً وحديثاً فتعرضوا لمخارجها، وصفاتها وكيفيات توليفها، وإبدالها، وإذغامها...؛ وإذ أننا تناولنا هذه الأمور في موضع سابق⁽³⁷⁾، فإننا نكتفي الآن بتقديم مثال؛ وليكن قصيدة: (بورخيس).

بُرْخِيسْ

(1) لَسْتُ أَقْلَ عَمَى مِنْكَ

(2) وَمِثْلَكَ أَغْرِفُ كَيْفَ أَسَدُّ خَطْوِي

(3) وَمَعَ أَنَّ عَيْنِي لَيْسَتْ مَيِّتَتَيْنِ تَمَاماً

(4) أَنَّ فَيْضَ الصُّوْرِ وَافِرٌ

(5) لَا أَحِبُّ أَنْ أَرَى مَا يُرَى

(6) أَعْمَى مِثْلَكَ

(36) هذا على مستوى بعض التيارات الإبداعية؛ وهناك أخرى تدعو إلى العناء، والتعقيد.

(37) ينظر فصل (الأنساق الصوتية) من الجزء الثاني.

(7) وَلَسْتُ نَادِماً عَلَى شَيْءٍ تَرَكْتُهُ فِي الضُّوءِ

(8) فَقَطُّ، مِثْلَكَ حُرْمْتُ مِنَ السَّوَادِ⁽³⁸⁾.

تردد في هذه المقطوعة صوت الميم ثلاث عشرة مرة؛ وصوت النون اثنتي عشرة؛ وصوت الهمزة عشر؛ وصوت اللّام، والتاء، والياء، سبع؛ وصوت العين، والكاف، والراء ست؛ وصوت الواو، والسين، والتاء، خمس؛ وصوت الدال أربع؛ والتاء والضاد ثلاث؛ والطاء، والحاء، مرتان؛ والحاء، والسين، مرة واحدة⁽³⁹⁾.

- ما تردد كثيراً هو الأصوات الآتية: (م، ن، أ)، (د، ت، ي) (ع، ك، ر)، (و، س، ت)، (د)، (ث، ض)، (ط، ح)، (خ، ش).

- أن هناك مجاورة بين بعض الأصوات:

(م، م)، (ك، ك، ك)، (س، س)، (ض، ض)، (ر، ر) ... (ل، ل)، (ت، ت، ت).

- أغلب أنواع المقاطع موجود:

- المقاطع الطويلة: (c v v).

- المقاطع الأقصر: (c v c).

- المقاطع القصار: (c v).

قد يظهر لبعض القراء أن هذا التحليل الإحصائي لا أهمية له، لكن هذا الظهور ينبئ عن عدم دراية بقواعد اللغة، وأسرارها، من حيث هي، ومن حيث هي شعرية بصفة خاصة؛ ومن بين ما يجب أن يعرف:

- أن كل صوت له قيمة زمنية في حالتي انفراده وتأليفه.

- أن لكل مقطع قيمة زمنية تابعة لنوعه.

(38) حسن نجمي، المرجع المذكور، ص. 13. وقد غير فضاء هذه المقطوعة في الطبيعة المشرقية؛ دار النهضة العربية، 2007، ص. 16-17؛ وهذا التغير له نتائج على مستوى التحليل والتأويل.

(39) يجب الاهتمام بالمبدأ من حيث هو. إذ قد نخطئ في العد بزيادة أو بنقصان.

- أن المقاطع هي ما يحدد الهياكل الصرفية، والقوالب العروضية.
- أن هناك من الأصوات ما يستجاد الجمع بينها، وما يجوز، وما يصعب.
- أن المجاورة بين الأصوات لها تأثير ليس للمباعدة.
- أن هناك أصواتاً أساسية لا تحذف ولا تبدل. . وأصواتاً ثانوية.
- أن كل صوت له موقع معين يحدد وظيفته كشأن أصوات آلاَتِ الموسيقى⁽⁴⁰⁾.

إن معرفة هذه القواعد ضرورية لدراسة موسيقى الشعر، وإيقاعاته، ولإبراز الناحية الجمالية الناتجة عن التوزيع الصوتي هندسياً، وللتعرف على الأحوال النفسانية التي تعترى الشاعر، وهو يصوغ تعابيره؛ وإذا افتقد المبدع هذه المعرفة، فإنه لن يتقدم كثيراً للإجادة في صناعته، كما أنها إذا غابت من محلل الخطاب الشعري، فإن كلامه عن الموسيقى الداخلية والخارجية ليس إلا مجرد ثرثرة لغوية.

تَنَاصُّ الأصوات، إذن، ضرورة تفرضها طبيعة اللغة، واختيار يكون نتيجة التَّدَاعِي؛ والضرورة والاختيار كلاهما يتجليان في تناسخ المفردات. والقارئ للمقطوعة يجد أن هناك تكراراً لـ: (ليس، أعمى، مثلك، الضوء، أرى)، وتقابلاً مضمرأ (العمى/ البصر؛ البياض/ السواد؛ الظلام/ الضوء)، وترابطاً بالتداعي (العمى - العَيْنَان - الرؤية - الضوء)؛ و وراء خواص التكرار، والتقابل، والترابط موضوعة العمى؛ وعليه، فإنه يجب تسجيل أن مقطوعة (بورخيس) لها مَوْضُوعَةٌ تدور عليها.

ما يجمع بين المفردات التي نبهنا إليها، ويربط بينها لتصير ذات تركيب محكوم بقواعد آليات كثيرة:

- أدوات العطف (و) وأدوات وصل (أَنَّ، أَنْ، كيف) وأدوات تحديد (فَقَطُّ)، وحروف الجر (مِنْ، عَلَى)، وأدوات التعريف (ال) والجمل الوصفية (شيء تركته).
- التكرار (مع أن، مع أن).

(40) أنظر قسم (الأنساق) من الجزء الثاني، ففيه تفصيل لهذه القضايا.

- التوازي:

- مع أن عَيْنِي ..
- مع أن فِيضَ ..
- لَسْتُ أَقْلَ عَمَى ..
- لَسْتُ نَادِمًا عَلَى ..
- لَيْسَ مَيِّتِينَ ..

- التداخل:

(1) مع (7)، وَمَعَ (8)، و(7)، و(3) مع (4)، و(2) مع (5) (1) مع (6).

- التبادل:

- مثلك أعرف ..
- أعمى مثلك

على أساس هذه الخواص، فإننا نقترح إعادة كتابة المقطوعة في الشكل الآتي:

- (1) لَسْتُ أَقْلَ عَمَى مِنْكَ.
- (2) وَلَسْتُ نَادِمًا عَلَى شَيْءٍ تَرَكْتُهُ فِي الضُّوءِ.
- (3) وَمِثْلَكَ أَعْرِفُ كَيْفَ أَسَدُّ خَطَوِي
- (4) أَعْمَى مِثْلَكَ.
- (5) وَمَعَ أَنْ عَيْنِي لَيْسَ مَيِّتِينَ تَمَامًا
- (6) مع أن فيض الضُّوءِ وَافِرٌ.
- (7) لَا أَحِبُّ أَنْ أَرَى مَا يُرَى
- (8) فَقَطْ مِثْلَكَ حُرِمْتُ مِنَ السَّوَادِ

خَوَّلَتْ لَنَا هَذِهِ الْخَصَائِصُ الْهَنْدَسِيَّةُ أَنْ نَعِيدَ تَرْتِيبَ أُسْطَرِ الْقَصِيدَةِ بِدُونِ

خلل في المعنى؛ وللقارئ أن يسأل عن سبب هذا. ونجيبه بأنه يكمن في كيفية نهاية الأسطر؛ فهي إما انتهت بنقطة (●) أو بخط صغير (-). وإذا ما غرضنا الطرف عن واو العطف، فإن كل جملة تصير مستقلة عما قبلها، وعمّا بعدها؛ ومعنى هذا أن الخواص الهندسية العددية تتغلب على الزمنية المستقيمة، والسببية الخطية، فيصح القلب، والإبدال، والعكس، والقهقري، ويجوز خرق مبدأ السببية: هُنَاكَ عَيْنَانِ، وضوء، لكن هناك عدم رغبة في الرؤية؛ هكذا حطم توليف المقطوعة مبدأ السببية المعتاد، ومنطق إما وإما، وتبنى منطق: هذا ولا هذا، في آن واحد: منطق التآرجح، والاحتمال، والبرزخية: (لست أقل عمى منك/ أعمى مثلك)؛ الجمع بين الرؤية/عدم الرؤية؛ وبين الوجود/العدم.

يتحصل من هذا أن معاني المقطوعة نمت من نواة يمكن أن يعبر عنها بعدم الرغبة في الرؤية؛ وقد حصل تطوير النواة بآليات دلالية متعددة؛ أولاها التكامل بين الرؤية/الرؤية غير المرغوب فيها؛ وثانيها التداخل بين الرؤية، واللمحة، والبصيص من جهة، وعدم الرؤية، وشبه العمى، ورفض الرؤية من جهة ثانية؛ وثالثها الامتزاج بين الرؤية/عدم الرؤية، المحايث لكل نواة؛ وإذا كانت هذه الآليات خلقت توتراً ونموّاً للمقطوعة، فإنّ تفعيل تلك الآليات رهين بالمؤهلات البشرية التي هي الحياة، والقدرة، والإرادة، والمعرفة، والامتلاك؛ شاعر حَيٌّ قادر عارف ممتلك، لكنه لا يريد أن يرى ما في هذا العالم القامع الموبوء الذي يُبِيدُ القدرات الإنسانية.

2 - التناص بين المقطوعات

لعل القارئ، من خلال هذا التحليل البسيط، أن يدرك معنى التناص الدّاخلي في المقطوعة الواحدة؛ وإذا ما تحقق رجاؤنا، فإننا سنسعى إلى تبيان آليات التناص بين المقطوعات في الديوان الواحد؛ وإذا إننا وظفنا هذا المفهوم في أبحاث سابقة، فإننا نكتفي هنا بالذكر بمفاهيمه، وتقديم بعض الأمثلة، حتى يتسنى لمن كان يرغب في التفصيل أن يجرب، فيقبل ما يصح، ويرفض ما هو خطأ. لقد اقترحنا طرفين متقابلين؛ هما: المطابقة/المزايلة؛ ثم درّجنا (المطابقة) إلى: المناظرة، والمحاذاة، والمماثلة⁽⁴¹⁾، والمضاهاة، والمضاربة، والمشاكلة،

(41) أنظر قسم (الأنساق) من الجزء الثاني، ففيه تفصيل لهذه القضايا.

والمشابهة؛ وجزأنا (المزايلة) إلى: التناقض، والتطابق، والتقابل، والتضاد، والتغاير، والتمايز، والاختلاف.

نُعني بـ (المطابقة) البنية ذات الثمانية مكونات المستخلصة من قصيدة واحدة، أو من ديوان شعري كامل؛ وكذلك الشأن في (المزايلة)؛ وقد خصصنا (المطابقة) بالعلاقة الإيجابية بين النصوص، و(المزايلة) بالعلاقة السلبية بينها؛ تحصل المطابقة حينما تكون هناك بنيتان تحتوي كل منهما ثمانية مكونات؛ ولما تقل إحداهما بمكون أو اثنين... تدعى (المناظرة) و(المحاذاة)... وهكذا دواليك؛ وتكون (المزايلة) حينما تقابل بنية ذات ثمانية عناصر بنية ذات ثمانية عناصر؛ وإذا ما نقصت إحداهما عن الأخرى بعنصر أو بعنصرين... فذلك هو (التطابق) أو (التقابل)⁽⁴²⁾.

انطلقنا في تحليلنا لعلاقة التناص الداخلي من المقطوعة الأولى في ديوان «على انفراد»؛ وإذ إنها افتتاح، فإنها ليست إلا نواة لبنيات أوسع منها؛ وعليه، فإن على الباحث أن يستخلص بنية نموذجية يختار لها من أعداد المكونات ما يشاء، ثم يقيس عليها بنيات أخرى إيجاباً (المطابقة) أو سلباً (المزايلة)، ثم يمنح المفهوم الملائم تبعاً لدرجة العلاقة (مناظرة... مماثلة... مشاكلة) أو (تطابق... تضاد... تمايز...); رمزت القصيدة الأولى على العمى، والظلام، والضوء، ثم جاءت قصيدة (أعزل في الضوء) تتحدث عن العمى، والعكازة، والضوء، والظلام، ثم تناول في القسم الثالث (III) - تاريخ الليل (الموضوعة في عدة قصائد: (حصّة الليل)، و(تاريخ الليل)، و(الأعمى)، و(شمس لا مبالية)، و(أظلمت كالليل)، و(كثافة الليل)).

يتحدث في (حصّة الليل) عن الليل، والظلام، والنهار، والضوء، والعمى؛ ويلج في (تاريخ الليل) على المقابلة بين الليل، والنهار، والأسود، والأبيض، والضوء، والظل، ويشير في (الأعمى) إلى الغيوم، والمطر، والضوء، والظلام؛ وينبه في (شمس لا مبالية) إلى الليل، والنهار، والشمس، والقمر؛ ويلمع في (أظلمت كالليل) وكذلك في (كثافة الليل) إلى الليل؛ ويعود في (كأنك) إلى ذكر الليل، والنهار.

(42) استوحينا هذا التحليل من نظرية المجموعات وشبه المجموعات؛ وقد وظفها غيرنا في التحليل الموسيقي، وفي الدراسات الاستعارية.

يتضح من هذا أن موضوعة الليل هي المهيمنة، والأوسع، مما يسمح للباحث أن يتخذها نموذجاً أمثل يقيس عليها ما يتداخل معها من البنيات الأخرى، وخصوصاً بنية العمى؛ وقبل أن نفعل، فإننا نبين أنواع التداخل بين هذه المقطوعات جميعها:

المقطوعات	الموضوعات
حصة الليل	الليل، والظلام والنجوم، والعمى
تاريخ الليل	الليل، والسواد والظلال
الأعمى	الظلام والغيوم
شمس لا مبالية	الليل، والقمر
أظلمت كالليل	الليل
كثافة الليل	الليل
كانك	الليل
	النهار

فلننظر إلى هذا الجدول لِنَتَبَيَّنَ العلائق بين القصائد في إطار المفاهيم المقترحة؛ هكذا نستخلص البنيتين المثاليتين: المزايلة، والمطابقة:

● بنية المزايلة:

الليل، والسكون، والقمر، والنجوم، والظلام، والعمى، والنور، والأحلام.

● بنية المطابقة:

النهار، والحركة، والشمس، والضوء، والبصر، واليقظة، والعمل، والواقع.

وأما ما تحقق من بنية المزايلة، فهو التضاد (4)، والتغاير (3)، والتمايز (2)، والاختلاف؛ وأما ما أنجز من المطابقة، فهو المشاكلة (2) والمشابهة (1)⁽⁴³⁾.

(43) يتبين من هذا هيمنة السلب على الإيجاب.

3 - التبايض

يمكن القول إن الحديث عن العمى، والظلام، والليل... وعما يقابلها من إِبصار، ونور، ونهار... هو مدار القول في ديوان «على انفراد»، لكن الأمر يتعلق هنا بما يمكن دعوته بـ(التساود) الذي تعكسه النصوص المكتوبة؛ وهذه ليست إلا وَجْهاً واحداً من عملية العملية الشعرية، إذ هناك ما يكملها، وهو الضُمُوت البيضاء. وسندعوها بـ (التبايض)، وجرياً على طريق ما سبق، فإننا سَنَجْزُهُ إلى (التبايض الداخلي)، وإلى (التبايض الخارجي)⁽⁴⁴⁾، نقصد بالنوع الأول ما يكون من بياض بين الأسطر أفقياً، أو عمودياً؛ فقد يكون بعضها أطول من بعض بمقادير مختلفة، بحيث يمكن أن يحتوي السطرُ على عدة كلمات، أو على صوت واحد، أو نصف كلمة؛ وأما الثاني فنعني به ما تبقى من فضاء أبيض في الصفحة جوانب التساود، والتبايض، الأربعة: (فوق وتحت ويمين ويسار)، كما أن بصر الشاعر يلتقط فضاءات خارجية في ذاكرته ليحيلها إلى إبداع شعري، كالأشكال الهندسية، والهيآت الشجرية، والعلامات السيمائية؛ وقد فعل ذلك شعراء عديدون منذ أقدم الأزمان إلى يومنا هذا⁽⁴⁵⁾.

معنى ما تقدم أنه لا ينبغي الاعتقاد في كون صنيع الشعراء المعاصرين عشوائياً، لكنه فعل مقصود، لأن كثيراً منهم مُلِمُّون بمكونات صناعتهم، عالِمون ببعض ما يروج حولها من آراء، ودراسات؛ لهذا، فإنهم لا يخلون قصائدهم من كلام عن مكونات الإبداع الشعري؛ وديوان «على انفراد» يدخل ضمن هذا السياق؛ إذ إنه يتحدث عن الشعر، والقصيدة، والبياض، والسَّوَاد، والصوت، مانحاً إيَّاهَا مَعَانِي رمزية، لِتُكَوِّنَ حقلاً دلالياً مع سواد المداد، وظلام الليل، وظل الغمام، والصمت، والشمس، والصحو، والنور، للتعبير عن الوجود، والعدم، والليل، والنهار، والبصر، والعمى، والانفراد، والاجتماع.

- الصَّمْتُ العميقُ العَرِيبُ المُحِثُ الَّذِي رَافَقَ دَهْشَةَ قِصَائِدِي. صِرْتُ أَغْثُرَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ أَسْتَنْبِئُهَا فِي الدَّمِ وَأَسْتَخْرِجُهَا بِذَرَّةٍ ضَوْءٍ مِنْ جَسَدِي⁽⁴⁶⁾.

(44) اقتراح جديد لم تُسَبِّقْ إليه. لذلك، نرجو أن يقرأ، ويتأمل، ويناقش، ليتمكن تطويره.

(45) وظفت الأشكال والأشجار في الإبداع والتنظير؛ من بين الأمثلة شعراء الماليك، وشعراء الأندلس والمغرب... وشجرة المتصوفة عند ابن عربي، وابن الخطيب.

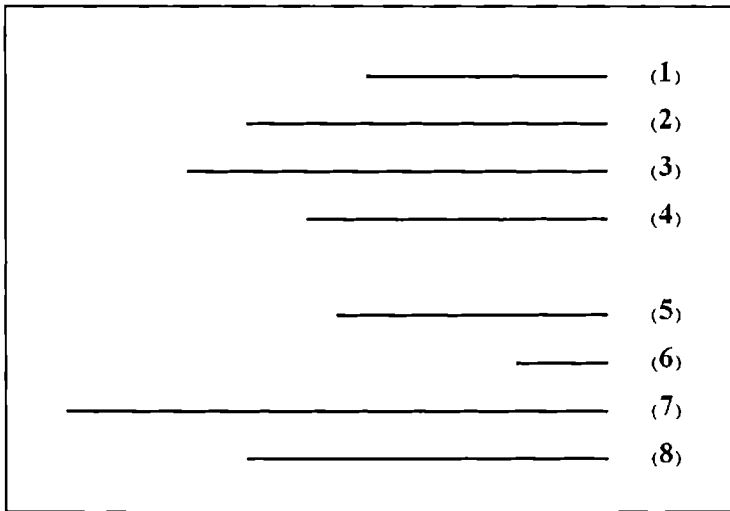
(46) حسن نجمي، على انفراد، مرجع سابق، ص. 24.

- أَرْفَعُ صَنْعِي عَالِيًا⁽⁴⁷⁾.

- وَهَذَا الْقَمَرُ شَاحِبٌ. وَالصَّمْتُ يُلْمَعُ بِالْبَيَاضِ غِيَابَ الْكَلِمَاتِ⁽⁴⁸⁾.

- وَرَغَمَ بِلَاغَةِ الشَّنَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَضُرُّنِي بَعِيدًا⁽⁴⁹⁾.

ديوان «على انفراد» يحتوي على مقطوعات شعرية، وعلى شعر منشور، وعلى مزيج بينهما؛ على أننا سنقدم أمثلة من المقطوعات الشعرية ذوات الأسطر لتوضيح الافتراض، والبرهنة عليه، بدون تعميق النظر في الشعر المنشور الذي يكون فيه دور البياض غير ذي فعالية كبيرة، كما أننا لا نهتم بعلامات الترقيم إلى أن يحين الحديث عن الإيقاع؛ سيكون مثالنا المقطوعة المعنونة (بورخيس)، وسنشير إلى مقدار طول الأسطر، أو قصرها بخطوط سوداء، واضعين إياها في شكل هندسي لمحاصرة السواد، والبياض⁽⁵⁰⁾:



إلا أن التكامل بين التبايض/التساود، أو التصامت/التساوت، يبلغ مداه في الشذرات (IV - دفتر الشذرات)؛ قد يوحي الجذر اللغوي بعدة معان؛ أولها

(47) المرجع المذكور، ص. 25.

(48) حسن نجمي، على انفراد، المرجع المذكور، ص. 68.

(49) المرجع المذكور، ص. 97.

(50) سنخصص (البياض والسواد) بالحديث عن الفضاء، و(الصوت والصمت) بالكلام عن الزمان.

معنى قدحي، (ش، ذ، ر): التفرق والتشتت: (شذر مذر)، ومعنى مدحي: الشيء النفيس؛ واستعمالها في الكلام يجمع بين المعنيين معاً: المتفرق النفيس؛ ودليلنا هو التقاليد التعبيرية الإنسانية: حَكَمَ لقمان، وَزَبُورُ داوود، وجوامعُ الكَلِم، والأمثال، والتوقيعات؛ على أن هذا النوع من الخطاب بلغ شأواً عظيماً لدى الرومانسيين، كما أبان ذلك المختصون في هذا الإبدال العام؛ وقد أوردوا عدة تعاريف لها تُنسب بعضها إلى فكتور هُوجُو؛ وهي، عنده، نص مكتوب قد يكون طويلاً، أو سطرأً واحداً، أو بَيَّتْ شِعْرٌ يَتِيمٌ بدون عنوان؛ وهي، عند بعض آخر، متفرقات من أفكار، أو أخلام، أو مُمَضَّاتٍ؛ إنها أثر جدٌ صغير يعبر عن كلية مختزلة في لحظة فكرية؛ وبناءً على خصائصها صارت شكلاً تعبيرياً مفضلاً لدى بعض فلاسفة الطبيعة من الرومانسيين، مثل (شذرات مستخرجة من ميراث فيزيائي شاب. كتاب صغير لأصدقاء الطبيعة)؛ وعدد هذه الشذرات سبعة (700)، كما أن أحد المتصوفة الألمان، وهو سان مارتن (1743 - 1803 م) نشر⁽⁵¹⁾ كتاباً بعنوان: «شخصيتي التاريخية والفلسفية» يشتمل على (1137) شذرة.

يتبين من هذا أن الشذرات لها تاريخ طويل في الفكر البشري كوسيلة تعبيرية حيوية متحررة من المنطق الجامد؛ لهذا أعاد لها الحياة تيارات معاصرة كثيرة، مثل ما بعد الحداثيين الأوروبيين، والتقليديين الأمريكيين في إطار صيرورة تاريخية، ومعرفية، وثقافية. فقد كانت الحكمة، والمزامير، وجوامع الأمثال، لفصل الخطاب، والحكم الجازم، وكانت شذرات حقبة الرومانسية ومضة علمية، أو تعبيراً عن تجربة ذاتية؛ وقد تكون في الوقت المعاصر رجوعاً إلى البساطة، أو إلى حكمة السلف، أو ما يشابهها، أو تعبيراً عن اللاحقين بما تثيره الشذرة من تأويلات متعددة.

لهذا، فإننا حينما نُحلّل الشذرات نُنْتَبِه إلى سياقها العام، وإلى حَجْمِها، وإلى كَيْفِها. وهكذا، فإن شذرات «على انفراد» هي لشاعر مُعَاَصِرٍ يَتَبَنَّى تياراً فنياً معيّنًا، ورؤيا سياسية خاصة، وتصوراً مأمولاً للطبيعة، وللحياة، وللذات؛ ويمكن النظر إلى حجمها من خلال المفاهيم الآتية: الفترة، واللحظة، والطفرة، والومضة، واللُمعة، والبرقة؛ وأما من حيث الكيف، فالبُشرة، والقطعة،

(51) يمكن الرجوع إلى الدراسات الشاملة حول الرومانسية، مثل كتاب:

Georges Gusdorf, *le Romantisme*, Payot Rivage, paris, 1993.

ويظهر هذا الكتاب أن المذهب الرومانسي هو لب الإبداعات الحديثة والمعاصرة.

وَالْقَصْرَة، وَالْكَثْفَة، وَالْوَجْزَة، وَالشَّارَة؛ ويجب أن يتأسس هذا التصنيف على خصائص تركيبية، ودلالية، وإيقاعية، وتداولية؛ وبطبيعة الحال، فإن هذه المفاهيم متدرجة تشترك في كثير من السمات، لكن كل واحد منها يجب أن يختلف عن غيره بسمة واحدة على الأقل.

في ضوء ما تقدم يجب النظر إلى دفتر الشذرات؛ وعددها ست عشرة شذرة؛ وهكذا، فإن (رسالة - الفترة)، و(حجر - بكاء - اللحظة) و(المهد - مكان صغير - صوت - الطرفة)، و(امرأة - ندئ - برودة - نورس - الومضة)، و(عزاء I) - عزاء II - نظرة - لعبة - وشاح - اللمعة)، (... البرقة)؛ وتأسيساً على هذا يمكن إسناد الكيفيات تالياً؛ وهكذا، فإن (رسالة - الفترة - البقرة)، و(حجر - بكاء - اللحظة - القطعة)، و(المهد - مكان صغير - صوت - الطرفة - القصرة)، و(امرأة - ندئ - برودة - نورس - ثكلى - الومضة - الكثفة)، و(عزاء I - عزاء II - نظرة - لعبة - وشاح - اللمعة - الوجزة)؛ و(... البرقة - الشارة)⁽⁵²⁾؛ وتمتاز هذه الشذرات، تركيبياً، بأسلوب سردي يسطير فيه الفعل الماضي، أو الفعل المضارع الذي يؤول إلى الماضي، أو الجمل الخبرية؛ أي التراكيب التي تدل على الحقيقة من وجهة نظر المتلفظ الذي له الحكمة، وفصل الخطاب، والمعرفة بكل شيء.

تتناول الشذرات موضوعات كثيرة؛ هكذا تتحدث الشذرة الأولى في ثلاث وحدات تعبيرية عن العزاء، والحياة، ومنبع الحياة والممات، الذي هو الأرض التي خلق الكائن منها وإليها يعود، فكان أديمها من جسده؛ إنها إيجاز لحكاية الخلق، والفناء، كما وردت في التراث الإنساني؛ وهي بهذه الدلالة تدخل في (اللمعة - الوجزة)؛ وتوضح الشذرة الثانية والثالثة ما جاء في الأولى، من حيث تتابع الولادات، وتتالي وفيات الشهادة، أو العادة؛ وما الوفاة إلا عودة إلى النبع، ثم استئناف الجريان إلى المصب، فعودة؛ إنها دورة الحياة في هذا الكون. (هي اللمعة - الوجزة - الومضة - الكثفة)؛ وتتعلق الشذرتان الرابعة والخامسة بالمرأة، من حيث هي مكمّن المتضادات: السرور، والمتعة، والجبروت، والقسوة؛ إنها (الومضة - الكثفة)؛ وتختص الشذرتان السادسة والسابعة بالحديث عن ذات معانية

(52) لم نراع أساس التصنيف المتأسس على الحجم في المعنى. إذ جمعنا بين الشذرات التي تؤدي معنى واحداً؛ وهذا الصنيع يسمح به تداخل المجموعات.

لتجارب مؤلمة مِنْ قَبْلِ أَنْذَال يترصدون؛ إنها (اللحظة - القطعة)؛ وركزت الثامنة والتاسعة على الميل الغريزي الإنساني إلى المعرفة والتعلم؛ إنها (الطرفة القصرة)؛ وكثفت العاشرة والحادية عشرة سر الحياة بحديثها عن العناصر الأربعة؛ إنها (الومضة - الكثفة)؛ واحتفلت الثانية عشر والثالثة عشر والرابعة عشرة بالأنوثة، إغراء وإغواء، وبذلاً، وعطاء، وتمنعاً (الومضة - الكثفة)؛ وتكفلت الخامسة عشرة والسادسة عشرة بالحديث عن الانفراد، والوحدة، وفقد الإحساس، مما جعله لا يتأثر بشيء، ولا يؤثر في شيء؛ وإذا ما كان له إحساس فإنه كارثي، مما فرض التهيّب من الكلمات نفسها؛ إنها (اللحظة - القطعة).

4 - التّفان

لاحظنا فيما سبق أن الدلالة الشعرية تتحقق بالموزون، وبالمسطور، وبالمنثور، كما تتحقق بالمسكوت عنه المطمور؛ على أن الشعراء المعاصرين، أو بعضهم، أضافوا المرسوم، ممّا جَمَعَ بين الشعر، والتشكيل، والموسيقى، والمسرح؛ وقد دعونا هذا الصنيع بـ (التّفان).

أ - الشعر والتشكيل

أشار كثير من دارسي شعر حسن نجمي إلى أنّ له علاقة وثيقة بينه، وبين التشكيليّين، كما يعكس ذلك ديوان (الرياح البنية) الذي يجمع بين الشعر والتشكيل⁽⁵³⁾؛ لا غرابة، إذن، أن يحتوي ديوان «على انفراد» قصائد تستعمل مفردات، ومفاهيم، ومصطلحات الفن التشكيلي، بل يمكن اعتبار بعض قصائده تحليلاً للوحدات التشكيلية. وحينما يتحدث الباحث عن اللوحة التشكيلية، فإن حديثه يتأسس على ما تقدمه له حاسة البصر؛ هكذا تحضر مفردات من قبيل الضوء، والظل، والظلام... ثم تصير موضوعات أساسية، عليها مَدَارُ الحديث،

(53) عبد العزيز بومسهولي، الكائن الشعري، قراءة في تجربة الشاعر حسن نجمي، الطباعة: نداكوم، 2004، وخصوصاً (الرياح البنية. الشعري والبصري)، و(الشعرية التشكيلية: قراءة نقدية في «حياة صغيرة»)، ص. 29 - 52؛ ص. 53 - 82؛ يحيى بن الوليد، شعر الرؤية. مسارات حسن نجمي، منشورات فراند، 2005، وخصوصاً (الشعر والحرب.. وعكازة التشكيل)، ص. 44 - 52؛ عبد القادر الغزالي، الصورة الشعرية وأسئلة الذات. قراءة في شعر حسن نجمي، دار الثقافة، الدار البيضاء، 2004؛ عز الدين حمروش، تجلي العين. قراءة في شعر حسن نجمي، نداكوم، 2007.

كما أن موضوعة الألوان تكون حاضرة بقوة، مثل الأصفر، والأزرق، والأحمر، والأخضر، والأسود، ولون الرماد⁽⁵⁴⁾.

في قصيدة (فن الشعر)⁽⁵⁵⁾ تَقَمَّصُ الشاعر شخصية الرسام، وطابق بين القصيدة واللوحة:

مُكِنَّا عَلَى الْعُشْبِ فِي دَعَةٍ، فَكَرْتُ فِي قَصِيدَتِي.

قُلْتُ سَأَجْعَلُ الشَّاعِرَ رَسَّامًا فِي وَرَشَةِ الصَّبَاغَاتِ. يَخْلِطُ الْمَوَادَّ. . .

ثم تحدث فيها عن العناصر اللونية كالأحمر، والأصفر، والأزرق، والأخضر، والأسود، والأبيض، ولون الرماد، والأدكن:

بِكُلِّ هَذَا الِالْتِحَامِ مَعَ دُكْنَةِ الْمَادَّةِ وَهِيَ تَجْتَاحُ مَسَاحَاتِ الْقَصِيدَةِ.

يمكن للباحث أن يَسْتَخْرِجَ التَّشْبِيهَيْنِ/الاستعارَتَيْنِ الْآتِيَتَيْنِ:

- الشاعِرُ رَسَّامٌ.

- القصيدة لَوْحَةٌ تَشْكِيلِيَّةٌ.

تُدْعَى هَاتَانِ الاستعارتان بـ(المفهومتين)، بمعنى أن كلاً منهما تولد بنية، كما أنها لا يمكن أن تدرك إلا ضمن بنية؛ وعليه، فإن لنا بنيتين: بنية الشعر، وبنية الرسم.

بنية الشعر:

- الأصوات/الحروف، والإيقاع، والوزن، والمناخ.

- الكلمات التي هي أفعال؛ وأسماء، وأدوات.

- التركيب النحوي المتجلي في الجمل الاسمية، والفعلية، وشبه الجمل، وفي الوصل والفصل، والبيان. .

- المعنى «الحقيقي»، و«المجازي»، والملتبس.

(54) لمزيد من الاطلاع يقرأ كتاب:

Roland Quilliot, (ed), *Philosophie de l'art*, Ellipses, Paris, 1998.

(55) حسن نجمي، على انفراد، ص. 19-20.

- العلاقات المعنوية من التضاد، والتداخل، والتناقض، والامتزاج.
- الرموز الدينية، والثقافية، والمجتمعية في اللغة⁽⁵⁶⁾.

بنية الرسم:

- عناصر المواد، والأصباغ.
- الضوء، والظل، والعتمة.
- تأليف العناصر بنسب معينة.
- الألوان: الأحمر، والأصفر، والأزرق، ولَوْنُ الرَّمَادِ . . .
- تحكم العلاقات المعنوية في التأليف (التضاد، والتداخل، والتناقض، والامتزاج).
- رموز الألوان إلى مواضع دينية، وثقافية، ومجتمعية . .
- وإذا ما أَرَدْنَا أن نُثَبِّثَ مضاهيات، فإننا نحصل على ما يلي:
- عناصر المواد، والأصباغ هي الأصوات، والحروف . .
- الضوء، والظل، والعتمة هي الكلمات من أفعال، وأسماء، وأدوات.
- تأليف العناصر بنسب معينة هو التركيب النحوي بحسب قواعد معينة.
- المعاني هي الألوان.
- العلاقات المعنوية في اللغة هي العلاقات المعنوية في التشكيل.
- رموز اللون هي رموز اللغة.

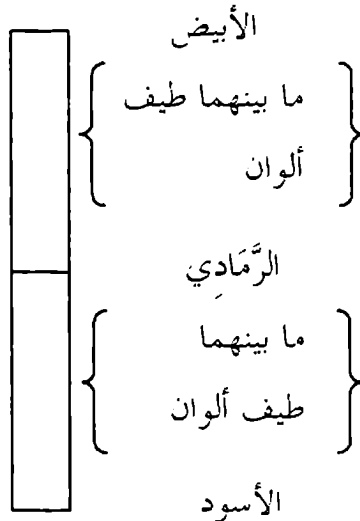
حضرت هذه التشبيهات/ أو التشابهات، في ديوان «على انفراد» في القصائد الآتية: (فن الشعر)، و(في الطريق إلى كالأ)، وفي (غبطة الشاعر الذي أَضْبَحَ رَسَاماً)؛ وإذ أشرنا إلى مضمون قصيدة (فن الشعر)، فإنّه في قصيدة (في الطريق . . .) تحدث عن الضوء، وألوان الأسود والأبيض، والأزرق، وعن

(56) نقصد به (التشابه) حينما يكون هناك تناظر. كأن يقال: القصيدة لوحة تشكيلية؛ أو: اللوحة التشكيلية قصيدة شعرية.

الخطوط؛ وفي (غبطة . .) تكلم عن اللوحة المائية، والقماش، وألوان الأسود، والأبيض، والأخضر، والأزرق، وعن خلطها، وعن أدوات التشكيل من حامل، وملوثة، ومُسند، وعن امتزاج الألوان، وتداخلها، وعن انفصالها، وتباعدها، وعن السطوح، والمُنحَنيات. يتجلى من هذا القاموس التشكيلي أن القصيدة صارت لوحة، واللوحة أضحت قصيدة؛ هكذا صارت القصيدة/اللوحة زوجاً يعيش في اندماج ووثام، لتنظيم فوضى الواقع، والحياة؛ وهو زواج مغرق في القدم؛ واشتدت عراه لدى التيار التَّكْعيبي. لهذا صار من المألوف أن توصف اللوحة في لغة وصف القصيدة، كأن يقال: إنها ملتحمة، أو مفككة، واضحة الدلالة، أو غَامِضَتُهَا:

غِبْطَةُ الْأَحْجَامِ الصَّغِيرَةِ كَقَصَائِدِ نَثْرِ تُؤْزِرُ الْوِجَاةَ.

أشرنا إلى أن هذا الصنيع ليس جديداً كل الجدة؛ لذلك علينا أن نبحث عن الجوامع العميقة بين الشعر، والتشكيل؛ وهذه الجوامع هي ما يُكوِّنُ البنية الأولية للدلالة؛ ومن المعتقد أن تكون الأولية الأولى هي اللون الأبيض، والأولية الثانية هي اللون الأسود، والأوليتان عبارة عن طرفين أقصيين بينهما درجات يقرب بعضها من الأبيض، ويقرب بعض آخر منها من الأسود؛ لكن هذه الدرجات ليس بعضها مستقلاً عن بعض، لكنها متصلة ومتداخلة تكون سلسلة مترابطة الحلقات؛ كل درجة تشترك مع أختها في عناصر قليلة أو كثيرة (كالأصفر، والبنفسجي، والوردي، والبني، والرمادي)؛ وعليه، فقد يكون الوضع كالآتي:



لوحة الغلاف تتناصّر مع تلك المقطوعات، أو تُلخّصُها؛ فيها الضوء الذي جعلها جَذَابَةً شَفَافَةً، وفيها اللون الأخضر الذي هو شجرة الحياة، ودال على انشراح النفس، والأزرق السّماوي الدال على البراءة، والبرتقالي الذي يشدّ الأرواح⁽⁵⁷⁾، والبُنّي الذي يؤلف بين ألوان عديدة، والرمادي الذي هو مزيج بين الأبيض، والأسود؛ وفيها شيء قليل من الأبيض؛ إنها شبيهة بقوس قُزَح اصطناعي تتجمع فيه أطراف لونية متداخلة بحسب درجات مختلفة، لكنّ تنظيمها وتدرّجها، وتَنَاسُبها، جعلها تكتسبُ جمالاً مُعَيَّناً ينبئ عن انسجام للكون، وتوفيق بين مكوناته، وعناصره، على الرغم من التضاد الموجود بين الألوان؛ هكذا، كانت الألوان أداة تعبيرية شبيهة بالكلمات إن لم تتفوق عليها؛ وبهذا يصير المعجم المستقى من سجل التشكيل يقوم بوظيفتين مزدوجتين: الوظيفة اللغوية العادية، والوظيفة التشكيلية، مما يجعل هذه النصوص مركبة تتحمل القراءات المتعددة؛ أي توافقات دلالية على شاكلة التوافقات الموسيقية.

ب - الشعر والموسيقى

بناء على هذا، فإن كثيراً من مقطوعات ديوان «على انفراد» هي توافقات موسيقية ظاهرة، أو مختفية⁽⁵⁸⁾، ومحكومة جميعها بأوليات موسيقية، تبعاً لعلاقة الموسيقى بالشعر التي هي علاقة نشأة، ومحتد، ونسب، فافترنّ بعضهما ببعض طوال كل الأزمنة، وكل الأمكنة، بحسب الفرضية المرنة التي تجعل لكل من الفاعليتين باحتين مستقلتين، لكنهما متفاعلتان؛ وأما نحن فقدمنا فرضية قوية هي أن الشعر موسيقى في لغة طبيعية⁽⁵⁹⁾؛ وسَيَبِينُ هذا في فقرة إيقاع «على انفراد»؛ إلا أن ما سنهتم به الآن هو مدى حضور الموسيقى على سطح قصائد الديوان؛ ما يثير الانتباه هو القول المقتبس من إسحاق الموصلي، وهو من هو في الموسيقى، وهو الحديث عن الصوت، والتصفيق في مقتبس آخر، وحضور مفردة الإيقاع في عدة تراكيب: إيقاع العكّازة على الحصى، ووقع

(57) هذا هو التأويل الشائع، لكن يجب تجنب الجوهريّة، وتبني السياقية في بنية كلية. وهذا ما سننبه إليه فيما بعد.

(58) نتحدث إلى القارئ الملم بقواعد الموسيقى التوافقية التي تتجلى في السوناتات، وفي السمفونيات.

(59) من أراد المزيد فعليه أن يطلع، الجزء الأول والثاني من هذا التأليف.

الخطى، وإيقاع الرقص في الماء؛ وربط الشعر بالإنشاد والسَّماع:

أُسْمِعْ أُذُنِي قَصِيدَتِي الأخيرة

وهناك ذكر لألحان على أوتار الكلمات، وذكر لبعض الآلات الموسيقية، وللبعض المغنين من الغربيين وأسماء بعض الأغنيات المكتوبة باللغة الأجنبية.

إلا أن حضور المعرفة الموسيقية جاء دون المتوقع من باحث مبدع مهتم بالموسيقى، فلا يجد القارئ نصوصاً خاصة بها كما فعل في التشكيل، أو ذكراً لمكوناتها الأساسية؛ ولعل مناخ الديوان، والإطار الفكري الذي يقع فيه، والرغبة في التعبير عن الأشياء اليومية الواقعية، أو عن الأحوال المتألّمة الذاتية والجماعية، جعلت الشاعر يوظف لغة عادية تخلو من تصنع بعض ما بعد الحداثيين، وتكلفهم، وإغراقهم في الاقتباس، والإشارات إلى علم الموسيقى، ومصطلحاته.

5 - التشاكل

يتبين من كل ما سبق أن هناك أعمدة ثلاثة يقوم عليها بناء ديوان «على انفراد»؛ هي التقليد الشعري، والتشكيل، والموسيقى؛ على أن خصوصية مقطوعاته تجعلنا نقترح مفهوماً آخر لتحديد شكل الشعر الذي تنتمي إليه. لهذا نقترح مفهوم (التشاكل)، لكننا ننبّه إلى أننا لا نقصد به معناه في السيميائيات، وإنما معناه في نظرية الأجناس الأدبية؛ ذلك أن جنس الشعر قديم، وحديث، ومعاصر، من حيث الأنواع؛ وموزون مقفى، وتفعلة، ومسطور، ومنثور، من حيث الموسيقى؛ وشعر التأملات الفلسفية، وشعر الحياة اليومية، والصغيرة، من حيث المضمون.

مرت الفنون التشكيلية بمراحل متعددة، وكونت مدارس متنوعة، مثل الفن التكعيبي، والفن التجريدي، والفن السريالي، والفن الفطري... والفن البصري الذي من خصائصه: التفاعل بين الألوان، والقماش، والمزج بين ألوان عديدة، والجمع بين أشكال هندسية متنوعة، وتعزيز الروابط بين الظل والضوء؛ ولربما ترجح القصائد التشكيلية الواردة في الديوان، ولوحة الغلاف، أن يُنمى الشاعر إلى تأثره بتيار (الفن البصري)⁽⁶⁰⁾.

(60) تفاصيل هذا في فصل (النسق الموحد) بالجزء الثاني.

تُسجَلُ الكتب الخاصة بتاريخ الموسيقى ما مرت به من أطوار: المقامية، والتناظرية، والتوافقية، والتسلسلية، والتقليدية؛ على أن إناء الشاعر نُصَجَ بما فيه من موسيقى؛ فلا إشارة إلى فلاسفة الموسيقى، ولا إلى موسيقيين ما عدا إسحاق الموصلي... ولا إلى باخ وبيتهوفن ودُوبيسي... وإنما هناك ذكر لبعض المغنين المعاصرين وعناوين أغانيهم؛ ومعنى هذا أن الشاعر متشبع بالموسيقى الشعبية الغربية، كما هو مختص في الموسيقى الشعبية المغربية؛ ويرى المختصون في هذا الميدان أنها تَتَّسِمُ بِبَسَاطَةِ التركيب، وتكرار العناصر؛ ولعل ما وظّفه من عناصر لصياغة قصائده، وشذراته، في اقتصاد، وتقدير، يصلح بَيِّنَةً على صحة دَعْوَانَا.

وعليه، فإن الشكل الشعري الشعبي، وشكل التشكيل البصري الشعبي، والشكل الموسيقي الشعبي، هي جوهر الديوان، ولبه؛ وقد تضافرت، وتكاثفت لنسج مقطوعاته، وشذراته. لهذا كان ضرورياً، أو يجب أن يكون ضرورياً، وضع مفهوم التشاكل حتى يمكن توصيف التّيارات الشعرية في المغرب، وتصنيفها لتمييز تيار من تيار، ومبدع عن مبدع، كما هو الشأن في ثقافات الأمم الراقية.

II — ما قبل التحقق

ادعأونا، في هذا التأليف، أن الشعر موسيقى لغوية، وَبَيِّنَانَاهُ على افتراض أسبقية الموسيقى للغة؛ وتأسيساً على هذا الادعاء تكون تلك المقطوعات، والشذرات، تحويلاً لغوياً لِمَوْضُوعَةٍ موسيقية؛ وتوضيحاً لهذا الأمر، فإننا سنقتصر على مقطوعة (بورخيس)، محللين إياها إلى مقاطع صوتية وصمتية، وإلى قوالب عروضية، وإلى طينيات، ومسافات، لننتهي إلى لَحْنِهَا، وإيقاعها.

1 - المقاطع

إذا ما نظرنا إلى الخطوط التي أَتَبَّنَاهَا مُنَابَ الأسطر الشعرية، فإننا نجد أن بعضها أطول من بعض؛ وتبعاً لهذا الاختلاف فإننا نقترح المفاهيم الآتية:

سواد قُصَّار ✓ بياض طَوَال

سواد أقصر ✓ بياض أطول

سواد قصير ✓ بياض طويل

سواد طويل ✓ بياض قصير

سواد أطول ✓ بياض أقصر

سواد طوال ✓ بياض قُصَّار

على أن هذا الصنيع لا يقدم لنا إلا مقارنة فضائية تركيبية، وليست إيقاعية؛ لذلك، فإننا سنلجأ إلى تحليل الكلمات إلى مقاطع، ثم منحها قيمةً زمنية، لتعرف على المقاييس الزمنية للصوت، وللصمت. وسنقترح ما يلي:

أنواع المقاطع :	قُصَّار	أقصر	قصير	طويل	أطول	طَوَّال
الهياكل :	CV	CVC	CVCC	CVV	CVVC	CVVVC
علامات الزمن:						
أسمائها :	ذات ثلاثة أسنان	ذات السنين	ذات السن	السوداء	البيضاء	المستديرة
رموز الصمت :						
أسمائها :	البرقة	اللحة	الومضة	الطرفة	اللحظة	الوقفة
القيم الموحدة :	$\frac{1}{8}$	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{2}$	1	2	4
المقاييس :	ن 4					

وتطبيقاً لهذا الإطار، فإننا سنختار سطرين؛ أحدهما قُصَّار، وثانيهما طَوَّال:

أَعْمَى مِثْلَكَ (صَمَمْتُ)
وَأَسْتُ نَادِماً عَلَى شَيْءٍ تَرَكْتُهُ فِي الضُّوءِ (صَمَمْتُ).

أنواع المقاطع: أَع مَي مَث لُ كَ
 أقصر طويل أقصر قُصار قُصار
 cv cv cvc cvv cvc الهياكل:

علامات الزمن:

أسمائها: ذات السوداء ذات ذات ذات
 السنين السنين ثلاث ثلاث ثلاث
 أسنان أسنان

القيم: $\frac{1}{4}$ 1 $\frac{1}{4}$ $\frac{1}{8}$ $\frac{1}{8}$ $\frac{3}{4}$ 1 (للتبسيط: $\frac{7}{4}$)
 المقياس: $\frac{8}{4}$.

ومعنى هذا أننا إذا نقضنا (2) من (8) تبقى (6)، وهي مقدار الصمت؛
 وعليه، فإنه يمكن اقتراح العلامتين الآتيتين للدلالة عليه: (الوقفة: — : 4)،
 و(اللحظة: — : 2)؛ بناء على افتراضنا للحد الأقصى ($\frac{8}{4}$).

أنواع المقاطع: وَ لَئ تْ نَا دِ مَن عَ لَي
 قصار أقصر قصار طويل قصار أقصر قصار طويل
 cvv cv cvc cv cvv cv cvc cv
 شَيْءٌ تَ رَكْ تْ هُوَ فُضْ ضَوْءٌ
 أقصر أقصر قصار أقصر قصار طويل أقصر أقصر قصار
 cvv cvc cvc cvv cv cvc cv cvc cvc

وبحسب ما اقترحناه من علامات للزمن وقيم، فإن مجموعها في هذا السطر
 هو ($\frac{6}{4}$) تقريباً؛ أي يبقى للصمت (2) أو (اللحظة: — : 2).

2 - القوالب العروضية

إذا اتضح هذا المثال، فليقس عليه ما لا يقال، من أجل أن نتقدم خطوة إلى
 ضبط القوالب العروضية؛ وهي:

- مُتَفَعِّلُنْ فَعِلُنْ مُفْتَّ
 عِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعُو/
 - فَعُولُنْ فَعُولُنْ فَعُولُ فَعُلُنْ فَعِلُنْ فَعُو/
 - فَعِلُنْ فَعُولُنْ فَاعِلُنْ فَعُو/
 { بياض : الطنين الفاصل
 - فَاعِلُنْ مُفْتَعِّلُنْ فَاعِلُنْ
 - فَعُلُنْ فَاعِلُنْ
 - مُتَفَعِّلُنْ مُتَفَعِّلُنْ / فَعُلُنْ مُتَفَعِّلُنْ مَفْعُولُنْ
 - مُتَفَعِّلُنْ فَاعِلُنْ فَعُلُنْ فَعُولُنْ.
 { بياض : الطنين الفاصل

يُسْتَخْلَصُ مما هو أعلاه:

- أن البنية الإيقاعية الفطرية المكتسبة وجهت الشاعر بدون وَغِي منه،
 فَتَعَلَّيْتُ على مَخْضِ المَكْتَسَبِ؛ وأخذاً بِعَيْنِ الاعتبار هذه قرأنا (وَمَعَ) و(مِثْلُكَ)
 بِسَنَكَيْنِ الْعَيْنِ وَالْكَافِ.

- أن البنية الإيقاعية تحكمت في التَرْكِيبِ، وفي الدلالة، كما يتبين ذلك من
 التعليق الذي ربط بين الأسطر، وخصوصاً الخمسة الأولى.

- أن البنية الإيقاعية غير رتيبة، لأن هناك تقابلاً بين (فاعِلُنْ) و(فَعُولُنْ)، كما
 أن هناك تحويلات في أسرة (فاعِلُنْ)؛ أي (مستفعِلُنْ، متفعِلُنْ، مَفْعُولُنْ)⁽⁶¹⁾.

3 - مَكُونَاتُ اللّحْنِ

تنقسم القصيدة إلى مقطعتين يفصل بينهما بياض؛ كل واحد يتكون من أربعة

(61) لمعرفة ما يشير إليه هذا الكلام يراجع فصل (توليف الأنغام) في الجزء الأول.

أسطُر؛ على أن تفعّلات الأول أكثر من الثاني، مما يعتقد معه أن يكون هو الذي بالخمس، وما بعده هو الذي بالأربع؛ ومع أن هذا أمر يجوز في الموسيقى، فإننا سنحرص على ما هو طبيعي؛ أي الذي بالأربع، ثم بعد الانفصال، فالذي بالأربع⁽⁶²⁾؛ ومُسْتَدْنَا في هذا استثمار الصوت والصوت معاً، بناء على إحصاء التفعّلات التي هي اثنتان وأربعون، ثم تَوَزِيْعُهَا بحسب ما تقتضيه قواعد الموسيقى؛ وإذا علمنا أن الذي بالأربع يتكون من طَنَيْنَيْنِ وبقيّة، وأن الذي بالخمس يتكون من ثلاثة ونصف، فإن الوضع يكون كالآتي:

- الطنين الأول (7)

- الطنين الثاني (7)

- البقية ($3 \frac{1}{2}$)

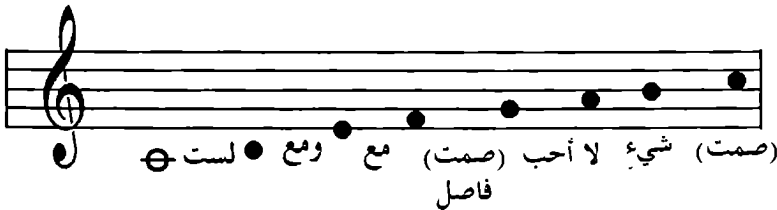
- البعد الفاصل (7)

- الطنين الأول (7)

- الطنين الثاني (7)

- البقية (بياض) ($3 \frac{1}{2}$)

وتوضيح هذا في التدوين الموسيقي الآتي:



هكذا سمحت القوالب العروضية بتحديد التأليف اللحني، كما تُتَبَّحُ اقتراح إيقاع أولي؛ وإذا إن هناك اثنين وأربعين قالباً، فإن الوزن إمّا أن يكون ثنائياً ($\frac{42}{2} = 21$)،

(62) ليفهم القارئ هذا الكلام عليه أن يكون له بعض اطلاع على علم الموسيقى وتاريخها؛ يراجع فصل (سحر الأعداد والأشكال) من الجزء الأول.

وإما أن يكون ثلاثياً ($\frac{42}{3} = 14$)؛ وتقتضي (قواعد الموسيقى أن يكون الزمن القوي على البداية، وأما ما بعدها في هذه الحالة فضعيف؛ أي: قوي/ضعيف؛ أو: قوي/ضعيف - ضعيف؛ على أن الدقة تتطلب أكثر من هذا التحليل العام؛ لذلك، فإننا سنهتم بمقاطع الكلمات لِنُحَدِّدَ بِهَا مَدَى القوة، أو الضعف.

تبعاً للمنهاجية التدريجية المقترحة، فإن المقاطع من حيث تمثيلها لطبيعة الزمان؛ هي: ضَعَفٌ، وَأَضْعَفُ، وَضَعِيفٌ، وَقَوِيٌّ، وَأَقْوَى، وَقُوَاءٌ؛ وسنختار مثالين تَوْضِيحِيَّيْنِ:

- << <<< <<
- لَنْ تُدْ أَ قُلْ لَ عَ مِ مِنْ كَ
- (1) أضعف ضَعَفٌ ضَعَفٌ ضَعَفٌ ضَعَفٌ قوي أضعف ضَعَفٌ
- <<< << <<< << <<<
- لَا أُ جِبْ بَ أَنْ أَ رِ مَ أَ رِ
- (2) قوي ضَعَفٌ أضعف ضَعَفٌ أضعف ضَعَفٌ قوي أقوى ضَعَفٌ قُوَاءٌ

بهذا التحليل تجاوزنا الثنائية المقترحة من قبل المُخْتَصِّصِينَ، إذ (القوة) درجات، و(الضعف) درجات، وَقَضَضْنَا مشكل عدم تجاور مقطعين قويين، كما أنه سمح لنا بالتعرف على طور الحالة النفسية للشاعر من خلال نوع المقاطع؛ ففي المقطع الأول ثلاثة مقاطع طويلة فقط: (تَا)، و(مَ)، و(وَا)، في حين أن المقطع الثاني يحتوي على (لَا)، و(رَى)، و(مَ)، و(رَى)، و(مَى)، و(نَا)، و(لَى)، و(هُو)، و(هُو)، و(وَا).

III — ما بعد التحقق

تسلمنا هذه الملاحظة إلى تلمس ما أسمىناه بـ (ما بعد التحقق)؛ أي معاني القصيدة، ودلالاتها التي هي نواة معاني، ودلالات، الديوان برمته؛ وطبيعة الشعر تفرض قراءات متعددة للنص الواحد. وسنضاهي بين القراءات المتأنية بالتوافقات الموسيقية؛ وعليه، فإننا نقترح ثلاثة منها؛ أولها توافق الألوان، وثانيها توافق أسماء الأعلام، وثالثها توافق الوحدة والاجتماع.

1 - توافق الألوان

تقدم لوحة الغلاف مؤشرات قوية على كثير من معاني، ودلالات الديوان. ذلك أنها تمتزج فيها ألوان الأسود، والأخضر، والبنفسجي، والأزرق، والبنّي، والرمادي؛ وترددت هذه الألوان في كثير من القصائد، وخصوصاً قصائد (فَنّ الشعر)، وفي (في الطريق إلى كالا...)، وفي (غبطة الشاعر الذي أصبح رَسَاماً)؛ وإذ جرت عادات المؤلفين أن يَمْنَحُوا لبعض الألوان دلالات، ولبعض آخر دلالات يمكن أن تكون الفرح/الحزن، والسرور/الكآبة؛ والتفاؤل/التشاؤم... فإن هذه القسمة الكبرى نفسها نجدها في الظواهر الطبيعية؛ هناك الليل، والظلام، والظل... وهناك النهار، والضوء، والنور... وتتجمع هذه المتضادات لتعبر عن الموضوعة الأساسية التي هي: العمى/البصر.

وجهت هذه الموضوعة تَأَلَّفَ المكونات الثلاثة: العمى، والسّواد، والظلام، لِتُدْخَلَ، ضمنها، البصر، والبياض، والضوء؛ وبهذا التمزيج صاغ الشاعر لحناً مأساوياً؛ هكذا صارت كل الألوان رمزاً لِلْعَمَاءِ والضرارة المؤدين إلى الوحداية القاتلة، ودلالة على كل ما هو مُؤْسِر، ومُخَزِن، وتحولت كل الظواهر الطبيعية إلى قتل وتدمير: الضوء شاحب، والظل قاتم، والشمس ذابلة، والمطر الذي يغيث الناس أصبح بلا مَعْنَى، يزيد في آلامهم كيف يشاء، وصار النهر أعمى يجرف كل ما يجده، وَبَاتَ الليل صديقاً حميمًا.

هناك قصائد عديدة تتحدث عن هذه الرؤيا؛ منها (غبطة الشاعر...). ففي هذه القصيدة كلامٌ عن العزلة، والفجعية، ومحاولة التخلص منهما بالشراب، وبالتشكيل:

غِبْطَةُ الشَّاعِرِ هَارِباً إِلَى الْفَرَاغِ وَاللُّونِ.

وفي (الكرسي الفارغ) تبلغ العزلة ذروتها، بحيث الماء منعزل وحيداً، وعزلة المناظر، كما أن القصائد التي اتخذت موضوعتها الليل كانت إلحاحاً على الوحدة والعزلة:

وَيَأْتِي قَمَرُنَا كَعَادَتِهِ وَجِيداً⁽⁶³⁾

يُوزَعُ الْقِبْلَاتِ الْمُفَضَّةُ (?)

(63) حسن نجمي، المرجع المذكور، (شمس لا مبالية)، ص. 101.

بل يتعدى الأمر الحديث عن العزلة، والوحدة، إلى الكلام عن الموت، ومَرَّاسِمِ الدَّفْنِ، والجَدَادِ الأَزْرَقِ؛ هكذا صارت كثير من قصائد الديوان رؤيا ندم، وتَشْطُّ، وَخَرَابٌ... وَخَرَبٌ، وَأَسْرٍ، وَمَمَاتٍ.

2 - توافق أسماء الأعلام

وظف الشاعر أسماء الأعلام لتركيز تلك الرؤيا في ذهن القارئ باستعمال أسماء الأعلام؛ وسنقترح على القارئ أثلوثة مستخلصة منها؛ هي الأدبية السَّودَاء، والتشكيلية البنية، والعلامية الساخرة.

تحدث عن الأدبية السوداء، من خلال بورخيس، في قصائد أربع؛ هي (بورخيس)، و(أَغْزَلُ فِي الضُّوءِ)، و(أنا وبورخيس)، و(امتثال لبورخيس)؛ في القصيدة الأولى تكلم عن العمى الذي هو أحسن من الإبصار. في هذه الأوقات التي انقلبت فيها الأوضاع، فصار بعض الناس يفضلون الظلام على الضوء، ويرغبون في السواد لا في البياض، وأصبح بعض من عميت أبصارهم، وقلوبهم سادة، وكبراء، فأضلوا اتباعهم السَّبِيلَ؛ بورخيس نموذج أمثل لهذا الوضع؛ فهو، وإن كان أَعْمَى، يعتمد على نفسه، ويتلذذ بوقع عكازته، وخطواته، ويستمتع بما له من نور داخلي، منفرداً يعيش في عالم إبداعِي ثَرٍّ، وحياة غنية بتجارب أعلام البشر، وعيون الآثار؛ بورخيس أيقونة على عالم الإبداع الفسيح، والاستبصار البَعِيدَ الآفاق من جهة أولى، وعلى انْحِطَاطِ القيم، واندحارها في الزمن الرديء، من جهة ثانية:

بَيْنَمَا كَانَتْ قَصِيدَتُهُ تَخُوضُ اشْتِيَكَاتِ الطريق عائدة إلى سَوَيْسِرَا

هُنَاكَ حَيْث مَاتَ بُورْخِيسُ مِثْلَ مَلِكٍ مَخْلُوعٍ فِي الْمُنْفَى⁽⁶⁴⁾.

عززت هذه الأدبية السوداء التشكيلية البنية التي خصها الشاعر بحصة وافرة من الأسطر، وخصوصاً في قصيدتي (فن الشعر) وفي (في الطريق إلى كالا...)؛ هكذا اجتاحت دكنة المادة مساحات القصيدة، وصَوَّرت القصائد الأمهات الإغريقيات مرتديات السواد، ورسمت الأسطر معاناة الأمراض،

(64) المرجع المذكور، (امتثال لبورخيس)، ص. 17-18 (18).

والمنفى، واللاّقيمة، والعزلة، والذئاب البشرية، وشحوب القمر، وبياض العدم، وصمت الكون الموحش، والإخفاق، والموت:

- مَازَكْس . . وإِخْفَاقُ الْمُمَكِّنَاتِ

- إِخْفَاقُنَا فِي شَقِّ الطَّرِيقِ بَيْنَ الْجُثَثِ⁽⁶⁵⁾.

توأم التشكيلة البنية هو العلامة السّاحرة التي اخترنا لها ثلاث أيقونات؛ هي رولان بارت، وإدريس الخوري، وشكري؛ بَارَثَ رمز الثورة على التقاليد الثقافية الموروثة المتكلّسة، وأدلوجة المركزية الأوربية، والأنماط الاستهلاكية لما بعد الرأسمالية، والصناعية؛ وهو رمز مناصرة الثقافة المتجددة، وثقافة الاختلاف، والفئات المهمشة؛ لهذا مزج الشاعر بين الكلام عن بارت وعن عمال النظافة، وناسجات الزّرابي، والأطفال الضائعين؛ ومحمد شكري له أدب كشف فيه عن عورات بعض المحرمات الذاتية، والأسرية، والمجتمعية؛ وأما إدريس الخوري فله آداب واقعية تمتع مفرداتها من اللغة الشعبية، وموضوعاتها من الحيات الواقعية. بارت، وشكري، والخوري، ثالث أثلوثة ثار ضد حياة النفاق، والمداهنة، والمداجاة، وناصر المستضعفين في الأرض، وصور الحياة البشرية في محاسنها، ومبازلها.

3 - توافق الوحدة والاجتماع

إن وضعاً مأساوياً مثل هذا هو جزء من الشاعر؛ لذلك، فإنه يعيش حالة متأرجحة بين اليأس، والأمل، والعمل. يقدم لنا عنوان الديوان، واللوحه التشكيلية المثقلة بالألوان، مؤشراً على حالة اليأس الناتجة عن العزلة، والإحباط، والفشل، وغيرها من مشطبات، مما كان يعيشه الشاعر؛ هكذا، بعد العنوان على انفراد يتلوه الإهداء (إلى مَوْتَايَ)، فاليد الواحدة المصفقة، فوزر ميراث الأسلاف، فالقصائد المتحدثة عن وحدة الكفيف الحقيقي، والاستعاري، وعزلته، وما يلفه من صمت مخيف في أرض مليئة بالخناجر، خالية مما يفرح، مليئة بالظلمة، والوحشة قصيدة (سَالْفَاثُورِي كُؤَا سيمودو)، ومقطوعة (أقل من واحد)، وما يشمله من تنكر الأخلاء، والأصدقاء، والمجتمع في (تلويحة)، وفي

(65) المرجع المذكور، ص. 24.

(المرأة)، وما يواجهه من انسداد الآفاق⁽⁶⁶⁾ (البرزخ)، وما ينتظره من احتضار ليصير جثة هامة (الجثمان السياسي) و(عزاء)⁽⁶⁷⁾.

غير أن هذا اليأس الأسود يواجهه الأمل في غد أفضل، وحياة أحسن، وأرغد، وتعلق بالحياة، والمحبة، على الرغم من كل شيء، لكل ما في الكون، لأنها خير ما يستأصل اليأس، ويفتح آفاق الأمل؛ هي محبة الحياة من حيث هي: أسرة، وأصدقاء، وفنون:

- جِينِ اسْتَحْكَمَ إِلَى جَسَدِهَا، . .⁽⁶⁸⁾

تَقَلَّلَ مِنَ الدُّنْيَا

وَكَتَفَى بِهَذَا الْمَكَانِ الصَّغِيرِ . .

عَلَى ذِرَاعَيْهَا

- الشَّمْسُ سَاحِئَةٌ عَلَى ذِرَاعَيْ⁽⁶⁹⁾

وَبِأَنَّكَ هُنَا قُرْبِي . .

أَفْكُرْ فِي بُرُودَةِ الْعُشْبِ

تُصَوِّرُ (بِاخْتِصَارٍ شَدِيدٍ عَنْهَا) محبة الحياة العائلية الواقعية التي تمتزج فيها المحبة بالممانعة، والاستسلام بالمعارضة، والاهتمام بالإهمال . . . كما أن محبة الكتابة، و«الهروب» إِلَيْهَا أفضل محارب لليأس؛ إنها مداواة بالتي كانت هي الداء؛ موهبة الكتابة تجعل صاحبها مرهف الأحاسيس متوجساً يُحْسِنُ بِمَا لَا يُحْسِنُ بِهِ غَيْرُهُ، فتأتيه الهموم من كل الجوانب، لكنه يدفعها، ويحاربها، ويخفف مِنْ غَلَوَاتِهَا بِهَا.

المثقف الملتزم يعتبر الكتابة نوعاً من العمل على تغيير الواقع، أو التخفيف من حدته على الأقل؛ هكذا عبر الشاعر عن الحياة الواقعية العادية، وعن الظواهر

(66) المرجع المذكور، ص. 66-67.

(67) المرجع المذكور، ص. 112.

(68) المرجع المذكور، ص. 124.

(69) المرجع المذكور، ص. 121.

الفظيعة، مثل الهجرة السرية، وقوارب الموت، وفواجعها (مقهى روما)⁽⁷⁰⁾، وعن السياسة، وكوارثها، مثل الاغتيال المادي، أو المعنوي، وأحبايلها الماكرة (الجثمان السياسي).

تلك سنة الكون التي تتأسّسُ على الأضداد: الخير/الشر؛ المحبة/الكراهية؛ اللطف/الابتلاء... ولن تجد لتلك السنة تَبْدِيلًا؛ على أن ما ينبثق من الاختبار يكون أصلب عوداً، وأغلى ثمناً، وأخسَنُ آداءً للرسالة، كما يتجلى ذلك في سيرِ الرُّسلِ والأنبياءِ، والصالحين، وكل المصطفين الأخيار من البشر.

تلك دلالات متآنية استخلصناها من ديوان «على انفراد»، وقد جعلناها ثلاثيات حتى يمكن حصرها، وضبطها في إطار نظري منظم؛ وهي:

الْعَمَلُ

الْتَرْدُدُ

الأمل

توافق الوحدة [والاجتماع]

الظلام

التشكيلية البنية

السود

الغمي (توافق الألوان)

الأدبية السوداء

توافق أسماء [الأعلام]

(70) المرجع المذكور، ص. 62.

خاتمة

حاولنا أن نحلل ديوان «على انفراد» بمفهومين أساسيين؛ هما التناص، والتفانن. انبثق مفهوم التناص بمعناه المعاصر في مناخ الدراسات اللسانية، والتحليلات الشكلانية، والمذاهب البنيوية الفرنسية، والعقائد المابعد حداثة؛ لهذا، فإن كثيراً من الأبحاث المتعلقة به «قتلت» الكاتب والمبدع و«غُيِّبَتْ» الأبعاد الاجتماعية، والثقافية، والنفسانية؛ هكذا صار النص لعبة شطرنج ذات قوانين خاصة مكتفية بذاتها، تتسبب كل نقلة في نتائج ضرورية، مما يجعل البداية تستبق النهاية؛ وهذه من مفارقات ما بعد الحداثة يجب تسجيلها.

أدت بنا تلك المفارقات إلى إعادة النظر في المفهوم بإطار ما تقدمه العلوم المعرفية المعاصرة من نظريات، ومناهج؛ ومن بين ما تخصصه هذه العلوم بعناية خاصة إيلاء أهمية قصوى إلى الأنساق الإدراكية من سمع، وبصر، وذوق، وشَّم، ولمس، وإلى أنساق المعالجة، والتوصيل من خيال، وتخيل، وتعقل، وإلى أنساق التخزين، والتذكر، والاستعمال، والاستقصاء؛ وإذا الأمر يتعلق بالإنسان، فإن الوعي، والمقصديات، هي ما يكون وراء مختلف المواقف؛ لهذا، تكون هناك مواقف تبجيلية احترامية انقيادية... وتكون هناك مواقف ساخرة مُستهزئة.

تأسست إعادة نظرنا على تجزيء مفهوم التناص إلى التناص الخارجي بأنواعه، وإلى التناص الداخلي بمكوناته؛ ومع أن هذه المحاولة مفيدة، فقد تبينت لنا حدودها، فاقترحنا مفهوم (التبايض)، واعتبرناه قسيم التناص، أو وجه العملة الثاني، ثم جزأناه إلى التبايض الخارجي، وإلى التبايض الداخلي؛ الخارجي ما يشاهده الكاتب في محيطه، فيمسه، فيدركه، فيخزنه، فيستعمله عند الحاجة، فيتجلى في القصيدة بصفة عامة، وفي القصائد الأيقونية التجسيمية بصفة خاصة؛ وأما الداخلي فيكون في اختلاف أسطر الصفحة من حيث طولها، وقصرها، وفي مقدار ما يكون بينها من مسافة، وفي نسبة المسود، والمبيض إلى جهات الصفحة الأربع.

على أن طبيعة العلاقة بين الفنون، والمعطيات المادية الصرف، دفعتنا إلى أن نقترح مفهوم (التفانن)، ونعني به تداخل فن الموسيقى، والتشكيل،

والمسرح، مع الشعر؛ هكذا اعتبرنا المقطوعة الشعرية المكونة من الصوت والصمت المتحققة في زمن مُعَيَّن هي لحن موسيقي، أو إذا ذهبنا أبعد، فإنها تعبير لغوي عن موضوع موسيقية؛ وجعلنا بياض الصفحة، وسوادها، يكونان لوحة تشكيلية، لها فضاء، وأبعاد معينة، ممّا قد يَصِحُّ القول معه: «القصيدة لوحة تشكيلية»؛ وأمّا إذا توافر الحوار، ووقع الإنشاد، فذلك من مكونات المسرح، «القصيدة فعل مُسَرَّجِي».

تَجَنُّباً لِمَثَلٍ تصير هذه المقاربة مثالية مجردة مطلقة صالحة لكل شعر، ولكل زمان، ومكان، فإننا حرصنا على أن نُركِّز على الموادّ المستعملة لتحليلها، ثم منحها تأويلاً معيناً يربط الإبداع بصاحبه في مقتضيات أحوال خاصة، وبابتداعات، أو تقليدات فنية معينة، حتى يمكن أن نؤسس لتيارات شعرية، مما يسهم في تقديم الفكر بصفة عامة، والإبداع الشعري بصفة خاصة.

بناء عليه نسمي رؤيا «على انفراد» بـ«تيار الحياة الواقعية».

الفصل الثالث

الفاء والباء

تمهيد

انتبهنا، في الفصل السابق، إلى نتيجة نراها قابلة لأن تجعل فرضاً تنجز في ضوءه أبحاث موسعة في الشعر العربي حتى يمكن تصحيحه، أو تزييفه. النتيجة الفرض هذه هي أن الشعر العربي في المغرب يجب أن يصنف في تيارات، لا أن يجمع في مقولة واحدة، حتى يمكن تمييز شاعر من شاعر، أو مجموعة شعراء من مجموعة شعراء أخرى. ذلك أن هناك أشعاراً تمنح معانيها للقارئ بدون عسر كبير، وأن هناك أشعاراً أخرى هي المتأهة عنها⁽¹⁾.

شعر محمد بنيس في «ورقة البهاء» متأهة يضل فيها القارئ المعتقد على الشعر المعاصر، فلا يدري أيُّ السُّبل يسلك للخروج منها، نحو المعاني والدلالات. وإذا كان هذا هو وضع الناقد، فما هو حال الهاوي المحب للشعر؟ قد يبحث عن المتعة المباشرة فلا يجدها متجسدة في إيقاعات متماثلة، أو متناظرة، أو موحدة، وقد يفتش عن المعاني بالتركيب، فلا يعثر إلا على ما لا يُسائر القواعد المتعارف عليها في النحو، وإنما تواجهه طبقات كلمات،

(1) لا نقصد بهذا ما يدعيه أصحاب أطروحة «الأجيال»، فقد ناقشناها في المدخل (الآلة والمتن)، وإنما عتينا بعض الاتجاهات النقدية الغربية التي تجمع كل شعراء ما بعد سنوات الثمانين تحت عنوان (التقليليون): «Les Minimalistes»، مما أوقعهم في ورطات أثناء التحليل التطبيقي.

Voir, Jean Baetens, «Pour en finir avec la poésie dite Minimaliste», Intervalles, Automne 2004, 104-109.

وهو من أشهر المناقشين لهذا الإبدال في أوروبا. انظر الموقع الإلكتروني: <http://www.cipa.ulg.ac.be/>

بعضها فوق بعض، حتى يكاد لا يستطيع أن يُمَيِّزَ أقسامها، أو بعضها تحت بعض مكونة أشكالاً غريبة، أو هي مبعثرة على أديم الصفحة التي تستحيل إلى ما يشبه الشاشة، أو متداخلة، أو متدرّجة؛ وبناء على هذا، فإن القارئ المفترض لهذا الديوان يقضي حاجته بترك الاقتراب منه؛ وحتى إذا تجرأ، واقتحم جمّاه، وأراد أن يُسَجِّلَ ما فهمه، فإنه يلجأ إلى تعابير شعرية، أو مفاهيم مسكوكة عامة تطلق على كل شعر؛ وهذا النوع من الممارسات يسيء إلى الشاعر، وإلى القارئ، وإلى التحليل العلمي الرّصين الذي يسود في أرقى المعاهد والجامعات.

تَجَبُّاً لكل هذه المزالق، فإننا سنسعى إلى أن نتحدث عن هذا الشعر بلغة واضحة تحيل قصائد الديوان إلى ما يشبه البحث التاريخي، أو المثال الفلسفي، حتى تُبَرِّزَ المعاني، والدلالات؛ وبهذا نُنْظِمَ الفوضى، ونُعْقِلِنَ الهُذْيَانَ، ونَتَخَذَ بوصلة تُهْدِينَا في متاهاته، ونُضِيءُ بنور المفاهيم العماء، ونُخَطِّطُ مَسَالِكَ في غابات الكلمات، في مرحلة أولى، ثم سنحرص على تبيان ما عجزت عنه اللغة، أو عَمَّاه الشاعر، بناء على مؤشرات البياض، والسواد، وتجلياتهما في أشكال هندسية، وشجرية، وشيئية معطاة، أو مشيدة، وعلى الصوت، والصمت، لكي نبين انتظام الإيقاع الشعري، في مرحلة ثانية؛ ثم سنعمد إلى مركّزات الديوان المتجلية في أسماء أعلام الأشخاص، والأماكن، والمفردات اللغوية العادية، أو ذات الإيحاءات المتعددة، لبناء دلالات نوعية خاصة بالديوان، في طور ثالث؛ أي أننا سنهتم بالمعنى، وشكل المعنى، وتَدْلَالُ الدَّوَالِ.

1 - تشييد الانتظام

تفرض علينا النظرية التي نَتَبَّأُهَا التسليم بانتظام معين وراء الفوضى المُسْتَشْرِية؛ وقد تحدثت عن انتظام الكون الأساطير، والكتب الدينية، والفلاسفة القدماء، وأطروحة علم النفس الخاص بالأشكال، ونظرية الأنساق المعاصرة، ونظرية الكوارث، والعماء، والأبحاث الطبية؛ وإذ البحث في الكونيات⁽²⁾، وما يلحق بها شاسع الأطراف، فإننا سنكتفي ببعض المبادئ الآتية:

(2) الكونيات la cosmologie؛ وقد خصصنا الفصل الرابع من الجزء الأول للمبادئ التنظيمية).

أ - مبدأ وحدة النشأة الأولى

أولها، وهو مبدأ المبادئ الذي هو وحدة النشأة الأولى التي تحدثت عنها الأساطير، والكتب الدينية، والفلاسفة، والمتصوفة، وهي تتكلم جميعها عن تطور الكون من السديم، والعماء... إلى أن صار عوالم روحانية وفلكية، ومادية محكومة بمبادئ روحية، وطبيعية؛ وإذ النص شيء طبيعي صادر من كائن طبيعي، فإنه يجب أن يدبر بمبادئ الطبيعة، وقوانينها.

ب - مبدأ الاتصال

تقتضي وحدة النشأة أن يكون هناك اتصال، وانفصال بين كل من، وما في الكون، وما يصدر عنه؛ والنص من «المصدورات»؛ فهو، إذن، يقع تحت المبدأ الآتي: «كل شيء في هذا الكون يتصل بكل شيء»⁽³⁾؛ ووسائل الاتصال في النص تكرر الأصوات، والمفردات، والأدوات الإشارية، والمحيلة (أسماء الإشارة، والضمائر، وال«⁽⁴⁾»، والتشبيه، والاستعارة، والزمان، والمكان. لتوضيح هذا نأتي بالمثل الآتي:

«لِسَبُو طُيُورٌ تَخْتَفِي بِنُثَارِهَا سَيُزَوِّجُ
الْأَخْجَارَ لِلْأَخْجَارِ يَخْرُجُ مِنْ سَدِيمٍ تَرْدُدُ
يَهْبُ الْمِيَاءُ لِرَايَةِ مَقْصُودَةٍ كُنْتُ آخِيَتِهِ
يُحَقُّولُ رَغْدٍ مُغْلَقٍ تَسْتَبْسِلُ الْأَسْرَارُ فِي
خَفْرِ الْخُطُوطِ كِتَابَةَ شَمْسِيَّةٍ...»⁽⁵⁾.

يبرز الاتصال في هذا النص بوسائل متعددة: اسم العلم (سبو)، والضمائر المستترة، والظاهرة، وأداة التعريف (ال)، والإضافة، والأوصاف المفردة،

(3) يراجع محمد مفتاح، التشابه والاختلاف نحو منهجية شمولية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، 1996.

(4) هناك كتب كثيرة تعرض لالتحام النص واتساقه؛ وهي متداولة بين أيدي الناس؛ وأشهرها لدى الباحثين العرب كتاب «هاليداي»، ورقية حسن، الالتحام في اللغة الإنجليزية.

(5) محمد بنيس، الأعمال الشعرية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2002، ج 2، ص. 17.

والجملية، وزمان الإيقاع، والمجتمع، وفضاء اللغة (سبو)، و(حقول)، والصفحة ذات البياض، والسّواد؛ وأنواع الوصل هذه كافية، على الرغم من غياب بعض الأدوات التي تقوم به، مثل حروف العطف، وعلامات الرّقم؛ وهذا يوحي أن التلاحم، والاتّساق، في النص، هو جوهرى، وليس مُضطّناً قَرَضَتْهُ ضروريات، وحاجيات، التعبير باللغة؛ على أنها تُحْتَمُ أحياناً تجزئة النصّ لدواعٍ نفسية، أو إيقاعية، أو معنوية؛ وبناء على هذا انقسم هذا المقطع إلى فقرتين؛ إحداهما تحدثت بالغَيْبَةِ، وثانيتها تكلمت بالخطاب: (1) (سبو... مقصوفة، (2) (كُنْتُ... شمسية).

يتيح مبدأ الاتصال أن ينظر إلى النص كما هو، أي (ما تقرأه هو ما تقرأه)⁽⁶⁾؛ ومعنى هذا أن ليس فيه حقيقية، ومجاز، ومعنى ظاهر، وخفي؛ فهو يدل على التَّنَاقُح، والتزاور، وما يقاربهما، ويرادفهما، (ز، و، ج)، و(س، د، م)، و(م، أ، و)، و(أ، خ، و)، و(ح، ج، ر)؛ وسبو يزوج الأحجار للأحجار، ويهب المياه، لِلْحُقُول، الناتجة عن الرّعد، الحافرة خطوطاً في الأرض، أو عن الثلوج، أو الغيث، ويروي عطش مدينة فاس. فاس هبة سبو؛ وإذ هو مخلوق واع فإنه مَزِيحٌ مما هو طبيعي، وثقافي؛ الطبيعي هو النار، والهواء، والماء، والتراب، والثقافي هو الزواج، والهبة، والراية، والأخوة، والأسرار، والكتابة؛ إنه جزء من عوالم ما تحت القمر: العناصر المذكورة، والمكونات من حيوان، ونبات، وجماد؛ وما يسم هذه العوالم السفلية، والعوالم العلوية، هو مبدأ الحياة الشاملة السارية في كل ما في الكون؛ وتبعاً لمبدأ وحدة النشأة، وَمَبْدَأُ الاتصال، ومبدأ الحياة، فإنه يصح تَشْبِيهُ كل شيء بكل شيء للاشتراك في صفات، واختلاف في أخرى، ويجوز تشابه كل شيء مع كل شيء، فينوب عنه، أو يكون بدله.

على أن هذه القراءة الحرفية (ما تقرأه هو ما تقرأه) التي انبثقت ضمن تصورات المذهب التقليدي الواقعي، لا ينبغي أن يؤخذ بها على إطلاقها؛ فإذا صحت في التشكيل، وفي الرسم الصناعي...، فإنه يكون من السذاجة المفرطة أن تطبق على الشعر الذي هو خطاب رمزي يتوسل بمؤشرات واقعية لغوية، وغير لغوية.

(6) هذا مبدأ من مبادئ الاتجاه التقليدي؛ وأصله: «ما تراه هو ما تراه»: «What you see is what you see»؛ وواضح من التعبير أن الأمر يتعلق بالفنون التشكيلية التي كانت منطلق هذا الإبدال، أو على الأقل التيار.

ج - مبدأ الطبيعة الإنسانية

وإذ ما قدمناه مبادئ عامة، فإننا نُنزِلُ، الآن، للحديث عن مبدأ خاص، دعونا به (مبدأ الطبيعة الإنسانية) الذي ينظم حيوات الإنسان في مقاماتها، وأحوالها. ذلك أن الإنسان يَمُرُّ بأوضاع يقظة، وتعقل، وحذر، وتَعَثُّرِه حالات غير معتادة في يقظته كالهذيان، والهلوسة، والاكتئاب...؛ وقد دافع الشعراء عن هذه الحالات المتميزة؛ ومنهم محمد بنيس الذي أقر بها، وكافَحَ عنها، وجعل كثيراً من قصائده هذياناً، مُصَرِّحاً بالمفردة أحياناً، ومُسْتَعْمِلاً ما يرادفها أحياناً أخرى.

يعرف الهذيان طَبِيباً بأنه: «الإحساس بالواقع يتجلى في مجموعة معتقدات خاطئة لا عقلانية»⁽⁷⁾، نسجل، في البداية، أن هذا التعريف لا يُمَاشِي عملية الإبداع. ذلك أن الشاعر شديد الإحساس بالواقع، وله معتقدات سليمة، وصحيحة يعبر عنها بعقلانية مبدعة؛ وخصائص هذه العقلانية وآلياتها؛ هي هذيان التأويل، والهلوسات، والأوهام، والتخيلات؛ وموضوعاتها هذيان الاضطهاد، والهذيان الصوفي، أو التنبئي، أو الجنسي؛ وأما بنيتها فتكون متماسكة أحياناً، ومنسجمة، وإن تشعبت، وقد تكون أحياناً مائعة، وغير منسجمة⁽⁸⁾.

يتحدث محمد بنيس عن الهذيان الذي يتفجر يتابع بالكتابة:

- وَشَمَّ

يَتَفَجَّرُ فِيكَ يَتَابِعُ الْهَذْيَانِ

يَتَابِعُ الْهَذْيَانِ⁽⁹⁾

- قُلْ لِلشَّاعِرِ

أَنْ يَتَسَكَّعَ فِي طَقْسِ الْهَذْيَانِ

لِيَبْرَى الْمَعْنَى

خَارِجَ حَوْضِ الْمَعْنَى⁽¹⁰⁾.

(7) Claude Naudin et AL, *Larousse Médical*, Larousse, Paris, 1998, p. 297.

(8) تعرضنا في الفصل الثالث (نسق الدلالات) من القسم الثاني، بالجزء الثاني إلى (الاستعارة الهذيانية).

(9) محمد بنيس، المرجع المذكور، ص. 14.

(10) ما ذكر، ص. 19.

إذا ما وضعنا هذه الأسطر في السياق الذي وردت فيه، فإننا نجدها تحتوي على كل مكونات الهذيان: آليات (هذيان التأويل)، وموضوعات (الجنس)؛ ذلك أن النخل يضيء العتمات بالموج الشبقي، الباحث عن المرأة التي هي راغبة في لذة تجعل حرارة في حُفَرَتِها؛ إنه تأويل هذيانى ربط بين «القلم»، و«الكتابة» و«الجنس» بالذكر، والعملية الجنسية، والأنثى؛ إنها هذيانية⁽¹¹⁾ تأويل جنسي.

تتكلم المقطوعة الثانية عن ياجوج وماجوج الذين وصفهم القرآن بأنهم مفسدون في الأرض يتقي شرهم بإقامة السدود، والأسوار، وتحدثت عنهم الثقافات الشعبية باستهجانٍ وخوف؛ لكن ياجوج وماجوج اكتسحوا مدينة فاس، فلم تبق حكمة، وشعر، ومعنى...؛ وعليه، فلم يبق إلا هجرة المكان؛ هكذا اتخذ الشاعر هذيان الهلوسة، وهذيان الاضطهاد، وسيلة، وموضوعاً، للتعبير عن أوضاع الخراب، والدمار، والجهل.

يتحدث الشاعر في مقطوعة أخرى عن السفر في الليل الذي لا يستبين فيه الإنسان المسالك إلا بدليل خُرَيْت، وبَسِيرٍ وثيد؛ ومع ذلك، فإنه قد يخطئ الطريق، لكنه يعود للبحث عنها؛ والهذيانية كتابة، ومحو، فكتابة، ومحو...؛ إنها وهم، وهذيان صوفي، للتعبير عن الهَوَاية، والممات، واليُثْم، والشهداء، واستهجان التفاق، والخداع.

لاحظنا فيما سبق أن كل مكونات الهذيان حاضرة. وقد صاغها في بنية متماسكة، ومنسجمة، أحياناً كثيرة؛ مما جعل الهذيان وسيلة لوصل بين أوضاع متنافرة يستعصي على العقل الجمع بينها:

– وَحَذَنِي بِالْهَذِيَانِ

فَوَحَّدَ⁽¹²⁾

يتوهم خراب فاس فَيَسْتَنْجِدُ بعلال الذي يرسل طيراً أبابيل ترمي الأعداء

(11) يمكن مناقشة هذا الاقتراح الذي يطلق على المقطوعة، أو القصيدة من هذا النوع (الهذيانية) أو (الهذئية).

(12) محمد بنيس، المرجع المذكور، ص. 28.

بحجارتها فتجعلهم كعصف⁽¹³⁾ مأْكول، فتعود الأمور إلى مجاريها العادية، فيتوقف التَّبَرُّرُ، والخراب.

يَبْنِي الشاعر أحياناً هذيانه على الأساطير، والخرافات، للتعبير عن الأصول المؤسسة لكون مدينة فاس. فقد وردت (الخرافة) في سياق الحديث عن العتمات، والمتاهات، والحجر العتيق، والشمس، والطيور، والحروف، والكرامات، وابن حبوس، وبني وطاس؛ إنها مفردات، موضوعات/رموز:

- تَكَادُ تُفْتِكُ بِي خُرَافَتُهَا⁽¹⁴⁾

- بَعَثَتْ تَهَبُ الْفَرَّاشَةُ نَفْسَهَا فَيَفِيضُ خَلْخَالُ

الْخُرَافَةِ بِالْقَوَافِلِ . . .

وتتحدث مقطوعة أخرى عن النقطة، والنفخ، والأرض، والعناصر، وخلق فاس؛ الأسطورة تسعى إلى التأسيس، والتمجيد، وتأويل الماضي بمثالية؛ إنها منطلق الهذيان بآلياته لتجعل منها كارثة الكوارث؛ أساطير الأولين تأريخ، وأما الهذيان فهو حُمَى:

هَلْ

هَذَا مُتَكَأٌ

الْحُمَى⁽¹⁵⁾

الشاعر يهذي كما يهذي الفنانون المعاصرون في السينما، وفي الإشهار، وفي الشرائط الخاصة بالأطفال، وفي السياسة؛ إنه الهذيان الفني الذي يُثير لدى متلقيه مختلف الاستيهامات؛ وعليه، فإن موضوعة الهذيان مؤشر فعال لقراءة هذا الشعر المركب، وكذا موضوعة الخرافة، والمتاهة.

د - مبدأ البوصلة

الشعر العصري مُتَوَّهٌ، وقارنه تائه ضال؛ وقد وصف الشعراء المعاصرون

(13) الغصْفُ: خَطَامُ الثَّيْنِ، وَدُقَاقُهُ.

(14) محمد بنيس، المرجع المذكور، ص. 30.

(15) ما ذكر، ص. 31.

نصوصهم بالمتاهة، وبالعمّة، وبالعَابة. لذلك، فإن القارئ لا يدري أين هي الوجهة الصحيحة، حتى يخرج من بُنيّات الطريق، وأنى البصيص، وحيثما المسلك المُنجي؛ وعليه، فإنه لا بُدّ من هادٍ يهدي القارئ في تشعبات القصيدة المعاصرة، وانشطاراتها، ومسالكها المتداخلة المتشابكة، وفي أشجارها، وحيواناتها، وحشراتنا؛ إن من يكون داخلها مفقود، إذا لم يكن له ذلك الهادي، مع رفقة مساعدين⁽¹⁶⁾. إنهم المعرفة الخلفية، والمفردات اللغوية، والمقايسة⁽¹⁷⁾، والفرض الاستكشافي⁽¹⁸⁾. توضيحاً لهذا نقدم المتاهة/العمّة/الغابة، ثم نبين وسائل التغلب عليها:

«غَابَاتُ رُمُوزٍ تَشْرَبُ مِنْ تَرْبِيلِ دَمِ السَّالِكِ
فِي أَرْجَاءِ الْهَذْيَانِ تُدَبِّرُ لِلْكَلِمَاتِ مَتَاهَاتٍ هَلْ
هِيَ لِلْحِكْمَةِ بِشْراً لَا تَرْحَمُ مَوْلَاهَا لِلْخَشْيَةِ
سَمّاً يَمْنَحُ ذَاكِرَةَ الْأَعْضَاءِ شُمُوسَ دَمٍ
لِلشُّطْحَةِ أَلْوَاناً رَسَخَتْ فِي جِذْرِ النُّخْلَةِ رَبَابَةٌ
هَذَا الْعَالَمِ تُضْغِي لِلْقَاءِ الْمَغْسُولَةِ بِالضُّوءِ
الْإِدْرِيسِي قَنَادِيلُ رَزَقَاءِ تُعَلِّقُهَا شُرَفَاتُ
فَوْقَ مَدَافِنَ لَا تَنْسَى بَابَ الْمَحْرُوقِ»⁽¹⁹⁾.

هناك عدّة مؤشّرات يَصِحُّ كل واحدٍ منها أن يكون هادياً لتأويل مقبول؛ أولها باب المحروق الذي هو باب من أبواب فاس الشهيرة؛ وقد اختاره الشاعر، دون غيره من أبواب فاس السبعة، ليدل به على ما مرّ بفضاء فاس من أحداث دَمَوِيّة شهيرة؛ وثانيها الضوء الإدريسي الذي يُؤمُّ إلى إدريس المؤسس للمدينة الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهَدَاهُمْ إلى صراط الوحدة، والاجتماع،

(16) نحيل هنا على ما هو معروف في التحليل السيميائي، من مساعدات، ومعوّقات...

(17) المقايسة: L'Analogie.

(18) الفرض الاستكشافي: Abduction.

(19) محمد بنيس، المرجع المذكور، ص. 87.

وَجَبَّهُمُ التَّشْتِ، والفرقة؛ وثالثها الفاء المغسولة التي هي أول حرف من مدينة فاس؛ على أن هناك إيماءات مُلْتَبَسَةٌ تُخْتَمِلُ وَتُخْتَمِلُ؛ أولها السالك الذي يعني الماشي في أماكن صعبة، وفي أرجاء وعرة، مثل الجبال والصحارى.. من جهة، ويدل على المتصوف الذي يرثل أذكاره، ويتدبر الكلمة، وينطق بالحكمة، أو بالسطحة، من جهة؛ وثانيها الغابات، والدماء، والبئر، والسُّم، والمَدَافِن؛ أي مناخ العنف الذي ينال كل واحد، من الأناس العاديين، أو غيرهم مِنَ الْمُؤْسُومِينَ؛ وثالثها مناوأة الكلمات، والحكمة، والشعر، وغيرها من القيم الراقية؛ هكذا صار من يتصف بها يحرض على أن يتوقى ويتكتم، حتى لا يتعرض للمهالك من مثل يوسف، ومَرْيَم ابنة عمران؛ قص يوسف رؤياه على إخوته فَكَادُوا لَهُ كَيْدًا، فَأَلْقَى فِي الْجَبِ، فالتقطته بعض السَّيَّارَةِ... إلى أن انتصر بعد مَحْنٍ طويلة، وابنة عمران التي أحصنت فرجها، فنفخ فيها الله من رُوحِهِ، لكنها اضطهدت.. ثم أنجبت، فاستظلت بالنخلة التي هزت جذعها، فتساقط عليها الرطب الْجَنِي.. ثم كان ما كان مِمَّا هو معروف متداول؛ إن أوضاع الممتازين من أهل فاس شبيهة بأحسن القصص تلك.

تجمع هذه المقطوعة رموزاً كثيرة: فاس، وباب المحروق، وأهل الفكر، والذكر، وأهل الفسوق، والفجور؛ أي الصراع بين الخير/الشر؛ لكن الخير سينتصر في النهاية، جرياً على سنن الكون التي تجازي من يسعى إلى خير البشر؛ هكذا هي فاس المتناهة/الغاية، من حيث الحياة السياسية، والثقافية، والاجتماعية؛ وهذا هو التعبير عنها بكلمات متراكبة متصافة مرصوفة، بعضها فوق بعض، وبعضها تحت بعض، محطمة التركيب، لكنها راكمت المعاني، والدلالات، وبألوان متعددة من الأخضر، والأحمر، والأزرق..؛ إنه مزج بين لغة الشعر، ولغة التشكيل في مُعْجَمٍ يَخْتَوِي على يوسف، ومريم، وإدريس، وفاس، بما فيها من قُبُورٍ، وأضرحة، ومعالم علمية، ودينية.

تلك أمثلة تُبَيِّنُ أن ما يبدو غير ذي مَعْنَى، أو خارجاً عن قواعد التعبير السليم، بِخَرَقِ قواعد النحو؛ هو غزير المعنى، ومنشئٌ لبعض القواعد الخاصة به، لأنه لا فَكَاكَ لَهُ من المعنى، ومن القواعد؛ ذلك أن مبادئ وحدة النشأة الأولى، والاتصال؛ والطبيعة الإنسانية، والغائية، هي الموجه لكل فعل بشري وغير بشري؛ وعليه، فإن هذا الشعر يدل على واقع تاريخي، وعيني، وليس مجرد حَذَلَقَاتٍ لغوية.

2 - جغرافيا القتل

في ضوء هذا سنعمد إلى بعض مقطوعات الديوان فننشرها نثراً واضحاً مبيناً، حتى يعرف القارئ أنها تتحدث عن وقائع، وأحداث، موجودة في كتب التاريخ، أو يعيشها الساكنة في الوقت الحاضر، أو عانتها في الزمن القريب؛ لكنها عبّرت بأسلوب فني مركب اتّسم بالعقلانية من جهة، وبالهذيان المحموم الذي يُغني تلك العقلانية؛ لهذا، فإننا سنستخلص ثلاثة مكوّنات أساسية تدور حولها أشعار «ورقة البهاء»؛ هي فاس التاريخ، وفاس المجتمع، وفاس الثقافة.

أ - فاس التاريخ

تكلم الشاعر عن أسطورة التأسيس، والتسمية، باعتماد على كتب التاريخ العامة، أو الخاصة بمدينة فاس، وبيوتاتها، على أنه لا يقصد التاريخ المعتاد، وإنما يسعى إلى تصوير أحوال فاس، وأوضاعها، بفن الشعر المعاصر. هكذا تحدث عن (الفاء) التي تصير هي (الباء)، أو (الباء) التي تتحول إلى (الفاء)، وعن هذا (الألف) المنشق الذي يفصل بينهما وبين (السين):

«عِنْدَمَا أَمَرَ الْأَرْضَ بِالْإِنْسَاطِ نَفَخَ فِي نُقْطَةٍ
بِحَجْمِ كَوْكَبٍ فَشَعَّ حَزَقَانِ عَاشِقَانِ فَاءَ لِنَسْلِ
النُّخْلِ سَيْنَ لَأَقْوَاسِ الْمِيَاهِ فَاسٌ حَاضِرَةٌ مِنْهَا
الْعَنَاصِرُ تَنْشَأُ لَا حِجَابَ بَيْنَهَا تُسَافِرُ لَا حِجَابَ
بَيْنَهَا لِذَلِكَ لَا شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ فَاسٍ يَغْطِشُ لَا صَبِيٌّ
يَجُوعُ»⁽²⁰⁾.

خلقت فاس على شاكلة يوم ابتدع الله السموات، والأرض، وما بينهما، فاس تتكون من حرفين، وما بينهما: تعاشق الحرفان، فتزوجا بواسطة حرف ثالث، فأنتجا المأكول والمشروب وما ينفع الناس في معاشهم، ومعادهم. فلا يجوع صبي، ولا يعطش شيخ. على أن (الفاء) تنقلب إلى (الباء) فتتناكح

(20) المرجع المذكور، ص. 66.

مع (السين) بألف شاق يحقق الاندماج بينهما معاً:

«هذا الوَلْعُ الفِضِّي بِسِرِّ الْبَاءِ

يُعْطِيهِ فَرَأَشَاتٍ

تَتَحَدَّرُ مِنْ أَلْفٍ

مُنْشَقٍّ

.

تَتَأَرَّرُ فِيهَا الْفَاءُ»⁽²¹⁾.

«فاس» أو «بأس» تعني القوة، والشدة، والشجاعة، وتختص «بأس» بالافتقار، والحاجة؛ إن «بأس» تركيز لصيرورة فاس، إذ انتقلت من القوة إلى الضعف. وقد أوضحت عدة مقطوعات هذا الإيجاز. تتحدث (كَانَ حَتَّى كَانَ) عَنْ وَجُودِ «فاس» في مكان التأسيس، فأسموه بذلك «فاس»، ثم شرعوا يبنون العدو الأولى، ثم العدو الثانية، ثم كانت بينهما فِتْنٌ؛ وإذ أُسِّسَتْ عَلَى الْقُوَّةِ، والتقوى، وعاشت هما مُدَّةً مديدة، فإنها صارت الآن عبارة عن صور في بطاقات بريدية تُبَاعُ بِأَبْخَسِ الْأَثْمَانِ.

وتتكلم نصوص أخرى عن الإدارة، والمربين، والوطاسيين وعن المنشآت الرائعة، والحصار، والحروب الطاحنة، والتوادم، والسلم المُسْتَتِيبَةِ، والمجاعات، والأوبئة، والرخاء، والعافية؛ كانت مَرَّاحاً للقوافل التجارية الآتية من السودان الذاهبة إلى تلمسان، فإلى الشرق العربي، أو إلى مَرَايِي البحر الرومي، كما كانت منطلقاً لقوافل الحجيج، وللذاهبين إلى الحرب، والجهاد؛ على أن أحوالها تَغَيَّرَتْ من حسن، وأحسن إلى سيء، وأسوأ، حتى ليتمكن أن توصف بأنها مدينة أسيرة:

بَبْنِي

يَا سَيِّدِي الْبَرَّاحِ

كَيْفَ أُحَرَّرُ فَاسِي مِنْ فَاسٍ⁽²²⁾

(21) المرجع المذكور، ص. 20.

(22) المرجع المذكور، ص. 96.

هي أسيرة لتاريخها المزيج من العنف، والتساكن، والحضارة، والبداءة، والازدهار، والاندحار؛ لكنها بدلاً من أن تتقدم تَهْفَئَتْ، فانضاف أسر الإهمال في الوقت الحاضر إلى عقابيل الماضي؛ بل إنها يمكن أن توصف بالموؤودة، جهلاً، وظلماً، وعدواناً.

هَلْ هَذَا الْكَوْنُ سَدِيمٌ تِلْكَ الثَّقُطَةُ سَادِرَةٌ

كَلَّمَنِي مِنْ قَصَبٍ مَجْهُولٍ

خَبَّنِي فِي صَدَقَاتِ الْحُلَمِ

أَغْمِرْنِي بِجَلِيلِ النَّارِ أَنَا الْمَوْؤُودَةُ

دُئِرْنِي (23).

فَقَدَتْ فاس هويتها بفقدان (النقطة)، والقلم الذي كتبها، والآمال التي كانت تُحَرِّكُهَا، والأحلام التي كانت تُحَفِّزُهَا، والشجاعة التي كانت تُدَافِعُ عنها، والثقافة التي كانت تصحح مقدار الاستفادة من التاريخ، حتى لا يصير عائقاً، وتنزعها من برائن القبلية القديمة، والحديث، التي كل واحدة منها فرحة بما لَدَيْهَا. فاس تستغيث بعلال، وبمن على شاكلة علال من أهل الرأي، والقلم.

وإذ الشاعر من هؤلاء، فقد ربط تاريخ حياته بتاريخ مدينة فاس لأن محبتها تنساب في عروقه. هكذا تحدث عن فتح عينيه في بيت رقمه 5 فرقمه 95 فرقمه 103، قضى فيه صباه، وطفولته، ومراهقته، وشبابه؛ والبيت ذو فضاء، وهندسة، وفسقية، وأنواع من الأشجار، وهو أيقونة على كثير من البيوت الفاسية. وقدم صورة عن الختان، وشعائره، ولباسه؛ الْجَبْدُور، والجلباب، والطربوش، والبلغة الصفراء... إلى غير ذلك مما كان الأتراك يبيعونه إلى التجار المغاربة من أهل المدن العتيقة.

صار شاعراً مهماً بحال مدينة فاس التي هي أيقونة، ودليل، ورمز، على حضارة المغرب جميعها، وصيروتها، ومآلها، ومستقرها؛ إنه شاعر يضاهي نفسه بابن حبوس الفاسي، وبعلال الفاسي؛ إنه عاشق محب لها منذ لَيَّ العمامة، ونبت الشعر فوق الصُّدْعَيْنِ، وما بين الفخذين، وتكوين الأحلام،

والاستيهامات؛ إنه حب وثني لكل من، وما، في فاس من شعراء، ومجاذيب،
وقرميد، وزليج، ومسك الليل، وأنواع اللباس، وفنون الطبخ، ولشغات الكلام.
فاس جامعة لكل شيء:

نُقْطَةُ وَجِيْدَةٍ

لَا يَرَاهَا الْعَابِرُونَ تَذْنُو

تَتَكَوَّنُ فِي حَقْلِ الْكَلَامِ

مِنْ الطُّيُوبِ إِلَى السُّعَارِ⁽²⁴⁾

فاس الأسطورة المتأسسة على الأسطورة، كما حكى ذلك الكتب الدينية في
أسفارها عن التكوين الأول. محبة فاس، إذن، محبة للكينونة، والوجود.

ب - فاس المجتمع

في هذه الجغرافيا المقدسة/المدنسة، وفي هذا التاريخ المشرق/المظلم،
عَاشَتْ سَاكِنَةٌ مَخْتَلِطَةٌ الْإِنْتِمَاءَاتِ وَ«الْأَعْرَاقِ»: عرب، وسكان أصليون برابرة
يهبون الوافد سيلهاماً، وملنون، وقيروانيون، وأندلسيون، وزناتيون،
وصنهاجيون، ومصموديون، ودكاليون، ويازغيون، ومسلمون، ويهود؛ وتعاطت
لحرف كثيرة مختلفة سميت بألقاب، وجمعت في أمكنة (رحبة الصفارين،
والحدادين...)، وكانت وسائل الامتطاء الحمير، والبغال، والخيول؛ على أن
مدار الحديث كان هو المرأة. هي محجبة مغلق عليها فدريش الشرجب تغني
الرباعيات في الأسطح، وتردد الموسيقى الأندلسية، وتحفظ بعض الأشعار، وهي
في الكتاب لحفظ القرآن، وفي المسجد لقراءة العلم، وهي تَعِظُ، وترشد، وهي
عالمة؛ إنها امرأة على شاكلة نساء (طوق الحمامة)، وإن شئت، فإن ما في
(الطوق) حول المرأة يضاهيه ما في (طوق فاس):

فَتَيَاتٌ هُنَّ بَقَايَا أُنْدَلُسٍ يُمْلِيْنَ طَوَاسِيْنَ الْجَسَدِ الْمَضْفُوقِ

خَلِيَجِ الشَّهْوَةِ تَوَلِيْفِ الضَّحَكَاتِ⁽²⁵⁾.

(24) المرجع المذكور، ص. 53.

(25) المرجع المذكور، ص. 25.

إن المرأة الفاسية ذات جسد مصقول، وقوام ممشوق، وخصر مشدود، وشعر مسدول. فاس مكان مؤنث من جهة، والمؤنث الحقيقي من جهة؛ وقد جمع المؤنثين في قصيدة ذات يمين، وذات يسار؛ يتحدث في اليمين عن النوم، وعما يؤث فاس، ويتكلم في اليسار عن النساء، وعن النوم أيضاً؛ إنه يومئ إلى العلاقة الحميمة بين الذكر، والأنثى؛ وفي أخرى يتكلم في اليمين عن متاع دور فاس، وأثاث بيوتها، وفي اليسار عن تاريخ فاس العريق. ما صنّع ثقافة فاس، إذن، هو مجتمعه الذي تقوم فيه المرأة بدور أساسي.

ج - فاس الثقافة

نعني بالثقافة نمط حياة فاس المادي، والروحي في آن واحد. هكذا تتجلى الثقافة في المعمار، وفي اللباس، وفي الطبخ، وفي الغناء... وفي العلم، وفي التصوف، وفي أنواع أخرى من الممارسات الشعبية. يشمل المعمار الأزقة، وهندسة المباني الدينية، والمرافق السكنية، ونواعير المياه، والزليج، والآجر، والنوافير، والنارنج، والدرايز، والقُرْمُود؛ ويدخل في اللباس، والزينة أنواع الثياب، والحلي، المعروفة، مثل الكمخة، والمخاد، والأحارم، والحنابل، والذهب، والفضة، والنقرة، والخلاخيل، والوشم، والحناء...؛ والجَبْدُور، والجلباب، والطربوش، والبلغة والسلهام؛ وفاس مدينة المتصوفة، وشيوخ الطريقة، من عيساويين، وحماشة، وتيجانيين، وكثّانيين، ومدينة الشعراء، مثل ابن حبوس، وعلال، وبنيس، ومدينة كبار الفقهاء المعضدين لأهل الحكم، والمناوئين؛ وهي جامع القرويين الذي هو مرجع الثقافة العالمية في المغرب.

تلك معطيات تاريخية، واجتماعية، وثقافية، يمكن أن يستند إليها قارئ ديوان «ورقة البهاء» لِيَفْهَمَهُ. ذلك أن كل مقطوعة منه تتضمن بعضاً منها، إلا أن الصناعة الشعرية صَعَبَتْ ما هو سهل؛ وقد قدمنا للقارئ مفاهيم للتغلب على تلك الصعوبات؛ هي وحدة النشأة، والاتصال، والطبيعة البشرية، والغاية؛ ونبهناه إلى المادة الموظفة التي هي الحكايات، والأساطير، والتاريخ، والنصوص، والواقع العيني؛ وَدَلَّلْنَاهُ على الوسائل الفنية التي تبنّاها الشاعر ليعبر عما يريد تبليغه، مثل الهذيان بوسائله، وقضاياه؛ وهو يتأسس على الإحياء الشامل، وإسناد كل شيء إلى كل شيء، وتحطيم التركيب النحوي؛ وها نحن الآن، نحاول أن نكشف له عن تقنيات أخرى تحيل تلك المعاني العادية إلى خطاب

شعري؛ وأهم ما سنركز عليه هو الإخراج النصي على شاشة الصفحة، وتأثير الخطاب في أذن المستمع؛ وسندعو هذه المحاولة البُصْمعة⁽²⁶⁾.

3 - البصمة

ما يجعل الشعر يمتاز من النثر هو تنظيم الفضاء الذي يتَجَلَّى في طريق كتابة الشعر التقليدي، أو الموشحات، أو التشجيرات، أو التَّخْتِيمات، أو شعر التفعلة.

أ - السواد والبياض (السواض)

وشاعر ديوان «ورقة البهاء» يكتب أحياناً بطريقة النثر العربية المتوارثة، فلا نقط، أو فواصل، أو أية علامة رقمية، وأحياناً أخرى يمزج بين الكتابة النثرية، والكتابة السطرية، وأحياناً تكون هناك أسطر، وما تبقى بياض؛ على أن هناك ظاهرة أخرى لافتة للانتباه. تلك هي تجزئة الصفحة إلى قسمين يكون أحدهما مكتوباً بخط غليظ، وثنائهما بخط رقيق في تناوب بين اليسار، واليمين:

● غَزَّالَتَكَ

رقيق
يساري

● فهل لك

غليظ
يميني

● فاس

غليظ
يساري

● قفاف الجواهر

رقيق
يميني

● غلق قدريش

رقيق
يساري

● نقطع شِرْيان

غليظ
يميني

(26) البصمة: نحت من البصر والسمع. وقد تعمدناه لتبيان مقدار الاندماج بينهما.

$$\begin{array}{cc} \bullet \text{ أوقد شموعك} & \bullet \text{ ماذا يقول} \\ \left(\begin{array}{c} \text{غليظ} \\ \text{يميني} \end{array} \right) & \left(\begin{array}{c} \text{رقيق} \\ \text{يساري} \end{array} \right) \end{array} \quad (27)$$

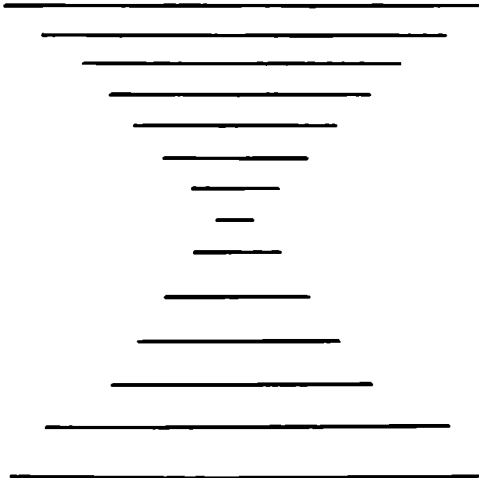
لقد أَسَمَيْتَ ما يكون من علائق بين السواد والسواد التّساود، وما بين البياض والبياض التبايض، وقد اقترحنا هذين المفهومين مقايسة على ما فعلناه في التناص؛ وتبعاً لهذا، فإننا نقسم التّساود إلى خارجي، وإلى داخلي؛ يتجلّى التّساود الخارجي مع المؤلفات النثرية القديمة، وخصوصاً ما كان منها متعلقاً بالتأريخ، وبالحكايات، ومع بعض الأشياء المصنوعة، مثل الحلبي التي تضعه النّساء فوق جباههنّ، أو صُدُورهنّ؛ ويرشح لهذه الأشكال بمفردات، وتراكيب، مثل:

- ضَحِكَ لِمَعَادِنَ تَلْمَعُ فَوْقَ صُدُورِ نِسَاء.

- يُزَنُّرُ جَبْهَتَهُ.

أو مَا يُشْبِه خصر المرأة أو خميسة إذا ما أحلنا المكتوب إلى شكل هندسي:

(28)



(27) انظر الصفحات: 26-27؛ 56-57؛ 59؛ 91.

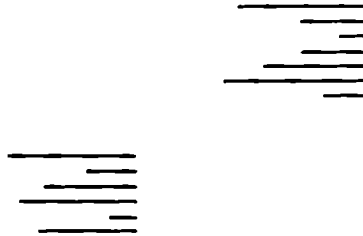
(28) المرجع المذكور، ص. 32.

أو تشبه الصفحة الحقل المنشورة الزريعة فيه، أو خطوط، أو كتابة مبعثرة
كلماتها على شاشة:

(29)



أو التقابل بين فضائين، ومعنيين⁽³⁰⁾:



وإذ أننا اعتبرنا البياض عدماً، والسواد وجوداً، فإن الشاعر أكد اعتبارنا. هكذا كان يهيمن البياض حينما يريد أن يعبر عن النهاية. فقد تكون هناك مقطوعة في رأس الصفحة، ثم يتلوها بياض؛ ويدل الشاعر على صنيعة بقوله هذا:

- اخْتَمَمْتُ بِصَلَاتِهَا والكبرياءُ انْتَهَتْ قَبْلَ الْأَوَانِ⁽³¹⁾

(29) المرجع المذكور، ص. 28.

(30) المرجع المذكور، ص. 34.

(31) المرجع المذكور، ص. 52.

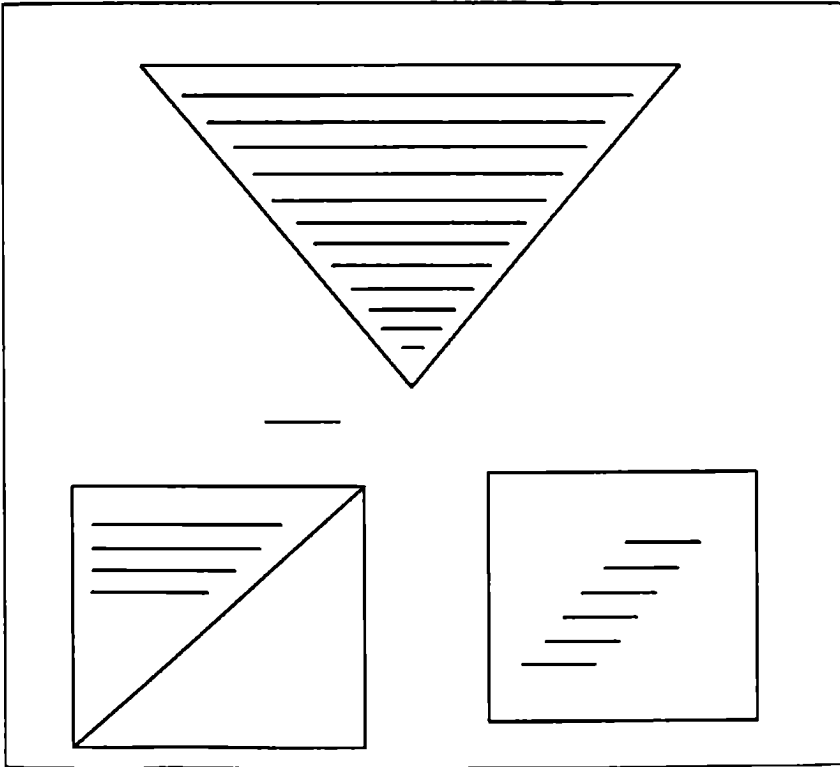
أَوْ نِهَآيَةِ النَّهَارِ، وَمَجِيءِ الظَّلَامِ:

- مَدَارُ سَدِيمٍ فِي مَسَاءٍ كَهَذَا الْمَسَاءِ الْأَمِينِ⁽³²⁾

أَوْ حِينَمَا يَكُونُ هُنَاكَ تَلَاشٍ مُتَدَرِّجٌ مِثْلَمَا وَقَعَ لِفَاسٍ، وَأَهْلَهَا، وَبُنْيَانُهَا، وَأَسْوَارُهَا، وَمَائِهَا...، فَقَدْ عَبَرَتْ الْقَصِيدَةُ أَيْقُونِيَاً عَنْ أَنْوَاعِ التَّلَاشِي.

على أن القارئ يجد أشكالاً متعددة كاملة، أو متدرجة في النقصان؛ وهي هذه: مثلث على شكل هرم مقلوب، ومثلثان مستخلصان من مربع؛ أحدهما يجمع بين البياض والسواد، وثانيها أبيض فقط، وثالث الأشكال مربع فيه سواد متدرج؛ وهي هذه:

(33)



(32) المرجع المذكور، ص. 57.

(33) المرجع المذكور، ص. 60.

تلك أشكال متعددة أدمجناها جميعاً في شكل مستطيل؛ وهي أشكال أيقونية جاءت لتعزز الدلالات اللغوية. تتحدث اللغة عن خليط من الأفعال، والسلوك كالترتيل، والذكر، والفسوق، والفُجُور، والفلاسفة، والمتصوفة، والسفهاء، والشهوانيين، والشعراء الزنادقة، والحكماء، وخطاطي الرمل، والعشاق، والمجانين...؛ والزليج، والنارنج؛ امتزاج المقدس بالمدنس على مستوى اللغة؛ واجتماع الفراغ، والامتلاء، والتام، والناقص، والوضع السليم، والمستغرب على مستوى الأشكال؛ أيقونة اللغة، وأيقونة الأشكال، تضافرتاً للتعبير عن عالم سديمي، فوضوي، متشظ، مثلما دلّت عليه شذرات «كُن».

تلك أمثلة تحتّم على قارئ مثل هذا الشعر أن يراعي «سَوَاضَ»⁽³⁴⁾ الصفحة: طول الأسطر، أو قصرها، وتبعثر الكلمات، ومقدار البياض بين الأسطر، والبياض المحيط بها من كُلِّ جانب؛ السَّوَاضُ التَّحَاظُ، واتساق، وانسجام، له دلالات يُقدِّم الشاعر مؤشرات عليها فيُشَيِّدُ القارئ منها مَعَانِي، تبعاً لتجربته؛ ونزعم أن الدلالة الأساسية، هنا، هي الأوضاع المنقلبة والمختلطة.

ب - «الصُّؤْمَةُ»⁽³⁵⁾

نقصد بهذا المفهوم المنحوت ما هو متداول في علم الموسيقى من مراعاة الصوت، والصمت، وفي التأليف الموسيقي؛ لهذا، فإننا سَنَتَّعَرُضُ إلى الصوت أولاً، ثم إلى الصمت ثانياً.

1 - التفكير بالصوت

بدأ علماء النفس المعرفي السمعي يبحثون في كيفية إدراك الأصوات، والتعرف عليها، فأكدوا أن الصوت هو أساس التفكير؛ وهذه النتيجة تماشي أطروحتنا التي تدعي أن المكون الموسيقي هو أساس للغوي؛ وبناء على هذا، فإننا سنتطرق إلى العناصر الآتية: الأنموذج الإيقاعي، ونطاق اللّحن، والمسافات، والطينيات.

(34) السَّوَاضُ: نحت من سواد وبياض.

(35) الصُّؤْمَةُ: نحت من صَوْتٍ وَصَمْتٍ.

لِتَبَيَّنَ الْأَنْمُودَجُ الْإِيقَاعِي، سَنَخْتَارُ مُقْتَضَفًا «تَثْرِيًّا»، لِنَحْلُلَهُ، وَعُنَوَانُهُ: (كَأَنَّ حَتَّى كَأَنَّ)، وَهُوَ مَكْتُوبٌ بِكَيْفِيَّةٍ خَالِيَةٍ مِنْ عِلَامَاتِ الرِّقْمِ الْمُتَنَوِّعَةِ، فَلَا فَوَاصِلَ، وَلَا نَقْطَ...، مِمَّا يَجْعَلُهُ شَبِيهًا بِالْكِتَابَةِ الْعَرَبِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ الْيَدْوِيَّةِ:

«كَانَ فِي يَوْمٍ أَجْهَلُهٗ فِي سَنَةٍ يَخْتَلِفُونَ حَوْلَهَا لَا
تُخَزَنَ لَكِنِ الطُّفْسَ بِالتَّأْكِيدِ كَانَ مُشْمِئاً يَتَوَزَّعُ
السَّرَابَ عَلَى الْمَنَاطِقِ الْبَعِيدَةِ كَانَتْ الْأَمْوَاجُ
الْأَطْلَسِيَّةُ مُحَافِظَةً عَلَى تَوَازُنِهَا حَفَرُوا السَّفْحَ وَجَدُوا
فَاسَ أَحَدٍ تَرَكَهَا مُسْتَعْيِناً قِيلَ بَنَوْا ثُمَّ دَفَعَ مَطَرٌ مَطَرًا» (36).

لضبط إيقاع هذه الفقرة، سَنَلْجَأُ إِلَى تَجْزِئَتِهَا تَفْعَلَاتٍ، ثُمَّ إِحْصَائِهَا، وَتَوَازِيْعِهَا، بِحَسَبِ الْوِزْنِ الَّذِي نَخْتَارُهُ. وَتَكُونُ الطَّرِيقَةُ كَالآتِي:

[illegible]

إذا صحت هذه الهيكلية التفاعلية التقريبية، فإن عددها سيث³ وثلاثون؛ وإذا قسمت على اثنين، فإن الحاصل ثمانية عشر وزناً؛ وبناء على ما تقتضيه قواعد الوزن، فإن هناك تفعلة قوية، وأخرى ضعيفة؛ وبهذا يصير الوضع التالي:

(36) محمد بنيس، المرجع المذكور، ص. 36-37.

كَانَ فِي	يَوْمٍ	أَجْهَلُهُ	فِي سَنَةٍ	يُخْتَلِفُونَ	نَ حَوْلَهَا
فاعِلن	فَعَلْنُ	مُفْتَعِلُنْ	مُفْتَعِلُنْ	مفتعلن	مفتعلن
(قوي)	(ضعيف)	(قوي)	(ضعيف)	(قوي)	(ضعيف)
لَا تُحْ	زَنْ لَا	كَيْتَنْطُ	طَقْسٍ بَثْ	تَأْكِيْ	وَ كَانَ مُشْ
فَعَلْنُ	فَعْلن	فَعْلن	فَاعِلن	فَعْلن	مُتَفَعِلن
(قوي)	(ضعيف)	(قوي)	(ضعيف)	(قوي)	(ضعيف)
مِشْنُ يَنْوُزُ	زَعْسَرَا	بَ عَلْدَ	مَنَاطِقِ ل	بَعِيدَةً كَا	نَتَلَا مْ
مفاعِلتن	متفعِلن	فَعِلن	متفعِلن	متفاعِلتن	فَعُولُنْ
(قوي)	(ضعيف)	(قوي)	(ضعيف)	(قوي)	(ضعيف)

يظهر من هذا أن (فَاعِلن)، وأسرتها (فَعِلن/فَعْلُن/مفتعلن/مُتَفَعِلُنْ) هي ما يهيمن، ويقابلها (فَعُولن/مفاعِلتن)؛ وتضمن هذه المقابلة التناغم في صيغته القوية؛ على أن هناك تناغماً أضعف يقل ضمن الأسرة الواحدة؛ ومهما كانت درجة التناغم فإنه يكسر الرتبة الإيقاعية. ولعل الأصوات، والمفردات، والتراكيب، عَزَزَتْ هذه الثنائية (قوة/ضعف)؛ بيد أن التراكيب طابقت الوزن أحياناً، واختلفت معه تارات كثيرة؛ فمما تمت فيه المطابقة:

كان في يوم	أجهله في سنة	يختلفون حولها
(قوي/ضعيف)	(قوي/ضعيف)	(قوي/ضعيف)

على أننا لن نكتفي بهذا التحليل العام، وإنما سنعُدِّي القول في التحليل المقطعي:

كَا	نَ	فِي	يَوْمٍ	مِنْ	أَجْ	هَـ	ل
طويل	قُصَّار	طويل	أقصر	أقصر	أقصر	قُصَّار	قُصَّار
(قوي)	(ضَعَّاف)	(قوي)	(أضعف)	(أضعف)	(أضعف)	(ضَعَّاف)	(ضَعَّاف)
هو...							
طويل							
(قوي)							

أدق يعتمد على أنواع المقاطع، وما يعترئها من نبر، ثم جَرَّب ذلك إنشاداً.

النواة الحيوية للإيقاع هي قوة النقرة، أو ضعفها، من حيث الخصوص، والمقابلة بين طرفين من حيث العموم؛ وتحقيقاً للخصوص، والعموم، فإن الشاعر قسم الصفحة أحياناً إلى قسمين؛ أحدهما على اليمين، وقالب التفعلة فيه (فَعُولن)، وثانيهما على اليسار، وقالب التفعلة هو (فَاعِلُنْ) وأُسْرَتْها:

فَاسْ	قَفَافُ الْجَوَاهِرِ
تَارِيخٌ مُنْحَرِفٌ	طَبَقُ الزُّمُرْدِ
أُمِّ هَامَتْ بِقَبَائِلِهَا	مُنْتَخَبَاتُ الْيَوَاقِيَتِ

وبعد هذا يجمع (فَاعِلُنْ) بين القسمين، ثم يأتي بـ(مُتَفَاعِلُنْ) لذي هو من أسرة (فاعِلن)، ثم (مُفَاعِلَتُنْ) الذي هو من مواليد (فَعُولُنْ).

يظهر من هذا المثال أن الإيقاع متداخل غير خاضع لقوالب جاهزة مفروضة على الشاعر من خارج تجربته الإبداعية، لكنه منبعث منه مضبوط بساعة المبدع الدأخلية؛ لهذا، فإن قارئ هذا الشعر تصدمه إيقاعات لا عهد له بها، مما قيده العروضيون، وعلماء الموسيقى؛ لكن النواة الحيوية الإيقاعية تبقى رابطة بين تلك التنويعات التي تتعدد أحياناً، حتى تصير متاهة تتولد عنها متاهة تَرْكِيْبِيَّةٌ، ومتاهة معنوية؛ تنشطر تلك النواة إلى طرفين متقابلين أحياناً (فَعُولن/مفاعِلن/مفاعِلتن)، (فاعِلن/مستفعلن/متفاعِلن)، أو إلى مماثلة أو مضارعة حينما يقع الانتقال داخل التفعلة نفسها (فَعُولن/مفاعِلن/مفاعِلتن) أو (فاعِلن/مستفعلن/متفاعِلن)، أو إلى أوزان مترادفة.

ب - نطاق اللحن

تلك بعض خصائص الإيقاع التي سنزيدها تفصيلاً فيما بعد. وعليه، فإننا الآن نتناول مكوناً آخر للحن الشعري، ألا وهو نطاق اللحن. لهذا، فإننا سنبين مداه في ديوان «ورقة البهاء».

تطالعنا القصيدة الأولى مجزأة إلى سبع نغمات (1) لَن يَنْتَشِي، (2) لِي عُرْسٌ، (3) لَمْ يَصْنُ، (4) لَنْ أَكْتُبَ، (5) وَشَمٌ، (6) صَمْتُ، (7) وَلَكِنْ.

القصيدة الثانية

تتجزأ هذه القصيدة إلى اثنتي عشرة نغمة: (1) لِسْبُو، (2) إِنْ كَانَتْ، (3) وَلْتَشْتَعِلْ، (4) يَاجُوجُ وَمَاجُوجُ، (5) لَمْ يَقْصِدْ، (6) نَغْمَاتُ، (7) سَنْصَادِفُ، (8) وَأَنَا الَّذِي، (9) ضَحِكَ، (10) أَعْلَنْتُ، (11) لَكِنْ القرويين، (12) علال.

القصيدة الثالثة

(1) تَأْتِي، (2) أَشْبَاهُ، (3) غَتَّى ابْنُ حَبُوسَ، (4) أَخْبَارُ الصَّنَهَاجِيِّينَ، (5) فَاسٌ تَلْ، (6) فَاسٌ عَرَصَاتُ، (7) فَاسٌ مَجْنُونٌ، (8) فَاسٌ حَجَرٌ.

القصيدة الرابعة

(1) كَانَ حَتَّى كَانَ، (2) فَاسٌ انْسِيَابُكَ، (3) وَيَكُونُ، (4) تَرَى عَلَّالَ، (5) شَبَحَ كَرِيمَ، (6) صَنْعَاءُ، (7) سَبَقْتَنِي، (8) كَانَ الْقُدَمَاءُ.

القصيدة الخامسة

(1) هُنَّ اللواتي، (2) مَنْ يَسْمَعُ، (3) هَلْ تَسْمَعُ فَاسٌ تُغْنِي.

القصيدة السادسة

(1) كَانَ حَتَّى كَانَ، (2) قَرْمِيدٌ، (3) بِغَالٌ، (4) قِفَافُ الْجَوَاهِرِ/ فَاسُ، (5) خَلَائِقُ، (6) يَقْطَعُ/ غَلَقُ، (7) أَضْغِي.

القصيدة السابعة

(1) فِي الشَّعْرِ، (2) كُنَّا نَقُولُ.

تِيَمَةُ الأدوار الأولى

(3) لِأَنَّ الشَّعْرَ، (4) عِنْدَمَا، (5) جَمَعَ الرِّيحَ، (6) عَجَبًا، (7) خَلَاجِلُ.

القصيدة الثامنة

(1) الْفَاتِحَةُ، (2) عِنْدَمَا، (3) عِنْدَمَا اسْتَوَتْ، (4) فَاسُ، (5) غَسَقٌ لِفَاسِ.

القصيدة التاسعة

(1) ما الذي، (2) هَلْ يَفْهَمُ، (3) مِنْ أَيِّ، (4) عَلَّالٌ، (5) مَاذَا بكتابك.

القصيدة العاشرة

(1) نَارٌ، (2) أَنْ يَخْضُنَ، (3) أَضواء.

القصيدة الحادية عشرة

(1) مَوْجٌ، (2) يَا مُفْسِدَ، (3) تَعْلَمُ، (4) غُرَبَاءُ، (5) كَمْ تَسْتَوِرْدُ، (6) مَوْلَاهُ، (7) يَا مُفْسِدَ.

القصيدة الثانية عشرة

(1) لا أحد، (2) لَيْلٌ، (3) كَأَنَّ، (4) حَيْثُ.

القصيدة الثالثة عشرة

(1) هَلْ، (2) عدد، (3) مُغِيرِينَ، (4) إِذْفَنَ، (5) مَاذَا، (6) سَنُغِيرُ، (7) سَنُغِيرُ.

القصيدة الرابعة عشرة

(1) فاس عن فاس، (2) تَرْحَلُ فَاسَ، (3) سَيَزُودُ.

القصيدة الخامسة عشرة

(1) يُكَلِّمُنِي، (2) نقش، (3) استيقظ، (4) استيقظ، (5) هَلْ هَذَا الكون، (6) أَنْظَرُوا، (7) فاس، (8) فاس، (9) فاس.

تَتِمَّةُ الْأَدْوَارِ الثَّانِيَةِ

(3) لأن الشعر، (4) عندما، (5) جمع الرياح، (6) عَجَبًا، (7) خَلَا جِل.

القصيدة السادسة عشرة

(1) كُنْ للجمة، (2) كُنْ لِلْوَزْدَةِ، (3) كُنْ لِلطُّغْتَةِ.

القصيدة السابعة عشرة

- (1) حَجَرٌ، (2) لَنْ تَفْهَمَ، (3) حَجَرٌ، (4) غَابَاثُ رُمُوزٍ، (5) الفاتحون،
(6) الفاتحون، (7) حصار، (8) هذا، (9) أرض، (10) تُغَرِّ.

القصيدة الثامنة عشرة

- (1) أَوْقِدْ، (2) وَافْرَأْ، (3) رُبَّمَا، (4) وَعَنْ، (5) عِلْمٌ، (6) يَرَى، (7) وَيَرَى،
(8) هي الأثر.

- (1) ماذا يقول العابرون، (2) مَاذَا يَقُولُ الْقَادِمُونَ، (3) سَتَسْأَلُ، (4) لِيَكُنْ،
(5) هِيَ، (6) سَأُبْحَثُ، (7) عَجَلٌ.

القصيدة التاسعة عشرة

- (1) فاس عن فاس، (2) هَا أَنْتِ، (3) هَا أَنْتِ، (4) هَا أَنْتِ، (5) هَا أَنْتِ،
(6) ضَحِكٌ، (7) ضَحِكٌ.

القصيدة العشرون

- (1) يَا نَاراً، (2) نَبْئِي، (3) حَجَرٌ، (4) سَيَصْحَبُ، (5) هَا هُوَ.

القصيدة الواحدة والعشرون

- (1) عَسَقُ، (2) مَنْ، (3) وَزْدَةٌ، (4) تَطَأُ، (5) فَتَشْتَغِلُ.

القصيدة الثانية والعشرون

- (1) فاس عَنْ فاس، (2) مَوْجٌ، (3) وَاعْمِلْ، (4) صَنْعَاءُ، (5) وَهَا هُوَ، (6)
صَرَخَاتُ، (7) لَطَخَاتُ.

تَبَيَّنَتِ الأدوار الثلاثة

حاولنا من خلال هذا أن نحدد نطاق اللحن، بناء على مؤشرات لغوية تبين الانتقال من خطاب إلى خطاب (الاستفهام، والأمر، والتداء . . .) وعلى معينات فضائية؛ وقد تبين لنا أن كل أنواع النطاق موجودة، ابتداء من ثلاثة إلى اثني عشر.

يتكون الديوان من مائة، وأربعة، وأربعين طنيناً، مقسمة على ثلاث مجموعات ($\frac{48}{4} = 48$. ثم تقسم ثمانية وأربعون على أربعة: $\frac{144}{3} = 48$) فتتألف اثنتا عشرة نغمة (12)؛ وعليه، فإن الديوان يمكن أن يدرس في إطار نظرية التسلسلية، لكن خواصها من قَهْقَرَى، وعكس، غير واضحة بما فيه الكفاية؛ كما يمكن أن نحلله ضمن النظرية التوافقية، بما تقتضيه من نغمات أساسية، وثنائية، ومسافات كبيرة، وصغيرة، وناقصة، ومنطلق، ومحط بأنواعه، وحركة مؤسسة على التنافر (التوتر)، والتناسق (الاسترخاء)، ومن الذي بالأربع، والذي بالخمس؛ على أن القارئ واجد أيضاً ما يتكون من نغمتين أو ثلاث.

يرجح مناخ ديوان «ورقة البهاء» المقاربة التوافقية، مع بعض المرونة؛ لذلك، فإننا سنقسمه إلى ثلاثة أدوار؛ يبتدئ أولها بـ:

- (لَنْ يَنْشِيَّ . . . هَيَاؤُ أُخْرَى)

وثانيها بـ:

- (لِفَاتِحَةِ الْمَتَاو . . . لِمَعَاصِرِ الزَّيْتُونِ)

وثالثها بـ:

- (عَابَاتُ رُمُوزٍ . . . وَسَحَابُ)

ويسوغ هذا التناول الموسيقي تصورات الشاعر أيضاً: ذلك أن الغناء، والألوان، ودرجات الأنغام، وُجِدت منذ يوم خلق الله السموات والأرض:

- خَلَقَ الْغِنَاءَ⁽³⁷⁾

وَالْأَلْوَانَ . . .

- وَضَعَ لِبَطْنَاتِ الْأَرْضِ أَذْرَاجاً لِكُلِّ دُرْجٍ نَعْمًا

تَتَعَشَّقُهُ النَّفُوسُ قَبْلَ مَمَاتِهَا.

ج - المسافات والطينيات

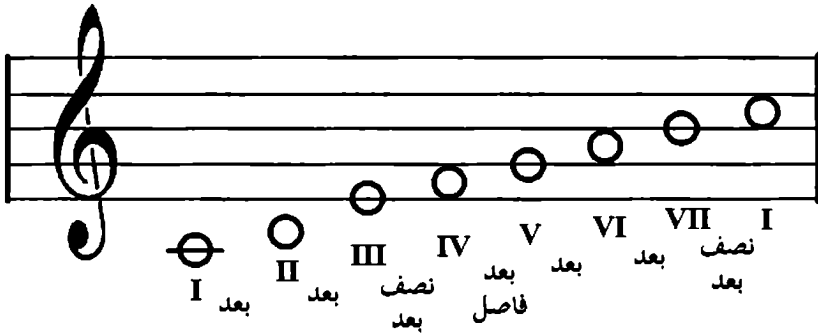
على أن مسألة اختلاف أعظام المسافات تطرح نَفْسَهَا، هناك مسافة فيها صفحة،

(37) محمد بنيس، المرجع المذكور، ص. 63.

وهناك ما تحتوي على بضع كلمات، ممّا يجعل الطنينات غير متساوية؛ لقد حل علم الموسيقى هذا الإشكال بالزيادة في المسافات، أفقيّاً، وعمُوديّاً، كما أننا حاولنا التّغلب عليها بإحصاءِ التّفاعلات، وتقسيمها على أجزاء الطنين لتصير الطنينات متساوية، وكذلك الأنصاف، مع التكملة بالصمت، والبياض، إذا كان هناك نقص.

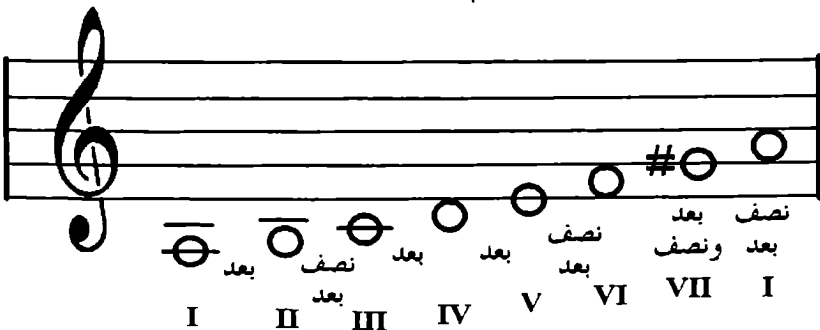
يحتوي السلم الكبير على خمسة أبعاد، واثنين من الأنصاف، والصغير على أربعة أبعاد، وثلاثة أنصاف؛ وهو مشتق من الكبير بواسطة الثالثة الصغيرة؛ وبهذا تختلف مواقع الأنصاف في السّلمين؛ وفيما يلي توضيح لما تقدم:

سلم (ضو) الكبير



يكون البعد في سلم (ضو) الكبير بين (I و II)، و (II و III)، و (IV و V)، و (V و VI)، و (VI و VII)؛ ويكون نصف البعدين (III و IV)، و (VII و I).

سلم (لا) الصغير



البعد في سلم (لا) الصغير ما بين (I و II)، و (III و IV)، و (IV و V)، و (V و VI)، و (VI و VII)، و (VII و I).

و(VII) بعد ونصف؛ وأما النصف فهو ما بين (II و III)، وما بين (V و VI)، وما بين (I و VII).

يذكر المختصون في علم الموسيقى أن السلم الكبير يتسم بالطابع اللحني الحماسي، والقوي، والصغير يتسم بالطابع اللحني الرخو، والحزين؛

ما بين نغمة ونغمة يسمى المسافة؛ على أن تكون النغمتان تختلفان في الوضع، وفي الطبقة، وفي الاسم، مما يؤدي أن تكون إحداها منخفضة، وثانيها حادة تبعاً لحالتي الصعود، والتزول؛ وعدد المسافات البسيطة سبع: الثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة، والثامنة، وتكون المسافة بين نغمتين متجاورتين، أو متباعدين؛ ومن المسافات ما يوصف بالكبير أو الصغير، أو بالزائد، أو الناقص، أو التام.

محتويات المسافات من الأبعاد ما يلي:

(1) ثلاثة صغيرة تُضْمُ بعداً ونصفاً.

(2) أربعة تامة تحتوي على بعدين، ونصف بعد طبيعي.

(3) خمسة تامة تشتمل على ثلاثة أبعاد، ونصف بعد طبيعي.

(4) ثلاثة زائدة تُسْتَوْعِبُ بعدين، ونصف بعد ملون.

(5) خمسة زائدة تحتوي على ثلاثة أبعاد، ونصف بعد طبيعي، ونصف بعد ملون.

إلا أن هذه المسافات قد يُرَكَّبُ بعضها فوق بعض ويزاد فيها أو ينقص منها، مما جعلهم يقترحون تسميات وترتيبات، للتوافقات؛ بناء على خلفية رياضية تتكون من العناصر الآتية:

$$\begin{bmatrix} - & + & - & + \\ - & + & - & + \end{bmatrix}$$

التوافق التام الكبير (\pm)؛ والناقص / (\equiv)؛ والزائد (\dagger)؛ التوافق التام الصغير (\oplus).

قد يعترض بعض الناس على أن هذه التوافقات وليدة التطور الموسيقي. ذلك أن الباحثين في تاريخ الموسيقى يؤكدون أن النغمة الشاعرة، أو الناقصة،

وكذلك الزائدة، جاءت بعد الأساسية، والمهيمنة، ولم تفرض نفسها إلا في القرن الثامن عشر، كما أن مفهوم التوتر، والاسترخاء، لم يقترحا إلا في القرن الخامس عشر. لا تعنينا التفاصيل بمقدار ما نهتم بإقرار المبدأ؛ وهو أن المكون الموسيقي متجذر في الطبيعة البشرية، وأن هذا المكون هو ما يؤثر في المكون اللغوي، ويوجهه؛ وإذ تجلياته متعددة، فإنه لا يجب تطبيق نظرية واحدة حرفياً.

ما يجب لفت الانتباه إليه هو التماثل الواضح بين المكونات الموسيقية، والشعرية، ممّا أدى إلى تماثل اللغة الواصفة، مثل: النواة، والخلية، والمكرورات، والمرددات، والتمطيط، والاسترخاء، والتوتر، . . . والتكرار، والتوازي. . . والدورية.

هكذا يجد القارئ دائريّات متعددة تكون كالشكل الآتي:

أ ب، أ ج، أ د . . . في مسافة قصيرة بين المكرورات، أو في مسافة طويلة بينها؛ مثال المسافة القصيرة:

أ ب

أ

أ د

أو: أ ب، أ ج

أو: أ ب، أ ج، أ د

أو: أ ب، أ ج²، أ د، أ ه⁴.

إنه تكرار مفرد، أو صيغي نعتبره بمثابة البرزخ تنتهي عندها نغمة/معنى ليستأنف رنينها في نغمة أخرى؛ وأما المسافة الطويلة الفاصلة بين نغمتين متشابهتين، فإنها كالآتي:

ب

تَهَيَّأْ

أ

لَا

ج

تَحْلُمُ

أ

لَا

د

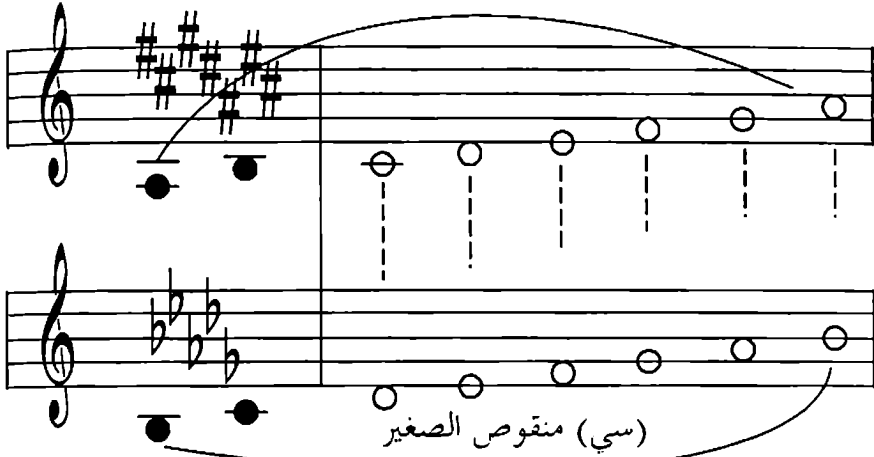
تورُخُ

أ

لَا

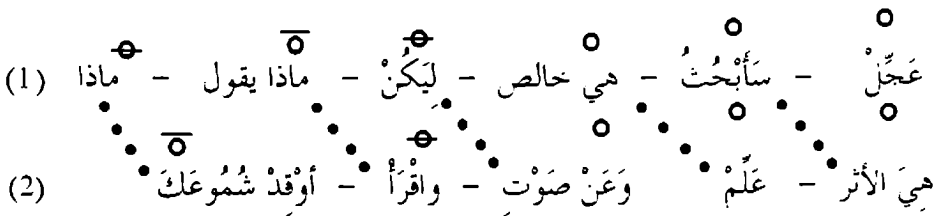
الجملة البرزخية (أ)، والترجيعية متضادة تتماثل في بعض المكونات، وتختلف في أخرى؛ بل إن هذه التقنية الضدية تحكم النص كله؛ ويمكن تبيانها بقواعد لسانية، وإيقاعية؛ على أن هناك مقطوعات هي أشد تعقيداً. ويجدها القارئ عند تقسيم الشاعر الصفحة إلى مقطوعتين، إحداهما في اليمين، وثانيتها في اليسار، وَيُبْنَى عَلَى إِخْدَاهُمَا بِالْكِتَابَةِ التي تكون حروف إحدى المقطوعتين أغلظ من الأخرى، أو أرق منها؛ وقد تكون إحداهما أطول من الأخرى، وقد تدخل بعض أسطر اليمنى في اليسرى. وبناء على هذا نتساءل: ما العلاقة بين المقطوعتين؟ هل هناك تَضَادٌّ وتكامل؟ ألا يكون البياض الفاصل بينهما عنواناً عن صلة وصل بين مجالين: مأرب/ فاس؛ ومناضي فاس/ حاضر فاس؟ ما أَشْنَعُ المسافة وما أقربها! ما أكثر ما يختلف الماضي عن الحاضر وما أَشَدَّ تماثلهما! هناك أيقونات فضائية، وكتابية، ومعجمية تساعد على هذا التأويل، لكننا لا نكتفي بها، وإنما سنستعين بعلم الموسيقى. وهكذا سنفترض أن المقطوعة الأكثر كلمات هي السلم الكبير، والمقطوعة التي تحتوي على قليل منها هي السلم الصغير؛ وإذ إن مناخ الديوان يوحى بالحزن، والتراجي، والانحدار، والانحدار، فإننا نختار سلم (لا) الصغير المزيد، وسلم (سي) الصغير المنقوص المرادف له:

(لا) مزيد الصغير



السلام المترادفة gammes enharmoniques (سي) منقوص الصغير

ومن بين ما يمثل هذا الوضع قَصِيدَتَانِ مُتَدَاخِلَتَانِ؛ إحداهما على اليمين مكتوبة بخط غليظ، لكن كلماتها قليلة، وثانيتها على اليسار مكتوبة بخط رقيق، لكن كلماتها أكثر، وحجمها أكبر؛ ولذا سنجعلها بمثابة سلم (لا) الصغير المزيد، وما على يسارها سلم (سي) الصغير المنقوص:



يَتَرَادَفُ السُّلَّمَانِ، على الرغم من اختلافهما في حجم الحروف، وعدد الكلمات، وموقع النغمات؛ هناك حديث عن المسار، والرماد، والحشرات، والغبار في الجهة اليسرى، وكلام عن إيقاد الشموع في القيب الخضراء، وعن المدائح اللذيذة، وحقول الضوء، وتذكير من لَيْسَ بِمُذَكِّرٍ، في الجهة اليمنى، إنه مرادف موضح. وعبر عن هذا الترادف أيقونياً بتداخل الكتابة؛ المدينة

(فاس) مركز للظاعن، والمقيم، وقضاء للحب، وللأمان، ومجال لبدور، وشموس بني الإنسان، وخسوفها، وكسوفها؛ لكنها مجمع خريز المياه في الأحجار، وأنغامها مع إيقاع الحصى؛ لهذا كان مطمع الطامع، ومطمح الطامع. كان ماؤها حياة للأزهار، والورود، وأنواع الأشجار؛ بيد أن أحداث الأقدار انتهالت عليها، فجعلت أفراحها أتراحاً، وأزورها قاعاً صَفْصَفاً، فساد الصمت، والترقب، ووضعت الأيدي على القلوب رحمة، ورقة، وخوفاً من زيادة للمكاره، وجارت أصوات الآذان، والأدعية، والابتهالات، والاستعاذات بالله منها.

فاس أولها بهاء، وآخرها بهاء، فلا تنال منها عوائد الدُّهر؛ أفراحها أثبت من رسوخ جبال الأرض؛ ومحاسنها أجمل من نجوم السماء؛ إنها أرض معطاء تَهْتَرُ، وتَرْبُو، وتُثَبِّتُ من كُلِّ رَوْجٍ بهيج؛ إنها محفوفة بالعناية الإلهية التي آثارها بادية على أديمها الطيب؛ لكن ما أصابها جعل كل الآمال خدعة سراب. ذلك أن الواقع صادم، من حيث إن اللغة الحية ماتت، وصار الممدوحون مَوْتَى، وجفت المياه ونفدت قبل أن تغسل الجثث؛ المدينة في حاجة إلى شاعر جديد يُعَوِّضُ الشاعر القديم صاحب اللغة المحنطة، وعن زعيم حقيقي مبعث لشبيه الزعيم لينقذ البلاد، والعباد، من الخراب.

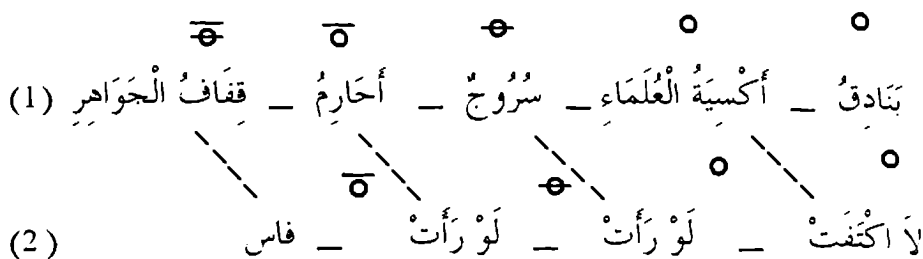
المقطوعتان مُتَضَادَّتَانِ مُتَكَامِلَتَانِ يتصارع فيهما الأمل/اليأس؛ وعبر عن هذا الصراع بالنقص الكتابي في البداية، وفي النهاية، مما أدى إلى زيادة الإيقاع، أو النقص منه؛ إلا أن التداخل كان أيقوناً على اجتماعيهما؛ وعليه، فإن القصيدتين هما بمثابة وجهي العملة الواحدة؛ وهذا الصنيع هو ما يجده القارئ في مقطوعتين متجاورتين؛ إحداهما تتحدث عن اليمن، ومأرب، كتبت بخط غليظ كثيرة الكلمات، بالجهة اليَمْنَى؛ وثانيتهما يسارية خطت بأحرف رقيقة قليلة المفردات تتكلم عن المغرب، وفاس:

غَبِشُ — السَّيْدَةُ — غَبِشُ — يَتَذَكَّرُ — فَهَلْ لَكَ (1)
 الماء — صَهَارِيَج — مَن هَجَجَ — غَزَا لَتَكَ (2)

تَتَعَرَّضُ لأطلال اليَمَن، وَعَنْ سذاجة الطفولة المنساقَة مع ضَوْءِ القمر،
وبقايا الأثر، والسحب الآبقة في السماء، وعن ظلام الليل، والقمر، والفوانيس،
وصرخات الطامث، ودم الولادة، ودم القتل، ثم الحديث عن الصُّخْرِ اليَمَنِيِّ،
وتخريب سدِّ مأرب، والطُوفان، وحديث الآثار عنه، وعن جنات اليمن،
وثمارها، التي تمنح العين نُضْرَةً وَسُرُوراً؛ إنها مملكة سبأ ذات النباّ اليقين الذي
فيه آيات للمتعطين؛ هي الملكة بلقيس التي لها تاريخ عريق مليء بالانتصارات،
والانكسارات معاً؛ اليمن/المغرب/بلقيس/إدريس؛ صنعاء/فاس؛ أروى/زrehون.
اليمن غبش يجمع بين الظلمة/الضوء، وبين ما بقي من الليل/بداية النهار؛
الغبش هو الفتك، والرَّغْد هو الرائحة الطيبة، والغيث المدرار الرحيم بالبلاد،
والعباد.

اليمن ومملكته، وثقافتها، وحضارتها، لب مملكة، وثقافة، وحضارة،
فاس؛ المغرب ابن اليمن، وفاس بنت صنعاء؛ الأبناء يحترمون الآباء، ويُبْرُونَ
بهم. يرحب البرابرة بالوافد الذي ينشر العلم، والمعرفة، والحضارة. هكذا حل
اليمنيون في أرض المغرب، وفاس، على الرحب، والسعة، ونزلوا أهلاً،
وسَهْلاً، على أن التاريخ مَكَّارٌ؛ جزى اليمن بما فعلوا، وكافاً فاساً بما اجترح
أهلها، فتعرض البشر، والطير، والحجر، للإبادة؛ هكذا علقت الرؤوس في باب
المحروق، وبذرت الأجساد العفنة في السَّاحَاتِ؛ فاس أرض المفارقات:
المحصنات/المُبَرَّجَات؛ الجفاف/المياه؛ صهاريج الماء في القباب/عفونة في
الكهوف؛ الوثام/الفتنة؛ السلم/الحرب...؛ تتحدث المقطوعتان، معاً، عن
اليمن، ومملكته بلقيس، وعن العرب، ومَمْلَكَةِ إدريس؛ لكنهما تجتمعان في
التعبير عن المصير المشترك.

على أن هناك مقطوعتين أُخْرَيَيْنِ تتناولان أوضاع فاس معاً؛ إحداهما
تستعرض أيام العِزِّ، والجاه، وهي اليُمْنَى المكتوبة بخط رقيق؛ وثانيتها تسرد
أوقات الكوارث، والمحن المكتوبة بخط غليظ؛ واختلاف الوضع يجعلنا في
حيرة من أمرنا؛ على أن عدد الكلمات، ووضع اليمين، واليسار، وحجم
الحروف، قد تَوَجَّهْنَا نحو تفضيل اليمين، وفرضه هو السلم (لا) مزيد الصغير.
وما على اليسار هو سلم (سي) الصغير المنقوص؛ ولهذا، فإننا نقترح ما يلي:



كان بفاس الجواهر، والزمرد، واليواقيت، والشَّوْاشِي، والمخاد، والحنابل، والسروج، وثياب النساء، والرجال من الْعَامَّةِ، وَالْعُلَمَاءِ، وأنواع الأسلحة، وضروب الصواني...؛ إنه خليط مزيج «مدار سَدِيم»؛ فاس ذات تاريخ عريق أسهمت في صنعه قبائل، ودول مشتهرة في الغابرين، ولم يبق إلا لوك الذكريات، ومظاهر الخراب.

نكتفي بهذا الذي يتبين من خلاله أن عدد القصائد المزدوجة أربع تتبادل المواقع في الجهة: يمين/يسار؛ وفي الحجم: الغلظ/الرقة؛ وفي النطاق: الطول/القصر؛ وفي العدد: القلة/الكثرة؛ على أن ما اعتمدنا عليه هو معيار القلة/الكثرة، حتى نستطيع استخلاص سلم أصيل مزيد يليه سلم رَدِيفٌ منقوص؛ على أننا لن نكتفي بهذه الخلفية الموسيقية الصرف، وإنما سنتقدم خطوة إلى البحث في الإيقاع اللساني؛ وإذ إن هدفنا ليس التفاصيل، لكن التأصيل وتقرير المبادئ، فإننا نقتصر على ضرب الأمثلة للقارئ، لعله يقيس الغائب على الشاهد.

- (1) (أ) الغلظ والكثرة على اليمين (ب) الرقة والقلة على اليسار
- (ر) فَهَلْ لَكَ أَنْ تَسْلُقَ بُرْجَ اللَّيْلَةِ (ر) عَزَاكَ الصَّحراء
- (ف) (عِلْنْ فَعِلْنْ فَعِلْنْ فَعِلْنْ فَعِلْنْ فَعِلْنْ) (فَعِلْنْ فَعِلْنْ فَعِلْنْ فَعِلْنْ فَعِلْنْ)
- مَفْتُونًا بَيْنَ الْقَمَرِ الْبَحْرِيِّ وَآخِرَةِ هُنَا تَشَأْ فَاسُ بَرَابِرَةِ
- (لُنْ فَعِلْنْ فَعِلْنْ فَعِلْنْ فَعِلْنْ فَعِلْنْ فَعِلْنْ) (فَعِلْنْ فَعِلْنْ فَعِلْنْ فَعِلْنْ فَعِلْنْ)
- أَلْ

- (2) (أ) الرّقة والكثرة على اليمين
قَفَافُ الجواهر
(فَعُولُنْ فَعُولُ فَعْ)
طَبَّقُ الزُّمُرُ دِ
(عَوْلُنْ فَعُولُ فَعْ)
(ب) الغلظ والقلة على اليسار
قَاسْ
(فَعْلُنْ)
تَارِيخٌ مُنْحَرِفٌ
(فَعْلُنْ فَعْلُنْ فَعُولُ فَعْ)

- (3) (أ) الغلظ والقلة على اليمين
يَقْطَعُ شَرِيَا نَ
(فَعْلُنْ فَعْلُنْ فَعْلُنْ فَعْلُ)
الرُّكْبَةِ
(عَلُنْ فَعْلُ)
مُغْتَبِطًا
(لُنْ فَعْلُنْ)
(ب) الرّقة والكثرة على اليسار
عَلَّقُ فِذْرِيشَ الشَّرْجَبِ يَنْهَاكَ
(فَعْلُنْ فَعْلُنْ فَعْلُنْ فَعْلُنْ فَعْلُ)
الِ
(ن)

- (4) (أ) الرّقة والقلة على اليمين
أَوْقَدَ شُمُوعَكَ تَحْتَ سَفْفِ
(مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ مُ)
قِيَابَكَ الْحَضْرَاءَ
(تَفَاعِلُنْ مَفْعُولُ)
(ب) الرّقة والكثرة على اليسار
مَاذَا يَقُولُ الْعَابِرُونَ لِبَعْضِهِمْ
(مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ)

يتضح من هذا أن القوالب العروضية الوزنية تصحح افتراض سلم (لا) الصغير المزداد، وسلم (سي) الصغير المنقوص، لأن القصيدتين تنتميان إلى هيكل عروضي واحد (فاعلن) وما اشتق منها، ما عدا قصيدة واحدة هيكلها

الأصلي (فَعُولُن)؛ على أن هناك من يفترض (فَعُولُن) أصلاً، و(فاعِلُن) فرعاً⁽³⁸⁾.

2 - التفكير في الصمت

تبقى مسألة تكامل (الصَّوْمَتَة) التي أشرنا إليها في كثير من المرات؛ وعليه، فإننا لن نعدو إلا التذكير ببعض المبادئ التي نتحدث عن مقادير كل واحد منهما؛ وأولها أن تصنف المقاطع إلى قصار، وأقصر، وقصير، وطويل، وأطول، وطوال، ثم يمنح كل واحد منها مقدارها الزماني، بناء على ما هو مُسَنَّد إلى علامات الصوت في الموسيقى، ثم تُجْمَع تلك المقادير وتُوضَع بسطاً على مقام ذي قيمة زمنية ثابتة، كأن يكون المقام ذا قيمة ثمانية، أو رباعية، ثم ينظر في مقدار الخلاف بين البسط، والمقام؛ فإذا كان هناك نقص في البسط بالنسبة للمقام، فذلك هو مقدار الصمت، ثم يجرى الصمت إلى مَصَامِيت، والبياض إلى مَبَايِض، ثم تُمنَح علامات ذات قيمة معينة، ثم تُجْمَع قيم الصمت إلى قيم الصوت، فيكون المجموع معبراً عن الإيقاع.

وليكُم المِثال الآتي:

السِّيْدَة الْمَغْمُورَةُ بِالْحُمَى

المقطع:	ءَسْ	سَيْد	ي	دَ	هُلْ	مَغْ	مو	ر	ة
الهيكل:	CVC	CVC	CV	CV	CVC	CVC	CVV	CV	CV
نوعه:	أقصر	أقصر	قُصَّار	قصار	أقصر	أقصر	طويل	قصار	قصار
علامة الزمن:	م	م	م	م	م	م	م	م	م
اسمها	ذات	ذات	ذات	ذات	ذات	ذات	السوداء	ذات	ذات
	السنين	السنين	الثلاث	الثلاث	السنين	السنين	الثلاث	الثلاث	الثلاث
	أسنان	أسنان					أسنان	أسنان	
قيمها:	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{8}$	$\frac{1}{8}$	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{4}$	1	$\frac{1}{8}$	$2 \frac{1}{2} = \frac{1}{8}$

(38) انظر فصل (النظرية الإيقاعية) في الجزء الثاني.

قيمة ____ : وعليه، فإن ما بقي للصمت هو: $1 \frac{1}{2}$ ؛
المقام




المقاطع: أي مباض طويل ومباض قصير

العلامة:  

اسمها: الطرفة الومضة

القيمة: 1 $\frac{1}{2}$

* * *

المقاطع:   

الهيكـل: CVC CVC CVV

نوعه : أقصر أقصر طويل

علامة   

الزمن :

اسمها : ذات السنين ذات السنين السوداء = $1 \frac{1}{2}$

قيمتها: $\frac{1}{4}$ $\frac{1}{4}$ 1

قيمة ن : ما تبقى: $1 \frac{1}{2} - \frac{1}{4} = 1 \frac{1}{4}$ المقام 4

رموز الصمت:  

أسمائها: اللحظة الومضة

القيمة: 2 $\frac{1}{2}$

وأما الناحية النبرية ففتراءى لنا كما يلي:

أَسْ	ي	دَ	تُلْدَ	مَغْ	مُو	رَ	هُ
ضعيف	ضعاف	ضعاف	أضعف	فوق	قوي	ضَعَّاف	ضَعَّاف
(2)			4	أضعف (1)			
				(3)			

بِلْ	حُمْ	مَى ⁽³⁹⁾
أضعف	فوق	قوي
(2)	أضعف (1)	
	(3)	

بناء على هذا التدرج للنبر، فإننا نفترض أن هناك تدرجاً للصمت أيضاً؛ هكذا يكون (قوي، وضعيف، وفوق أضعف، وأضعف)، يوجد ما يضاهيه من الصمت؛ وعليه، فإنه داخل الكلمة، والتركيب، وفي الفروق بين الأسطر، من حيث الطول، والقصر، وما بين الأسطر، وما بين القصيدتين، وفي كل ما هو غير مكتوب في شاشة الصفحة؛ إن كل هذا يشد من أزر الأطروحات الحديثة، والمعاصرة، التي يدعي بعضها أن الصمت/البياض هو الأصل، وأنه هو اللغة الراقية؛ وإذ لم نذهب بعيداً مع هذه الأطروحات، فإننا نتفق مع الرأي الذي يعتقد أن الصفحة عوضت السطر، وأنها صارت فضاء رؤية⁽⁴⁰⁾.

4 - تدلال الدوال

لهذا، فإن المحلل صار مُلْزماً أن يصوغ «نُحْوَاً» تركيبياً وتأويلياً للصُّمْتِ/البياض، كما فعل السابقون للصوت/المكتوب؛ وتحقيقاً لشيء من هذا، فإننا نقترح مفهوم (تدلال الدوال) لِمُراعاة فضاء الصفحة المكتوب، وغير المكتوب، لاستخلاص المضامين، والمعاني، والدلالات، الكلية الشاملة للديوان، عبر تشييد بُنْيَتَيْنِ؛ إحداهما رُكِّبَتْ من الموسيقى والشعر، قصد إبراز التَّغْيِيرِ؛ وثانيتهما اسْتَقْيَتْ من الدَّلِيلِيَّاتِ الأَمِيرِيكِيَّةِ ذات الخلفيات المتعددة⁽⁴¹⁾.

(39) تدل الأرقام (1، 2، 3، 4) على تدرج الإيقاع من القوة إلى الضعف: (مو - أس - مَغ - تل).

(40) ينظر ما جاء في هامش رقم 1.

(41) المرجع المذكور، ص. 24.

أ - البنية المركبة المضمونية⁽⁴²⁾

ألّفنا بنيةً قادرة على الإحاطة بمحتويات الديوان التي تدور حول تأسيس مدينة فاس، وتطورها، ومآلها، وكيفية النهوض بها، وما يتطلبه هذا النهوض من وسائل؛ وإليك البنية:

درجة الصغر	التطورات المكونات	الأولانية (الأيقون)	الثانوية (المؤشر)	الثالثية (القانون)
I - 0	التكوين (1) (do)	الإنشاء (1.1) (Ré)	التعسير (2.1) (Mi)	الترميز (3.1) (Fa)
0	التدوين (2) (Mi)	دلالة الاسم (1.2) (Fa)	التاريخ (2.2) (Sol)	الحضارة (3.2) (La)
0	التأويل (3) (Sol)	الموقع (1.3) (La)	المجتمع (2.3) (Si)	المدينة (3.3) (do)
II - 0	الازدهار (1) (Ré)	الدين (1.1) (Mi)	المعاملات (2.1) (Fa)	الشرع (3.1) (Sol)
0	الاختدار (2) (Fa)	القبيلة (1.2) (Sol)	الفتنة (2.2) (La)	الاستعمار (3.2) (Si)
0	الاحتضار (3) (La)	المدن (1.3) (Si)	المنافسة (2.3) (do)	التلاشي (3.3) (Ré)
III - 0	الإفاقة ⁽⁴³⁾ (1) (Mi)	الوعي (1.1) (Fa #)	التكتل (2.1) (Sol #)	الحركة الوطنية (3.1) (La)
0	السياسة (2) (Sol #)	الفقهاء (1.2) (La)	الأحزاب (2.2) (Si)	علائق الفاسي (3.2) (do #)
0	الثقافة (3) (Si)	العلم (1.3) (Do #)	المعرفة (2.3) (Ré #)	الشعر (3.3) (Mi)

(42) على قارئ هذه الفقرة أن يراجع الدليلات البرسية التي حولها المآت من الكتب، والمقالات في المجلات المتخصصة: Semiotica. وانظر: محمد مفتاح، المفاهيم معالم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، 1999؛ عليه أيضاً أن يكون على اطلاع بحول الموسيقى التوافقية: La Musique Tonale؛ وفي هذا المؤلف معطيات حولها؛ وخصوصاً في فصل النظرية التوليدية من الجزء الثاني.

(43) وضعنا علامة الزيادة في الموسيقى للتعبير عن (الإفاقة) وما تبعها من نتائج؛ على القارئ أن تكون له بعض المعرفة بالألحان المزيدة، والمنقوصة؛ والسلم هنا هو: (Mi Fa # Sol # La Si do # Ré # Mi).

ب - البنية الدليلية

يتناول المؤرخون المضامين السابقة بكامل الاقتدار، والتفصيل، والوضوح؛ لهذا، فإننا لم نقف عندها، لذلك قُتِّعْنَا عن المبادئ الشعرية التي صيغت فيها تلك المضامين؛ وها نحن أولاء، الآن، نُقَدِّمُ إلى القارئ خطاطة شاملة مستقاة من الدليلية التي تتأسس على مبادئ كونية، حتى نأخذ في الحُصْبَان (الخطاب والشكل)؛ وها هي⁽⁴⁴⁾:

درجة الصلح	التطورات المكررات	الأولية (الأيقون) (1)	الثانوية (المؤشر) (2)	الثالثية (القانون) (3)
I - 0	الصوت (1) (do)	الكنمة (1.1) (Ré)	الاتفاق (2.1) (Mi)	المعنى (3.1) (Fa)
0	الحرف (2) (Mi)	المجاز (1.2) (Fa)	الكتابة (2.2) (Sol)	الرَّمْزُ (3.2) (La)
0	الصوت / الحرف (3) (Sol)	المفرد (1.3) (La)	الحمل (2.3) (Si)	نهاية التأويل (3.3) (do)
II - 0	الصمت (1) (Ré)	علامته (1.1) (Mi)	شكله (2.1) (Fa)	نَوْعُه (3.1) (Sol)
0	قيسته (2) (Fa)	موقعه (1.2) (Sol)	علائقه (2.2) (La)	مضونه (3.2) (Si)
0	معناه (3) (La)	تخمينه (1.3) (Si)	احتماله (2.3) (do)	ترجيحه (3.3) (Ré)
III - 0	التشكل (1) (Mi)	النقطة (1.1) (Fa #)	الخطوط (2.1) (Sol #)	الشكل (3.1) (La)
0	نواة المعنى (2) (Sol #)	احتمال المعنى (1.2) (La)	المحاكاة (2.2) (Si)	نوع المحاكاة (3.2) (do #)
0	بداية التأويل (3) (Si)	المؤول (1.3) (Do #)	نوصيفه (2.3) (Ré #)	دلالته (3.3) (Mi)

(44) هذه البنية تلخيص لما سبق (الصوت/ الصمت)؛ (البياض/ السواد)؛ وقد نالت الزيادة الأثلوثات الأخيرة للتعبير عن دور الفضاء في العملية التأويلية (فضاء الصفحة، وشاشة التلفاز، واللوحة التشكيلية، والصورة وخلفيتها...).

ج - توليف البنيات

يرى القارئ الخبير أن هذه البنيات أسست على الرياضيات، والمنطق، في كل الدرجات، والرُتب⁽⁴⁵⁾؛ من الناحية الأفقية:

(ضو - ري - مي - فا - صول - لا - سي - ضو)، ومن الناحية العمودية:

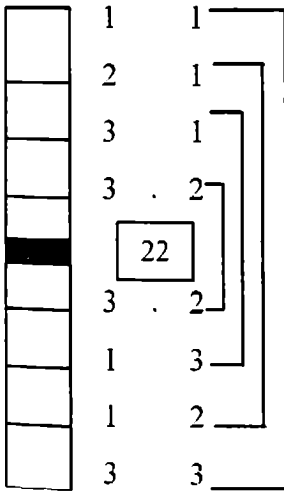
$$(46) \begin{pmatrix} \text{سي} \\ \text{صول} \\ \text{مي} \end{pmatrix}, \begin{pmatrix} \text{لا} \\ \text{فا} \\ \text{ري} \end{pmatrix}, \begin{pmatrix} \text{صول} \\ \text{مي} \\ \text{ضو} \end{pmatrix}$$

(47) ري

وأما من الناحية المُنَحْنِيّة، ف:

صول

ضو



يظهر المنطق في نظرية التقابلات التي يمكن تقديمها للقارئ في عدة أشكال: شجرية، أو هندسية، أو سلمية⁽⁴⁸⁾؛ لكننا اخترنا السُلّم لوضوحه:

(45) انظر (المبادئ التوليفية) في القسم الأول من الجزء الأول.

(46) تنظر (التوافقات) في الموسيقى، وخصوصاً فصل النظرية التعبيرية في الجزء الثاني.

(47) يرى فلاسفة التنظير أن سلامة النظرية تكون حينما تتوافر الأبعاد الثلاثة (الأفقي، والعمودي، والانحنائي)؛ وهي بيئة في الهيكل المقترح.

(48) ما ورد في هامش رقم (45).

على أن السلم إذا أبان عن البنية العميقة، فإن البنية السطحية لا تكون بهذا الترتيب؛ فقد يقع فيها القلب: (3.12.1) .. والإبدال: (3.2) بدلاً من: (2.1) والعكس: «يصير الأسفل أعلى»⁽⁴⁹⁾ .. بين مكونات الطرفين المتقابلين، وبين حدود الطرف الواحد، كما أنها يحدث فيها تكرار، بحيث صار اثنا عشر مكوناً يقابل اثني عشر مكوناً⁽⁵⁰⁾؛ وعليه، فإن «ورقة البهاء» عبارة عن شبكة من العلاقات الداخلية والخارجية. وقد اقترحنا تلك البنيات لضبط عناصرها، حتى لا يتيه القارئ في بُنيّات طرائقها، وتصير معانيها لديه قِداداً.

اعتمدنا على معطيات تاريخية، ومؤشرات لغوية، ومُنَبّهات فضائية، لكي نستخلص الدلالات الآتية:

I - (1) تحدث الشاعر عن الكون السديم المتجلى في النقطة السادرة التي هي نقطة (ف) التي استقرت في (فاس) المدينة التي لها خصائص المدن الإسلامية في العصور الوسيطة، مثل البصرة؛ هكذا كانت فيها مرافق دينية، ومدنية، ومجتمعية؛ مثل المساجد، والحمامات، والفنادق، والاصطبلات، والمداخل، والمخارج، والانتماء القبلي؛ إنها مدينة رمز للإسلام ولحضارته، ولتَمَذّن المغرب⁽⁵¹⁾.

(2) وجد المؤسسون فاساً، فسميت ذلك، أو بأساً تَيَمُّناً: «تشبيهاً لِجَنَاسٍ تَفْرِيعاً لِمَسَارِ خُرَافَاتٍ نَفَّخَتْ... في مُنْقَلَبِ الْعَالَمِ كَوْنًا»؛ الفأس رمز للإحكام، والكبح، والضرب، والعمل...؛ والبأس: القوة، والشدة؛ واجتمع الفاس، والبأس، فصنعت حضارة تجاوزت حدود المغرب، وتفاعلت مع المشرق، حتى صار كل منهما امتداداً لأخيه:

(49) تراجع خواص نظرية التناسب في هذا المؤلف، وفي: محمد مفتاح، مشكاة المفاهيم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2000؛ الشعر وتناغم الكون. التخيل الموسيقي المحبة، مكتبة المدارس، الدار البيضاء، 2002.

(50) التعمير ↔ التدوين؛ الترميز ↔ دلالة الاسم؛ التاريخ ↔ التأويل؛ الحضارة ↔ الموقع؛ أي (12=3×4): 12 ↔ 12.

(51) يجد القارئ بعد التكرار بين هذه الفقرة، وبين ما ورد في (جغرافيا القتل)؛ وقد فعلنا هذا لإقصد تعليمي: تأليف قلب القارئ ومضمون الديوان، بقراءة طبيعية عادية، ثم تقديم تأويل شامل مؤسس على الرياضيات والمنطق، والموسيقى، واللغة، والحركة؛ وللقارئ الحق في الاختيار.

«عِنْدَمَا أَمَرَ الْأَرْضَ بِالْإِنْسَاطِ نَفَخَ فِي نَقْطَةٍ
بِحَجْمِ كَوْكَبٍ فَشَعَّ حَزَقَانِ عَاشِقَانِ فَأَءِ لِنَسْلِ
النُّخْلَةِ سَبِينِ لَأَقْوَاسِ الْمِيَاةِ فَاسْ حَاضِرَةٌ مِنْهَا
العُنَاصِرُ تَنْشَأُ لَا حِجَابَ بَيْنَهَا تُسَافِرُ لَا حِجَابَ
بَيْنَهَا لِذَلِكَ لَا شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ فَاسٍ يَغْطِشُ لَا
صَبِيٍّ يَجُوعُ»⁽⁵²⁾.

(3) وقد كانت في موقع تحتضنه الجبال، وتُعانِقُهُ السهول، ويربط بين إفريقيا، والشرق العربي. كانت محطة لقوافل التجار، والحجيج، مما جعل ساكنتها المختلفة الأعراق تُكوّن مجتمعاً توحده مصالح مشتركة يحتاج أشخاصه، بعضهم إلى بعض، وأنجزوا حضارة شاع نتائجها في كثير من الأقطار.

II - (1) كانت في المغرب ديانات كتابية، ووثنية قبل الإسلام؛ وقد حافظ المغاربة اليهود على ديانة آبائهم، وآباء آبائهم، على الرغم من انتشار الديانة الإسلامية الحديثة الوافدة في أصقاع المغرب تدريجياً، وخصوصاً في المدن التي كانت تتم فيها المعاملات بحسب مذهب مالك، وعمل أهل تلك المدن، مما جعلهم يُفَضُّون نِزَاعَهُمْ بحسب الشرع.

(2) على أن فاسَ التي كانت تتسم بصفات المدن التي وصفها ابن خلدون، إيجاباً أو سلباً، فإن المحيط الذي أُنشِئَتْ فيه، والنماذج المستوحى منها، جَعَلَتْ فَاسَ تَسْتَبْطِئُهَا نَزْعَةُ قَبَلِيَّةٍ مَدْنِيَّةٍ، (عدوة القرويين/ عدوة الأندلسيين)، ومجالية (الأصليون/ البلديون)، وتمرد على السلطة الجائرة، وحروب المتنازعين على الحكم، من أدارسة، ومُرَابِطِينَ، وموحدين، ووطاسيين... مع ما يتطلبه هذا الوضع من معارضة، وموالة متقلبتيْن؛ هكذا، كان تاريخ فاس عبارة على حصار، وفك حصار، وحرب، وهدنة، وفتنة، وهدوء... إلى أن جاء الاستعمار فَغَيَّرَ مصير المدينة.

(52) تقدم هذا المقتطف في فقرة (التقريب) المعنونة بـ(جغرافية القتل).

(3) اتخذ الاستعمار الموقع ذريعة باعتبار أنه صار لا يلائم العصور الحديثة التي تعتمد على التجارة البحرية، ولبست على المسالك البرية، وتجارة القوافل، فأسس مُدُنًا أخرى (الرباط عاصمة السياسة، والبيضاء مركز الاقتصاد، وطنجة مدينة دولية)؛ تبعاً لهذا، هاجرها كثير من سكانها الأصليين النشطين، فجمد الدم في عروقها، وصارت عبارة عن بطاقة بريدية تباع بأبْحَسِ الأثمان للسياح، وهجم عليها وافدون من البوادي، وساكنة ذات تقاليد معينة، ففقدت هوياتها، وتشوهت محاسنها، فلم تنفع مساحيق العطار، والصيدلاني، فيما أفسده الدُّهر، والآفاقيون.

III - (1) إلا أن أهلها لهم تراث عريق في الكفاح، موروث من تاريخ الإسلام، ومن الحروب التي دارت بين أجدادهم، والأوربيين. وهكذا بدأت الوطنية تتأجج في نخبة المدينة، فبدأت النوادي، والجمعيات، تطالب بالإصلاحات المختلفة.

(2) من الذين حملوا مشعل المقاومة الفقهاء، والعلماء، الذين كانوا يناوئون الظلم مهما كان مصدره، فكانوا يعبثون الناس بفتاويهم، ودروسهم، ومواعظهم، ثم تكونت أحزاب ذات تنظيمات عصرية اختلَّ فيها علال الفاسي موقع الصدارة.

(3) اعتمدت المقاومة على العلم الديني الذي كان له تأثير في كل مُكوّنات المجتمع، وعلى المعرفة المعاصرة التي اقتنتها تلك النخبة، مما كان يروج في الشرق، وفي الغرب؛ على أن ما نهض بالدعوة إلى الإصلاح، والتغيير هو الشعر.

خاتمة

«ورقة البهاء» تاريخ لمدينة فاس في السراء، وفي الضراء، على شاكلة ما فعله كثير من شعراء الغرب والشرق، قديماً وحديثاً؛ موضوعة المدينة مهيمنة في الشعر المعاصر، وفي الموسيقى، وفي الأفلام، وفي اللوحات التشكيلية، وفي المسرحيات.

حديث «ورقة البهاء» عن مدينة فاس يدخل ضمن هذا السياق، لكنه تصوير موسيقي شعري مركب احتوى على النثر المشعور، والشعر المنثور، وعلى الأسطر، وعلى المصطفات المتراكبات، وعلى شعر تفعلة، واحدة، أو متعددة؛ إلا أن التفعلة السائدة هي (فاعلن وأسرته)، وتطبيقاً لأطروحتنا، فإننا نجعل تلك التنوعات الإيقاعية الشعرية انعكاساً للإيقاع الموسيقي العميق؛ على أننا لم نكتف بهذا، بل اعتمدنا على بعض النظريات الموسيقية، وخصوصاً التوافقية، لضبط شكل المقطوعات ومعنى، ومضمون، ودلالة خطابها، وعلى سيميائيات الشكل، والخطاب لإيضاح ذلك الضبط.

لقد تحول تاريخ فاس، وساكنتها، وأصولهم، وحضارتها، وقوتها، وانكسارها.. إلى توليف موسيقي مركب تجلى في تلك المقطوعات الشعرية.

خلاصة القسم الأول

حللنا في هذا القسم («ورقة البهاء»، 1988) لمحمد بنيس، و«بَيْنَ الْعَجَبِ وَبَيْنِي»، 2006) للمهدي أخريف، و«على أنْفِرَاد»، 2006) لحسن نجمي، و«أعدني... إلى رحم المحبرة»، 2007) لعبد الرحمان بوعلي، و«هكذا سدى، 2007) لرشيد المومني؛ ينتمي هذا المتن إلى حقبة «التقليدية» التي تَسَيِّد فيها تيار فني اتَّسم بخواص معينة، كتوظيف مكونات، وعناصر، قليلة، والتكرار، والواقعية...؛ وتجلى في التشكيل، وفي النحت، وفي الرسم الصناعي، وفي الموسيقى، وفي الشعر؛ على أنه استعمل وسائل أخرى في الميدان الأخير، وخصوصاً التلاعب بفضاء الصفحة التي صارت ميدان تفاعل بين السواد، والياض، وبين الصوت، والصمت؛ هكذا أَضْحَى المهتمون يتحدثون عن شعرية البياض، بعدما كانوا مقتصرين على شعرية السَّوَاد، وأَخَيَّرُوا أطروحة الصمت في إطار أسطورة عجز اللغة، وأحلوا الكلمة، والصفحة، محل السطر والتركيب.

لقد أدى هذا الصنيع إلى جعل التَّسمية من قبيل المفارقات: التبسيط/ التعقيد؛ قلة المعنى/ غَزَاة الدلالة؛ الوجود/ لعدم...؛ خروجاً من هذا المأزق اقترح بعض الباحثين قصرها على السَّرْدِ دون الشعر، أو على الرسم، والنحت، والموسيقى، والرسم الصناعي ليس غير؛ على أننا نرى أن الحل يكمن في تفصيلها إلى بعدين؛ أحدهما مُتَعَلِّقٌ بِرُؤْيَا الْعَالَمِ، وثانيهما مُهْتَمٌّ بِالْحَيَاةِ الْوَاقِعِيَةِ اليومية، بَيْنَ أَنْ كُلَّ واحد منهما ينتمي إلى مُنَاحٍ ما بعد الحداثة في أعماقه الماورائية، والفلسفية، وفي دفاعه عن الثقافة الشعبية، وممارسات الحياة اليومية الاستهلاكية؛ وتبعاً لهذا، كان هناك شعراء ذوو أطروحات فلسفية، وآخرون أصحاب نزعات واقعية شعبية يومية؛ وما بين هؤلاء، وهؤلاء، أطياف.

وإذ الشاعر العربي المطلع يرد من كل منبع، فإن الباحث يجد لديه مجمل

التيارات، والثرّعات؛ ومع ذلك، فإنه مطالب أن يقوم ببعض التّصنيف لتكون المقاربة أدق؛ هكذا اقترحنا أن يكون شعر المهدي أخريف، وعبد الرحمن بوعلي، وحسن نجمي، ورشيد المومني، معبراً عن التيار التقليلي، وشعر محمد بنيس في «ورقة البهاء» من قبيل الثّرعة التكثرية؛ ومعلوم أن هؤلاء الشعراء جميعهم ينتمون إلى المناخ الثقافي العالمي، والعربي، والمغربي، المعاصر؛ ومن ثمة، فإنهم يشتركون في بعض الأطروحات الفكرية، وفي بعض المظاهر الشكلانية.

تحدث الدواوين جميعها عن هوية الكتابة بصفة عامة، والكتابة الشعرية بصفة خاصة، والموقف من اللغة، وقضية البياض، ومسألة السّواد؛ وتحتوي كلها على شذرات شعرية؛ وإن اختلفت شكلاً، وكمية، وفضاء، من شاعر إلى آخر. ولقد راعينا في تحليلنا استخلاص الكليات الجامعة، والتجليات الخصوصية.

لقد ألفنا منهجية سيميائية عامة من الموسيقى، واللّسانيات، وتحليل الخطاب، بناء على فرضية التركيب للمصادر المشتركة المندمجة؛ هكذا كُنّا نذهب من النظرية الموسيقية إلى الشعرية، ومن الشعرية إلى الموسيقى، بالمفاهيم المترحلة، وبالمقاييس، للتغلب على حل المسائل العويصة؛ في ضوء هذا قَطَعْنَا النص الشعري بكيفية متدرجة مؤسسة على التناسب الرياضي الموسيقي، ورصدنا طرائق ثُمُوّه، بالتوتر، والاسترخاء، ومراحله، وتوقفاته، ومحطاته الموقّعة، والنّهائية، ومنحناه أبعاداً رَمَزيّة.

تحاليلنا السّابقة استندت إلى السيميائيات الأوربية، والدليلية الأمريكية، والتحليل الموسيقي، والمقاربات الخاصة بالصّور؛ وقد أتاح لنا هذا التوليف توليد المفاهيم، وإغناء القراءة، وضبط التأويل، بمبادئ ما ورائية، ومنطقية رياضية؛ وهذا ما سيراه القارئ في القسم الآتي بتفصيل.

القسم الثاني

الرموز

الفصل الأول

العبارة والإشارة

تمهيد

عرف المنتصف الثاني، من القرن العشرين، تحولات علمية، وسياسية، وثقافية، وفنية كبيرة. ذلك أن أغلب العلوم الخالصة، والعلوم الاجتماعية، والإنسانية، عرفت فيه بالعالم الغربي ازدهاراً لم يسبق له مثيل، إبداعاً، وتَنْظيراً، وَمِنْهَاجاً؛ هكذا كانت تنتقل العلوم والمعارف.. من أوروبا إلى أمريكا، أو منها إِلَيْهَا، كشأن ما بعد الحداثة الأوروبية التي وجدت مَرْتَعاً خصباً في بعض الجامعات الأمريكية، وكحال الثقيلية التي عثرت في أوروبا على أنصارٍ لها؛ وقد أبدعت النخبة الغربية ما أبدعت للتعبير عن الكينونة، والوجود، وطرح قضايا الفن، ووظائفه، وتشديد فلسفات، ونظريات، ومناهج، لتطوير الفكر البشري، وتطوير الطبيعة، والهيمنة عليها.. بعدما خرجت من حروب طاحنة كانت لها تأثيراتها العميقة في كل المناحي الإنسانية.

لم تبق النُخبة العربية المتنوّرة بمعزل عن تلك التطورات، وهاتيك التحولات، لكن أوضاع العالم العربي الخاصة جعلتها تُكَيِّفُ تلك العلوم، والمعارف للتعبير عن قضاياها التي هي من نوع يخالف ما يعيشه أُنْدَاذَهَا في الغرب، وفي أمريكا، وفي اليابان؛ تَحْيَا النخبة العربية في الكوارث، والإهانة تلو الإهانة.. مما أدّى إلى إنتاج خطاب رثائي، أو هجائي، وخصوصاً بعد الوضع التعيس الذي تلا كارثة الستة أيام سنة 1967 م؛ لقد شغلت الناس العاديين، والشعراء، والمفكرين، فتحدث عنها كل واحد بأسلوبه الخاص، فكانت الأغاني، والأفلام، والقصائد، والمقالات، والمؤلفات، الفكرية،

والسياسية؛ ومن الذين أسهموا بنصيب وافر الشاعر أدونيس الذي اخترنا له نصاً معبراً عنها؛ هو (المسرح والمَرايا)؛ فقد تكلم فيه عن هذه الكارثة بأسلوب شعري مَزَج فيه بين فنون مختلفة: المسرح، والشعر، والموسيقى؛ على أننا سنركز فيه على قصيدة واحدة؛ هي (الرأس والنَّهر)⁽¹⁾.

I — التفانن

دأب «الباحثون» على أن يهتموا بالشعر من حيث هو تعبير لغوي محض؛ وإذا ما طمحووا إلى أكثر من ذلك، فإنهم يَحْومُونَ حول بعض النصوص الشعرية التي تجمع بين الرسم، والتشكيل بالخط اللغوي، في تعابير جميلة مستقاة من سجلات فلسفية كَأَنِّيَّة، أو هيكلية، أو ماركسية، أو وجودية، أو ظاهراتية..؛ مما يجعلها ما قبل النقد، أو ما بعد النقد، لكنها ليست نقداً حَقّاً، وليست تحليلاً صدقاً⁽²⁾؛ لهذا حَرَصْنَا على أن نتحدث بلغة مفهومية واصِفة مستقلة ليكون للإبداع لغته، وللنقد لغته.

1 - الصَّوْمَتَةُ

بناءً على ما أَلَحَحْنَا عليه، في هذا المؤلف، فإننا سنجعل الصمت، والصوت، وجهين لعملة واحدة؛ هي التركيب اللغوي بأصواته، ومفرداته، وتولييفها، وإيقاعها، ومعناها، ودلالاتها؛ وهي الصمت بِمَصَامِيته⁽³⁾، ومصموماته، وتركيبها، وإيقاعها، ومعناها، ودلالاتها؛ إنها الصَّوْمَتَةُ⁽⁴⁾ بأبعادها المختلفة.

أ - التفكير بالصوت

اعتقد بعض القدماء أن الكون مَلِيءٌ بالصَّوْتِ، إذ كل ما فيه يُبَسِّمِلُ، وَيُحَمِّدِلُ، وهذا موضوع الباحثين في اللأهوت⁽⁵⁾؛ وقد اهتمت به اللغات

(1) أدونيس، المسرح والمرايا، «صيغة نهائية»، دار الآداب، بيروت، 1968، 1988. واعتمدنا على هذه الطبعة.

(2) هذا هو الشائع في النقد العربي.

(3) صَغْنَا «مُصَمَّت» قياساً على «مقطع».

(4) الصوامة نحت من: صوت، وصمت.

(5) يراجع في هذا الاتجاه الفيثاغوري.

الراقية، فاحتلت المفردات الدالة عليه، وعلى مصدره، وعلى نوعه، وعلى لونه، مكانة هامة، وهذا من مشاغل فقهاء اللغويين⁽⁶⁾، والمعجميين، واللسانيين؛ واهتمت به الفيزياء، والطب، وعلم النفس، وعلم الأصوات اللغوية، وعلم الموسيقى، وهذا من مَهَامُنَا في هذا البحث؛ وقد أفاضت هذه العلوم في كيفية حدوث الصوت، وتمييزه من الضوضاء، وإدراكه، وأنواعه من طبيعي، وإنساني، وآلي، وتخزينه، وإثارته، وتوظيفه.

تحتل الأصوات دوراً مركزياً في «الرأس والنهر»⁽⁷⁾؛ إذ يوصف الصوت بالقوة، وبالضعف، وبالبعد، والقرب، وتنعت الثَّبَرَةُ بِالْجِدَّةِ، وبالمازحة، وبالباطشة، وبالحكيمة، واللهجة بالمرحة، وبالغاضبة، وبالطبيعية، وبالمصطنعة، والسُّخْرِيَّةُ بالناعمة، وبالقاسية، وبالحادة، والقَهْقَهَةُ بالاستهزائية⁽⁸⁾.

وأما الموسيقى، فهناك موسيقى صاحبة، وموسيقى حب، وموت؛ وموت، وحب، وموت، وغضب، وغضب، وقوة، وقديمة سحرية، وإيقاعية سريعة، ومُتَسَارِعَةٌ، وهَادِئَةٌ، وصاحبة، وجنائزية، وإيقاع سريع، وهادئ؛ وكما صارت تفعل بعض التيارات الموسيقية المعاصرة، فإن الشاعر مزج أحياناً بين الأصوات الإنسانية، والآليَّة، والطبيعية؛ صوت العاصفة، والأمطار، وصوت الصخب، وشبه الترتيل، والترتيل؛ وجمع أحياناً أخرى بين الأصوات المفردة، والأصوات المتآنية مع نفسها، ومع الانفجارات.

ب - التفكير بالصمت

قَسِيمُ الصوت الصمت، إذ هما معاً يكوّنان بنية النص، ودلالته؛ على أننا سننظر إلى الصمت لا باعتباره مُكْمَلًا سَلْبِيًّا، وإنما سَنُسْنِدُ إليه كل الأوصاف التي مَنَحْنَاهَا إلى الصوت؛ هكذا يمكن أن ينعت بأنه تعبير عن الحب، والكُرْهُ، والغضب، والهدوء، والخُزْن، والانْشِرَاح؛ ومؤشر هذه المعاني ما يكون يُعْتَمَلُ

(6) يُراجع «المخصص» لابن سيدة، و«فقه اللغة» للشعالبي.

(7) أدونيس، المرجع المذكور، ص. 93-118.

(8) هذا ما يُسَمَّى بِالظَّلَال، أو بالألوان: (Les Timbres)؛ أي طبيعة الصوت، أَخْشِنُ هو أم ناعم، أَجْهَوْرِي أم مكتوم... د. صادق فرعون، المعجم الموسيقي المختصر، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 2007، ص. 341.

في الشاعر من إيقاع داخلي حينما يكتب، وما يظهر على جسده حينما ينشد: دلالة قسّمات الوجه، وحركة الرأس وإشارات اليد...؛ ودليله ما يعرف في الموسيقى بالزمن المضاد⁽⁹⁾، حيث يكون الصمت أقوى تعبيراً من الصوت، وأسطورة دلالة الصمت المتفوقة على ما تؤدّيه الكتابة.

هناك تناوب بين الصوت، والصمت: صمت يتلوه صوت، أو صوت يتبعه صمت؛ لكنهما يتكاملان: قوة/ضعف؛ ضعف/قوة؛ فرد/جماعة؛ تَنَالٍ/تَأَنٍ...؛ يصدر الصوت/الصمت من فرد، أو آلة، أو جوقة، أو مجموعة، آلات؛ هناك صوت/صمت الشيخ، والشاب الجندي، والشيخ الحكيم، والشاب، والراعي، والجوقة المراثية، وغير المنظورة.

يتلخص من هذا أن «الرأس والنهر» موسيقى مشعورة ممسرحة؛ تَنَجَلِيّ الموسيقى في التعبير عن الوضع الكارثي الذي عاشه العالم العربي، بعد الهزائم المتتالية، وفي تقنية التأليف التي تظهر في التناظرات، وفي التوافقات، وفي محاكاة الموسيقى الالكترونية، والكهرصوتية التي تمزج بين مختلف الأصوات؛ وهي شعر من حيث توظيف أصوات اللغة الطبيعية، وإيقاعاتها، ومفرداتها، ومعانيها، ودلالاتها؛ وهي مسرحية من حيث توظيف تقنيات معينة: الزمان، والفضاء، والشخصيات، والحوار، وجو الأداء، والمساعدات، والمؤثرات.

2 - التعبير بالموسيقى

احتل التعبير بالموسيقى، منذ نشأتها، اهتماماً كبيراً من قبل الفلاسفة، والموسيقيين الإغريقين، لأنها ارتبطت عندهم بالإنسان، بما فيه من جسد، وروح، وعقل، وأهواء؛ فلذلك كانت تستعمل لعلاج المَرَضَى، وفي الشعائر الدينية، ووقت إنجاز الأشغال الشاقة؛ وتبعاً لهذا كله أنشأوا مبحثاً خاصاً صار يكون حجر الأساس في المؤلفات الموسيقية دَعَوُهُ بـ «العلاقة بين الطبائع

(9) الزمن المضاد: Le Contretemps حركة إيقاعية تحدث في الوزن الموسيقي، على النُصف الأول من الزمن القوي والضعيف، أو على الزمن بكامله، وتسبقه علامة الصمت التي تحل محل الصوت الذي يأتي بعدها. (انظر: سي أحمد الدريسي الغازي)، أسئلة وأجوبة حول الثقافة الموسيقية، مطبعة السعادة، الدار البيضاء، 1996، ج 1، ص. 131-133.

والطوبوع⁽¹⁰⁾؛ والطوبوع هي (ميكسوليديان، وليديان، وفريجيان، وضوريان) و(هايبوليديان، وهايو فريجيان، وهايو ضوريان)؛ وأما الطبيعة المعبر عنها فهي الشكوى عند أفلاطون، والتوتر، والحزن لدى أرسطو، والشغف، والحزن بالنسبة لبلوتارك؛ والميوعة، والسكر، أو التهذيب، أو البكاء؛ التخميس على شرب الخمر، والعنف، والشجاعة، والعمل؛ والرجولة، والقساوة، والجلالة، أو العمل السلمي، والاعتدال والإقناع، والعبادة، أو تعليم الاعتدال، ومكارم الأخلاق؛ وأساسها هو: (سي)، و(ضو)، و(ري)، و(مي)؛ وأما أساس ما تحتها، فهو على التوالي: (فا)، و(صول)، و(لا)⁽¹¹⁾.

يظهر من هذا أن هناك اختلافاً في إسناد الوظيفة التعبيرية لكل طبع، وإن اتفقوا على الأساس؛ إلا أن ما يهمنا تسجيله هو أن هناك تصويراً موسيقياً لحالات، وعواطف، وأهواء، وأحداث، ووقائع، وأن هذا التراث انتقل إلى فلاسفة المسلمين، وموسيقيهم، وبعض بلاغيهم؛ إلا أن بعضاً منهم أخذ حظه منه، ونمّاه، وأورثه غيره، وبعضاً آخر جعل منه حديث خرافة، فنزّه نفسه عن الحديث فيه؛ من الفريق الأول الكندي، والفارابي، وإخوان الصفاء.. وحازم القرطاجني، وابن الخطيب، وبعض أهل المغرب ممن يمارسون موسيقى الآلة. هكذا ربطوا الموسيقى بالطبائع الأربع، وبالعناصر الأربعة، وبأوقات من آناء الليل، وأطراف النهار؛ وأما الفريق الثاني، فمنه الأرموي، وابن حزم، وابن خلدون⁽¹²⁾.

لم يبق الاهتمام بالعلاقة بين الطبائع والطوبوع في الموسيقى التوافقية، وفيما جاء بعدها من موسيقات؛ لكن الموسيقى من حيث هي بقيت حريصة أشد الحرص على أن تحاكي، وأن تصور، وأن تعبر، كما هو الشأن في السمفونيات، وفي الشرائط، وفي المسرح، وفي الرسوم المتحركة⁽¹³⁾؛ فقد

(10) العلاقة بين الطبائع والطوبوع هي Ethos؛ ينظر فصل: (سحر الأعداد والأشكال)، من الجزء الأول (مبادئ ومسارات).

(11) انظر المرجع المذكور أعلاه، 2 - الموسيقى؛ فقرة (?).

(12) انظر فصل (سحر الأعداد والأشكال) المذكور أعلاه: 5 - تذيير وتثمين.

(13) انظر: الفصل الرابع، (النظرة الموحدة)، من (نظريات وأنساق)، القسم الأول. فقرة: د - المحاكاة.

يحاكي الموسيقى الأوضاع، والأحوال، والأعمال، والأفعال؛ وعلى هذا، فإننا نفترض أن وصف: «موسقى صاخبة»، أو «موسيقى موت وحب»، أو «موسيقى موت وغضب» ليس اعتباطياً؛ إنه يعني أن تلك الأوصاف تصوير ومحاكاة لتلك الأوضاع، والأحوال.

يجد القارئ بـ «الرأس والنهر» كل أنواع الموسيقى: الموسيقى ذات الصوت الواحد المشكّلة من رموز موسيقية (علامات لغوية) ذات مُدَدٍ متعادلة تتقدم في استقامة، وموسيقى تناظرية تتأسس على التضاد، والتقابل، وموسيقى توافقية تنبني على تآني الأصوات، والبدائيات، والمحطات...، والموسيقى الكنسية المعتمدة على الجوقة الرباعية التي ظهرت في إطار الإصلاح الديني؛ على أن ما هيمن في «الرأس والنهر» هو الاستيحاء من الموسيقى التوافقية ذات الأصوات المتآنية؛ هكذا تقوم الجوقة بدور أساسي في صياغة كثير من التعبيرات التي تتكون من سطرين إلى عدة أسطر يفصل بينها صمت، مما يجرى ما نقوله إلى قسمين: أربعة أسطر (4) ثم (صمت. موسيقى موت قوية) ثم ستة أسطر، أو ترتيل لعدة أسطر يفصل بينها (صمت. موسيقى هادئة) ثم الانتهاء بسطرين.

لقد حرص الشعراء على التعداد المتآني: ثلاثة شيوخ، وامرأتان، أو تعداد الأصوات إلى ثلاثية؛ كل واحد منها يُرَدَّدُ تعبيراً خاصاً به، أو تجتمع أصواتها فتنتطق تعبيراً واحداً:

... (تَعُوذُ الأصوات الثلاثة فتردّد معاً)

الأصوات الثلاثة (بسخرية حلوة):

هَآ هَا رَأْسُ مُخْتَالٍ

هَآ هَا رَأْسُ دَجَالٍ⁽¹⁴⁾

وأما الشباب، فعددهم أربعة؛ منهم المتهتك الذي هو زيرُ نساء، ومنهم المشغول بالشراب، ومنهم الغاضب، ومنهم المتمرد اليائس؛ كما أننا إذا أردنا أن نوغل في المقايسة، فإننا نعتبر «الرأس» الأساس، و«النهر» الثابتة، أو المهيمنة؛ إن الرأس موضوعة تسري في كل مفاصل النص: رأس محتال(ة)، ورأس

دجال(ة)، ورأس مُنْذِرَةٌ(ة) بالنار، والنفير، وبالصاعقة المزلزلة، لكن لا أحد يكثر بعد بلوغ الرسالة، لأنه منفصل عن المبلغ له؛ لهذا يلتمس الموت؛ وأما «النهر» فهو محط الرأس، وهو يزود بالسيول التي لا تُبْقِي، ولا تذر؛ هناك توتر بين النهر والرأس؛ إنه النهاية المعلقة، أو المجهضة⁽¹⁵⁾.

على أن الشاعر لم يكتف باستغلال الأصوات، في استقلالها، وفي إيتلافها، لكنه حرص على أن يستفيد مما هو رائج من تجديد موسيقى؛ هكذا يتبين للقارئ أنه يجمع أصواتاً متعددة؛ الصوت الإنساني الصادر من الشيخ، والشاب، والجوقة، والصوت البعيد، والصوت القريب، وصوت المرأة، وصوت الأم، وصوت الراعي، وصوت الرأس؛ والصوت الطبيعي الذي يتجلى في هدير الموج، وخير المياه، وصوت الآلات الموسيقية المتعددة الأشكال، والوظائف؛

لا يفهم هذا الصنيع من الشاعر إلا في إطار ما عرفته الموسيقى، والشعر من تطورات، بل ثورات، في القرن العشرين، وخصوصاً منتصفه الثاني؛ ذلك أنَّ من السمات المميزة لموسيقى هذا القرن إدخال الضوضاء فيها على يد الحركة المستقبلية التي ظهرت في العقد الثاني من القرن المذكور؛ لقد كتب أحد المختصين ما يلي: «يجب توسيع وإغناء ميدان الأصوات شيئاً فشيئاً. إن هذا التوسيع يستجيب إلى حاجة حَسَّاسِيَّتِنَا»⁽¹⁶⁾، وتعزز هذا الاتجاه في الموسيقى المجسمة حيث أدخلت ضوضاء المدينة، أو الطبيعة، وصوت قطرات الماء، ونباح الكلاب، وصرير الباب في لحن واحد؛ هكذا صنعت موسيقى جديدة حيث اجتمعت الأصوات المتنوعة، والشذرات، وأشياء الطبيعة لخلق عالم مركب.

3 - التمثيل

تداخلت هذه التنوعات الموسيقية المعاصرة مع فن المسرح؛ ذلك أن الموسيقى تحتوي على مظاهر مسرحية، مثل حركات قائد الفرقة، والعازفين؛ بل

(15) ينبغي الرجوع إلى فصل (التعبير الإيقاعي) بالجزء الثاني (نظريات، وأنساق)، لكننا نذكر هنا بأن المحط التام هو: (I-V-I) أو (V-I)، وغير هذا له أسماء مذكورة فيما أشرنا إليه.

(16) Elezabeth Bresson, *La Musique*, Belin Paris, 1993, p. 158.

إن الشعر تَمَسَّرَحَ لهذا الوقت أكثر مما كان ممسرحاً قبل⁽¹⁷⁾؛ هكذا يجد القارئ أن القصيدة تقدم معلومات عن الفضاء، والزمان، والأشياء، والأناس الذين يتحاورون، ويتواجهون، وأصوات الآلات التي تتشابك أصواتها، وتتداخل؛ الموسيقى الصاخبة، والانفجارات المدوية، والأصوات المرتفعة، والحركات العنيفة، والحركات السّاخِرة، والتحذيرات الجدية، والقهقهات المستهزئة تتشاجر، وتختلط، وتَمَتَّرِجُ.

تظهر الحركات المسرحية في دخول شخص يَحْمِلُ نايًا، ويفرِّكُ يديه صدره وفخذه، ومرور أشخاص كأشباح يعبرون النهر قرب الجسر يحملون أحذيتهم، وأمتعتهم، وأطفالهم، وفي الرأس المقطوع الذي يسير ببطء، بل ويطير، وتقديم امرأة حصاة إلى شاب كأنها تفاحة، وما تبع ذلك من عناق، وتمدد، وهمس، وتحريك لليدين، والشفيتين، واللسان، وظهور الجثة التي لفظها النهر، وموت الطفل، واحتضان أمه إيّاه، ودخول شاب متعب بالركض، وأسراب الطيور فوق الجسر، ونقل الجثة من ضفة إلى أخرى.

4 - التشكيل

يقدم النص تداخلاً بين الشعر، والموسيقى، والمسرح، في زمان فضاء معين؛ لكنه يتجاوز هذا إلى إبرازها في لوحات تشكيلية؛ هكذا، يمكن اعتبار الجسر القديم، والضفة على النهر التي تظللها ثلاث شجرات لوحة تشكيلية؛ نساء مشوهات لوحة تشكيلية، وعجوزان لوحة تشكيلية، وأم مشوهة وطفلها لوحة تشكيلية، وثلاثة شيوخ لوحة تشكيلية، وشبان مشوهون يتضورون جوعاً لوحة تشكيلية؛ إنها لوحات تشكيلية متعددة تؤثث الرُّخَج الذي تجري أحداث المسرحية فوقه؛ وتؤول هذه اللوحات التشكيلية نفسها بنفسها؛ هي التشوه، والمرض، والهرم، والشيخوخة، والتعب، والجوع، والفشل، والعجز؛ على أن هناك لوحات تشكيلية قدم تأويلها، مثل هذه المرأة ذات النهدين؛ النهدان طفلتان: واحدة تموت من هُزال، والثانية تذوبُ في قنبلة؛ ومثل عبثية الحياة

(17) انظر الفصل الرابع (النسق الموحد) من الجزء الثاني (نظرية وأنساق، فقرة: 4 - ب. الشعر والتمثيل).

التي تتجلى في لوحة تشكيلية تحتوي على مقصلة، ومهرج، قابل لإنجاز كل الأدوار، بما فيها قطع الرؤوس؛ ومثل لوحة السيل العرم الجارف لكل شيء يجده أمامه؛ ومثل لوحة القبور التي كأنها غابات متوحشة؛ ومثل لوحة المرأة المُعْرِية بصدرها، وثديها، وعينيها، وفخذَيْها؛ ومثل لوحة الجسد التائق للحرية؛ ومثل لوحة الوطن الذي صار كالذكان...

الموسيقى، والشعر، والتمثيل، والتشكيل، تضافرت في هذا النص؛ إنه مثل المسرح الموسيقي الذي انتشر في أوروبا في المنتصف الثاني من القرن العشرين. ذلك أن هناك «علاقة جديدة أنشئت بين المشهد، والموسيقى، بحيث إن الجسم البشري، وتحرير الصوت الإنساني، صارا مطالبين بإسهامهما في الحركة الجسدية العامة»⁽¹⁸⁾؛ على أن ما سنفصل القول فيه هو المكون الموسيقي باعتباره خلفية النص الشعري.

II — توافقات

يظهر لنا أن قواعد الموسيقى التوافقية هي ما تحكمت في (المسرح والمرايا) بنية، ورؤيا؛ وإذ قدمنا معلومات وافية حول هذه النظرية الموسيقية، وأجريناها في عدة نصوص، فإننا سنكتفي هنا لتذكير القارئ ببعض المبادئ التي تتأسس عليها؛ أولها التراتب التجميعي الذي يعني أن مجموعة من العناصر متتالية تُكوّن مجموعات مترابطة، بحيث إن كل واحدة منها تتحرك نحو أخرى موالية، وهكذا؛ وثانيها الاختزال التمثيلي الذي يبعد الأحداث التي ليست بذات أهمية في كل مستوى مستوى إلى أن تبقى النواة الصلبة؛ وثالثها اختزال المسافة الزمنية التي تتأسس على: قوي/ضعيف؛ ورابعها، التراتب الاختزالي الذي يعتمد على التوتر، والاسترخاء، باعتبارهما متحكمين في اللّحن، وفي التوافق، وفي نموهما، وتقدمهما، وعلائقهما⁽¹⁹⁾؛ وإذا ما أردنا تقريب هذه المفاهيم إلى المهم بتحليل الخطاب، فنقول: إن المقطوعة/القصيدة تنمو من نواة تتوالد منها

(18) E. Bresson, *op. cit.*, p. 329.

(19) ينظر الفصل الأول (النظرية التوليدية) من الجزء الثاني (نظريات وأنساق)؛ وكذلك:

R. Linas et P. Churchland (eds), *The Mind-Brain Continuum*, MIT Press, Cambridge, 1996, pp. 251-279.

جمل تصف أحداثاً في عملية توتر، واسترخاء⁽²⁰⁾، محكومة بإيقاع موسيقي؛ وهذه الأحداث منها ما هو أهم، ومنها المهم، ومنها الأقل أهمية؛ الأهم هو (I-IV-V)، والمهم هو (III) وما هو أقل أهمية (II-VI-VII)؛ لهذا يمكن اختزال المقطوعة/ القصيدة إلى مكونات مترتبة الأهمية، حتى يبقى على حدث أهم؛ إما أن يكون البداية، وإما أن يكون النهاية⁽²¹⁾.

III — السمفونية الخامسة

سنجري هذه المفاهيم في قصيدة (الرأس والنهر)؛ وهي قصيدة تحتوي على خمس مقطوعات؛ أولاهها أثقل، وثانيها ثقيلة، وثالثها متوسطة، ورابعها خفيفة، وخامستها أخف؛ وستتناول كل حركة من هذه الحركات بحسب المفاهيم السابقة⁽²²⁾.

1 - التجميع الاختزالي

(أ) - يتحدث في الأولى الأثقل الشيخ بنبرات:

● نبرات مِزَاج، ونبرات جد، ونبرات حكمة، ونبرات غضب؛ إنها نغمات تعكس حالات الشيخ النفسانية المتنوعة التي أضفت على كل نغمة (جملة) لونا مغايراً، ووظيفة غير لون، ووظيفة الأخرى؛ وتحتوي أيضاً على أصوات ملونة:

● نبرة الوهم، ونبرة الجهل، ونبرة الكارثة، ونبرة المقاومة، ونبرة الحياة، وصدق ادعاء الوهم؛ الشيخ، و(الشباب)، والأصوات، نائرة ضد وضع التزييف، والادعاء، وقلب الحقائق؛ إنها لا تقبل بمنطق الخضوع لقوة الأشياء، ولا تستسلم للكوارث، باعتبارها قدراً مقدوراً. يغضب الشيخ غضبة الشباب، وتحث الأصوات على المقاومة، ويتكاتف الجميع على الدعوة إلى الأمل في حياة أفضل؛ وتوضح ما تقدم كما يلي:

(20) التوتر: Tension، والاسترخاء: Release.

(21) هذا ما فعلناه في عدة نصوص قديمة، وحديثة.

(22) هناك بعض التساهل في التعبير؛ إذ شتان ما بين السمفونيات والقصائد الشعرية من حيث البناء! لكن المقايسة تسمح بمثل هذه التجاوزات في التعبير.

نبرات المولمهم وتصديقه	نبرات الغضب	نبرات الحكمة	نبرات الجد (نبرات المزاح)
فا	صول	لا	(سي بمول ضو)

نبرة الحياة	نبرة المقاومة	نبرة الكارثة	نبرة الجهل
سي بمول	ضو	ري	مي بمول

تكنم الجوقة، والراعي والأصوات في الحركة الثانية: عن:	توقع مجيء الكارثة	زمان حلولها	الطوفان تجاوز الكارثة
مي بمول	فا	صول	لا بمول

وع	فعل التدين	فعل التحول	فعل الإهلاك	المستخرجة
	لا بمول	سي بمول	ضو	ري بمول

يخبر الراعي بوقوع الكارثة، وإمكان التغلب عليها؛ على أن أصواتاً نهضت
ضد تخريفه وتدجيله؛ إنه صراع بين المثال، والواقع، الأمل، واليأس.

يجمع كل ما سبق في:	نبرة الشيخ	نبرة الراعي	نبرة المرأة	نبرة الشاب
	ضو	ري	مي بمول	فا

نبرة الشيخ المتقي الذي يومن بالكرامات، حيث يرى الرأس المقطوعة
تسير، والقمر ينزل إلى الأرض، ويطوف، والنجم يسجد، ويحارب، وجبريل
يهبط إليه ليزيد في عمره؛ وأما نبرة الشيخ المتهتك، فهي تعبر عن الرغبة في
الفوز باللذات العاجلة؛ ونبرة الراعي الحالمة الآمرة، ونبرة المرأة التي
لا يحضر في بالها إلا الغناء الذي هو خاصة إنسانية، وإلا اللقّاحات،

واللذات، والمتع بجميع أشكالها، وألوانها؛ ونبرة الشاب في اندفاعه.

اجتمعت حكمة الشيخ، والراعي، والحرص على الفوز باللذات من قبل المرأة، والشيخ المتصّابي، والشاب، في نبرة واحدة قوية:

إِنَّ الْكَوْنَ يَهْلَوَانُ

إِنَّ إِلَهَ الْعَالَمِ الْمِفْضَلَةَ⁽²³⁾

ويمكن أن نلخص ما تقدم في رباعيات أساسية:

- (1) نبرة الاستغراب، ونبرة الكرامات، ونبرة الأمل في الحياة، ونبرة التمتع بالحياة.
- (2) نبرة رمز المرأة، ونبرة السخرية، ونبرة المتعة، ونبرة إشباع المتعة.
- (3) نبرة الشيخ، ونبرة الراعي، ونبرة الأم، ونبرة الرأس.
- (4) نبرة الشيخ، ونبرة الشباب، ونبرة المرأة، ونبرة الأصوات.

الشيخ حكيم قليل الكلام يتنبأ بحدوث عظام الأمور من كوارث متنوعة، والراعي يحلم، ويتنبأ، والأم ترغب في حياة أبدية، والرأس هو المدبر، والبشير النذير بما يأتي، والشيخ الشهواني يُحب أن يستأنف حياته، والشاب يريد أن يحقق متعته، والمرأة الشبقية تريد أن تستمتع، والأصوات ساخرة من كل حكمة غير واثقة من أي شيء؛ أي أن هناك تعبيراً عن حكمة الشيوخ، وحذرهم، وهفواتهم، وعن الرأس الذي يريد أن يكون رأساً، ورئيساً، وعن حيرة الشباب، وشهوانيته، وانشطار الأنثى بين الأمومة، والرغبة في المتعة، وعن الأصوات الغوغائية التي تتحوّل إلى أصوات حكمة، وعن الرؤيا الكارثية التي تصير أملاً، وعملاً، وعن الهواء الذي هو نسيم عليل يشفي النفوس، وعن الرياح اللواقح التي تُجزي سحاباً صيباً تهز له الأرض، وتخضر، أو يستحيل إلى ريح سموم تقضي على الأخضر، وتلفح الوجوه، وتثير الغبار، وتهدم الأخبية، والأبنية، والصروح؛ إنه ذهول الكارثة التي حلت كسيل العرم، وكيوم القيامة، وكطوفان نوح...، إنه الخراب الشامل.

(23) أدونيس، المرجع المذكور، ص. 102.

على أن حضور هذه الشخصيات يختلف من مقطوعة إلى مقطوعة :

الأولى	الثانية	الثالثة	الرابعة	الخامسة
الشيخوخة		الشيخوخة		الشيخوخة
الشباب		الشباب		الشباب
الأصوات	الأصوات		الأصوات	الأصوات
	الراعي	الراعي	الراعي	
	الجوقة		الجوقة	الجوقة
		الأنثى	الأنثى	الأنثى
				الرأس والجوقة
				الرأس

محاولة مثلاً لربط الطبوع بالطبائع، فإننا نقترح الإشارة إلى السلم الكبير:

(فا) - (صول) - (لا) - (سي بمول).

القول - الزمن - القمر - السيل

والسلم الصغير: (سي بمول) - (ضو) - (ري) - (مي بمول)

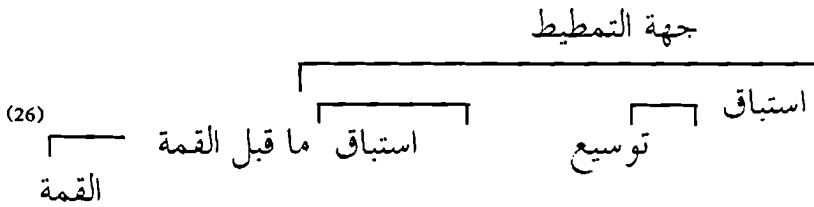
السَّيْلُ المكسور - الرمانة - الرأس

وبالتعبير الإغريقي مقام الليدياني، والهيبثوزورياني؛ وقد أسند الفلاسفة والموسيقيون طبائع مختلفة لهذا المقام؛ ملازم للسكرارى، والميوعة عند أفلاطون، وهو كذلك عند لوسيان، وهو للتهذيب عند أرسطو، وهو للبكاء عند بلوتارك؛ وأما المكسوليديان فيمكن أن يوصف بطبائع مختلفة: الليونة/القساوة، والاعتدال، والتطرف، والعمل، والكسل؛ وإذا لاحظنا أن هناك تقابلاً بين سلوك الشخصيات، فإننا نزعّم أن هناك أربعة مقامات في هذه القصيدة؛ مقام (سي) الذي يوحى بالشكوى، وبالتوتر، وبالحزن، وبالبكاء، و(ضو) بالسكر، وباللذة،

وبالمتعة، و(ري) بالعنف، والشجاعة، والعمل، و(مي) بالجلالة، والاعتدال، ومكارم الأخلاق⁽²⁴⁾.

2 - الاختزال التمثيلي

نمت هذه العلائق بالتقابلات، والتداخلات، والمفارقات؛ على أن هناك أساساً، ومنطقة جذب، ومحطة قد تكون نهائية، أو غير نهائية، وهي عديدة؛ وتُسَمَّى عملية النمو هذه بـ (الاختزال التمثيلي) التي تتأسس على عمليتي التوتر، والاسترخاء؛ إن الحركة من نَغْمَةٍ مهمة، أو قارة، إلى ما هي أقل أهمية، واستقراراً، تَخْلُقُ التوتر⁽²⁵⁾؛ وأما عكس هذا، فإنه يؤدي إلى الاسترخاء؛ وهو يكون في موقع هام في البنية، أو في المجموعة، أو في الوزن؛ وقد يكون في البداية، أو في الوسط، أو في النهاية؛ إنه تكثيف لما يتلوه، أو لِمَا يَسْبِقُهُ، أو ذروة لما تقدمه، وتبعه؛ وقد قَدَّمَ محلّلو الموسيقى عدة خطاطات لتوضيح هذا الأمر؛ وهي:



(24) ليس هناك اتفاق على إسناد طبائع قارة. ذلك أن السياق هو ما يحددها.

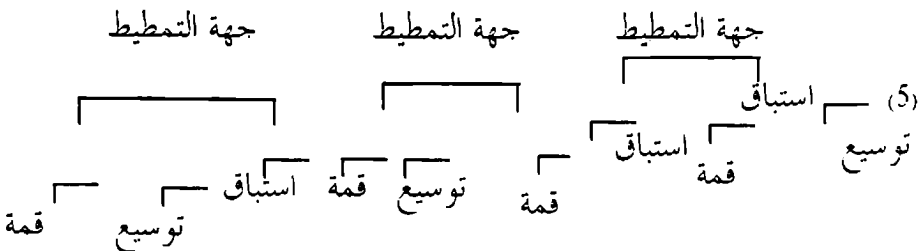
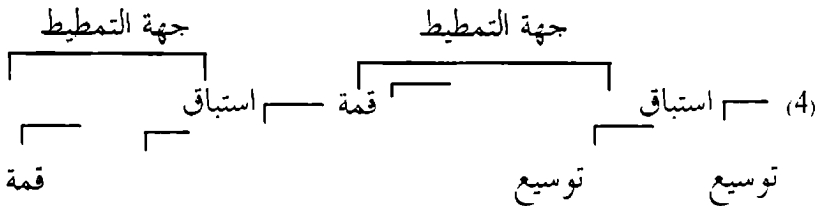
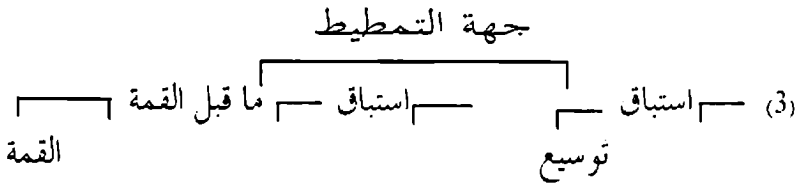
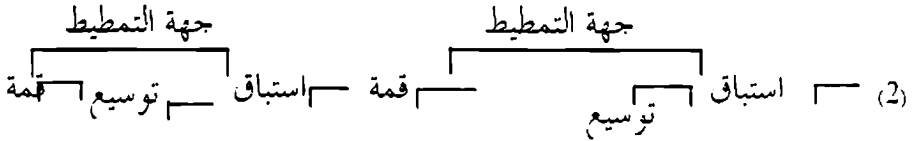
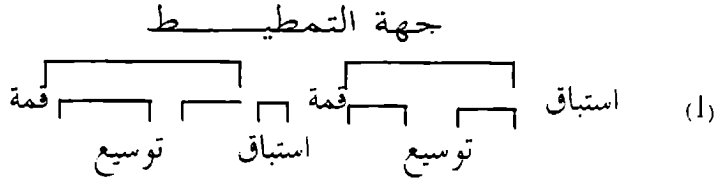
(25) «الحرب زربية»: نغمة مهمة قارة؛ «إن الحرب حقيقه» أقل أهمية؛ وبهذا خلق التوتر؛ «لو أن الحرب حقيقه...» أدت إلى الاسترخاء، ص. 93؛ ومعنى هذا بالتدوين الموسيقي: ضو (أساس)، وري (توتر)، ومي (استرخاء)؛ أو سيكون الاسترخاء في (فا): الحرب وسادة... «94، أو في (صول): «هذا الوطن...»، وما تقدم يوضح فيما يلي: (I-V)؛ (I-IV)؛ (I-II-III).

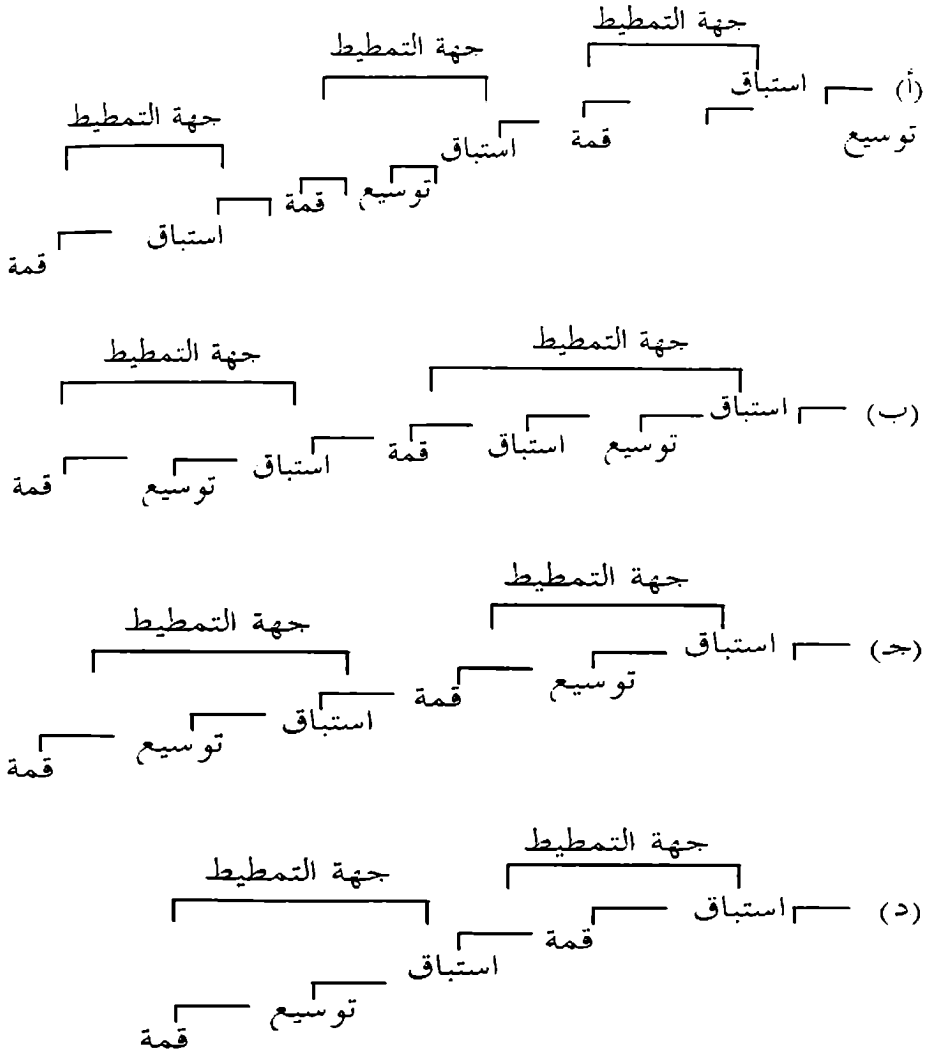
(26) توضيح الخطاطة: جهة التمثيل

الحرب زربية - إن الحرب حقيقه - لو أن الحرب - الحرب وسادة - هذا الوطن.
 (استباق) (توسيع) (استباق) (ما قبل القمة) (القمة)

كل جملة بداية استباق.

إلا أن هذا النوع قد يكون في بعض الأشعار التقليدية، لا في الأشعار المعاصرة التي فيها تداخلات، وأصوات عديدة؛ وبُغْد قراءتنا للقصيدة التي نحللها اتضحت لنا الأنواع الآتية:



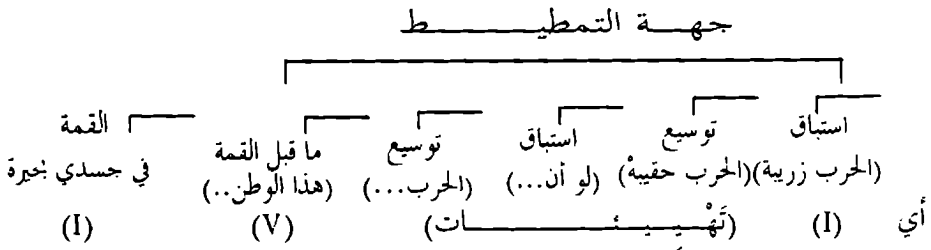
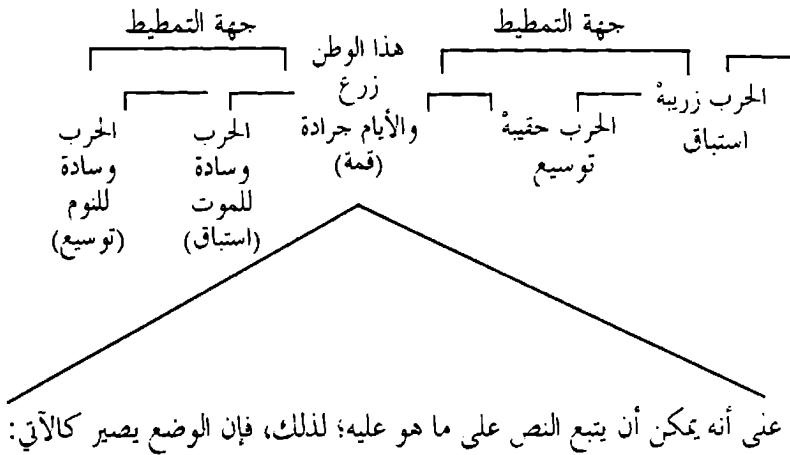


يتضح مما هو أعلاه أن القمة قد تسبق بوضع واحد في آخر (أ، د)، وَضْعَيْنِ (1، 2، 4، 5)، وفي أول (أ)، أو بثلاثة أوضاع في أول (ب)، أو بأربعة أوضاع (3)؛ ومعنى هذا أن وقوعها في الوسط تسبقها ثلاثة أوضاع وتتلوها ثلاثة، تحقيقاً لرقم سبعة السحري الذي هو وضع مثالي.

أن ما رأيناه يجعل مسألة تعاقب التوتر/الاسترخاء، أو الانطلاق/الوصول، بعد مرحلة، أو مرحلتين، أو ثلاث، من قبيل الوضع المثالي الذي يكون في

الممارسات الخطية المنطقية، وفي إشباع بعض الحاجات الأولية، لا فيما هو متشعب، ومعقد؛ لهذا، فإن «القمة» المؤكدة هي ما يكون في البداية؛ وأما في غير البداية، فإن هناك عدة احتمالات.

مع ذلك، فإننا نقدم القارئ أمثلة لنقط الانطلاق، والجذب، تتجلى في القمة التي ينتهي إليها، ثم يَنزِلُ منها إلى الحضيض:



3 - اختزال المسافة الزمنية

إلا أن هذه الحركة التي تتجلى في التوتر، والاسترخاء، تكون بمسافات زمنية متساوية، أو ما يسمى بالبنية الزمنية؛ ذلك أن قارئ الشعر، أو المستمع إليه، يشعر بأن هناك بنية وزنية إيقاعية مترتبة متبادلة القوى والضعف؛ وتوضيحاً لهذا نقدم الخطاطة الآتية:

يتحصل من هذا اثنا عشر قالباً (12)؛ وهذا العدد يقبل القسمة على اثنين، أو ثلاثة، أو أربعة؛ بمعنى أن البنية الوزنية ستكون ثنائية، أو ثلاثية، أو رباعية؛ أي:

- قوي/ضعيف//قوي/ضعيف...

- قوي/ضعيف/ضعيف//قوي/ضعيف/ضعيف...

- قوي/ضعيف/متوسط/ضعيف//قوي/ضعيف/متوسط/ضعيف...

وعليه، فإن القوالب القوية هي: (شيخ)، و(غنم)، و(قالوا).

والمتوسطة هي: (الحر)، و(شيخ)، و(حَزَبَح).

والضعيفة هي: (بصوت ضعيف)، و(بُ زَرْيَّة)، و(فعلن/

(بنبرة مَنْ يَمْزُحْ)، و(إن الـ)، و(قِيَّة).

(أ) أنواع المقاطع:

على أننا سنذهب إلى أدق من هذا بتحديد أنواع المقاطع مقتصرين على الأقوال الأساسية؛ وهي:

أنواع المقاطع :	أَلْ	حَزْ	بُ	زَ	رِبْ	بَ
الهياكل :	CVC	CVC	CV	CV	CVV	CVC
أسمائها :	أقصر	أقصر	قُصَّار	قُصَّار	طَوِيل	أقصر
علاماتها :	م	م	م	م	م	م
أسمائها	ذات	ذات	ذاتُ	ذات	السوداء	ذات
	السنين	السنين	الثلاث	الثلاث		السنين
			أسنان	أسنان		
قيمها	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{8}$	$\frac{1}{8}$	1	$\frac{1}{4}$

مقام الوزن: $\frac{2}{4}$ ؛ أي أنَّ الحاصل صار: $\frac{2}{4}$ ؛ ومعنى هذا أن المسافة الزمنية انقسمت بقسطاس مستقيم بين الصوت/السوداء، وبين الصمت/البياض؛ وإذا

ثائرة، أو معبرة عن الموت، أو الحياة، أو بأوصاف، وتفصيلات في القول، أو
يُتَلَّى بأوصاف، وتفصيلات، كما يكون للراحة، واسترجاع الأنفاس؛ وقد يكون
في البداية، أو في الوسط، أو بين أجزاء القول، وأجزاء الموسيقى؛ وإذ هو من
مكونات الموسيقى، ووضعت له علامات، ورموز، وقيم على شاكلة الصوت،
فإنه احتل مكاناً مرموقاً لدى موسيقيي القرن العشرين؛ بل إن بعضهم خصه
بمؤلف مستقل عنوانه (الصُّمْتُ)؛ ولنقدم المثال الآتي:

المقاطع	أَلْ	حَزْ	بُ	وِ	سَا	دَهْ
	لَدْ	مَوْ	تِ			
				وَ	عَا	دَهْ
الهياكل	CVC	CVC	CV	CV	CVV	CVC
أسمائها	أقصر	أقصر	فُصَّار	فُصَّار	طويل	أقصر
علاماته	م — م — م	م — م	م	م	م	م
أسمائها	ذات	ذات	ذات	ذات	سوداء	ذات
	السنين	السنين	الثلاث	الثلاث		السنين
			أسنان			
قيمها	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{8}$	$\frac{1}{8}$	1	$\frac{1}{4}$
			$\frac{1}{8}$	$\frac{1}{8}$	1	$\frac{1}{4}$
أصل						
الزمن						

مجموع الصوت: السطر الأول: $\frac{2}{4}$

السطر الثاني: $\frac{5}{8}$

السطر الثالث: $1\frac{3}{8}$

ومزيداً من الإيضاح نرسم الشكل الآتي:

الْحَرْبُ وَسَادَهُ (صمت : 2)	
لِلْمَوْتِ (صَمْتُ : $3 \frac{3}{8}$)	
(صمت) وَعَادَهُ (صمت):	
$\frac{5}{8}$	(2)

وعليه، فإن الصمت إما أن يكون: (— لحظة : 2)، وإما (زَفَرَتَيْنِ حَح + حَح : 1 + 1 : 2) في السطر الأول.

والسطر الثاني:

(— لحظة 2)، و(زفرة 1)، و(7 7 7 ثلاث بَرَقَات $\frac{3}{8}$)

وأما السطر الثالث فبدايته: (لمعة 7 $\frac{1}{4}$)، و(برقة 7 $\frac{1}{8}$)؛ ونهايته: (— لحظة 2).

بالإضافة إلى ما تقدم، فإن هناك أنواعاً من الصمت أخرى تكون عند تبادل أدوار الكلام، بحيث يَسْكُت المتحدثُ لِتَتَابِعَ شخصية أخرى، وعند المقاطعة، أو حين اندماج الأصوات فيما بينها، أو لَمَّا يحدث ما يوقف القول، مثل أصوات الانفجارات، أو وقوع أحداث عنيفة، أو أليمة غير متوقعة، مثل الاحتضار، أو ما بين حوار، وحوار، أو ما بين الصوت، والموسيقى، أو عدم الرغبة في الكلام، أو بعجز في اللغة، أو للإيجاز، والاختصار، أو لأجل شَحْذِ الذَّهْنِ، لِيَتَمَرَّنَ على الاستدلال، وليقيس ما لم يُقَلَّ عَلَى مَا قِيلَ.

قارئ ديوان «المسرح والمرايا» تتجلى له هذه الأنواع من الصمت عبر عنها أحياناً باللغة (صمت)، أو بالفضاء (بياض وسواد)، أو بالنقط:

- الْحَرْبُ زَرِيْبَةٌ

غَنَمٌ . . .

النقط الثلاث بعد (غنم) يمكن أن تدل على عدم الرغبة في الكلام، أو شَحْذِ الذَّهْنِ للاستدلال، أو لوضوح المعنى؛ هكذا، يمكن أن يقدر:

- غَنَمٌ (في حَظِيرَةٍ).

غَنَمٌ (حَبِيسَةٌ).

- في جَسَدِي،

بُحَيْرَةٌ... .

يمكن أن توصف (بحيرة) بِرَاكِدَةٍ، أو هَائِجَةٍ، أو زُرْقَاء... ؛ لكن السياق الذي وردت فيه المتحدث عن الماء، والأمواج، يُرْجَح أن يكون:

بُحَيْرَةٌ (ذَاتُ أَمْوَاج).

وكما تكون النقط في الأخير، فإنها تكون في البداية:

- ... وَسَجَدَ النَّجْمُ؛ أي (وحصل ما حصل) وسجد النجم

وإذا كان الأمر هكذا، فإنها ستكون في الوسط أيضاً؛ يوجد في النص أيضاً نقطتان متتاليتان، أو متراكبتان، أو نقطة واحدة، أو فاصلة، أو عارضة... إلى غيرها من أنواع الرقم التي يتسم بها هذا النص؛ على أن ما يجب الانتباه إليه هو ضرورة التفرقة بين الصمت العادي الذي يكون للاستراحة، أو لرسم الحدود بين التراكيب، والمعاني، وبين الصمت الذي يكون موازياً، أو مقابلاً للنص المكتوب، موازاة، أو مقابلة تامة، أو ناقصة، أو زائدة، وَيُكَوِّنُ مَعَ الصُّوْتِ رُؤْيَا.

إن هذا النوع من الصمت هو ما يعبر عنه بالبياض الذي يتكامل مع السواد، واقترحنا له مفهوم (السَّوَاضِ) الذي هو موجود مُنْذُ القدم، لكنه شاع بالعصور الوسيطة في الثقافة الإسلامية، وفي غيرها؛ فكان الشعر المكتوب على شكل شجرة، أو مثلث، أو دائرة، أو هلال، أو صليب، وسلكت الموسيقى نفس المهيح، فكانت الموسيقى الخاصة ذات التشكيل الصوتي البصري؛ ثم انتشرت هذه الممارسات في الإبداعات الحديثة، والمعاصرة⁽²⁷⁾.

ديوان «المسرح والمرايا» وظف السَّوَاضِ، لكنه في غير تصنع، ولا حذلقه. ذلك أننا إذا نظرنا في أسطر القصيدة، فإننا نجد بعضها يحتوي على كلمة واحدة،

أو اثنتين، أو ثلاثة.. إلى تسع؛ إن القصيدة تقوم على الإيجاز، والاختصار. لذلك، فإن البياض يهيمن عليها أكثر من السواد؛ ومعنى هذا أن المسكوت عنه أكثر من المنطوق به، والمدة الزمنية للبياض أطول مما في السّواد.

من الممكن الإتيان بأمثلة عديدة، منها:

الْحَزْبُ وَسَادَةٌ

لِلْمَوْتِ

وَعَادَةٌ

إن الحرب إبادة، وإهلاك، وإعدام؛ وقصر السواد الذي هو الوجود، وامتداد البياض الذي هو العدم خَيْرُ معبر عن هذا. وكذلك قوله:

هَذَا الْوَطَنُ

زَرْعٌ

وَالْأَيَّامُ جَرَادَةٌ

هَذَا بعض الامتداد للوطن، وامتداد أكبر للجراد. لكن الزرع قصير، لأن الجراد قضى عليه؛ ومزيداً من الإيضاح، نقارن بين مترددين لتبيان دور السّواض في التعبير عن المعنى، والدلالة:

لِي وَطَنٌ

لَا يَغْرِفُ التُّخُومَ، لَا تَحْدُهُ الشُّطَّانُ

تَحْدُهُ عَلَامَتَانِ - الشَّمْسُ وَالْإِنْسَانُ

وَهَا أَنَا أَطُوفُ

كَيْ أَرْزُلَ الْخُدُودَ، كَيْ أَعْلَمَ الطُّوفَانَ⁽²⁸⁾

* * *

لَا أَغْرِفُ التُّخُومَ لَا تَحْدُنِي الشُّطَّانُ

تَحُدُّنِي عَلَامَتَانِ - الشَّمْسُ وَالْإِنْسَانُ
وَهَا أَنَا أَطُوفُ كَيْ أُرْزَلُ الْحُدُودَ، كَيْ أَعْلَمَ الطُّوفَانُ⁽²⁹⁾

هنا حديث عن الوطن الحقيقي الواقعي الرسمي الذي هو فضاء ضيق مهما اتسع؛ لكن الوطن المثالي ممتد ليس له حدود برية، ولا بحرية، لأنها ليست لها قيمة مثلما للمعنوية التي تشع عليها الشمس، ويسعى فيها الإنسان؛ تلك حاضرة للامتداد، والكمال، لذلك يجب أن تُحْطَمَ بالطوفان؛ الإنسانية ليست حُدُوداً، وشطآنًا مثل الأوطان؛ وإذا ما وجدت، فإنها يجب أن تزال بالقوة، إن لم يُحْطَمِها اللين؛ لقد جمع في المترددة الثانية، ما كان مشتتاً في الأولى؛ السَّوَاضُ أيقونة مرنة معبرة عن تحولات المعنى، والدلالة، وليست صلبة مثل الصُّومَةِ.

السواض له دلالة، بل هو أساس الدلالة، لأنه يرمز إلى إمكانات غير محدودة، كما هو شأن العماء، والسديم، والوجود من حيث هو وجود؛ لهذا، فإن شاشة الصفحة قابلة لأن تنجز عليها احتمالات دَلِّيَّة، وتدَلَلِيَّة، كثيرة.

4 - التراتب الاختزالي

نعني به أن نحزئ المقطوعة إلى كل ما تحتويه من أحداث، سواء أكانت أساسية أم ثانوية، ثم أن نقوم بعملية اختزال لبعض الأحداث الثانوية في مرحلة أولى، وثانية، وثالثة... إلى أن تبقى الأحداث الأساسية: (I - IV - V)، أو (I - I - V)، أو (I - V)، أو (V)، أو (I)؛ هذا في التركيب النغمي؛ وأما التركيب اللساني، فهو يحتوي على ما هو أساسي، وما هو ثانوي، كذلك؛ والأساسي هو البداية، والوسط، والنهاية، والثانوي ما يكون بين هذه المراحل؛ قد يختزل واحد من الأثلثة، ثم ثاني اثنين؛ لكن البنية المخزنة في الذاكرة تسعف على بناء الموضوع، باعتماد على ما أبقى.

وإذ المقطوعة الشعرية نغمية لسانية، فإنها محكومة بقواعد النغم، واللسان، في التأليف، وفي الاختزال؛ وما يهمنا هنا هي قواعد الاختزال؛ وهي قاعدة التردد، وقاعدة المماثلة، وقاعدة التوازي، وقاعدة الصَّدَى، وقاعدة التقابل؛

● من أمثلة قاعدة التردد:

الْحَرْبُ وَسَادَةٌ }
الْحَرْبُ وَسَادَةٌ }

الْحَرْبُ حَقِيبَةٌ }
الْحَرْبُ حَقِيبَةٌ }

سَوْفَ يَجِيءُ السَّيْلُ }
قَبْلَ حُلُولِ اللَّيْلِ }
سَيَجِيءُ السَّيْلُ }
قَبْلَ حُلُولِ اللَّيْلِ }

● من المماثلة:

الْحَرْبُ زَرِيبَةٌ
الْحَرْبُ حَقِيبَةٌ

هنا تردد بين (الحرب - الحرب)، وتماثل بين (زريبة - حقيبة) وكذلك في:

هَآ هَآ }
رَأْسٌ مُخْتَالٌ }
هَآ هَآ }
رَأْسٌ دَجَّالٌ }

هَآ هَآ رَأْسٌ مُخْتَالٌ }
هَآ هَآ رَأْسٌ دَجَّالٌ }

هنا تردد في الملفوظات، لكن هناك اختلافاً فيما اختلته من فضاء؛ وهذا

الاختلاف يجعلها من قبيل المماثلة لا من التردد؛ ذلك أن التردد تكون فيه مطابقة في المفردات، وفي التركيب، وفي الدلالات، في حين أن المطابقة تكون في كثير من المفردات، والتركيب، بالمماثلة.

● من التوازي:

نقصد المعنى الضعيف للتوازي؛ أي ما يتبع التوجه نفسه، وما يتشابه، من التراكيب؛ وهو مكون أساسي في كثير من المبتدعات الإنسانية، قبل انتقاده من بعض تيارات ما بعد الحداثة؛ وما يعنينا أنه يكون أساسياً في التعبير اللغوي بصفة عامة، وفي التعبير الشعري بصفة خاصة؛ وإذ إنه شائع الوجود، فلننا نكتفي ببعض الأمثلة:

مِنْ تَوَابِلِ الرُّؤُوسِ
وَالْقَتْلِ،
مِنْ تَوَابِلِ الْغَابَاتِ وَالْقُؤُوسِ

نَعْرِفُ، هَذَا زَمَنُ السُّيُوفِ
نَعْرِفُ، هَذَا زَمَنُ الْأَقْوَافِ

— فِي الْبَدْءِ كَانَ خَاتَمُ الْوِلَايَةِ
— فِي الْبَدْءِ كَانَ الثَّقَطُ وَالْمَنْجَنِيْقُ . .
— فِي الْبَدْءِ كَانَ رَأْسُ
— يَدُورُ كَالدُّوْلَابِ
— فِي الْبَدْءِ كَانَتْ قُبَّةُ الْمِخْرَابِ
— فِي الْبَدْءِ كَانَتْ عُمَّةُ

● من أمثلة الصدى:

نعني به أن تركيباً تالياً يُعيدُ بكيفية من الكيفيات التركيب السابق:

(الصوت): كَيْفَ يَسِيرُ الرَّأْسُ وَالْإِنْسَانُ لَا يَسِيرُ؟

(الصدى): الرَّأْسُ لَا يَسِيرُ بَلْ يَطِيرُ . . .

● من أمثلة التقابل:

نقترح هذا المفهوم الذي هو شبيه بالتوازي، وبالصدى؛ ونعني به أن يكون هناك تركيب معين يدعو إلى أن يكون بجانبه ما يتماثل معه تركيباً، لكنه يُقَابَلُهُ مَعْنَوِيّاً:

تَسْبَحُ عَنْ يَسَارِهِ }
تَرْكُضُ عَنْ يَمِينِهِ }

وَكَانَ فِي يَسَارِهِ }
قَوْسُ }
(وَكَانَ) فِي يَمِينِهِ سَهْمٌ }

جَسَدٌ هَذَتْهُ الْحُرِّيَّةُ }
جَسَدٌ تَبْنِيهِ الْحُرِّيَّةُ }

وَطَنٌ يَفْتَحُ كَالدُّكَانُ }
وَطَنٌ يَقْلُ كَالدُّكَانُ }

من الممكن تصنيف ما تقدم على أسس رياضية هندسية، وعددية؛ إذ هناك امتداد فضائي تتحقق فيه المماثلة، والتوازي، والإبدال، والقلب، والعكس؛ وقد نتج عن هذه الآليات بُنْيَةٌ سَطْحِيَّةٌ تنعكس في خمس حركات؛ (1) القول، (2) الزمن المكسور، (3) القمر والرمانة، (4) السيل، (5) صوت من الماء؛ وكل حركة من هذه الحركات نمت من نواة، فَخَلِيَّةٌ، بتلك الآليات.

خَلِيَّةٌ⁽³⁰⁾ «القول» عبارة عن جملة موجزة تدفع بالقارئ منذ البداية إلى التنبؤ بما سيأتي من معانٍ لِيَكُونَ موضوعات فرعية، وأساسية؛ تلك هي مَوْضُوعَاتُ الحرب التي تناظر الناس حولها؛ هكذا رأى بعض الناس أنها هَزَلٌ، واعتقد

(30) ينظر فصل (المبادئ الحركية)، في الجزء الأول (مبادئ ومسارات).

آخرون أنها طاحونة الموجودات، ثم تطرق الحديث إلى الوطن الذي تواترت عليه المصائب، والكوارث، مثل الطوفان؛ موضوعات ثلاث إذن؛ هي الوطن، والحرب، والطوفان.

يؤشر عنوان (الزمن المكسور) على انشطار الزمان، وانكساره، وانحطاطه في البداية (في البدء كان...)، ثم كانت الولاية، والمحارب حيناً، والحرب، والإذابة حيناً؛ إنها موضوعة الصيرورة التاريخية، وانقلاب الأيام؛ الدهر قُلَّبَ⁽³¹⁾.

«القمر والرمانة» هما مَوْضُوعَتَا الحياة/الممات؛ الشيخوخة/الشباب؛ العفة/الفجور؛ اليأس/الأمل؛ الذكر/الأنثى.

«السيل» يقتضي أن يكون هناك رعد، وبرق، وأمطار غزيرة، وصواعق؛ وقد نتج عن كل هذا طوفان لم يُبْقَ، وَلَمْ يذرْ إِلَّا مَنْ، وَمَا رَجِمَ رَيْكُكَ، مثل طوفان عهد نوح، وطوفان سيل العَرِمِ؛ إِنْ الْآتِي⁽³²⁾ آتٍ لَا محالة، ولا ريب. تحدث عنه الراعي، والصوت، والجوقة؛ لكنه إذا قضى على كثير من الناس، فَإِنْ بعضاً سينجو، مما يضمن استمرار الحياة.

«صوت الماء» تذكير بمكر التاريخ، وعذره بالمقصرين الغافلين الذين استطابوا الحديث عن ماضٍ حقيقي، أو متوهم، أَلْهَاهُمْ عَنْ كل مكرمة. هكذا ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ، وأنسَدَّتْ أمامهم أبواب النجاة. ولعل موت مهيار فيه بعض الفرج:

مَاتَ

لِكَيْ يُنْهِيَ عَهْدَ الْمَوْتِ.

كل موضوعة نُمِيتْ بِجَوَارٍ بين الشخصيات، وِجَوَارٍ بين المفردات، والتراكيب، والمعاني، والنصوص؛ لكنها كانت تنتهي إلى محط، كشأن الألحان الموسيقية؛ بنية «القول»:

(31) تنظر الخطاطة التي في آخر البحث.

(32) الْآتِي: السَّيْلُ.

في جسدي بَحِيرَة - هذا الوطن زرع... - الحرب زريبة... .

(I) (V) (I)

● بنية «الزمن المكسور» ها ها... ها ها سيحيء الليل..

(I) (V) (I)

● بنية «القمر والرمانة»: إن إله العالم... - تَقَيَّأِي رَمْلَكَ - الرأس لا يسير...

(I) (V) (I)

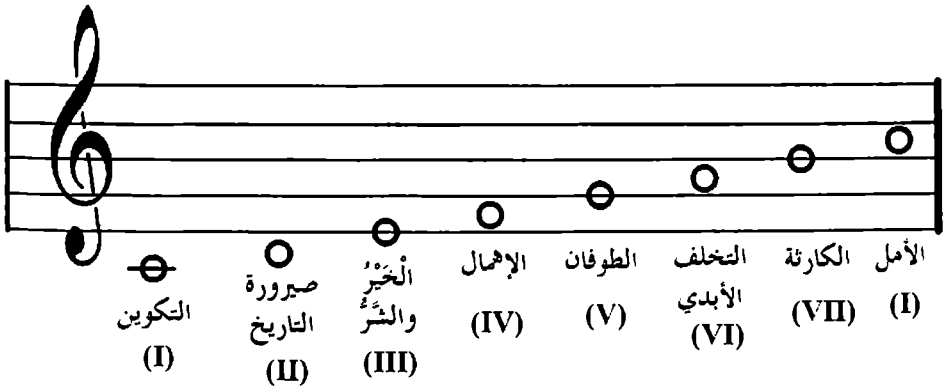
● بنية «السَّيْل»: ... هذي رعشة الحقول - وما انتهى المطاف - سيحيء السيل

(I) (V) (I)

● بنية «صوت الماء»: أَصْغُوا إِلَيَّ - أبحث في مملكة الرماد - رَأْسُ مِهْيَار... .

(I) (V) (I)

ومزيداً من الإيضاح، فإننا نقترح البنية النغمية/اللسانية التالية:



تختزل مِنْ هذه البنية في مرحلة أولى: (II)، و(VI)؛ وفي مرحلة ثانية (III)، و(VII)، وفي مرحلة ثالثة (IV)؛ وهكذا تبقى المكونات الثلاثة (I-V-I)؛ أي ما يدل على البداية، والوسط، والنهاية؛ أي بداية الصيرورة، وذروتها، والأمل في حَلِّهَا؛ على أن هناك ثلاثة أوضاع محتملة؛ هي: (I-V) يبقى فيها الأمر معلقاً؛ و(V-I) تحصل النهاية السعيدة، أو الحزينة؛ و(I) التي هي البداية

الرَّجِيْمَةُ بما سيتلو إذا كانت عادية مخزنة في الذاكرة، وإلا فإن لها إمكانات غير محددة، ولا محدودة، إذا كانت شديدة التعقيد.

يتبين من هذا أن السمفونية الخامسة تَمَّت بحسب قواعد التركيب الموسيقي الذي يتسم بالخواص الآتية: التراتب التجميعي، واختزال المسافة الزمنية، والاختزال التمثيلي، والتراتب الاختزالي، وبحسب التوليف النغمي اللساني، مثل التكرار، والمماثلة، والتوازي، والصدى، وأنواع التقابل من قلب، وإبدال، وعكس، وبحسب قواعد التمثيل المُسَرَّجِي، بما فيه من حوار، وشخصيات. هكذا صارت الصفحة أوركسترا، وخشبة مسرح، وشاشة؛ على أننا تجاوزنا البنية السطحية المعقدة إلى استكشاف مكونات البنية العميقة التي انبثقت من رؤيا للعالم خاصة؛ وهي ما سنوضحه في الفقرة الآتية:

IV — دلالات

1 - الاستراتيجية التنازلية

لاستخلاص دلالات هذه البنية، فإننا نبدأ بالاستراتيجية التنازلية، نظراً لطبيعة الخطاب الشعري، وللكيفية التي كتبت بها قصيدة (الرأس والنهر)؛ ما المقصود بالرأس؟ وما المَعْنِيُّ بالنهر؟ المعنى الأول هو الرأس البشرية، والثاني رأس الجماعة، والثالث رأس المال؛ وأما النهر فهو الوادي الذي يجري فيه الماء؛ وأول ما يَلْقَانَا المُفْرَدَتَانِ اللَّتَانِ في قول الراعي:

عَلِمْتُ أَنَّ رَأْسًا

فِي النَّهْرِ...

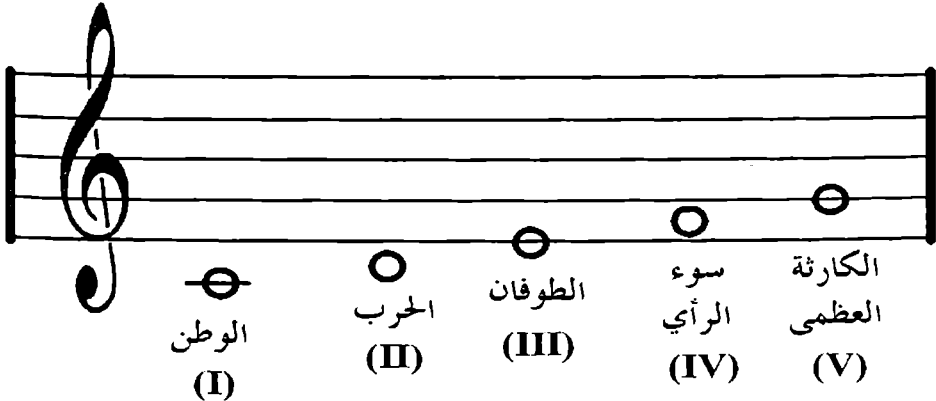
ثم أسند الكلام إليه، مما أثار الاستغراب؛ ومعنى هذا أن ما يخطر بالبال هو الشخص الرئيس، أو المفكر، أو العاقل، أو الحكيم؛ وأما النهر فنجد ما يرادفه الذي هو السيل الجارف؛ ثم يجد القارئ عنوان المقطوعة الخامسة (صوت من الماء)، وهو صوت صادر من ماء النهر، والرأس؛ النهر، والسيل، والطوفان، تدل على المقصود بالنهر؛ وإذا ما استحضر معنى الحصان بالنهر،

فإن العلاقة حينئذ بين النهر، والرأس، هي علاقة حسن التصرف، وصحة التدبير، في الأوقات العَصِيْبَة؛ على أن الطوفان، والسيول العرمة، والعوارض الممطرة لم تقض على البشرية بصفة نهائية؛ إذ نجا مَنْ نَجَا من طوفان عهد نوح، ومن سِيل العرم، اليمني؛ الرأس المفكرة (ة) هو روح نوح، وتاريخ اليَمَن العريق؛ والطوفان لِعَهْدِ نوح، والسيول العرم، يضعان القارئ في أجواء كارثية ماحقة ساحقة:

وَنَامَتِ الدُّنْيَا عَلَى الْجِيْطَانِ

سِتَّةَ أَيَّامٍ بِلاَ ضِيَاءٍ

نَتَنَاوَلُ عنوان المقطوعات الأخرى، بعد أن حددنا الموضوعات العامة؛ وبالبداية أن تعزز ما ذكرناه، وتعضده؛ وهكذا، فإن المقطوعة الأولى (القول) تومئ إلى الموضوعات الأساسية التي ستحدث عنها المقطوعات الأخرى؛ وهي الحرب، والوطن، والطوفان، ويشير (الزمن المكسور) إلى ماء الأنهار، والسيول، وإلى الزمان الذي وقعت فيه مختلف الأحداث الأليمة، وإلى الرأس المفكر المدبر، وَيُنْبِئُهُ (القمر والرمانة) إلى الذِّكْرِ، وإلى الأنثى، وإلى الصراع بين الرغبات، ويفصل (السيول) القول في وقت مجيء السيل، وآثاره المدمرة، وينهي (صوت الماء) الحديث عن موت مهيار، وشيوع الموتان، وطوفان الحرب، ومقاومة الناس؛ إنه صراع بين الحياة، والممات؛ الموضوعات، إذن، هي الوطن، والحرب، والطوفان، وسوء الرأي، والكارثة العظمى:



2 - الاستراتيجية الاتصالية

قدمت هذه الموضوعات بكيفية متدرجة متصاعدة من البداية (I) إلى النهاية (I-V)، أو إلى الوضع المعلق (I-V)، في أسلوب يحتوي على حوارات، وأوصاف، وسرود، واستعارات، وكنيات، ورموز، في نبرات ساخرة مستهزئة أحياناً، وجادة محترمة أحياناً أخرى⁽³³⁾؛ هكذا يتحدث المتحاورون عن الحرب باستعارات تحيل على حقول متعددة: الحيوان، والإنسان، والأثاث... وأوضاع الحياة، والممات؛ كل استعارة من تلك الاستعارات يمكن أن تحلّل في إطار بنية شمولية بحسب نظريات، ومناهج، أصبحت معروفة يجدها القارئ مفصلة في مؤلفنا هذا.

شبه الوطن تشبيهات عديدة؛ مثل: الوطن زَرْعٌ؛ الوطن أوراق خريف؛ الوطن مُنْخُلُ مَاءٍ؛ الوطن دُكَّانٌ؛ الوطن شَهَقَةٌ تَنْفُسُ؛ تدل هذه الاستعارات على أن الوطن صار مستباحاً للناهبين الذين هم مثل الجراد، وأن الوطن تُنْسِلُ أطرافه، وتقطع أراضيه وتَسَاقِطُ أوراقه، مثل سقوط أوراق الشجر في الخريف، وأنه مثل غربال الماء لا يبقى فيه أي شيء، وأنه مثل دكان البيع والشراء المملوك لصاحبه يتصرف فيه كيفما يشاء، فيغلقه متى أراد، ويفتحه أيّان أحب، صار الوطن، إذن، ملكاً لِلنَّاهِبِينَ، أو المَفْرُطِينَ، أو العابثين، أو المتاجرين فيه، أو المستهينين به.

تحتل الاستعارات المتعلقة بالماء، والسيل، والنهر، مكاناً فسيحاً في هذه القصيدة؛ فمنذ المقطوعة الأولى يجد القارئ كلاماً عن القوافل السوداء التي هي تحت الماء، وعن سلاله الأمواج، وعن بُخَيْرَةِ الجسد، وعن مَجِيءِ السَّيْلِ؛ ومن التشبيهات/الاستعارات:

- النهر جِصَانٌ

- النَّهْرُ طُوفَانٌ

- الطوفان يَوْمُ الْقِيَامَةِ

على أن الماء ارتبط بِالْعَارِضِ الْمُمْطِرِ الذي فيه عذاب أليم، ورعد، وبرق، وسيول جارفة؛ إن العارض يُرْسَلُ على الذين خالفوا سنن الكون، ومن أكثر مخالفة

(33) ينظر في هذا Timbre (Musique) الشبكات العنكبوتية، والموسوعات الموسيقية؛ فهي تتعرض لمقاييسه، وتطوره عبر العصور.

للسَّن من هؤلاء الذين ما فرطوا في التقاعس على الدفاع عن الوطن من شيء!

مزجت القصيدة الاستعارات/التشبيهات الواقعية بما هي ذات نزعات وجودية؛ فإلى جانب الحديث عن الدمار، والخراب، والهلاك، الكلام عن رغبات الجسد في المُتعة، وفي الاستيهامات المنعشة:

- الأرض امرأة

- وجه الأرض

- اشتعال النهدين

- قمر الحبيبة

- المرأة رُمّانة

- التَّهْدُ طِفْلَةٌ

ليست هذه الاستعارات/التشبيهات إلا مُجَرَّد أمثلة من متن مجازي كثير يتناول كل جسد المرأة (الوجه، والصدر، والشديان، والعينان، والفخذان، والخصر، ومكان اللقاح، وتحقيق اللقاح، والحمل، والإنجاب...)، فإلى استعارات، وتشبيهات أخرى، جَرَبَت العادة أن تقال في جسد المرأة؛ وعليه، فإنَّ حضور الجسد بصفة عامة، وجسد المرأة بصفة خاصة لَدُو أهمية بالغة؛ إذ بغياب الجسد يغيب كل شيء؛ لهذا يعثر القارئ على هذه المفردة تتردّد في كثير من المقاطع، ولا سيّما أن كل الكائنات تَجَسَّدَتْ: السيل يجيء، والأمواج تغضب، والضفاف تسبح، والقمر ينزل إلى الأرض، ويطوف فيها، والنجم يسجد، والماء بصوت، والحجر يتكلم...؛ كل ما في الكون ذَكَرٌ، وأنثى، لأن الزوج أساس الوجود، وعلة كَوْنِ الحياة، واستمرارها.

3 - استراتيجية التهويل

يبد أن ما يهيمن على القصيدة هو مناخ الكارثة العظمى، وما أدت إليه من نتائج وخيمة؛ لكن (المُضَيِّع أَوْلَى بالخسار)⁽³⁴⁾؛ فقد خِيَضَتْ حربٌ بدون

(34) هذا مثل مَعْرُوف.

الاستعداد إليها، وحُولفت السنن الكونية لبناء الأوطان، والنهوض بها، وترقيتها، واستُكِنَ إلى الأساطير، وإلى التاريخ المفترى عليه، وَعُمِّمَ الْبَغْيُ، والجبروت:

لَأَنَّ الْعَالَمَ اغْتِصَابٌ
وَأَرْضُنَا ضَجِيَّةٌ

وتجليات الكارثة في السيول، والطوفان، وتفشي الموتان بالقتل.. فصار الناظر لا يرى إلا الرؤوس، وغابات القبور، وأنهار الأشلاء، وموت مهيار:

مَاتَ

لِكَيْ يُنْهِيَ عَهْدَ الْمَوْتِ

كان يُخَفَّفُ من جَوِّ الجنائز، والجثث، وموسيقى الموت، أَنَّاسَ حُكَمَاءَ: الشيخ الذي كان يسمي الأشياء بأسمائها، ويضع الأمور في مجاريها، وَيُؤْمِنُ بأن التاريخ لا يسير مستقيماً، وأن الهزيمة ليست قدراً مقدوراً، وإنما هي، أو النصر، من عمل البشر؛ كان الراعي يمثل الفطرة البشرية الأولى بنقائنها، وكَدَرِها، فينطق بجوامع الكلم؛ كان الرأس المدبر هو الذي يقترح الحلول، ويزرع الأمل في النفوس؛ كان الصوت النابع من الماء هو الذي يُنْبِئُ، وَيُنْبِئُ.

الشيخ، والراعي، والرأس، والصوت، تجليات لشخصية الشاعر المتعددة؛ هو شيخ القبيلة، وهو رَاعِيهَا المغني لها، وهو رأسها المدبرة، وهو صوتها الناطق باسمها:

- الشيخ:

وَفِي الْهَوَاءِ مَاءٌ

يَغْتَسِلُ وَجْهَ الزَّمَنِ الْمُدَمَّى

يَجْرِفُ

أَوْ يُبْدِعُ مَا يَشَاءُ.

- الراعي :

ابْتَعِدُوا،

تَحَرَّكُوا،

فَالسَّيْلُ

- الرأس :

باسمِ كَوْكَبِ

سَمِيئَةِ الْإِنْسَانِ

.....

لِي وَطَنُ

لَا يَغْرِفُ التُّخُومَ، لَا تَحْدُهُ الشُّطَّانُ

تَحْدُهُ عَلَامَتَانِ - الشَّمْسُ وَالْإِنْسَانُ

- الصّوت :

سَوْفَ يَجِيءُ السَّيْلُ

قَبْلَ حُلُولِ اللَّيْلِ...

شخصيات أربع تعكس جوانب من شخصية واحدة؛ لذلك، فإن أقوالها تتداخل وتتكامل، مِمَّا يَجْعَلُهَا تنظر إلى المشكلة من جميع جوانبها، كَمَا تَقْتَضِي ذلك تقاليد الحوار، والمناظرة؛ لهذا، فإن كلامها يكون متصل الحلقات، بحيث كل حلقة تسلم إلى أختها، مِمَّا يجعله منسّقاً، ومُنْسَجِماً، ومُنْتَظِماً؛ على أن ما يضمن هذه الخواص هو أعمق مما اهتم به اللسانيون، ومحللو الخطاب؛ إنه طبيعة الوجود من حيث هو وجود، وطبيعة الإنسان من حيث هو إنسان، وطبيعة اللغة من حيث هي لغة.

4 - المربع الذهبي

انشغل الناس، منذ القديم، بالبحث عن سر انتظام الكون، وتناغمه

العجيب، فأفاضوا القول في ذلك، كما سجلت ذلك الكتب الدينية، والفلسفية، والروايات المتنوعة؛ على أن ما سنركز عليه هو ما يتعلق بالربط بين الموجودات، وهو العناصر الأربعة؛ يعتقد هذا التقليد الثقافي أن العناصر الأربعة هي ما نشأ عنه الكون؛ وهي النار، والهواء، والماء، والتراب؛

يلفت الانتباه الحضور القوي لعنصر الماء في كثير من المفردات، والتراكيب: الغمام، والرعد، والبرق، والسيل، والنهر، والبحر، والأمواج، والبَحْيرة، والجَزيرة، والمرفأ، والجدول.. وعنصر النار في الحرارة، والجمر، والشرر، والمِزْجَل، والبُرْكان... وعنصر الأرض في التراب، والرمل... وعنصر الهواء وما رادفه؛ وقد ركز عليه في آخر المقطوعة:

- يُعَلِّقُ الْهَوَاءُ

- أَضْغُوا إِلَى الْهَوَاءِ، فِي الْهَوَاءِ مَا يَقُولُ فِيهِ زَعَبٌ

وَحُمَى

وفي الْهَوَاءِ مَاءٌ.

تلك هي العناصر التي تكون منها كل ما في الوجود، مفردة، أو مجتمعة، إذ هناك كائنات نارية خالصة، وترابية «محض»، وكائنات هي مزيج بينهما بالاستحالة؛ هذه الاستحالة التي تضمن الاتصال، والانفصال في آن واحد. لم يحصل، ولا، ولن... شيء بدونها؛ إلا أن الوضع الكارثي أفسد طبيعة الكون، فافتقد بعضها، أو كلها، والصلات بينها:

وَرَأَيْتُ الْعَنَاصِرَ تَبْكِي وَتَفْتَحُ جُرْحَ الْأُخُوَّةِ

بَيْنَنَا، وَعَرَفْتُ الْإِشَارَةَ.

أفرط الشاعر، إذن، في استعمال العناصر للإشارة إلى هذا المعنى العميق؛ وهو استعمال تجاوز بها مجرد نماذج عليا في كل تعبير لغوي إلى الترميز بها إلى الكارثة.

هكذا، كانت العناصر الأربعة جوهر نشأة الكون؛ إنها هي، وما تولد

منها، أنشأت النص الشعري بتداخلاتها وتسلسلها. النص شبكة من كائنات روحانية، وفلكية، وإنسانية، وحيوانية، ونباتية، وحجرية؛ كل كائن منها تسري فيه الروح: الملك فيه روح، والفلك فيه روح، والشجر فيه روح، والحجر فيه روح؛ الملائكة والأفلاك تُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهَا، والنجم، والشجر، يسجدان، والأحجار، والحصى، تُقَدِّسُ؛ تَتَسَلَّلُ هذه الكائنات في ترتيب عجيب من الأعلى إلى الأسفل، أو من الأسفل إلى الأعلى، مع وجود مجمع العالمين: مجمع الحجر مع الشجر، ومجمع الشجر مع الحيوان، ومجمع الحيوان مع الإنسان، ومجمع الإنسان مع الأفلاك، والكواكب، ومجمع الأفلاك، والكواكب مع الأرواح، ومجمع الأرواح مع الألوهية؛ هذا في حالة الصعود، وعكسه في وضع النزول.

على أن هذا التصور يجعل الإنسان قطب الرchy في الوجود، ويحله مكانة سامية تصل به أحياناً إلى الملكية؛ لهذا، فإنه حمل في التبر، والبخر، ورزق من الطيبات، وفضل على كثير من الخلق تفضيلاً؛ وهو له ضروريات، وحاجيات، وتحسينيات؛ من الضروريات الأكل، والمشرب، واللذة...؛ ومن الحاجيات الاجتماع، وتنظيمه، والتدين، وشعائره...؛ ومن التحسينات التأنق في كل ذلك؛ إلا أن كل هذا هو من النماذج العليا التي لدى كل إنسان في أي زمان، ومكان؛ لذلك، فإن ما يمنح لها من وظائف، ورموز، هو ما يجعل نصاً يختلف عن نص آخر.

في ظل هذا التصور التسلسلي الإحيائي، يصير تشبيه كل شيء بكل شيء سائغاً ومقبولاً؛ هكذا تجوز الاستعارات/ التشبيهات الآتية:

- الحرب زربية

- الحرب حقيبة

- الحرب وسادة

ذلك أن (زربية): هي حظيرة الأنعام من إبل، وبقر، وشاء، ومغزى؛ ومعانيها الثانية؛ هي «البداءة، والتجبر، والتسلط، وشهوة التملك؛ (حقيبة): العجيزة، وما يدخر فيه؛ ومعانيها الثانية: شهوة الجماع، والاحتكار؛ (وسادة): ما يتوسد به؛ ومعانيها الثانية: البلادة، والمعاشرة الزوجية...؛ ما

يجمع بينهما جميعاً هي البداوة، والتجبر، والشهوات، والبلادة، والاستهتار.

● قَوَافِلُ سوداء تحت المَاءِ.

● قَوَافِلُ مجهولة فوق الأرضِ.

يقابل الشاعر هنا بين البداوة، والحضارة، وبين التخلف، والتقدم؛ (قوافل) تعني مجموعة من الناس مع خيلهم، وجمالهم، وحميرهم.. قافلين إلى وطنهم من الغزو، أو من السفر: قوافل الجهاد، أو قوافل التجارة؛ إن هذه القوافل تجلب بعض الرؤوس.. أو بهارات الهند، وتوابلها؛ و(قوافل) مجموعة سفن فوق الماء، أو تحته تقتل، وتجز الرؤوس، ماخرة عباب أمواج البحر، بدلاً من الفياقي والقفر؛ وشتان بين القافلة الأولى و«القافلة» الثانية التي انتصرت، وَهَيَمَتْ فَصار كل فضاء مجالاً لها !.

● نهر التَّوْر

● أمواج الجَمْرِ

● أرض النَّار

أصل هذه الاستعارات نظرية تناسب الحدود الأربعة؛ أي المقايسة، أو التمثيل، المعدود قسماً ثالثاً من الاستعارة في كتاب فن الشعر لأرسطو⁽³⁵⁾؛

وهي:	(أ)	(ب)	(ج)	(د)
	الأمواج	النَّهْرُ	الجَمْرُ	التَّوْرُ

وهذه الحدود يَنَالُهَا القلب، والإبدال، والعكس، وقلب العكس، وإبدال العكس، وعَكْسُ الإبدال⁽³⁶⁾؛ على أننا نكتفي هنا بالتناسب الآتي:

نسبة	(أ)	إلى (ج)	(كنسبة (ب)	إلى (د)
	الأمواج	الجمر	النهر	التور

(35) هي لب الفكر في كل العصور.

(36) يراجع فصل (المبادئ التنظيمية) من الجزء الأول (مبادئ ومسارات).

أي: أمّواج الجمر/ جمر الأمواج؛ ونهر التنور/ تنور النّهر

• الأرض وجه امرأة

• القمر وجه الحبيبة

• النهر حصان

• الدنيا سرج

هذه تشبيهات/ استعارات مقبولة من الجميع، لكن قد يثور استغراب بعض القراء حينما تقول له:

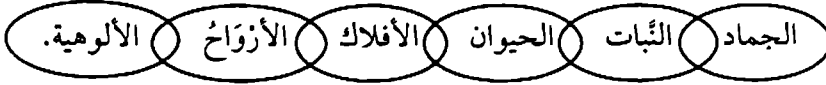
• الأرض حصان

• القمر سرج

• سرج الأرض

• وجه الدنيا...

إلا ن استغرابه يندثرُ بمجرد ما يتذكر مبدأ الاتصال المتسلسل:



وإذا سلم القارئ بهذا المبدأ، فإنه واجد، لا محالة، أن كل ما في الكون يشبه بعض بعضاً بجهة من الجهات؛ لهذا يمكن أن يقال في الفتاة الحسنة: وجه ملك، وفي سيارة الإسعاف: سيّارة جبريل.

وإذا ألمحنا، قبل، إلى أن الكون ينقسم إلى مجموعات: الكائنات الروحانية، والكائنات الفلكية، والكائنات التي تحت القمر، فإنه يلزم عن هذا التصور أن التشبيه/ الاستعارة داخل المجموعة الواحدة، والمجموعات المتجاورة يكون مقبولاً لا يشير كبير استغراب، وكلما ابتعدت المجموعات عن بعضها بعض، فإن التشبيه/ الاستعارة يُخَدِثُ الاستغراب؛ وهكذا، فإنه كلما كان التشبيه/ الاستعارة بين عنصريين في غاية البعد، فإنه يشير اعتراضات لخرقه الأعراف والتقاليد اللغوية، والدينية...؛ مزيداً من الإيضاح، نقدم إلى القارئ الخطاطة الآتية:

الكائنات الروحانية		الكائنات الفلكية		المكونات الحية		المكونات الجامدة	
غاية البعد:						غاية البعد:	
(إِسْرَافِيل)						(الْجَبَل)	
بعيد:				(جميلات النساء)		بعيد:	
(الملائكة)						(الصخور)	
		(الكواكب)					
قريب:		(الزُّهْرَة)		(شخص ثَقِيلُ الظِّل)		قريب:	
(الْمَلَك)						(جلمود)	
غاية القرب:						غاية القرب:	
(إِسْرَافِيل) (جبريل)		(الشمس) (القمر)		(غُصْنُ بَابٍ) (فَتَاة) (الْحَجَرُ) (الْحَصَى)			

فرض هذا التدرج نفسه بالأعراف، والتقاليد، وكثرة الاستعمال؛ وحينما يكثر تداول ما يوجد في الشعر المعاصر من تراكيب تظهر غريبة الآن، فإنها تصير مألوفة، لأن مضمون اللغة نموذج أعلى، ما دام يعبر عن الأفعال، والأحوال، والأوضاع البشرية نفسها، مهما اختلف الزمان والمكان. يظهر هذا في المفردات التي فرضت نفسها، فصارت رموزاً؛ تلك هي المشتركات البشرية، مثل الليل، والنهار، والشمس، والقمر، والبر، والبحر؛ وتلك هي المأثورات الثقافية، مثل السيل، والطوفان، والزوابع، ومثل الضروريات، والحاجيات، كالأكل، والشرب، والجماع، والتدين، واللغة، والأنعام.

V — يوم القيامة

قصيدة (الرأس والنهر) من ديوان «المسرح والمَراثي»، وهو ديوان كتب في مناخ الكارثة الحقيقية، والمثاقفية التي بدأت تَتَشَكَّلُ منذ المنتصف الثاني من القرن العشرين.

1 - الكارثة الحقيقية

يشتمل الديوان على قصائد حررت بين (1965 - 1967)؛ وهو ديوان يرهص بالكارثة، ثم يتحدث عنها بعد وقوعها؛ ورموز الكارثة في التاريخ العربي الإسلامي الحجاج، وتيمورلنك وآخرون يعلمهم الناس، ولا يستطيعون أن يتكلموا عنهم؛ تُجيدُ هذه الرموز صناعة القتل، والتفنن فيها، مما جعلهم يقدمون صورة مشوهة منعكسة في مرايا مكسرة لحضارة العرب، والمسلمين، وتاريخهم.

والتَّوَارِيخُ مَرَايَا

وَالْحَضَارَاتُ مَرَايَا

تَتَكَسَّرُ

كما أنه يصورها في مسرحية منكسرة مأساوية تتحدث عن نهاية للعالم وشبكة الوقوع في العالم، وقد حدثت في العالم العربي؛ ويقوم بأدوارها أشخاصٌ مُعَيَّنُونَ متنوعو الخلفيات، والتجارب؛ وبناء على هذا، فإننا مطالبون بالإشارة إلى بعض الصلات بين (الرأس والنهر)، وبين جميع قصائد الديوان، وبينه، وبين مناخ المنتصف الثاني من القرن العشرين؛ هناك حديث عن (جنازة امرأة)، و(الزمان المكسور)، و(امرأة ورجل)، و(تيمور ومهيار)، و(مرأة لأروفيوس) و(مرأة الطواف)... ومرايا أخرى؛ كل موضوع في القصيدة لها ما يشابهها في قصائد أخرى:

● موضوع المرايا

● موضوع الماء

● موضوع الذكر والأنثى

● موضوع الزمان

● موضوع الطاغوت والجبروت.

2 - فنية ما بعد الحداثة

يَنتمي شكل قصائد الديوان، ومضامينها، ودلالاتها إلى تيارات ما بعد الحداثة، في جوانبها المتعددة الفكرية، والفنية الموسيقية، والشعرية،

والتشكيلية، والمسرحية. وقد أُبْنِئاً في عمل سابق أن تيار ما بعد الحداثة تتحكم فيه ثلاثة مفاهيم أساسية؛ هي منظور عبثية العالم، ومنظور نهاية العالم، ومنظور اختلاف العالم⁽³⁷⁾؛ على أننا لا نعني بها العدمية المطلقة، لكنها انتقاد للحروب، وللتعصب العرقي، وللتعقيد الفني، وللتوحش الاقتصادي...؛ ودعوة إلى الوحدة الإنسانية، والبساطة في الموسيقى، وفي الشعر، وفي التشكيل، وفي المسرح؛ وقد سادت الأصوات الطبيعية في بعض الموسيقى، والشذرات الشعرية، والاهتمام بالأشياء اليومية وقلة الألوان في التشكيل، والتقدير في أثاث المنازل...؛ وقد أطلق على هذا التيار اسم التقليلية⁽³⁸⁾. على أنه يكون من الاختزال المخمل بقواعد البحث العلمي إذا لم نشر إلى التيار التعقيدي الذي تجلى في التشكيل، وفي الموسيقى، وفي الشعر، حيث تجاوز أصحابه الثنائيات، والمنطق الهجلي، والتراتبية، إلى منطق الدرجات، والمتداخل، والمُتَكَافِئ.

ما يهمنا نحن هو أن ديوان «المسرح والمرايا»⁽³⁹⁾ جمع بين كل ما تقدم؛ هناك الشذرات في (أربع أغنيات لتيমور): (مرآة للشرع)، و(الغزو)، و(هم)، و(الليل)... و(مرآة لفارس الرفض)، و(مرآة الغيوم)، و(مرآة لمعاوية)... و(صنّين)... و(الشهيد) و(وجه البحر)، و(الموت)، و(حوار)، و(الدم النافر)...؛ وهناك فقرات بين الشذرة والقصيدة، مثل (أغنية للرجل)، و(أغنية للمرأة)، و(المجوس) و(وجه امرأة)، و(الطريق...): وهناك قصائد، مثل (جنازة امرأة)، و(كلمات)، و(لون الماء)، و(مرآة للوقت)، و(حزمة القصب)، و(تيمور ومهيار)... و(مرآة لزيد بن علي)... و(مرآة التاريخ)، و(الرأس والنهر)، و(السماء الثامنة). وقد حللنا الشذرات في سياقها، وفي حجمها، وفي كيفها، واقترحنا مفاهيم كل ذلك، وفككنا قصيدة (الرأس والنهر)؛ وقد حان الوقت لتجميع ما تقدم في بنية شاملة.

(37) محمد مفتاح، مشكاة المفاهيم، وخصوصاً المدخل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، 2000.

(38) تقدمت الإشارة إلى هذا التيار عدة مرات، انظر فصل (الانفراد والاجتماع).

(39) مفتاح محمد، المرجع المذكور، فصل (الخيال المتشظي).

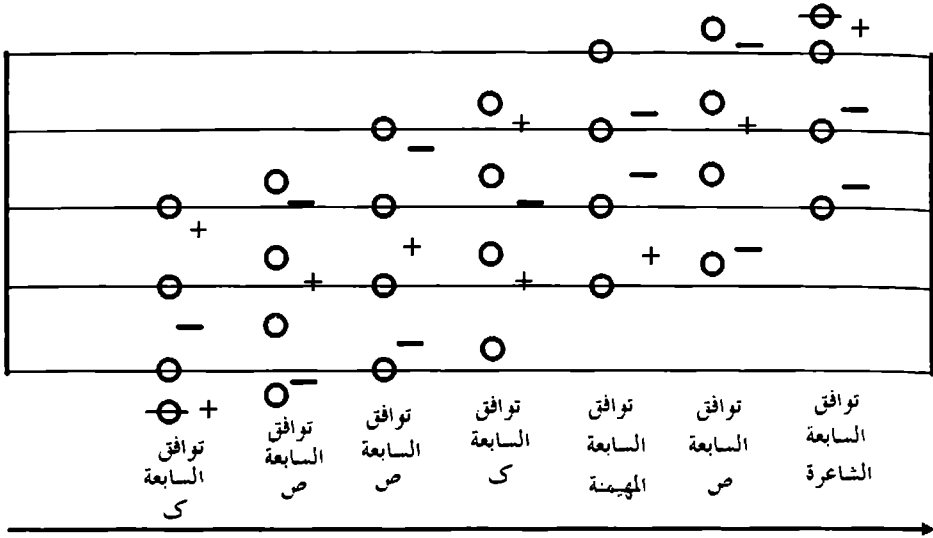
VI — البنية الشاملة

يجمع هذا الديوان بين فنون متعددة؛ وإذا الأمر كذلك، فإننا نَعَرِّضُنا للعلاقات الظاهرة، والخفية بين مختلف كل الفنون، وخصوصاً الموسيقى، والمسرح، والشعر، والتشكيل؛ على أننا أعزنا أكبر الاهتمام إلى الخلفية الموسيقية للشعر؛ وتبيناً لهذه الأطروحة استوحينا من النظرية التوافقية لقياس هذه القصيدة على التأليف السمفوني؛ وقد عَازَرْنَا في هذا الاتجاه لوجود جوامع كثيرة بينهما، مثل كيفية التأليف، والإيقاع، والتناص، والدلالة؛ وإذا إن التحليل اللساني السيميائي يتناول هذه القضايا، فإنه يعتمد على الحدس بكيفية أساسية؛ ورغبة في الدقة، فإننا استندنا إلى الموسيقى المؤسسة على الرياضيات، والمنطق؛ على أننا أخذنا في حسابنا الخصوصيات التعبيرية للغة المتعلقة بكل ما في الكون، وفي المجتمع، وفي الذات، بكيفية أوضح مما هي موجودة في الخطاب الموسيقي، كما أعزنا الاهتمام إلى نوع القناة الموصلة، ودور الفضاء.

توضيحاً لكل هذا، فإننا سنقدم إلى القارئ بنية شاملة تجمع بين البنيتين العميقة، والسطحية، مؤسسة على خلفية موسيقية، ودعامة سيميائية، معلقين عليها حتى يتبين للقارئ المنهاجية المركبة من المنهجية الأحادية من البحث في التحليل الشعري.

وها هي :

النواقة	الأولانية	الثانانية	الثالثانية	الرابعانية	الخامسانية	السادسانية
الروحانيات	الإرهاصات	الحرب	الكارثة	الموسيقى	الفضاء	الدلالة
(Si) 4	(do) 1 . 4	(Ré) 2 . 4	(Mi) 3 . 4	(Fa) 4 . 4	(Sol) 5 . 4	(La) 6 . 4
الكواكب والأفلاك	التصرفات	الطوفان	الطاغوت	التشكيل	القناة	التأويل
(Sol) 3	(La) 1 . 3	(Si) 2 . 3	(Do) 3 . 3	(Ré) 4 . 3	(Mi) 5 . 3	(Fa) 6 . 3
المكونات	المهيات	السيّل	اللائخطيط	المسرح	المسموع	التوليف
(Mi) 2	(Fa) 1 . 2	(Sol) 2 . 2	(La) 3 . 2	(Si) 4 . 2	(do) 5 . 2	(Ré) 6 . 2
العناصر	الحيط	المصائب	الإهمال	النفقة	المكتوب	العلامة
(do) 1	(Ré) 1 . 1	(Mi) 2 . 1	(Fa) 3 . 1	(Sol) 4 . 1	(La) 5 . 1	(Si) 6 . 1



يوضح هذا المخطط أن ما يحكم البنية هو القلب المكاني؛ إذ كل نغمة (موضوعة) تكون في الأول، وفي الوسط، وفي الأخير؛ مثل:

العناصر	-	الإرهاصات	-	الطاغوت	-	المسموع
(do)		(do)		(do)		(do)
في البداية		في النهاية		في الوسط		في الوسط
وإن شئنا أن نرتب من الأسفل إلى الأعلى، فإن الوضع يصير كما يلي:						
العناصر	-	المسموع	-	الطاغوت	-	الإرهاصات.
- تتكرر بعض مكونات التوافق:						

المكونات	-	الكواكب والأفلاك	-	الروحانيات...
(Mi)		(Sol)		(Si)
المصائب	-	السيل	-	الطوفان...
(Mi)		(Sol)		(Si)
الكارثة	-	اللغة	-	المسرح...
(Mi)		(Sol)		(Si)
القناة	-	الفضاء	-	العلامة...
(Mi)		(Sol)		(Si)

أن هذه العمليات هي ما يسميه تحليل الخطاب، والنص، والسميائيات، بنمو النص؛ وقد وضعت مفاهيم لوصفها، ومقاربة النص في صَوْنِهَا؛ على أننا صرنا معتقدين أن علم الموسيقى يقدم الآلة الفعالة للتقدم في هذا الميدان؛ تلك الآلة هي الرياضيات، والمنطق؛ إذ هي تضبط الخواص، والطبيعة، والموقع؛ نعم، إن النص الأدبي بصفة عامة، والشعري بصفة خاصة، لا يحذو حذو السمفونية «خذو القُدَّةَ بِالْقُدَّةِ»؛ لكن على محلل الخطاب، والسميائي، أن يستفيد من علم الموسيقى، توليفاً، وتحليلاً، حتى يتسنى له معالجة النصوص بنظرية علمية راقية.

أن البنية المقترحة المستوحاة من علم الموسيقى، والسميائيات، راعت التاريخ من حيث النشأة، والتطور، والمجتمع من حيث المضمون، والغاية، والتقاليد الجمالية من حيث الشكل الموسيقي، والشعري، في آن واحد.

خاتمة

حاولنا في هذا الفصل أن نحلل ديوان «المسرح والمرآيا» من وجهة نظر خاصة تسعى إلى اقتراح منهجية تأليفية؛ وقد انتقينا عناصرها من علم الموسيقى، وخصوصاً النظرية التوافقية، فحاولنا استئثار بعض عناصرها في تحليل النص الشعري للتوغل في بعض مظاهره التي بقيت متأبية على المناهج المتداولة، وخصوصاً الإيقاع، وأنواع ترابط الخطاب، وكيفية؛ على أننا لم نكتف بهذا، لكننا اجتهدنا فوضعنا مفاهيم بسيطة، أو منحوتة لسد ثغرات ما يعجز عن معالجته علم الموسيقى، لمنح دلالات للنص لكي يكون ذا غاية، وجعلنا من نظرية الاتصال هادينا، ومُرْشِدِينَا: اتصال الديوان بالنماذج العليا، وبمناخ منتصف القرن العشرين الثاني الذي عرف تطورات، وثورات، في مختلف الميادين، وبجَوِّ الأوضاع السياسية المأزومة.

وعليه، فإن ما فعلناه ليس للمنهجية فحسب، لكننا سعينا إلى إبراز إسهام النص الشعري في التعبير عن الواقع، ومحاولة تغييره بطريقة فنية.

الفصل الثاني

الْحِجَارَةُ وَالْقِيثَارَةُ

تمهيد

تناولنا قصيدة (الأرض) لمحمود درويش في عدة فصول من (نسق الدلالات)، فأبنا تركيبها، وشبكاتها الدلالية، واستعاراتها المتنوعة؛ وهي تتحدث عن الانتفاضة، وأطفال الحجارة، والأرض، والعرض، والأمل في مستقبل أفضل. وها نحن الآن نسعى إلى تحليل قصيدة (أحد عشر كوكباً على آخر المشهد الأندلسي)، لِنَجْمَعَ فيه بين الكلام عن الحجارة، والقيثارة، والرغبة في الاستشهاد، ومحبة الحياة، والخيانة، والوفاء؛ وإذ كانت الحياة الواقعية، والصراع اليومي العنيف، وتدافع الخير، والشر، سادت في القصيدة الأولى، فإن الرمز بسط هيمنته في الثانية لاستخلاص العبر من الحكايات، والتاريخ، مثل قصة يوسف، وتاريخ العرب، والمسلمين، في الأندلس.

وإذ الشاعر قدم مواده بكيفية فنية، فإننا ملزمون بإبرازها، وبتبيان ما تحتوي عليه، للجمع بين اللذة، والمعرفة؛ لهذا، فإننا سَنَقْرُبُ معنى القصيدة للقارئ في أسلوبٍ نثري عادي في مرحلة أولى، ثم نكشف عن بنائها اللغوي في فترة ثانية، ثم نبحت عن كيفية توليفها الموسيقي في حقبة ثالثة، ثم نُدْمِجُ بين البُنْيَتَيْنِ اللغوية، والموسيقية في طور رابع، ثم نعمد إلى تأويل لاستخلاص الدلالات، والرموز، في وضع خامس.

1 - التقريب

سنختار من المجموع (أحد عشر كوكباً على آخر المشهد الأندلسي) عينات

لتحليلها؛ وهو يتكون من سبع عشرة قصيدة؛ وقارئ عناوينها يخرج بالخلاصات الآتية؛ أهمها أنها تتكلم عن الحلم، والنهاية، والعمل، والتسكع، والحيرة، والموسيقى، والحب، والغربة.

أ - يصور الشاعر (في السماء الأخير على هذه الأرض) وضعين: وضع العرب في الأندلس، وَوَضَعِيْهِمْ فِيْ فَلَسْطِيْن. ذلك أن العرب، والمسلمين قضوا قروناً طويلة في الأندلس، فحاربوا، وجاهدوا، فمات كثير منهم فيها، إلى أن انهزموا فَفَرَّ من نجا منهم لا يلوي على شيء؛ وعاش الفلسطينيون قروناً في أرضهم، ثم انتزعت منهم بالسلاح الذي قتل كثيراً منهم، وشرد آخرين في الآفاق. هذه هي المقايسة⁽¹⁾ الأولى:

(أ) (ب) (ج) (د)
- العرب والمسلمون : أرض الأندلس :: الفلسطينيون : أرض فلسطين

- المسيحيون : الأندلس :: اليهود : أرض الميعاد

إنها مقايسة شبيهة بالعلمية ذات المقدمات المنطقية:

«زَمَانٌ قَدِيمٌ يُسَلِّمُ هَذَا الزَّمَانَ الْجَدِيدَ مَفَاتِيحَ أَبْوَابِهَا

فَاذْخُلُوا...».

سيظل المكان هو هو، لكن من يتغير هم الساكنة بأحلامهم، وأوهامهم؛ المكان، بطبعه، يستقبل كل من يأتي إليه صلحاً، أو عنوة، أو تخلياً؛ المكان العربي مباح، القَرَى العربي متاح، ومأدبته لِلْجَفَلَى، لَا لِلنَّقَرَى⁽²⁾؛ أكل، وشراب، ونوم، ومتع، وأحلام وردية، هنيئاً مريئاً؛ أهل المكان لم يبق لهم إلا

(1) المقايسة أو التمثيل: (Analogic. F) (Analogy. E)؛ وهي من أقسام الاستعارة عند أرسطو. وهي مؤسسة على التناسب الرياضي: نسبة كذا إلى كذا كنسبة كذا إلى كذا؛ ولها خواص وأعراض.

(2) الْجَفَلَى: الدعوة العامة؛ والنَّقَرَى: الدعوة الخاصة مِنْ نَقَرْتُ بِالرُّجُلِ وانتَفَرْتُ بِهِ: دعوته من بين القَوْمِ.

أحداث تاريخية تقرأ، أو تُحكى، تَرْجِيَّةٌ للوقت، وتعويضاً مَوْهُوماً، أو تأليف قصائد عصماء، أو خطب بَنَزَاء، تَتَخَذُ عن أوضاع، وأحوال مُتَخَيَّلَةٍ. إن تاريخ الأندلس نموذج أمثل لظاهرة التفريط العربي بحسب وجهة نظر الشاعر.

ب - (كيف أكتب فوق السَّحَاب). كان وصف ابن خلدون صادقاً وصائباً في وصف الأعراب المذكورين في القرآن الكريم؛ فهؤلاء هم الذين يستبدلون بالقلع الخيم، ويجعلون الحجر المشيدة به القصور مناصب للقصور؛ إنه لم يقصد العرب الذين هو واحد من حفدهم، والذين ابتدعوا غرناطة تزويقاً، وتميقاً، واغنوا الموسيقى نوبات، وصنائع، وزوَّفوا الثياب تطريزاً، وَرَزَّكَشَةً؛ غرناطة هي كينونة الجسد قلباً، وروحاً، ومخيالاً، وعقلاً؛ غرناطة في الهواء، وفي الماء، وفي التراب، وفي النار؛ إنها الاستقصَّات⁽³⁾ التي صنع منها الوجود؛ غرناطة أيقونة على قدرة الإنسان العربي الإسلامي على الابتداع، والاختراع، وملهمة الشعراء، والرسامين، والموسيقيين، والفلاسفة، والمتصوفة؛ إنها مستودع الحضارة الإنسانية في كل مظاهرها.

ج - (لِي خَلْفَ السَّمَاءِ سَمًا)

الشاعر مثل آدم، لكن له جنتين اثنتين: جنة الأندلس، وجنة فلسطين، وقد افتقدهما معاً؛ على أن ما لم يفقده، وبقي شامخاً أَيْباً هو آثار المساجد، والمآذن...؛ أخرج آدم من الْجَنَّة بدون عودة، وأهبط الشاعر من وطنه إلى أمكنة أخرى، بدون أمل الرجوع؛ وإذا كان التاريخ لا يعيد نفسه، فإن في أحداثه ما يحث على التأمل، والتفكير، والتدبر؛ وإذا كان العرب والمسلمون أخرجوا من ديارهم في الأندلس، تاركين خلفهم حضارة تُضْرَبُ بها الأمثال، فكيف يَبْئَس الإنسان الفلسطيني من قدرته على طرد الطاغوت الذي سلبه حقه في أرضه، وفي العيشة الكريمة؟ إن دروس التاريخ وعبره تحول دون اليأس، وكذلك سنن الكون. ﴿فَلَا يَبْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾⁽⁴⁾.

د - (أنا واحد من ملوك النهاية)

على أن الوضع العربي يجعل من هذا الأمل سحابة ضيف إذا لم يُعِدَّ العربُ

(3) الاستقصَّات: العناصر.

(4) اقتباس من القرآن الكريم.

ما استطاعوا من قوة، ومن رباط الخير؛ ودروس التاريخ خير معلم؛ فقد انتصرت قشتالة، واستبدلت بالمساجد الكنائس، وفرضت المسيح على من بقي تحت إمرتها من المسلمين، واليهود؛ وها هم المغتصبون يفرضون شرعيتهم، وعقائدهم، في فلسطين؛ إنها آهة أخيرة من الشاعر الذي ضاقت عليه الأرض بما رحبت، فصار لا يطيق تذكر أي شيء من ماض سلف، ولا يهنأ بعيش في الحاضر، ولا أمل له في مستقبل أفضل؛ إنه العماء، والسديم، حيث تختلط الأزمنة والأمكنة، وإنه الزلزال الذي جعل الكائنات، والمخلوقات تتشظى، وإنه يوم القيامة الذي يذهل فيه الناس ذكوراً، وإناثاً؛ إنها نهاية التاريخ.

هـ - (ذات يوم، سأجلس

فوق الرصيف)

نعم، إن التاريخ العربي مجيد عريق يجعل المرء مزهواً بنفسه، لما أُنجزَ من جليل الأعمال، ولما بقي من آثار خالدة؛ وهذا التاريخ ما زال مستمراً في الحاضر الذي يشهد أن أولئك الفاتحين تركوا آثاراً لن تُمحى، على الرغم من الإصرار على إزالة مُخَلَّفَاتِها، وبَقَايَاها؛ فقد استعصت على كل مخرب أثيم؛ إن العرب مزجوا بين أعظم الحضارات الإنسانية في بوتقة واحدة، واستخلصوا منها جواهر حليت بها عقود الحضارات الأخرى؛ وآيات ذلك ابن حزم الفقيه الظاهري، وابن رشد الحفيد، وابن سهل، وابن الخطيب...؛ على أن خَلَقَهُمْ لم يجعلوا تراثهم وسيلة لإنهاض، وإنما صَيَّرُوهُ أداةً استجداء على الرصيف، وتعلة إزجاء للوقت، وأضغاث أحلام.

و - (للحقيقة وجهان

والثلج أسود)

يُعود الشاعر إلى تركيز فكرة الزلزال، والذهول، واختلاط الأشياء، والأمور في المقطوعة السادسة؛ هكذا، قد تحول كل شيء إلى ضِدِّه: الزيف حقيقة، والأبيض أسود، والواقف قاعد؛ بل لا تضاد، ولا تناقض، لأنه ليس هناك زمان، ولا مكان، ولا حياة إنسانية، وإنما هو السديم، والعماء، والثَّيِّه الأكبر، ويوم العَاشِيَةِ، ويوم القارعة، وما أدراك ما الغاشية! وما أدراك ما القارعة! إنه فقدان الهوية المطلق، وقراءة «معاهدة اليأس» على رؤوس الأشهاد.

ز - (من أنا...)

بعد ليل الغريبة؟)

إن الموت لأرحم من حياة في مناخ الخوف الشامل من كل شيء، وفي كل وقت وحين، لا فرق بين واضحة النهار، وعممة الليل، ولا بين حاضر غامض، ومستقبل مهيب؛ إذلهم الليل، والنهار، بخسوف، وكسوف، فعمي المسار، وتَشَعَّبَت بنيات الطريق، فكان الخسران الكبير لكل طموح، وأمل؛ بل إنه الإلقاء في غيابات الجب الدائم، لفقدان التقاط بعض السيارة لما يجدونه في طريقهم.

ح - (كُنْ لِجِيَّتَارِي وَتَرَأْ)

أَيُّهَا الْمَاءُ)

انْقَلَبَ الزَّمَانُ وَذَهَبَ الْفَاتِحُونَ الْقَدَمَاءُ، وَأَتَى الْفَاتِحُونَ الْجُدُدُ؛ تَرَكَ الدَّاهِبُونَ أَسْمَاءَهُمْ مَنْقُوشَةً فِي الصَّخَرِ، وَفِي الْبَرِّ، وَفِي الْبَحْرِ: جَبَل طَارِق، وَجَزِيرَة طَرِيف، وَوَادِي آش...؛ لَكِن الْعَصْر الْجَدِيد لَا يَكْتَرِث بِالتَّارِيخِ، بَعْدَمَا ذَهَبَتْ رِيح مِصْرَ، وَالْمَغْرِبَ، وَالشَّامَ، وَالْعِرَاقَ، وَحَلَّتْ مَحَلَّهَا قُوَاتٌ أُخْرَى؛ وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ مِيَاهَ الْمَتَوَسِّطِ، وَالْمَحِيطِ، بَقِيَتْ مَخْلُودَةً لِمَآثِرِ الْعَرَبِ «الْبَائِدَةِ»، فِي أَلْحَانِهَا الْجَمِيلَةِ. ذَلِكَ أَنَّ آثَارَ الْبَرِّ قَدْ تَزَالُ، وَالْأَسْفَارُ قَدْ تَحْرَقُ... لَكِن الْمِيَاهُ لَا تُجْفَفُ؛ الْمَاءُ مَرَاةٌ غَيْرُ مُتَكْسِرَةٍ، وَشَاهِدٌ عَدْلٍ أَبَدِيٍّ. فَقَدْ كَانَ مِنْ «وَرَاءَ»، وَهِيَ هِيَ الْآنَ «قُدَّامَ»؛ كَانَ الْمَاءُ مُعْبَرًا لِلْجِهَادِ، وَهِيَ هِيَ الْآنَ سَبِيلٌ لِلْإِذْلَالِ، وَالْإِهْلَاكِ. الْمَاءُ وَتَرٍ فِي جِيَّتَارَةِ التَّارِيخِ الْأَزَلِيَّةِ.

ط - (فِي الرَّجِيلِ الْكَبِيرِ)

أَجِبْكَ أَكْثَرَ...)

رَحَلَ الْفَاتِحُونَ الْقَدَامَى زَرَاقَاتٍ، وَوُخْدَانًا، مَكْرَهَيْنِ مُزْعَمَيْنِ، وَلَكِن رَحِيلَهُمْ تَمَّ بِالْأَجْسَادِ لَا بِالْعُقُولِ، وَالْأَرْوَاحِ، إِذْ بَقِيَتْ فِي الْمَكَانِ الْأَوَّلِ حَيْثُ شَبَّتْ، مُتَعَلِّقَةً بِالْحَبِيبِ الْأَوَّلِ الَّذِي عَرَفَتْ؛ وَهَذِهِ سَنَةُ الْكُونِ الَّتِي تَجْعَلُ الْحَيَوَانَ الْأَلِيفَ مُتَعَلِّقًا بِمَسْقَطِ رَأْسِهِ، وَبِمَشْبِهِ، فَمَا بِالْكَ بِالْإِنْسَانِ الَّذِي وَهَبَهُ اللَّهُ قَلْبًا مُقَلِّبًا، وَوَعِيًّا يَقْظًا! وَذُكْرًا يَجْعَلُهُ يَعِيشُ الْحَدَثَ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ! الرَّحِيلُ الْعَظِيمُ،

إذن، هو فقد الروح، والقلب؛ وموتهما يجعل من الإنسان خشباً مُسَنَدُ، وأعْجَازَ
تُخَلِّ خَاوية، فاقدة لكل إحساس، وإدراك، وعلم، ومعرفة، وإنسانية. فليس
إذن، إلاّ المحبة الخالصة التي تحقق كمال الإنسان: محبة الأرض، ومحبة
العرض، ومحبة الهُوية.

ي - (لا أريد من الحب

غير البداية)

تتلخص أنواع المحبة تلك في محبة غرناطة، حيث كانت الحضارة العربية
الإسلامية، بل الحضارة الإنسانية؛ كل ما في غرناطة مُجِبُّ مشوق: الحمامة،
وطوقها، وهديلها، والورود، والأزهار، وحدائقها، والشجرة، وأغصانها،
وأفنانها، والخمرة الإلهية، ودنائها، والدنيوية وكؤوسها. . أَيْقُوْنَةُ عليها؛ إنها
المحبة السّامية البريئة، مثل محبة الأطفال، ومحبة المشتاقين إلى سُمُوّ الألوهية،
ومحبة الزوج لزوجته؛ تلك المحبة الخالصة التي تتم في جو عبق لذيد: الفُلُّ،
والحلم، والعسل، والبرتقال، والحليب، والبساتين، والأزهار. . . والتي هي
تائقة مشوقة إلى الأتم، والأكمل.

أ ي - (الكمنجات)

من محركات المحبة ومشوقاتها نغمات الكمان الحزينة التي تكون صادحة
مصورة لتاريخ مشرق أصبح في خبر كان، ولأرض نالها الهوان، بعدما استولت
عليها قوى البهتان، ومحقرة على بذل النفس، والنفيس لإنقاذها من براثن
الطغيان؛ تحرك أوتار الكمان أوتار القلوب؛ وألحانها ماءً مناسب، وشجرة لَيْلُك
برية، وفوضى قلوب جميلة، وأسراب طير حائمة؛ إنها لحن تشيع لجنازة
العرب الذين طردوا من الأندلس.

تلك معان أولية في نثر عادي لقصائد خلاصة مَصُوْعَة في موسيقى حزينة،
وفي لغة راقية. وقد فعلنا هذا التشويه المقصود حتى ندخل القارئ في مناخها
فيرتاح إلى العيش فيه لننقله إلى تشريح أدق؛ تلك المعاني التي يدركها كل من
له بعض الإلمام بتاريخ العرب بالأندلس؛ وبناء على هذا الإلمام، فإنه يقيس
الوضع الحاضر في فلسطين على مثيله الذي كان بالأندلس. لقد تهاون العرب،
فأخرجوا من ديارهم الأندلسية بغير حق؛ تلك الديار الشاهدة على قدرة الإنسان

العربي الإسلامي، واليهودي الذي كان يحيا حياة كريمة في دولة إسلامية صهرت كل الأجناس، والديانات، والحضارات، في بوتقة واحدة، فأبدعت، واخترعت.

إخراج العرب من الأندلس ليس بالحدث الهين، لكنه زلزل العالم الإسلامي، وحرم العالم الغربي من فاعلين حضاريين حقيقيين؛ وآية ذلك ما خلّفوه من آثار تُشدُّ إليها الركبان، وعلماء، وفلاسفة، ومتصوفة، ومؤرخين، وساسة هم، إلى الآن، زاد للقلوب، وللأذهان. وقد وفق الشاعر في التعبير عن هذه المعاني في شذرات/مقطوعات، بترتيب أحياناً، وفي تقديم، وتأخير تارات؛ هكذا بدأ بمقايضة بين وضعي الأندلس، وفلسطين، اللتين غادرهما أهلوهما كما غادر آدم وزوجه الجنة، لأنهم خالفوا نواميس الكون فحاق بهم سوء الطرد، والإخراج؛ إلا أن ما يُخَفِّفُ الآلام هو ما تركوه من آثار شاهدة على عظمتهم.

2 - ما بعد التقريب

إن هذا التقريب غير كاف، لذلك، فإننا سنتناول هذه المقطوعات من زوايا أخرى، حتى تبين لنا قيمتها الإبداعية، وصناعتها الشعرية الراقية؛ وسنبداً بما يدعى بـ (الرمزية الصوتية).

أ - الرمزية الصوتية

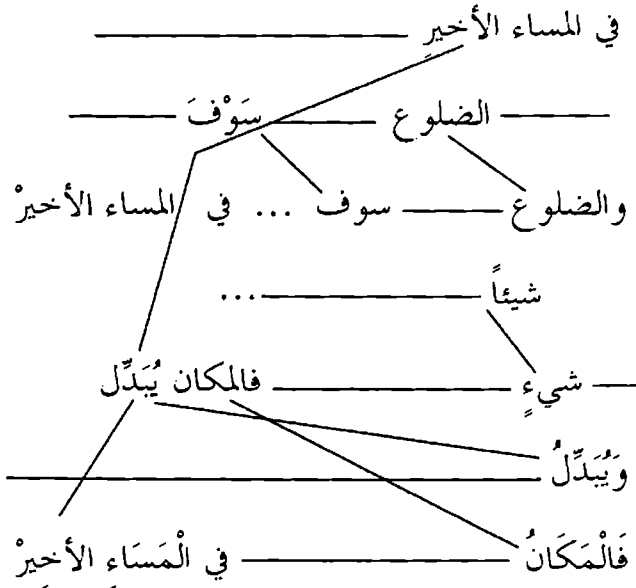
على أن استخلاصها متوقف على عملية موضوعية؛ ألا وهي إحصاء، الأصوات المُتَكَرِّرَة في مقطوعة ما لمعرفة نسبة تواردها، والاعتماد على تردد القافية، وعلى ما يدعى بالجناس؛ على أننا نقول منذ البداية إلى أننا سنتجنب الأحكام، بجوهريّة، والابتعاد عن تحصيل الحاصل؛ وتحقيقاً لهذا الادعاء، فإننا سنختار جزءاً من مقطوعة: في الْمَسَاءِ الْآخِرِ

عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ

«فِي الْمَسَاءِ الْآخِرِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ نَقَطُ أَيَّامَنَا
عَنْ شُجَيْرَاتِنَا، وَنَعْدُ الضُّلُوعَ الَّتِي سَوْفَ نَحْمِلُهَا مَعَنَا

وَالضُّلُوعَ الَّتِي سَوْفَ نَتْرُكُهَا، هَهُنَا... فِي الْمَسَاءِ، الْأَخِيرِ
لَا نُودِعُ شَيْئاً، وَلَا نَجِدُ الْوَقْتَ كَيْ نُنْتَهِيَ...
كُلُّ شَيْءٍ يَظَلُّ عَلَى خَالِهِ، فَالْمَكَانُ يُبَدِّلُ أَخْلَامَنَا
وَيُبَدِّلُ زُورَارَهُ. فَجَاءَتْ لَمْ نَعُدْ قَادِرِينَ عَلَى السُّخْرِيَةِ
فَالْمَكَانُ مُعَدٌّ لِكَيْ يَسْتَضِيفَ الْهَبَاءَ... هنا في المساء الأخير⁽⁵⁾.

نكتفي بهذه الفقرة من المقطوعة للاستدلال على وجود الخصائص الصوتية الظاهرة؛ وهي تتجلى في تكرار: (في المساء الأخير)، ثلاث مرّات، و(الضلوع) مرتين، و(شيء) مرتين، و(المكان) مرتين، و(يُبَدِّلُ) مرتين، و(سوف) مرتين، و(فتح) مرتين؛ وهناك مسافة بين المفردات المتماثلة:



تتبين شبكة العلاقات بين الأصوات، والمفردات؛ وهي تدل على الترابط الوثيق بين التراكيب، والأسطر، بحيث يسلم كل واحد منها إلى ما يليه بعضاً

(5) ديوان محمد درويش، المجلد الثاني، دار العودة، بيروت، ط. 1، 1994، ص. 475-476.

من مكوناته، مع اختلاف المواقع على شاشة الصفحة، ما عدا ما يكون قافية؛ وإذا ذهبنا من التركيب، والمفردة إلى الصَّوْت، فإننا نرى أن العنوان (في المساء الأخير على هذه الأرض) يوحي بما سَيَكْرُرُ من أصوات، ويأتي، في طليعتها، السين، والشين، وغيرها من الأصوات المهموسة: (المساء، سوف، يستفيق، يسلم، فارس، الأسرة، استسلموا للنعاس...) و(شجيراتنا، شيئاً، شيء، واشربوا، موشحنا، شافياً، ريش...)؛ صوتا السين، والشين، كأننا بمثابة شرارة النار في الهشيم؛ هكذا استدعياً ما يقاربهما في المخرج، مثل الصاد، والزاي... وأثارا في الذاكرة المفردات التي تحتوي عليهما. هل كان من الممكن أن توجد (سوف، السخرية، ساخن، فستق، الأندلس...) بدون مفردة المساء؟ وهل كان من المحتمل أن تكون (شجيرات، شيء، موشح...) بدون صوت الشين؟ وهل كانت مفردات، مثل (الضلوع، يظل، استضيف، المحيطة، مضاد، أخضر، أدخلوا...) أن توجد بهذه الكثافة بدون مفردة الأرض؟، ومثل هذا يقال في (ف، في، فا، فجأة، فتح، مفاتيح، الفاتحون، فجر...)؛ إن الأصوات تدعو الأصوات المتطابقة معها، أو المتماثلة، أو المتقاربة؛ والأصوات الداعية تكون بمثابة النواة، أو المُنْضَغَة، التي تتوالد عنها أصوات، وتتداعى، فيستجيب بعضها إلى بعض؛ إنها حركية الأصوات، وتآلفها، وتناغمها، مثل باقي عناصر الكون الأخرى:

«شَايِنَا أَخْضَرَ سَاخِنَ فَاشْرَبُوهُ وَفُسْتُقُنَا طَارَجَ فَكَلُوهُ

وَالْأَسِيرَةُ خَضْرَاءُ مِنْ خَشَبِ الْأَرْزِ، فَاسْتَسْلِمُوا لِلنُّعَاسِ».

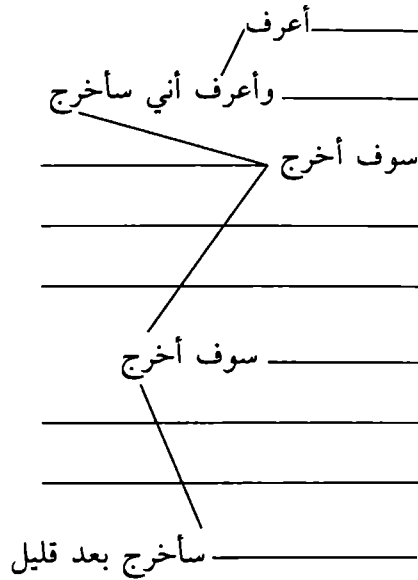
هكذا عبر بالشين، والسين، عن تفشي الاستسلام، والخنوع، والخضوع، وقرب النهاية؟ وكان يعبر النقد عن هذه الظاهرة بالرمزية الصوتية⁽⁶⁾؛ وإذا ما قسنا الأصوات اللغوية على أصوات الآلات الموسيقية، فإنها يمكن أن تدعى بـ(الألوان الصوتية)، أو بـ(الظلال الصوتية)⁽⁷⁾.

إن ما وجدناه في المقطوعة الأولى نعثر عليه في باقي المقطوعات الأخرى:

(6) الرمزية الصوتية: (le symbolisme phonétique).

(7) الظلال الصوتية: (les timbres).

في المقطوعة الثالثة :



في المقطوعة الثامنة :

كُنْ لِجِيتَارَتِي وَتَرّاً أَيُّهَا الْمَاءُ ؛ قَدْ وَصَلَ الْفَاتِحُونَ

وَمَضَى الْفَاتِحُونَ الْقُدَامَى

(بَعْدَ سَبْعَةِ أَسْطُرٍ)

كُنْ لِجِيتَارَتِي وَتَرّاً أَيُّهَا الْمَاءُ ، قَدْ وَصَلَ الْفَاتِحُونَ

وَمَضَى الْفَاتِحُونَ الْقُدَامَى . . .

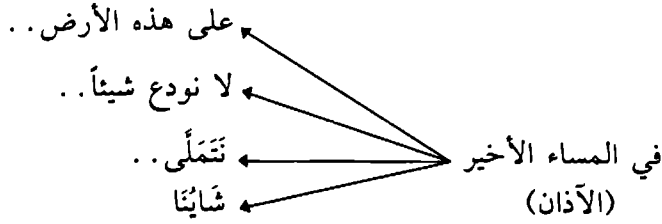
(بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَسْطُرٍ)

كُنْ لِجِيتَارَتِي وَتَرّاً أَيُّهَا الْمَاءُ

(بَعْدَ خَمْسَةِ أَسْطُرٍ)

كُنْ لِجِيتَارَتِي وَتَرّاً أَيُّهَا الْمَاءُ . قَدْ ذَهَبَ الْفَاتِحُونَ

وَأَتَى الْفَاتِحُونَ . . .



وإذ هذه المرددات ليست خاضعة لبنية زمانية/ مسافة مضبوطة ومواقع محددة؛ فإننا سنحاول أن نُفَرِّع مقولة المُرَدَّة⁽⁹⁾ إلى: مطابقة⁽¹⁰⁾ ومماثلة⁽¹¹⁾ وتواز⁽¹²⁾، وَصَدَى⁽¹³⁾ وَتَقَابُل⁽¹⁴⁾. نعني بالمطابقة أن يعاد التركيب في الموقع نفسه، وبعدد المفردات، وبالمقولات ذاتها:

● كُنْ لِحِيتَارَتِي وَتَرّاً أَيُّهَا الْمَاءُ؛ قَدْ وَصَلَ الْفَاتِحُونَ

وَمَضَى الْفَاتِحُونَ الْقَدَامَى

● كُنْ لِحِيتَارَتِي وَتَرّاً أَيُّهَا الْمَاءُ، قَدْ وَصَلَ الْفَاتِحُونَ

وَمَضَى الْفَاتِحُونَ الْقَدَامَى

المماثلة: هي أن يكرر التركيب بنية، ومقولات، ومعنى، مع اختلاف في بعض المفردات:

● الْكَمَنُجَاتُ تَبْكِي مَعَ الْعَجَرِ الذَّاهِبِينَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ

● الْكَمَنُجَاتُ تَبْكِي (عَلَى الْعَرَبِ الْخَارِجِينَ مِنْ) الْأَنْدَلُسِ.

وقد نال مفهوم المماثلة حيزاً كبيراً في نظرية علم النفس الخاص بالأشكال،

(9) المرددة: (Motif).

(10) مطابقة: (identité).

(11) مماثلة: (Similarité).

(12) (Parallélisme).

(13) صدى: (Echo).

(14) التقابل: (Contraste).

ونظرية الإدراك البصري، والتحليل الموسيقي؛ هكذا جُعِلَتْ من القواعد المفضلة لعملية التجميع، فقالوا: «فضل المجموعة التي تحتوي على أشكال لسانية مماثلة»⁽¹⁵⁾؛ وإذا تماثلت المجموعة، فمن الممكن أن يحذف بعضها.

التوازي هو أن يكون هناك تشابه واختلاف بين تركيبين؛ وقد وظف في كثير من الميادين العلمية؛ وما يهمنا هنا هو الميدان الموسيقي/اللساني؛ ولهذا، فإنه يمكن استعماله وسيلة تجميع، واختزال في آن واحد، بناء على القاعدة الآتية: «فضل البيئة التجميعية التي تظهر فيها صور التوازي كأجزاء متوازية»⁽¹⁶⁾، أو «فضل اختزال مجموعة لتوازي مجموعة أخرى»؛ في إطار هذا التعريف نقدم الأمثلة الآتية:

• نَعُدُّ / الضَّلُوعَ الَّتِي سَوْفَ / نَحْمِلُهَا مَعَنَا	}
(نَعُدُّ / الضَّلُوعَ الَّتِي سَوْفَ / نَتْرُكُهَا هَا هُنَا	
• اَدْخُلُوا / مَنَازِلَنَا	}
اشْرَبُوا / خَمَرَنَا	
• شَايِنَا أَخْضَرَ سَاخِنَ	}
فَاشْرَبُوا	
فُتِّقْنَا طَارِجَ	
الْأَسِيرَةُ خَضْرَاءَ	
فَاسْتَسْلِمُوا لِلنُّعَاسِ	}
نَامُوا عَلَى رِيشِ أَخْلَامِنَا	
(.)	

يتبين من أمثلة المطابقة، والمماثلة، والتوازي، أن هناك بنية عميقة توحد بينها، كأن يكون هناك فعل مضارع، ومفعول به، ومتممات، أو فعل أمر، ومفعول به، وما يليه من تراكيب يقتضيها تمطيط المعنى، أو مبتدأ وخبر متلوان بفعل أمر، أو بدونه... وهذا التنوع تابع لِتَلْوِينِ التراكيب، أو انتقالها من

Fred Lerdahl. Ray Jackendoff, A Generative Theory of Tonal Music, The MIT Press, 1985, (15) pp. 43-48.

Ibid, pp. 52-53. (16)

الحكي إلى الوصف، فالإلى الأمر، فالعودة إلى الوصف، فالأمر، فالحكي؛ هكذا يُؤنسك الشاعر بتراكيب مكررة مألوفة، لكنه لا يلبث أن يُفاجئك بنوع آخر يخالفها في الوقع، وفي اللون، وفي البنية؛ على أن اهتمامنا يقتصر هنا على ما هو أعمق: الموضوع، والإخبار عنها، أو الفعل، والعامل، والمُعاني، والهدف، والآلة.

بيد أن القارئ المتمعن في الأمثلة يرى أن هناك اختلافاً في كثير من الكلمات: نَحْمِلُهَا ← نتركها؛ أَدْخَلُوا ← اشربوا..؛ مَنَازِلُنَا ← خمرناً..؛ لكن التقابل لا يعني التناقض، وإنما هو تضاد تكاملي تجمع بين طرفيه، نواة معنوية واحدة؛ هي: فَقَدْ مَا هُوَ ثَمِينٌ، والاستباحة، والهزيمة؛ كما أنه يَبْصُرُ أن المماثلة والتوازي محصوران بين مطابقتين:

المساء الأخير (مماثلة وتوازي) المساء الأخير (مماثلة وتوازي) المساء الأخير؛



غير أن بعض الكلمات تبقى غير داخلية في المطابقة، والمماثلة، والتوازي، والتقابل، مثل (على هذه الأرض) (ههنا)، (كي تنتهي)، (كل شيء يظل على حاله)، (فجأة لم نَعُدْ قادرين على السخرية)؛ أي أن هناك مماثلة، وتوازيًا، ولا مماثلة ولا توازي، فَمُمَاطِلَةٌ، وتوازي، فلا مماثلة، وتوازي، ومماثلة، وَتَوَازٍ..؛ كما أن هناك خاصة تركيبية دلالية أخرى يُمكنُ رصدها في شعر درويش هي: (المصاداة)، بمعنى أن يكون هناك تركيب يبدأ به ندعوه الصوت، وتركيب يحيل عليه نسميه الصدى؛ وقد نمثل له بما يلي:

رَمَانٌ قَدِيمٌ يُسَلِّمُ هَذَا الزَّمَانَ الْجَدِيدَ مَفَاتِيحَ أَبْوَابِنَا

اللَّيْلُ نَحْنُ إِذَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ لَا فَجْرٌ يَحْمِلُهُ فَارِسٌ..

يتحصل مما تقدم أن خواص المطابقة، والمماثلة، والتوازي، والمقابلة، والمصاداة، هي لب جمالية شعر محمود درويش؛ وسنزيد هذا تفصيلاً بالنظر في العلائق الموجودة بين المقطوعات، مستوحين مفاهيم موسيقية.

3 - البناء بالموسيقى

تواجهنا مسألة تحديد نوع اللحن الذي يهيمن على (أحد عشر كوكباً...)؛ ذلك أن المادة الموسيقية متعددة الأشكال، والألوان؛ فهناك المقامية الإغريقية العربية الإسلامية، وهناك التناظرية التي هي أحد مكونات التفكير البشري، وهناك التوافقية التي تتلاءم مع الطبيعة الإنسانية، والمجتمع، وهناك التسلسلية الاصطناعية، والتقليدية المفضلة لدى بعض التيارات؛ وإذ تعرفنا عليها، فيما سبق، فإننا لن نقدم إلا بعض المعطيات التي سيتأسس عليها التحليل.

أ - الموسيقى المقامية

شاعت الموسيقى المقامية الإغريقية في العالم العربي والإسلامي، وخصوصاً في الشرق، وفي حوض البحر الأبيض المتوسط؛ وهي تتكون من:

- 1 - أجزاء الطنين
- 2 - الطنين
- 3 - الجمع الذي بالأربع
- 4 - الجمع الذي بالخمس
- 5 - الجمع الذي بالكل ذي سبع نغمات
- 6 - الجمع الذي بالكل والأربع المحتوي على إحدى عشرة نغمة.
- 7 - (...)

في ضوء هذا، سنعتبر تركيب مقطوعات (أحد عشر كوكباً...) شبيهة بنسق الجمع الذي بالكل المحتوي على سبع نغمات، والأربع صاحب الأربع؛ فهي تتكون، إذن، من اثنين من ذي الأربع، وواحد من ذي الخمس؛ والمقامات الإغريقية سبعة، إلا أننا سنختار أربعة منها؛ هي المكسوليداني، والليدياني، والفريجياني، والدورياني.

يبتدئ الميكسوليداني (سي)؛ والليدياني بـ(ضو)، والفريجياني بـ(ري)، والدورياني بـ(مي)؛ يتألف الأول من:

نصف طنين + طنين + طنين + طنين (الذي بالأربع)
 نصف طنين + طنين (الذي بالخمس)

وتكوين الثاني، هو:

طنين + طنين + نصف طنين (الذي بالأربع)
 طنين + طنين + طنين + نصف طنين (الذي بالخمس)

وتركيب الثالث، هو:

طنين + نصف طنين + طنين (الذي بالأربع)
 طنين + طنين + نصف طنين + طنين (الذي بالخمس)

وبنية الرابع:

نصف طنين + طنين + طنين + طنين (الذي بالخمس)
 نصف طنين + نصف طنين + طنين (الذي بالأربع)

تنبؤ بداية السلم (سي) بأننا تبيننا السلم الصغير الذي يتسم بلحن ذي طابع حزين؛ وإذ الأمر هكذا، فإننا نقدم للقارئ الرباعيات المنقوصة الآتية:

سي، ضو - ري - مي

مي	-	فا	-	صول	-	لا
لا	-	سي (م)	-	ضو	-	ري
ري	-	مي (م)	-	فَا	-	صول
صول	-	لا (م)	-	سي (م)	-	ضو
ضو	-	ري (م)	-	مي (م)	-	فَا
فا	-	صول (م)	-	لا (م)	-	سي (م)
سي (م)	-	ضو (م)	-	ري (م)	-	مي (م)
مي (م)	-	فا (م)	-	صول (م)	-	لا (م)

بناءً على مقترحات الموسيقى المقامية هذه، فإننا تَبَيَّنَّا المقام الصغير الدال على الحزن والعجز، والذي جزأناه إلى رباعيات منقوصة؛ وقد قدمنا للقارئ مثلاً يوضح له ما إذا كانت الدعوى صحيحة أو سقيمة؛ وهو مقطوعة:

فِي الرَّجِيلِ الْكَبِيرِ

أُجِبُّكَ أَكْثَرَ . . .

سنجزئها إلى طينتين، بناءً على مؤشرات لغوية متطابقة، أو متماثلة، أو متوازية، وعلى إحصاء التفعلة العروضية؛ هكذا يمكن اقتراح البعد

الأول، أو الطين الأولى: مي (في الرَّجِيلِ الأَصِيلِ).

والثاني: فا (خَفَّتْ في الرَّجِيلِ)

والثالث: صول (تَتَذَكَّرُ الرحيل الكبير • أجبك •)

والرابع: لا (لا شيء بَعْدَ هَذَا الرَّجِيلِ).

تحتوي التجزئة الأولى على إحدى وثلاثين تفعلة نزيد إليها واحدة فيصير الجميع (32)؛ والثانية على (38) نضيف إليها اثنتين (2)، فيكون الجميع (40)؛ والثالثة على (38) تزداد عليها (2) فيصبح الجميع (40)؛ ويبقى للرابعة (15)؛ وعليه، فإن المكتوب/الصوت هو $(32 + 38 + 38 + 15) = 123$ ؛ على أننا سنكمل الأعداد بالبياض/الصمت؛ هكذا سنضيف توالي الأعداد الآتية: $(32 + 8) + (38 + 2) + (15 + 5) = 140$ ؛ وهذا العدد يجعل المسافة الزمنية متساوية بين البُعْدَيْن ونصفهما.

وإذ أشرنا إلى أن الطينين في الموسيقى العربية والإغريقية يمكن تجزئته إلى أربع مسافات زمنية متساوية، فإننا سنفعل ذلك مكتفين بالطين الأولى:

(1) فِي الرَّجِيلِ الْكَبِيرِ أُجِبُّكَ أَكْثَرَ، عَمَّا قَلِيلٍ

تُقْفِلِينَ الْمَدِينَةَ لَا (صَمْتُ مَكْمَل)

(2) قَلْبَ لِي فِي يَدَيْكَ، وَلَا دَرْبَ يَحْمِلُنِي فِي الرَّجِيلِ الْكَبِيرِ أُجِبُّكَ أَكْثَرَ

(3) لَا حَلِيبَ لِرِّمَانٍ بِشُرْفَتِنَا بَعْدَ صَدْرِكَ. خَفَّ النَّخِيلُ (صَمْتُ مَكْمَل)

(4) خَفَّ وَزْنُ الثَّلَالِ، وَخَفَّتْ شَوَارِعُنَا فِي الْأَصِيلِ (صمت مكمّل)

معنى هذا أن المكتوب الشعري يمكن أن يتألف من رُبَعي طنين، أو ثلاثة، أو أربعة (طنين)، أو طنين مزيد برِبع، أو بنصف (ثلاثية صُغرى)، وطينين، وثلاثة أرباع، وطينان (ثلاثية كبرى)، وطينان وربع، وطينان ونصف (ذو الأربع)، وبناء عليه، فإن جزئي طنين يمكن أن يكونا لحناً، وإذا ما كان هناك نقص في أحد الأجزاء، فإنه يتمم بالصمت؛ كل هذا يجعل الموسيقى المقامية تُتيحُ فرصاً للشاعر وللمحلل كثيرة، إذ لا تلزمه بنمط محدد من الأبعاد؛ إذ «البعد» قد يكون نصفين، أو ثلاثة، أو طنيناً، ثم ما هو معروف من ثلاثيات، ورباعيات، وخماسيات، وجموع، مثل الذي بالكل مرة واحدة، والجمع الذي بالكل مع الذي بالأربع، والجمع الذي بالكل مع الذي بالخمس... والجمع الذي بالكل مرتين؛ كما أن مظاهرها متعددة تعبر عن خصال وصفات متنوعة، مما أفاض فيه الفلاسفة والموسيقيون من الإغريق والعرب.

ب - الموسيقى التوافقية

كانت الموسيقى التوافقية إعادة قراءة تركيبية للتراث الإغريقي الرمانى؛ فاخترلت المقامات المتعددة إلى مقامين (سلمين) كبير، وصغير؛ وليست قطعية مطلقة؛ ومع أنها توافقية عمودية، فإنها لم تبعد بصفة نهائية البعد اللحني الأفقي؛ إذ بقيت التقابلات بين الثقل/الحدة؛ والارتفاع/الانخفاض؛ والقوة/الضعف، مكونات أساسية فيها؛ وقد تحدثنا مراراً عن التوافقات، لكننا سنذكر ببعض المبادئ الأولية؛ أهمها تآني الأصوات، أو القضايا؛ وقد وضع الموسيقيون توافقات؛ أهمها: (ضو - مي - صول)؛ وهو يتألف من ثلاثية كبيرة، وخماسية تامة؛ و(ري - فا - لا)؛ و(مي - صول - سي)؛ واقترحوا لها درجات ثمانية: (I - II - III - IV - V - VI - VII - VIII) وجعلوا (I - IV - V) أساسيات كوامل؛ و(II - III - VI) ثانويات صغائر؛ و(VII) ناقصة؛

على أن المحط التابع لبنية المقطوعة، ومداهما، بذلك كانت منه أنواع، وكانت هناك اختلافات بين المختصين في تحديد الطرفين، أو الأطراف التي يكون فيها. هناك محط كامل:

(I - V - I)، أو (V - I)؛ ومحط ناقص: (V - I)؛ ونصف المحط: (IV - V)؛ والمحط الخادع: (V - VI)؛ والمحط الكنسي: (V - I).

بناءً على هذه المعطيات، فإننا سننظر في المقطوعات الإحدى عشرة لنرى العلاقات فيما بينها معتمدين على ترقيم الشاعر نفسه:

(I سي) - (II - ضو) - (III - ري) - (IV - مي)

في المساء الأخير ، كَيْفَ أَكْتُبُ ، لي خلف السماء، أَنَا وَاحِدٌ
على هذه الأرض ، فوق السَّحَابِ؟ ، سَمَاء... مِنْ مُلُوكِ النَّهْيَةِ

(V - فَا) (VI - صول) (VII - لا) (I - سي)

ذَاتَ يَوْمٍ، سَاجِلِسُ، لِلْحَقِيقَةِ وَجْهَانِ ، مَنْ أَنَا... ، كُنْ لِجِجَارَتِي وَتَرَأْ
فَوْقَ الرِّصِيفِ ، والثلج أسودُ ، بَعْدَ لَيْلِ الْغَرِيبَةِ ، أَيُّهَا الْمَاءُ

(II - ضو) (III - ري) (IV - مي)

في الرَّحِيلِ الْكَبِيرِ ، لَا أُرِيدُ مِنَ الْحُبِّ، الْكَمَنْجَاتُ.

أَجْبُكُ أَكْثَرَ... ، غَيْرَ الْبِدَايَةِ ،

واستثماراً لِمَا وَقَعَ، فإن أنواع المحط في القصيدة تكون كالآتي:

(I - V - I)، و(V - I) — (المحط الكامل)

(V - I₆) — (المحط الناقص)

(IV - V) — (نصف المحط)

(I - IV - I) — (المحط الخادع)

(IV - I)، أو (II₆ - I) — (المحط الكنسي)

تبتدي (I) بالحديث عن الموضوع الأساسية التي هي نهاية وجود الحكم في الأندلس في نغمة بطيئة حزينة استسلامية، وحددت (II) مدار الموضوع الذي هو غرناطة التي كان فيها كل ما هو جميل من أناس وطبيعة، وحدثت، وطيور، وموسيقى، وغناء؛ لكن كل ذلك أصبح من قبيل الحنين، والذكريات.

غَرْنَاطَةُ لِلْغِنَاءِ فَعَنِّي!

وصورت (III) فقد المملوك، وتبدل الأحوال، فصار من كان بغرناطة مثل

طيور مترحلة ليس لها أعشاش تأوي إليها، ومثل آدم الذي ارتكب الخطيئة فطُرِدَ من الجنة، وعبرت (IV) عن «معاهدة التيه»، وعن الزفرة الأخيرة، وعن الاجتثاث الأخير، جزاء على تقصير المسلمين، وتفريطهم، وتهاونهم؛ إنه التَّأمين، وَبَيَّنْتُ (V) فقدان كل شيءٍ للغفلة، وعدم الاحتياط من مكر التاريخ، ففعل فعلته، لكنه لم يقض على آثار خالدة مخلدة، وأوضحت (VI) إبرام العرب «معاهدة اليأس»، وتوقيع «ميثاق التيه، واستِعْجَال «لحظة الاختِضار».

يبلغ التوتر أقصاه في (VII) بالسؤال عن الذات، والهوية، والانتماء، المفقودة، لِلْهَلَع الذي أصيب به المسلمون، والعرب، والذهول الذي غمرهم، بحيث إنهم صاروا فاقدِي الوعي، والتمييز؛ هكذا ساروا يتمنون الموت، بَدَلًا من هذه الحياة، ولا حياة، وأي موت أفضح من أن يعود الإنسان إلى هذه الدنيا مجرد كائن تافه مشرد متسكع جالس على الأرصفة، بعد ما كان له ماضٍ باذخ تحدثت عنه الجغرافيا، والتاريخ (VIII)، والبواخر، والمياه؛ إن هذا الماضي هو قيثار الحضارة العربية الإسلامية الخالدة؛ وإذ نادى الرحيل بالفراق (IX)، فإن الإنسان العربي الإسلامي خلق ألوفاً شغوفاً بأرضه، وعرضه، محباً لمغانيه، ومدارج صباه؛ قلبه هو الكون بكل ما فيه، وهو وطنه، أو الوطن قلبه؛ فإذا طرد من الأرض غادر الحياة إلى الممات.

الإنسان العربي الإسلامي يدين بدين الحب؛ إنه لا يريده إلا هو (X)، بما يقتضيه من تغريد للورقاء، وتنغيمات الموسيقى، وتشكيلات الأزهار، وكل لذائذ العيش...؛ هذه المحبة هي ما بعد البغضاء، والشحناء:

وَقَلِيلٌ مِنَ الْأَرْضِ يَكْفِي لِكُنِّي نَلْتَقِي، وَيَحُلُّ السَّلَامُ.

ضاعت الحضارة، والتاريخ بخروج العرب، ورحيلهم، وتيههم في الآفاق، فَعَمَّت المآسي والأحزان فَعُزِفَت ألحان الوداع الأخير (XI) للعرب، وألحان الاستقبال لِلْوَافِدِينَ، وألحان التَّهْدِيدِ، والوعيد للمفرطين:

الْكَمَنْجَاتُ تَتَّبِعُنِي، هَهُنَا وَهَنَاكَ، لِيَتَأَرَّ مِنِّْي

الْكَمَنْجَاتُ تَبْحَثُ عَنِّي لِيَتَقْتُلَنِي، أَيْنَمَا وَجَدْتَنِي

تلك هي ألحان وتوافقات القصيدة؛ وهي عبارة عن رباعيات:

- (1) المساء الأخير - الكتابة فوق - لف السماء - لك النهاية
السحاب
- (مي) (فأ) - (صول) (لا)
- (2) ملك النهاية - الجلوس فوق - وجهها الحقيقة - من أنا؟
الرصيف
- (لأ) - (سي م) - (ضو) - (ري)
- (3) مَنْ أنا؟ - كُنْ لِحِيَّتَارِي - في الرحيل الكبير - لا أريد
- (ري) (مي م) - (فأ) - (صول)
- (4) لا أريد - الكمنجات - بياض - وَجْهَهَا الْحَقِيقَةُ.
- (صول) (لا م) - (سي م) - (ضو)
- (5) وجهها الحقيقة - مَنْ أنا؟ - كُنْ لِحِيَّتَارِي - في الرحيل.
- (ضو) - (ري م) - (مي م) - (فأ)
- (6) في الرحيل - لا أريد - الكمنجات - بياض
- (فأ) (صول م) - (لا م) - (سي م)
- (7) بياض - وجه الحقيقة - من أنا - كُنْ لِحِيَّتَارِي
- (سي م) - (ضو م) - (ري م) - (مي م)
- (8) كُنْ لِحِيَّتَارِي - في الرحيل الكبير - لا أريد - الكمنجات
- (مي م) (فأ م) - (صول) - (لا م)

وأما التوافقات فهي: ←←

	X (ري)	
	IX (ضو)	
VIII (سي)		
VII (لا)	VII (لا)	
VI (صول)	VI (صول)	
V (فا)	V (فا)	
I (مي)	IV (مي)	
III (ري)	III (ري)	
II (ضو)		
I (سي)		

ويتبين منها أن هناك اتصالاً أنجنائياً (سي، ضو، ري، مي...) وتكراراً أفقياً (ري - ري؛ مي - مي...) وما يعيننا هنا هو أن هذا الوضع يعكس تشابك المقطوعات وتداخلها؛ وهو ما يُدعى في التحليل اللغوي بـ(التناس)؛ وهكذا يصير أكثر ضبطاً حتى يمكن أن يستثمره الشاعر، أو الكاتب في تأليفه، ومحلل الخطاب في تفكيكه للنصوص. نعم، إن الإبداع الشديد التعقيد يمكن أن يتأبى عن القوانين الرياضية المنطقية الصارمة مثل هذه؛ على أنه يمكن التواصل معه بلطف حتى يُسلس القياد، شأنه شأن السمفونيات الراقية.

ج - التسلسلية

قد لا يقبل بعض القراء هذا التحليل المؤسس على التوافقات، والتشابكات، وإنما يميل إلى استقلال كل مقطوعة عن أخرى؛ وأخذاً لهذا الاعتراض بعين الاعتبار، فإننا سنقدم بعض الأدلة التي يمكن أن يستند إليها؛ لاحظنا قبل أن التأليف الموسيقي الموروث عن الإغريق لم يمت بصفة نهائية، وإنما أعيدت له الحياة، وخصوصاً تجزئة الطنين، بعكس الموسيقى التوافقية التي لها قواعد صارمة. فقد ثار عليها موسيقيو آخر القرن التاسع، وبداية القرن العشرين، وتبنوا ما يسمى بـ(اللاتوافقية)⁽¹⁷⁾، بحيث تبنا اثني عشر نصف متساوية، مما أدى إلى إلغاء الأساس، والوسطى، والمهيمنة. إلى غير ذلك مما اقترحته مدرسة فيينا التي أوجدت تأثيراً في أوروبا، وأمريكا؛ هذا النسق الجديد المكوّن من اثني عشر

(17) اللاتوافقية: (Atonalité)، انظر: د. صادق فرعون، المعجم الموسيقي المختصر، وزارة الثقافة،

صوتاً تتألف سلسلة؛ كل صوت منها غير مرتبط بغيره؛ وقد اتسم هذا التيار بخواص ثقافية، وفنية؛ من الثقافية ارتباط الموسيقى/الشعر، كما تعكسه علاقة ديبوسّي، ومالارمييه؛ فقد استوحى ديبوسّي، من أشعار مالارمييه موسيقى تقوم على الأحلام، وتداعي الصور، والذكريات، واقتباس أصوات طبيعية، مثل هدير البحر، وهديل الحمام، وحفيف الأشجار... واستعمال السخرية، والتعبير عن الإحساس بالغربة، والحنين اليائس، والشعور بالفوضى... كما أن الشعراء صاروا يقلدون التوليفات الموسيقية، واستعمال مصطلحاتها، والاستيحاء من تصوراتها؛ هكذا، صار الموسيقيون يستلهمون الأشجار، والشعراء يستوحون من الموسيقى⁽¹⁸⁾. وأما الخواص الفنية فهي:

- استقامة
- الانعكاس
- القهقري
- القلب⁽¹⁹⁾.

د - التقليلية

على أن الثورة التجديدية لم تقف عند هذا الحد، بل برز، في سنوات الستين بأمریکا، ثم بأوروبا، تيار أسمى نفسه بـ(التقليلي)؛ وهو تيار يشغل المهتمين الآن لتيان خواصه، وتجلياته، وانتشاره، ووظائفه؛ وأبرز ميادينه التشكيل، والنحت، والرسوم الصناعية، والموسيقى، والشعر؛ فمن حيث الموسيقى، فإنها عادت إلى تألف الأصوات، وتكرار الجمل، والتراكيب، والاطراد الإيقاعي؛ وأما من حيث الشعر، فإنه جاء ليهدم آداب سنوات الستين والسبعين الذي غلبت عليه الإيديولوجيا، والتعقيد، والاصطناع، ويدعو إلى جوهر الشعر الذي هو اللغة، وتحالفه مع الفلسفة، التي تحولت بدورها إلى فلسفة لِلُّغَة⁽²⁰⁾.

(18) تقدمت الإشارة إلى هذه المعطيات عدة مرّات.

(19) انظر: الجزء الثاني: نظريات وأنساق، وخصوصاً الفصل الثاني، نسق التراكيب، فقرة (ج) - الانتظام بالموسيقى، و(د) - توليف النسقين.

(20) انظر مدخل هذا الجزء، وفصلي (الانفراد والاجتماع)، و(الفاء والباء).

بدأ يسود هذا المناخ في نهاية القرن التاسع عشر، ثمّ عم خلال القرن العشرين، فنال التجديد كل الفنون؛ ومنها الموسيقى، والشعر؛ وقارئ شعر محمود درويش يجد فيه ملامح من ذلك التجديد بحسب طاقته، وثقافته، وما يسمح به محيطه؛ وهكذا، فقد كتب قصيدته على شكل مقاطع مرقمة من (XI-I)، مما يجعلها شبيهة بالاثني عشر، بحيث إن كل مقطوعة يمكن أن تكون مستقلة قائمة بذاتها تأليفاً، وإمتاعاً، وفائدة، ولا تحتاج إلى المقاطع الأخرى؛ بل يمكن للباحث أن يحدث عكساً كلياً للمقاطع:

XI - X - IX - VIII - VII - VI - V - IV - III - II - I

I - II - III - IV - V - VI - VII - VIII - IX - X - XI

أو أن يبدأ بأي مقطع أراد، ثم يتبعه بمقاطع أخرى في غير ترتيب:

III... - V - VII - IV

واحتفى باللغة من أجل اللغة، وبتكرار التراكيب، وبالاطراد الإيقاعي (وحدة التفعلة).

4 - وحدة البناء

قدمنا في الفقرتين السابقتين (II) و(III) أن بناء القصيدة الشعرية يتّقوّم من دعامتين أساسيتين؛ إحداهما اللغة الطبيعية المتجلية في البنية السطحية، أصواتاً، ومفردات، وتراكيب، وكيفيات تشكل في فضاء - زمان معين؛ وثانيهما الموسيقى المسموعة، بما تحتويه من أصوات، وتراكيب، وكيفيات تشكل في فضاء - زمان معين والموسيقى المكتوبة، بما تحتويه من أصوات، وتراكيب، وإيقاعات، وصموت، وتراكيب، وإسكّاتات؛ على أن وراء تجلي البنيتين قدرة إيقاعية ذات بنية عصبية في الدماغ.

أ - الأسس العميقة

لهذا فإننا سنحاول أن نبحث عن الأسس العميقة التي تنبني عليها الموسيقى/الشعر؛ وهي عديدة: بعضها فيزيولوجي عصبي، وبعضها منطقي رياضي؛ نعني بالفسيولوجي العصبي ما هو موضع نقاش حول العلائق الموجودة

بين باحتي اللغة، والموسيقى؛ وأهم ما هو رائج الآن (فرضية مصدر الإدماج التركيبي المشترك: (SSIRH)) الـ«صُرْح»؛ تؤكد أن هناك باحتين دماغيتين؛ إحداهما يسري خاصة باللغة، وثانيتها يمني فيها الموسيقى، لكن هناك مصادر عصبية مشتركة بينهما تجعلهما متفاعلين أثناء عملية الإدماج للمعلومة، أو التنبؤ بها؛ يتم الإدماج حينما تكون هناك مسافة فاصلة شاسعة بين مفردتين/نغمتين، وبناء التنبؤ حينما يتم خرق الانتظار التركيبي⁽²¹⁾؛

يمكن توضيح هذا بمقطوعة:

I - في المساء الأخير

على هذه الأرض

إن هذا العنوان مؤشر يقترح زناد عمليتي الإدماج، والتنبؤ معاً؛ على أنه يجب أن يدخل ضمن بنية أعم؛ هي العنوان: أحد عشر كَوَكْباً. على آخر المشهد الأندلسي؛ ف(I) ينتظر (II . . . XI)، و«في المساء الأخير» معالم دالة على الزمان بكل أنواعه: المُطلَق كالتاريخ، والزمان، والوقت، والأيام . . . والمحدد بالنهار، والليل؛ يحتوي النهار على الضحى، والزوال، والعصر، والمغرب، والليل على العشاء، ومنتصف الليل، وَثُلُثِيهِ، والفجر . . .؛ يكون في النهار الحركة، والعمل . . . وفي الليل الأسرة، والنوم، والأحلام . . . و«على هذه الأرض» إشارة إلى الأندلس بما فيها من جبال، وطبيعة . . . وما مرَّ بها من أحداث مفرحة، أو مؤسفة:

«وَنَسْأَلُ أَنْفُسَنَا فِي النَّهْيَةِ: هَلْ كَانَتْ الْأَنْدَلُسُ

هَهُنَا أَمْ هُنَاكَ؟ عَلَى الْأَرْضِ . . . أَمْ فِي الْقَصِيدَةِ»⁽²²⁾.

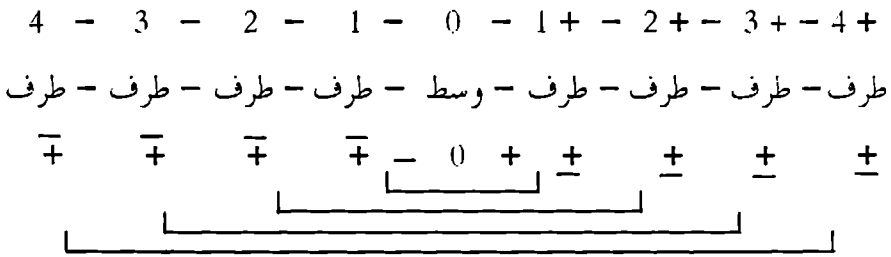
إن اشتغال الذهن بالمؤشرات ليس خاصاً باللغة، لكنه عام في كل الأعمال الإنسانية المستكشفة؛ ذلك أن التحليل الموسيقي، أو التحقيق الأمني، يعتمد على المؤشرات أيضاً، مثل نغم مآ . . . وهكذا فإن المستمع المرتاض السَّمْع

Aniruddah D. Patel, «Language, and The Brain: a Resource - Sharing Framework», Cambridge (21) University, 2007, pp. 2-42.

(22) ديوان محمد درويش، ص. 475-476.

على الموسيقى يتخذة منطلقاً لتحديد السلم، والمُحَقَّقُ المتمرس يجعله بداية للبحث عن المجرم...؛ وما كان ليكون هذا التماثل لو لم تكن المصادر العصبية مشتركة.

من الأسس العميقة المشتركة أوليات رياضية منطقية محكومة بخاصيتين أساسيتين؛ هما التناسب، والتقابل؛ يعني جذر (ن، س، ب) القرابة الدموية، والقرابة الاجتماعية المتعددة من مصاهرة، وولاء، ودخول؛ ويدل مجازياً على التناسب الجمالي الذي يتجلى في الموسيقى، وفي الشعر، وفي الهندسة، وفي التشكيل؛ وإذ التناسب لا يعني التطابق، وإنما هو تماثل، أو مضاهاة... أو تشابه فإن هناك درجات، أو درجة، من التقابل بين الطرفين، أو الأطراف التي يتكون منها التناسب. توضيحاً لهذا سنرسم تخطيطاً يبيّن تلازم المفهومين، رامزين إلى الأول بـ(+)، وإلى الثاني بـ(-)، وبـ(±)، و(+) إلى شَوْبِ الأطراف -



بناء على هذا يمكن أن يقال: نسبة (+) إلى (+) كنسبة (±) إلى (+)...؛
 $\frac{4+}{4-}$ كنسبة $\frac{3+}{3-}$ إلى $\frac{2+}{2-}$...

سيكون تمثيلنا لهذا من:

II كيف أكتبُ

فَوْقَ السَّحَابِ؟

«كَيْفَ أَكْتُبُ فَوْقَ السَّحَابِ وَصِيَّةَ أَهْلِي؟ وَأَهْلِي

يَتْرُكُونَ الزَّمَانَ كَمَا يَتْرُكُونَ مَعَاطِفَهُمْ فِي الْبُيُوتِ، وَأَهْلِي

كَلَّمَا شِيدُوا قَلْعَةً هَدُمُوهَا لِكَيْ يَرْفَعُوا فَوْقَهَا

خَيْمَةً لِلْحَيْنِ إِلَى أَوَّلِ النَّخْلِ. أَهْلِي يَخُونُونَ أَهْلِي
فِي حُرُوبِ الدَّفَاعِ عَنِ الْمِلْحِ. لَكِنَّ غَرَنَاطَةً مِنْ ذَهَبٍ»⁽²³⁾.

● التناسبات

- (1) تكرار: أهلي - أهلي - أهلي - أهلي؛ يتركون - يتركون
- (2) تداع: الحقل الدلالي: الذهب، الفضة، الحرير، التطريز، وتر العود،
- الكتابة ← الوصية.
- الخيمة ← النخل.
- (3) التشبيه: كمًا؛ السحاب ← الصفحة؛ الزمان ← المعاطف.
- (4) الترابط: كُلَّمَا (س) ← (س، أو، ص).
- (5) التوازي: أهلي يتركون الزمان ← أهلي يخونون أهلي.

● التقابلات:

- (1) الواضحة: شَيِّدُوا/ هَدَمُوا؛ القلعة/ الخيمة؛ الوفاء/ الخيانة
- (2) المضمرة: الحضارة/ البداوة؛ الجد/ الهزل؛ الماضي/ الحاضر؛
العرب/ الأعراب.

إذا كان الجذر واحداً، فلا غرابة أن تكون الجذوع متماثلة؛ هكذا تشترك الموسيقى، واللغة في آليات التناسب، مثل التكرار، والمماثلة، والتوازي، وفي آليات التقابل، مثل التضاد، والتنافر، والتناقض... أيضاً؛ ذلك أن كلا هذه المفاهيم وظفت في تأليف الموسيقى وتحليلها، توظيفاً في التركيب اللساني، وفي تحليل النص، والخطاب⁽²⁴⁾؛ وقد استعملت هي نفسها فكانت مفاهيم راحلة⁽²⁵⁾ أحياناً، أو وضعت بدّلها مفاهيم خاصة بالميدان أحياناً أخرى؛ ذلك أن

(23) المرجع المذكور، ص. 477-478.

(24) See, F Leardahl, Jackendoff, *op. cit.*, pp. 52-54.

(25) انظر المدخل، وخصوصاً مفاهيم التشاكل، والتحويل، والنواة، والخلية...

الخطاب يعتمد على اللغة الطبيعية، والموسيقى تستند إلى العلامات التواصلية؛ وتبعاً لهذا، فإننا سنقدّم للقارئ بعض مفاهيم أهل اللسان الخاصة بميدانهم، وبعض مفاهيم محللي الموسيقى المتداولة فيما بينهم في مرحلة أولى، ثم نعقد مقارنات بين نتائج الميدانين، حتى يتمم محلل الخطاب ما يراه من نقص في عتاده المفهومي التحليلي في طورٍ ثانٍ.

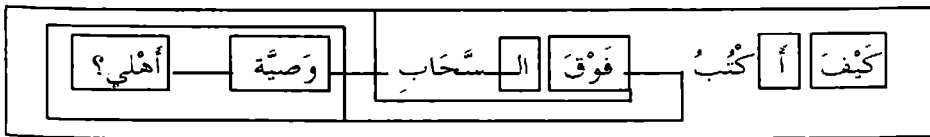
تأسس اللغة الطبيعية على العلائق التوليفية فيما بين عناصرها، من أصوات، وأدوات، ومفردات، ومجازات، ومقومات مَعْنَوِيَّة تُوصَلُ الكلمات، وترتبط بينها. وإذْ تعرضنا للأصوات، ورمزيتها، وإلى ما يجوز فيه التركيب، وما يمتنع، فإننا الآن نشير عابرين إلى المكونات الأخرى.

● الأدوات⁽²⁶⁾: أدوات التعريف التي هي الضمائر المتصلة، والمنفصلة، مثل: أنا، ونحن، وأنتم، وأنتن، وهما، وهن؛ ولهم، ولّنا، وعليكم...؛ وهي أداة التعريف، مثل الـ...؛ وأدوات العطف، مثلك لكن، وبلى، وحتى، وثم، و(ف)...؛ وأدوات التعليل: لـ، وكى، ومن أجل...؛ وأدوات الجَزْ كَ في، وبِ، ومنْ، وَعَلَى...

● الإضافة: إضافة اسم ظاهر إلى اسمٍ ظاهر، أو ظاهر إلى ضمير...

● الشرط والجزاء، والسؤال والجواب، والاستثناء: كيف؟ متى؟ أين؟ لَوْ، وَلَوْلَا، وَإِنْ... وَخَلَا، وَعَدَا، وَحَشَا... وإِلَّا...

ولتوضيح بعض ما تقدم، فإننا نكتفي بالمثال الآتي:



● المقومات:

- كيف: أداة استفهام عن الحال + (التعجب) + (الاستنكار) + (النفي) + صَادِرٌ عَنْ حَيٍّ.

(26) تراجع كتب النحو، والبلاغة.

- أَكْتُبُ: فعل مضارع + مسند إلى ضمير المتكلم + أَثَرُ + بآلة + على مستند + محركة بِحَيٍّ.

- فوق: ظروف مكان + عال + بالنسبةِ إِلَى... + (حَيٍّ).

- أَلْ: أداة تعريف + (إشارية).

- سَحَابٌ: غَمَامٌ + سَاوَرٌ + عَالٍ + بالنسبة إلى الإنسان (حَيٍّ).

- وَصِيَّةٌ: اسم + مَكْتُوبٌ + لِفَائِدَةِ حَيٍّ + ذو أَهْمِيَّةٍ.

- أَهْلٌ: جماعة + حي + بالنسبةِ إِلَى + (حَيٍّ).

- لِي: مِلْكٌ + لِحَيٍّ⁽²⁷⁾.

المقومات الجامعة: الحياة، والتكلم عَنِ الذات، والكتابة، وظرف الزمان، والمكان، وأهمية الكاتب، والمكتوب، وتفاهة المكتوب إليه؛ على أن جامع الجوامع هو الإيقاع (فَاعِلُنْ).

وعليه، فإن التراكيب اللغوية المعتادة عبارة عن سلسلة من العلاقات المتعددة الأنواع، بحيث إن كل كلمة فيها لها دورها، سواء أكانت حرفاً أم أداة، أم اسماً أم فِعْلاً؛ وبهذا، فإن التحليل بِالمُقَوِّمَاتِ يجب أن يشمل كل الكلم، وأن لا يقتصر على الكلمات المليئة، وأن يتجاوز المنطوق المحسوس إلى مُؤَطَّرِهِ المجرد الذي هو الإيقاع، وإلى غير المنطوق، والمكتوب أي إلى الصمت، والبياض؛ استخلاص المعنى، والدلالة، هو نتاج كل أولئك⁽²⁸⁾.

يتبين من كل هذا أن المكون اللغوي له خصوصياته، وكثير الشراء شديد التعقيد؛ هناك أقسام الكلم، وكل قسم يحتوي على أعداد هائلة من المكونات؛ وهي ناتجة من التداول الاجتماعي والثقافي، والعلمي. يوحي هذا الوضع، بل يقرر، أن لا علاقة بين الموسيقى، والشعر. فشتان ما بينهما! قبل مناقشة هذا الاعتراض، فإننا نقدم لمحة موجزة عن كلم الموسيقى، وتركيبها، ودلالاتها.

(27) أشرنا مراراً إلى التحليل بالمقومات؛ والمقومات المُخَائِئَةُ مثل (+ حي) بالنسبة للإنسان؛ وسياقية مثل (+ شاعر)، أو (+ ذو أهمية) لـ «وصية».

(28) هذا توسيع لنظرية التحليل الشعري التي سعينا إلى البرهنة عليها.

ب - وظائف

ليس في الموسيقى أدوات وظروف، وإضافة، وشرط، وجزاء، وضمائر، وإشارات، وأسماء أعلام، مثلما في اللغة⁽²⁹⁾، لكنها تملك أدواتها الخاصة للوصل بين أنغامها أدق مما في اللغة؛ وهي أنواع عديدة، منها ما هو رياضي منطقي كما هو شأن توليف الأبعاد والتوافقات⁽³⁰⁾، ومنها جسور، ووصلات لحنية إيقاعية، مثل النوافل⁽³¹⁾، والتّوْطِئات⁽³²⁾، والأزمنة المضادة⁽³³⁾، ومنها المرددات.

يجد القارئ للكتب الموسيقية القديمة حديثاً عن الانتقالات، أو التحويلات، من مقام إلى مقام، كأن تكون من الليداني إلى الصورياني، أو الفريجاني، أو الميكسوليداني⁽³⁴⁾؛ وهي مقامات متجاوزة تسهل الانتقال بكيفية سلسلة متناسبة لا تنفر الأذن من سماعه؛ على أن ما قعد الانتقالات، ووسع مفهومها، هو النظرية التوافقية⁽³⁵⁾، لأنه يقوم بدور أساسي في البناء السوناتي، والسمفوني؛ وهي ثلاثة أنواع: الانتقال الطبيعي الذي يتحقق بتوافق محوري يستعمل أنغاماً مشتركة بين مقامين، ويوصل بينهما؛ وعليه، فلكي يتمّ التحويل، فإنه يجب أن يكون هناك توافقان على الأقل ينتميان إلى المقام الجديد: توافق المهيمنة متبوع بتوافق الأساسية؛ أي محطة كاملة: (I - V - I).

IV - V - I

والثاني هو الملون بحيث يكون توافق المنطلق غريباً على المقام الأصلي، لأنه تعرض إل تغيير عَرَضِيّ بزيادة، أو نقص، نصف طنين؛ وهكذا، فإن توافقاً مثل (مي - صول مزيد - مي) لا ينتمي إلى السلم الأصلي (ضو) الكبير الأصلي؛ وأما المترادفة، فهي أن الانتقال من سلم إلى آخر يحصل باستعمال توافق يؤول

(29) هذا رأي كثير من الباحثين في مدى العلاقة بين اللغة والموسيقى.

(30) مثل الإبدال، والقلب، والعكس.

(31) النافلة: Anacrusis (E) Anacrouse (FR).

(32) تأخير النبر (وصلات): Syncopation (E) Syncope (FR).

(33) الزمن المضاد: Contre-Temps.

(34) Aristide Quintilien, *La Musique. Traduction et Commentaire de François Duysinx*, Droz, Genève, 1999, pp. 59-70.

(35) استفدت من دروس الأستاذ أحمد عيدون في هذه المسألة من الناحية الموسيقية الصرف.

نائباً عن التوافق الأول؛ وهكذا، فإن توافق (فأ - سي - ري - صول) يرادف (أو يعادل) (مي مزيدة - سي - ري - صول).

إن الشاعر ليس مؤلفاً موسيقياً يخطط بِقَصْدٍ لأنواع الانتقال كما قنن لها التوافقيون؛ لكن الغريزة الموسيقية التي لديه جعلت أنواعاً منه تبرز واضحة في مقطوعاته الشعرية؛ هكذا يمكن عَدُّ مكررات دائريات من النوع الطبيعي؛ وبنيتها:

أب، أ ج، أ د... أب، أ ج، أ د، أ هـ...

(في المساء (في المساء (أعرف)... (أعرف)...)...

الآخر... الآخر... الآخر... (سوف)... (سأخرج)... (سأخرج)... (سأخرج).

وأما ما يماثله، فهو ما ورد في (III). لِي خَلْفَ السَّمَاءِ سَمَاءٌ؛ فهي تحتوي على:

بداية: (لِي خَلْفَ السَّمَاءِ سَمَاءٌ).

انتقال: (لَكِنِّي لَا أَزَالُ...).

المحطة: (... غريباً عن الشام والأندلس).

ثُمَّ

بداية: (هذه الأرض...).

انتقال: (وَلَكِنُّ هَذَا...).

المحط: (فاطردوني... مَعَ لَوْزْكَا).

ولعل الملوّن يظهر في مقطوعة (II). كَيْفَ أَكْتُبُ فَوْقَ السَّحَابِ؟؛ فقد تحدث في البداية عن سلوك الأغراب، وأفعالهم، وبدائتهم، ثم ينتقل فجأة بـ(لكن) يتكلم عن نقضهم؛ وهو حضارة غرناطة⁽³⁶⁾؛ وأما المترادف فهو السائد في الشعر، إذ يمكن الانتقال من قول إلى قول بآليات عديده؛ منها

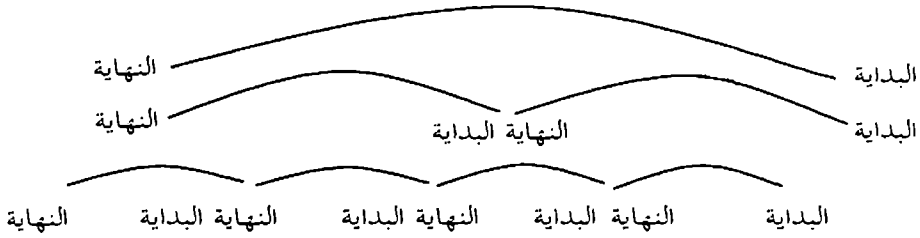
(36) يمكن اقتراح موازنات بين دراسات الحجاج، وبين الموسيقى؛ ونعتقد أن كلاّ منهما سيفيد الآخر؛ وخصوصاً أدوات الاستدراك، والإضراب، والعطف... والاستثناء.

التمائل، والتوازي، والتشابه، في التراكيب، وفي المعاني⁽³⁷⁾:

ادخلوا ← اشربوا

استسلبوا ← ناموا

يتبين مما سبق أن البداية البنيوية، والنهاية البنيوية (المحط) لهما دور كبير في إقامة هيكل الألحان؛ ويتخذ هذا الهيكل الشكل الآتي:



كل المقطوعات من النوع الأول؛ و(للحقيقة وجهان) من النوع الثاني، و(لي خَلَفَ السَّمَاءَ سَمَاءً) من النوع الثالث⁽³⁸⁾.

لقد رأى القارئ أن هناك انتظاماً عميقاً يربط الشعر بالموسيقى؛ وما حققه هو البنية العصبية المشتركة التي ولدت آليات منطقية رياضية مجردة تجلت فيما أسماه بعض فلاسفة العلم، والمناطق بالنظريات الشعبية، وبالمنطق الطبيعي؛ إنها وراء كل فعل بشري (وحيواني)، إلا أنها تتطور، وتتجلى، بحسب ما هو مخصص لها من وظائف في هذا الكون؛ لهذا، فإن هناك وظائف مشتركة بين الموسيقى، واللغة، لكن هناك اختلافاً أيضاً؛ بناء على هذا التصور سنبحث في دلالات، ورموز القصيدة.

5 - دلالات

يمكن تجزيء القصيدة إلى حركات:

(1) تتكون من: المساء الأخير، والكتابة فوق السحاب، وخلف السماء، وواحد من ملوك النّهاية.

(37) نقترح أن تكون المقومات السياقية من هذا النوع (Classèmes)، وأدوات التشبيه، والاستعارة، وإيحاءات الأصوات، المقايسة.

(38) لا نتظر من الخطاب الشعري أن يكون بمثل هذه الصرامة الرياضية.

(2) استمرار الحب بعد الرحيل ، والقناعة بما تسير ، والتأبين ، (والأمل والانتظار)
 وإذا القصيدة تتحدث عن موضوعة النكبة ، فإنه من المتوقع أن تكون هناك
 صلات بين مكونات الحركات على المستويين ؛ المستوى المعنوي / النغمي / المنطقي
 عمودياً ، والمستوى اللحني المعنوي أفقياً ؛ نلتمس الأول في (X - VIII - VI - I) ؛ أو
 في (X - IX - V - I) ؛ والقواعد المنطقية / الرياضية / الموسيقية تسمح بالوضعين
 معاً ؛ على أنها يمكن أن تُعزَّزَ بالتحليل الدلالي حتى يتبين مقدار الاشتراك
 والاختلاف ؛ وبناءً على المقدار يمكن ترجيح اقتراح على اقتراح ؛ وإذا قمنا بالتحليل
 في مواضع أخرى ، فإن الإشارة إلى النتائج تكفي ؛ ذلك أن هناك تداخلاً بين معاني
 المقطوعات / الحركات : (IX - VIII - VI - V) وبين : (XI - III - VII - IV - II)
 وتطابقاً بين : (X - I) ؛ ومهما كانت درجة الاتصال فإنها تدور حول التوافق الآتي : (1)
 الاستسلام والخروج ، (2) اليأس المطلق من العودة ، (3) فَقْدُ الهوية ، (4) الوفاء .

الأمل

Fa	
الشَّتَاتُ (Mi)	
الانتعاش	الشواهد التاريخية
Ré	(Ré)
الاستسلام	ملك النهاية
(do)	(do)
الانتظار	سؤال الوجود
(Si)	(Si)
الوفاء	خلف السماء
(La)	(La)
القناعة بالذُّكْر	وجها الحقيقة
Sol	(Sol)
الوفاء	فَقْدُ الهوية
(Fa)	(Fa)
استمرار الحَرْبِ	الكتابة فوق السَّحاب
(Mi)	(Mi)
الجلوس فوق الرِّصيف	اليأس المطلق
(Mi)	(Mi)
المساء الأخو	الاستسلام واليأس
(Ré)	(do)

وأما المستوى الأفقي الذي يتجلى في طبقة الصوت، وطابعه، وإيقاعه فيستوجب النظر في كل مقطوعة على حدة: (I). الاستسلام. II. فقد غرناطة. III. الخروج. IV. الزفرة الأخيرة. V. الرصيف. VI. الذهول. VII. سؤال. VIII. الانهيار. IX. الرحيل الكبير. X. الوفاء. XI. موسيقى التشيع. XII. (الأمل). والناظم بينها هو تقلبات الزمان، ومكر التاريخ، ومغادرة الأوطان، والعيش في التيهان.

تقتضي الموضوع أن تُنمى وتطور، لسانياً، ونغمياً، وإيقاعياً، وتوافقياً، بكيفية تدريجية من وضع إلى وضع في تصاعد إلى الوصول إلى القمة، والبقاء فيها، أو الهبوط منها إلى الحضيض، بناء على الخطاطة المعروفة في الموسيقى التوافقية، بما فيها من أساسية، ومهيمنة، ورجعة إليها: (I-V-I) أو: (V-I). تحتوي (أحد عشر...) على موضوعة هي النكبة، لكن لم يُعبّر عنها في قصيدة واحدة، وإنما بإحدى عشرة مقطوعة/شذرة؛ والشذرات تُتيح كل أنواع التداخل، والتقاطع مما لا تظهر معه صيرورة مستقيمة، أو بداية، وقمة، ونهاية؛ حقاً، لقد قلّلت الشذرات من وجود الزمان الخطي، بل إنها أضعفته كثيراً؛ إذ ليس هناك إلا حديث عن الزمان المطلق، أو عن القرون، أو عن الليل، والنهار.

للتدليل على هذا، فإننا سنختار المقطوعة الأخيرة، ثم نراجع القهقري؛ يجد القارئ فيها حكماً قاسياً على التقصير العربي، إلا أنه يعثر فيما سبقها على تغزل في غرناطة التي كانت تعيش حضارة قلّ نظيرها. وستخذ مضمون هاتين المقطوعتين مؤشراً على انشطار القصيدة إلى موضوعين أساسيين؛ أولاهما صورة غرناطة في المخيال العربي الإسلامي، وثانيتهما دعوى التقصير العربي الإسلامي للدفاع عن الأندلس؛ وهاتان الموضوعتان تتداخلان، ولا تهيمن إحداهما على الأخرى؛ وعليه، فإن المقطوعات/الشذرات جمعت بين الحديث عن موضوعة عامة تشعبت إلى موضوعات، وبين استقلال بعضها عن بعض، بحيث إن كلاً منها كوكب له بنيته، ومداره، ووظيفته⁽³⁹⁾؛ على أن المقطوعة الشذرة: VI المعنونة بـ(للحقيقة وجهات والثلج أسود) يمكن أن تكون القمة، أو البؤرة التي تتجمع فيها المقطوعات الأخرى؛ إذ فيها حديث عن ازدواج المواقف،

(39) تعرضنا للشذرات بالتحليل في الفصل الثاني (الانفراد والاجتماع) بهذا الجزء.

والأوضاع، وانقلاب الأحوال، والمواجهة، واليأس، والاحتضار، والتهيه، ودواعي الهزيمة، والاستسلام؛ إنها سؤال عن تحديد المسؤولية التاريخية المؤدية إلى الكارثة العظمى.

إذا كانت العلائق ملتبسة بين المقطوعات/الشذرات، فإن علاقة التبعية تتجلى في الترقيم: (I، II...)، وفي الموضوعية، وفي الإيقاع؛ وهذا الترقيم نفسه يدل على الاستقلالية، وكذلك الفضاء، والعناوين...؛ على أن وحدة الإيقاع (فاعِلن) تلزمن أن نبحت في ماهيته، من حيث قوته وضعفه:

IX X IX VIII VII VI V IV III II I
قوي - ضعيف - قوي - ضعيف - قوي - ضعيف - قوي - ضعيف - قوي - قوي

ثم يتشعب كل مكون إلى/قوي/ضعيف.. وهكذا؛ على أننا لن نكتفي بهذا، وإنما علينا أن نفحص هذا الوضع في مقطوعة واحدة؛ ولتكن (IX)؛ وإذا أشرنا قبل إلى بعض معطياتها، فإننا سنركز الآن على ما نراه بؤرة فيها:

«لَيْسَ لِي وَطَنٌ غَيْرُهُ، فِي الرَّجِيلِ أَجْبُكَ أَكْثَرُ
أَفْرِغُ الرُّوحَ مِنْ آخِرِ الْكَلِمَاتِ: أَجْبُكَ أَكْثَرُ
فِي الرَّجِيلِ تَقْوُدُ الْفَرَاشَاتُ أَرْوَاحَنَا، فِي الرَّجِيلِ
نَتَذَكَّرُ زِرَّ الْقَمِيصِ الَّذِي ضَاعَ مِنَّا، وَنَنْسَى...»

ما مؤشرات الاعتماد؟ هي الحديث عن الوطن، وعن الروح، وضباع الثَّاج، وزر القميص؛ وبؤرة البؤرة هي:

فِي الرَّجِيلِ (لِي أَجْبُكَ أَكْثَرُ)

لِي أَجْبُ	بُكَ أَكْثَرُ
فَعِلْنُ	فَعِلْنُ تُنْ ← فَعِلَاتُنْ
(قوي)	(ضعيف)

الذين كانوا آخر من حكم الأندلس؛ وقد ترك الحكم الإسلامي فيها حضارة راقية تتجلى في الآثار الشاهدة، مثل مسجد قرطبة، وقصر الحمراء، وجنة العريف... وفي أعمال ابن حزم، وابن رشد، وابن الخطيب السلماني، والشاطبي... وفي موسيقى، وفي أشعار ما زالت متداولة إلى يومنا هذا... وفي سياسة للحكم كانت نموذجاً يُحتذى، وما قُتِلَتْ تُسْتَلْهَمُ. وقد اختلفت الآراء في أسباب الهزيمة الماحقة؛ مِنَ الباحثين من رَدَّ ذلك إلى الإهمال، والتقصير، وسوء التدبير، وإلى عدم الالتزام بتعاليم الدين الإسلامي الحق...؛ ومنهم من أرجع ذلك إلى اختلال في موازين القوى التي صارت راجحة لفائدة العالم الغربي الذي عرف نهضة كانت أضداًؤها تتردد في العالم الإسلامي، كما سجل ذلك ابن خلدون في المقدمة⁽⁴²⁾.

استند محمد درويش إلى هذه التجربة التاريخية الواقعية، وإلى حكاية يوسف الواردة في التوراة، ثم في القرآن، ليعبر بها عما يشابهها من أوضاع العالم العربي الإسلامي المعاصرة، مثل القضية الفلسطينية، وعلائق العرب، والمسلمين، فيما بينهم. لقد كان العنوان أول مؤشر لقدر زناد التأويل؛ ذلك أن أحد عشر كوكباً، والشمس، والقمر، التي رآها يوسف في منامه، وحكاها لإخوته، كانت مصدر محن، وأهوالٍ عاناها الرجل؛ لكنه تغلب عليها، فانتصر انتصاراً؛ وقد صارت رؤياه، ورموزها، وتأويلاتها، مَدَارَ الأعمال الإبداعية، لتبيان جوهر الطبيعة البشرية، بما فيها من أهواء، وعواطف، وإبراز التجارب القاسية التي يكون لها دور كبير في تقوية الشخصية، والتغلب على الصعاب؛ كما أن أوضاع فلسطين متماثلة مع ما مرَّ به التاريخ الأندلسي؛ العنوان، إذن، مؤشر يوجه القارئ إلى ما ستتحدث عنه المقطوعات: يوسف، وإخوته: الشاعر، وأهلوه: : الأندلس، ومحنها: فلسطين، وكارثتها؛ إنه تمثيل يكاد يصل إلى درجة البرهان.

إذا كان عنوان (أحد عشر كوكباً على آخر المشهد الأندلسي) مؤشراً على المعاني التي يتحدث عنها الشاعر، فإن عنوان كل مقطوعة أيقونة على مضمونها،

(42) نهضة في الهندسة، وفي الموسيقى، وفي الفن، وفي الفلاحة، وفي العلوم العقلية، وفي صنع بعض الأسلحة الجديدة.

كما تدل على ذلك المفردات الأساسية: المساء الأخير، والسحاب، والسّماء، وملك النهاية، والجلوس فوق الرصيف، ووجها الحقيقة، وسواد الثلج، وليل الغريبة، ووتر الماء، والرحيل الكبير، وبداية الحب، والكمُنجات؛ إنها مفردات موضوعات شحنت بِحُمُولَةٍ رمزية في تركيب معين، وفي إيقاع خاص.

«المساء الأخير» زمن الرحيل، والذهاب الأبدي الذي لا رجوع بعده، فلا حديث عن الصباح، أو الضحى، أو الظهر...؛ إنه يوم القيامة؛ و«السحاب» يستر الشمس، والقمر، والنجوم، فَيَحُولُ بين الشاهد، والمَشْهُودِ، فَتَتَضَبَّبُ الرؤية، والرؤيا، فينعدم الفكر الثاقب، فيصير الناس غير شاعرين بأهمية الزمان، والمكان، والأشخاص؛ لكنهم يبقون مشدودين إلى زمن النشأة الأولى: فوق السحاب: الفكر الثاقب: تحت السحاب: الفكر المختلط؛ و«السّماء» هي العلو، والارتفاع، والسّمُو، والرُّقْيُ، وهي؛ بما فيها، في خدمة الأرض؛ فلا عجب تكون السّماء وسيلة للمحافظة على الأرض؛ لكن المَغْنِيَيْنِ قَرَطُوا في الأرض، فخسروا الدين، والدنيا، والفكر، والحاجيات: الفكر: السّماء: العمل: الأرض؛ و«ملك النهاية» يوضح ذلك الخسران المبين الذي نتج عنه شتاتٌ في أصقاع الأرض، شَذَرٌ مَذَرٌ، وانكسار الزمان شظايا، كما أن توقيع «معاهدة التيه»، كان زفرة العربي الأخيرة: بنو إسرائيل: التيه: العرب: الشتات؛ و«الجلوس فوق الرصيف» تصوير للغريب الذي تقطعت به السبل، الزائغ النظرات، الْمُجْتَرُّ لِلذِّكْرِيَّاتِ، والأمجاد الغابرة، العائش خريف عمره:

الأمم الأخرى: فصل الربيع: العرب: فصل الخريف.

الْمُتَسَوِّلُ : الرصيف : : العربي: الانتظار.

«وجها الحقيقة» تعبر عن ازدواجية الشخص العربي الإسلامي المريض اليائس المأزوم الذي ادلَهَمَّتْ أما عينيه؛ هكذا صار كل شيءٍ أَسْوَدَ لَدَيْهِ؛ وبهذا صار ينكر الواقع، وحقائقه، ويَبْنِي أوهاماً تأويلية ناتجة عن عوامل نفسانية مرضية؛ إذا كان الثلج في الواقع أبيض، فإنه يَرَاهُ أسود بمنظار يائسٍ مَضْدُومٍ؛ وإذا كانت هناك قوى فعلية جبارة، فإنه لا يرى فيها إلا أشياء مصنوعة من ورقٍ مقوى؛ هكذا تغلب الدجل السياسي، والتخدير الإيديولوجي، وقلْبُ الحقائق، على الصدق في القول، وفي العمل، وعلى التحليل العلمي التّزيه: السياسي

العربي: المجتمع العربي: : الساحر: المتفرجون؛ و«ليل الغريبة» دليل على العيش في العماء المطلق، والسَّير في السديم المُطْبِق، كما هو الشأن يوم القيامة، والقارعة، والذهول الأكبر، والغربة الشاملة: فلا قريب، ولا نسيب، ولا صديق: الغريبة: الوحشة: : الإنسان العربي: الفرع الأكبر.

«وتر الماء» يتغنَّى بما تركه العرب من آثار جلييلة بنائية وتشيدية، وفكرية، وثقافية؛ «الماء» هو قيثارة الوجود التي تدحض ترهات المبخسين، وَصَحَاصِح المَدَّجِنِينَ الذين اتخذوا أفعال خَلْفِ أضاع الأرض، والكرامة، واتباع الشهوات العارضة، دليلاً للنيل من تاريخ مجيد: المياه: الأوتار: : العرب: التاريخ؛ و«الرحيل الكبير» وقع بالأجساد لا بالقلوب؛ ذلك أن أهم ما لدى العربي قلبه الذي هو مكنن ذكرياته، ومعدن أشعاره، وَمَنْبَعُ حبه لوطنه، ولأهله، ولغيره: الإنسان العربي: القلب: : الإنسان الغربي: العقل؛ و«بداية الحب» هي كل شيء لدى الإنسان العربي، فما بالك بالشاعر الذي هو طفل صغير لا تعرف البغضاء لقلبه سبيلاً! الشاعر محب، وحالم، ولأَعِيبُ: مُحِبٌّ لكل الناس، وحالم بمستقبل أفضل مليءٍ بِالْحُبِّ، والأغاني، والأزهار، والعسل المصفى، والبرتقال العذب، وعقود اللآلئ على جيد طويل، وعَابَتْ بِشَدَرَات عقوده التي ينظمها في سلك ذَهَبِيٍّ: الوليد: العبت: : الشاعر: اللَّعِبُ بالكلمات؛ و«الكمنجات» لحن وداع، وتشجيع للمثوى الأخير، ولحن خلود لمأثر العرب: الكمنجات: العرب: : الكمنجات: الغجر.

من خلال تأويلنا للكلمات الأساسية في عنوان كل مقطوعة استخلصنا تمثيلاً ذا أربعة حدود في كل واحدة منها؛ ويمكن إرجاعها إلى الموضوعات الآتية: اختلاط التفكير، والكسل، وذهاب الأمجاد، والشتات، من جهة؛ وشهادة الماء، والأمجاد، والإنسانية، والخلود من جهة؛ أو الشر/الخير؛ الانكسار/الانتصار؛ اليأس/الأمل.

7 - تعزيز

إذا كانت عناوين المقطوعات دليلاً على مضامينها، فإننا سنعزز ما استخلصناه من دلالات ببعض المفردات ذات الإيحاء الإنسانية؛ وخصوصاً ما يتعلق بالموسيقى، وبالمراة، وبالمَحَبَّة.

أ - الموسيقى

تحتل الموسيقى مكانة كبرى في قصيدة (اثنا عشر كوكباً. على آخر المشهد الأندلسي)؛ إذ هناك مقطوعتان معنوتان باسمي آلتين موسيقيتين؛ أولاهما القيثار (VIII)، وثانيتهما الكمنجات (XI)، وهو إذ فعل، فإنه ركز تاريخ الأندلس الموسيقي منذ زرياب، وابن باجة، ومدرسة إشبيلية، ممّا جعلها تحافظ على التراث الإغريقي الفيتاغوري المُتَجَلّي فيما يدعى بالموسيقى الأندلسية (الآلية):

كُنْ لِجَيْتَارَتِي وَتَرّاً أَيُّهَا الْمَاءُ، قَدْ ذَهَبَ الْفَاتِحُونَ
وَأَتَى الْفَاتِحُونَ...

الکمنجاتُ تَبْكِي عَلَى الْعَرَبِ الْخَارِجِينَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ
وأما ذِكْرُ أَدَوَاتِ الْمَوْسِيقَى، فهو كثير، مثل الْوَتَرِ، والعود، وَالْکَمَنْجَةِ...

ب - المرأة

تبدأ المرأة في الأندلس موقعاً عظيماً؛ وَخَيْرُ شاهد على ذلك كتاب طوق الحمامة لابن حزم؛ على أن ما يهمنا هنا هو حضور هذا المناخ في تعابير مقطوعات القصيدة؛ هكذا شخص الشاعر غرناطة، وَأَثْنَهَا فصارت كأنها امرأة أندلسية حقيقية، مثل تلك التي وصفها ابن الخطيب في مقدمة «الإحاطة»، بل إن التأنيث نال الأشجار، والأحجار، والأشياء؛ لقد حضر الجسد، وفتنة الجسد، ونزق الجسد؛ وبهذا الحضور تماهت الأرض مع العِرْضِ: غرناطة المرأة العربية؛ والأنثى الإسلامية هي غرناطة.

ج - المحبة

ارتبط الحديث عن المرأة بالمحبة؛ سواء أكانت امرأة حقيقية، أم خيالية، كما هو الأمر عند الشعراء، والمتصوفة. وقد خُصِّص لها المقطوعتان: التاسعة، والعاشرة تحدث فيهما عن الرحيل الذي يجعله يحب غرناطة، ذات الرمان، والقميص ذي الأزرار، واللؤلؤ الذي يحيط بِجِدِّهَا، حُبّاً جَمّاً.

كانت الأندلس عبارة عن فضاءٍ مُثَرَفٍ: أُنَاقَة في الأكل، وفي الشَّرَابِ،

ودمائه في الفرائش، وتنوع في أصناف الحُلِيِّ، واللِّبَاسِ: الذهب، والفضة،
والحرير... وشيوع الحقائق المشتملة على أنواع الأزهار، والأشجار التي سمع
بين جنباتها هديل الحمام... وكثرة القلاع، والقصور ذات المَرَمَرِ، والرُّخَامِ...

... أَنَا آدَمُ الْجَنَّتَيْنِ، فَقَدْتُهُمَا مَرَّتَيْنِ

فَاطْرُدُونِي عَلَى مَهَلٍ،

وَأَقْتُلُونِي عَلَى عَجَلٍ،

تَحْتَ زَيْتُونَتِي،

مَعَ لَوْزِكَ...

خاتمة

تناولت المقطوعات الصراع المرير الذي دار بين حضارة الشرق، وحضارة
الغرب؛ وقد سارت المقطوعات الشعرية مع الروايات التي تحمل الهزيمة لتقصير
المسلمين في الدفاع:

لَمْ تُقَاتِلْ لِأَنَّكَ تَخْشَى الشَّهَادَةَ، لَكِنَّ عَرْشَكَ نَعْشُكَ

فَاخْمِلِ النَّعْشَ كَيْ تَحْفَظَ الْعَرْشَ، يَا مَلِكَ الْإِنْتِظَارِ

على أَنَّ هذا الحكم جائز في حَقِّ أولئك الأجداد الصَّنادِيدَ الذين أُبْلُوا
البَلَاءَ الْحَسَنَ لِلْمُتَافِحَةِ عَنْ الْأَرْضِ، والعرض، والهوية، حتى إنه يمكن
القول: إن أديم أرض الأندلس من أجسادهم، بل إن مياه البحر امتزجت
بدمائهم؛ وإذ وقعت الهزيمة، فإنها لم تكن نتيجة تقصير، أو خروج عن الدين
الإسلامي، أو انغماس في حياة البذخ، والترف، وفي الاستماع إلى الموسيقى،
أو في تشييد القصور، وإنما خَصَلَتْ لاختلال موازين القوى بين العالمين
الغربي، والشرقي؛ فقد ابتدأت النَّهْضَاتُ الغربية المختلفة الأشكال، منذ القرن
الثاني عشر، في الوقت الذي بدأت تخبو جذوة نهضة العالم الإسلامي إلا في
بؤر جد معزولة.

إننا لن نحاسب شاعراً فتاناً على أحكامه، فهو يختلط لديه ما هو موضوعي بما هو ذاتي، وما هو حقيقي بما هو حلم، وما هو واقع بما هو أمل، لكننا لا نقبله من غير الشاعر، وخصوصاً من يحترف التوجيه العقلاني؛ لأن صنيعة هذا يخلق وُغياً خاطئاً يسير ضد قوانين التاريخ، وسُنن العمران البشري، مما يؤدي إلى كوارث أعظم/وأفدح.

وظف الشاعر معلومات متداولة حول تاريخ الأندلس مستعيناً بموروثات رمزية: آدم وحواء، ويوسف، وإخوته، للتعبير عن الصيرورة التاريخية في هذا الكون: تداول الأيام بين الأنام، ودوام الأحوال من المحال.

الفصل الثالث

البشير والنذير

تمهيد

انشغل المثقفون العرب المعاصرون بقضاياهم السياسية، والثقافية، فأسهم كل واحد منهم بمجهود تنويري، تبعاً لمعتقداته، وأدواته التعبيرية الخاصة به؛ ومن تلك القضايا المعضلة الفلسطينية، وتداعياتها، من حروب، وأشكال للمقاومة؛ وقد كان أهم ما حرك القرائح، بعد هزيمة 1967، ما فعله أطفال الحجارة الفلسطينيون؛ هكذا صار هذا النوع من المقاومة موضوعاً مفضلاً لكتابة المقال، وإنجاز البحث.. وقرض الشعر؛ ومن الذين انخرطوا للكتابة فيها محمد بنيس، كما يبين ذلك ديوان «هناك تبقى».

قارئ هذا الديوان يجد موضوعاً الحجارة مهيمنة عليه، لكن صاجبةً لم يكتف بالتبشير، وبالتنويه، وبالتشجيع، وإنما أندر بما يترتب عنها من أوجم العواقب؛ فإذا كانت مبشرة بتحقيق الحرية، والانعقاد من زير الاستعمار، فإن هناك من جعلها وسيلة للمتاجرة، والمباهاة الفارغة، مما جعلها تتحول إلى خطر داهم على مستقبل القضية؛ على أن هذا الوضع ليس خاصاً. ذلك أن كل فعل بشري يحمل في بذرته مفارقةً مؤسّسةً.

تلك هي أطروحة الديوان الأساسية التي صيغت بحسب مقتضيات الإبداع الشعري المعاصر؛ وقد أبرزناها، وبرّهنا عليها في الفقرات الآتية: «أحجار متشظية»، و«ألحان الحجارة»، و«استحجار الأشكال»، و«مفارقة الحجارة». وقد توسلنا في إبرازنا، وبرهاننا، بمنهاجية ملائمة للخطاب الشعري، جامعة بين التطبيق، والتنظير؛ وإذ قدمنا ثوابتها، ومتغيراتها في مواقع عديدة من هذا

المؤلف، فإننا تَجَنَّبْنَا الإطالة، واكتفينا بضرب المثل، حتى يعود القارئ إلى ما سلف فيقيس ما لم يفعل على ما أنجز.

1 - أحجار مُتَشَطِّية

مَنْ يقرأ قصائد «هناك تَبَقَى» يلفتُ انتباهَهُ هَيْمَنَةُ التَشَطِّي، والتشذُّر في شكل القصائد لا في مضمونها؛ لكن أغلب التشطِّيات، والشذرات⁽¹⁾ هي في قصائد يجمعها عنوان واحد؛ هو «أَحْجَارٌ وَخَدَهَا»؛ يؤشر هذا العنوان على موضوع متداولة في التراث، وفي الثقافة الحديثة، والمعاصرة، ويدل على أنها هي الموضوع المهيمنة في الديوان، والمحيط به.

تحكي الحكايات، والأساطير، والكتب، عن الطيور التي تتقمَّصُ هيئة الملائكة، وشخصية النَّبَشْرِ، فتكلم النَّاسَ، وتتحدث إلى بعضها بعض، وتحارب بِرُمي الحجارة على الأعداء؛ من هنا ارتبطت الطير بالحجارة، والحجارة بالطير، في سياق الكراهية، والحروب، والبغضاء؛ وعليه، فإن عنوان القصيدة علامة على المضمون، والمحتوى، والغاية، أو مركز الجذب في الديوان؛ الطير والحجارة كانتا في سالف الأزمان رمزاً للنصر المبين، وهما في الحاضر إرهاب فَوْزِ آبٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، مع أنها في صحراء خالية من كل مُعِينٍ، ومُسَاعِدٍ من جهة، أو فيها قوافل سائرة، ووحدات مُخَضَّرَةٌ من جهة ثانية⁽²⁾.

رمزية الكلمات حَقَّقَتْ ترابطات، وتداعيات بين المقالات، والمقامات؛ الأحجار/الطيور ذات سمات «طيرية» حيوانية، وذات صفات إنسانية، وصاحبة خواص ملكية؛ وقد اجتمعت الطيرية، والإنسانية، والمَلَكِيَّة، في أطفال الحجارة؛ والحجارة، والصحراء، هم المعنيون بالقضية الفلسطينية؛ حول هذه المفردات الثلاث: الطير/الحجارة/الصحراء، دارت الشذرات والشطابا في تداعيات لغوية، ورمزية، وتصورية؛ وإذا صَحَّ هذا التأويل، فإن هناك بنية عميقة جامعة تتألف من عناصر قومية، ودينية، وسياسية، وفكرية، هي الموجهة لكل ما في الديوان؛ وقد حرص الشاعر على أن يقدمها بهذا الشكل،

(1) يراجع فصل (الانفراد والاجتماع) في هذا الجزء، ففيه حديث عن الشذرات.

(2) هذه موضوع متداولة في الشعر المعاصر. وقد أبناها عند تحليلنا قصيدة (الأرض) لمحمود درويش. انظر الفصل الثالث: (نسق الدلالات - 3 - تناغم الوجود) من الجزء الثاني.

مدفوعاً بتجربة واقعية، لا بحسب قوالب جاهزة، أو مُثْلٍ تَصَوُّرِيَّة.

يمكن قراءة كل شذرة، أو شَطِيطَةٍ، باعتبارها حجرة من إحدى عشرة⁽³⁾، وسنين، في البداية، مكونات كل واحدة منها، وعناصرها، ومعناها، ودلالاتها، ثم نَتَعَرَّضُ لإيقاعها، فَلألحانها، فالدلالة العامة؛ يتحدث، في الأولى، عن سرب الأحجار الذي يكون وحيداً في صحراء قاحلة لا أناس فيها يساعدون، ويساندون؛ المكونات، إذن، هي الأحجار/الطيور، والصحراء، والأوراق؛ وما يجمع بينها هو التشبيهات⁽⁴⁾ الآتية:

● الأحجار طيورٌ

● الوطن صحراء

● الناس أوراق خَرِيف.

ومعنى هذا أن هناك مقاومة وكفاحاً مِنْ جهة، وأن هناك فراغاً، وسلبيةً من جهة ثانية. ثم تأتي الحجرة الثانية تَنْمِيَّةً، وتوضيحاً لما سبق؛ الصحراء مليئة بالزّمال التي صار لها جِلْدٌ مثل الكائن البشري، وهي في الفضاء كالغيم؛ الرمال في الأرض جلد، وحينما تَسْفِيها الرياح تصير غيوماً في السماء؛ إنها ضد الخصب في الأرض، وضد رؤية السماء الزُّرقاء؛ على أن الصحراء لا تخلو من بعض الأشجار ذات الأهمية القصوى، مثل التَّخِيل الذي له وظائف متعددة نُسِجَتْ حولها أقاويل، وآثار، في المجتمعات الصحراوية⁽⁵⁾؛ وخير مساعد للتغلب على وضع الانحطاط هذا هو الليل؛ إذ «اللَّيْلُ أَخْفَى لِلْوَيْلِ»⁽⁶⁾ وَلِتَبْيِيَّتِ الشر، ولكتمان الأسرار، خوفاً من فضائح النهار؛ رمال الصحراء جسد أنثى ناعِمُ الْجِلْدِ يشتهيه لَمْسُ الأيدي في غير واضحة النهار. نعومة الجسد الأنثوي،

(3) محمد بنيس، هناك تبقى، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، 2007، عنوان القصيدة: (أحجار وحدها)، ص. 8-15.

(4) ما يلي تشبيه بليغ بحسب بعض المصطلحات العربية، وتسميه البلاغة الغربية المعاصرة استعارة. وستبني هذه الوجهة من النظر.

(5) هناك آثار مروية حول النخلة في كثير من كتب الحديث. ولا يهم سقم الحديث، أو صحته هنا، بمقدار ما يهم التأثير، والوظيفة.

(6) هذا مثل معروف. انظر: الميداني، مجمع الأمثال، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط. 2، 1987، ج 3، ص. 115.

ودمائه رمال الصحراء، وسكون الليل، مكونات ثلاث تدل على الأرض، والعرض، وليّاسه⁽⁷⁾.

تحتوي الصحراء على واحات النخيل تستريح فيها القوافل التي تقطعها جيئة، وذهاباً. وغالباً ما تسير القوافل ليلاً؛ وقد استعملت العربية مفردات كثيرة لكل ما يتعلق بالمشير، والتَّغْرِيس، وأوقاته⁽⁸⁾، وكيفية الاهتداء في فيافي الصحراء بالنجوم ذات الأشكال الهندسية، والألوان اللامعة في ليل ذي نسيم عليل أحياناً، وذي ريح سَمُوم أحياناً أخرى، أو في نهار شديد الحرارة، والقيظ؛ إن الصحراء، والقافلة، والليل، رموز للفكر المُجَدِّبِ التائه الضال، ولاستمرار المقاومة التي تشتعل، وتخبُّو، ولبعض الظروف المساعدة على الاستمرار في الحياة، وفي الأمل.

إن كل شيء في الصحراء ليس أصيلاً، وإنما هو محاكاة، وأصداء، وليست المحاكاة كالأصل، ولا الصوت كالصّدى؛ بل إن كل شيء فيها تَشَتَّتْ إلى أشلاء، وتَشَطَّى إلى ذَرَّات، وتميَّعَ باشتداد لَهَبِهَا، ما عدا الأحجار؛ الأحجار، واللغة، والماء، والنار، عناصر متفاعلة يستحيل بعضها إلى بعض، فيصير الحجر فيه شيء من الماء، والنار؛ والماء تشوبه اللغة، والأحجار، والنار...؛ مزج الشعر بينها فَوَحَّدَ بين كل ما في الكون؛ هكذا يخفف هواء الليل المنعش من الحرارة، والحرارة تقلل من قَرِّ الصحراء؛ كل عنصر له تأثيران، ووجهان؛ لهذا يصح تشبيه كل عنصر بعنصر:

الليل البحر

الليل الشمس

هو البحر لشعاعته، وهوله، وجبروته، ولرطوبة هوائه، وهو الشمس أيضاً في حالة الحرارة؛ وبهذا يصير:

الليل البحر الشمس.

إن هذه الاستحالات، والتداخلات، والالتباسات، والإبهامات... تسمح

(7) إشارة إلى: «هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ» في القرآن الكريم.

(8) انظر: فقه اللغة، للشعالبي، والمخصص لابن سيده.

بالتحول⁽⁹⁾، أو الانتقال من مقام إلى مقام، ومن حال إلى حال؛ ومن وضع إلى وضع، ومن وقت إلى وقت؛ إنها الصيرورة العضوية، والنفسية، والدلالية، اللامتناهية.

في الليل يكون السَّهر، والتأمل، وتخلُّص البدن من قيود المادة، فينطلق في الخيال، ويخلق في الأعالي، فتلتئم معه طيور الإلهام الشعري، والفكري، فتندمج في أرواح الملهمين، فتنبثق في أذهانهم أفكار نيرة؛ إنها طيور لها ما للطيور من ريش، وأجنحة. . لكنها لا ترى بالعين المجردة؛ إنها طيور نورانية مُتألِّفة:

الأحجار الطيور ← الطيور ملائكة الإلهام

تزود (الطيور/ الملائكة) الشاعر فيكون الكلام، والحداء، والغناء، و(الأحجار/ الطيور) ترمي الأعداء بِسِجِّيلٍ، فتتشر الهلاك، والخراب، والدَّمار، فيكون الصراخ، والعويل، والدَّم:

الغناء البكاء = البكاء الغناء

الحياة الممات = الممات الحياة

المقاومة الشعر = الشعر المقاومة

الأحجار الطيور، والطيور الملائكة، والمقاومة الشعر، إرهاب صَوغِدِ نَاجِزٍ، وبفجر صَادِقٍ، وبفَرَحَةٍ دائمة، وبِرائِحَةٍ ذكية ذكية تعم أرجاء الصحراء؛ وعناصر النار، والهواء، والماء، والتراب، استقصأت العمل الدائم، والأمل المستمر المبشر بغدٍ أفضل؛ وبهذا، فإن الشذرات/ الشظايا/ الأحجار، تُبَشِّرُ بحياة حرة كريمة لا تتحقق إلا بمجاهدات، ومكابدات، ومعاناة.

إن هذه الرسالة المُستخلصة من شذرات الأحجار ستَوْضَحُ فيما بعد؛ ففي الشذرة التاسعة ذُكِرَ (الحجر) مفرداً، وجمعاً عدة مرات (حجارة، وأحجار، وحجر)، و(الصحراء، والرمال)، و(الماء، والهواء)، و(الليل)، و(الصمت)، و(الصوت، والثاني)، و(المعراج)؛ ذلك أن الحجر هاجر، وأتى للنضال، والمقاومة، كما فعلت الطيور المهاجرة التي تَنَزَّلَتْ، بعدما عرجت إلى السموات

(9) كونت نظرية الاستحالة لب الكونيات في العصور القديمة، والوسيط؛ وقد حل محلها مفهوم الصيرورة.

العليا، دِفاعاً عن موقع الإسراء، والمعراج، فأحدثت الحركة في السكون،
وأُثْبِتَت الواحة في الصحراء القاحلة:

- الطيور المقاومون.
- الطيور غَيْثٌ.
- الأخجَارُ سِلَاحٌ قاتل.
- الأخجَارُ معدنٌ نَفِيسٌ.

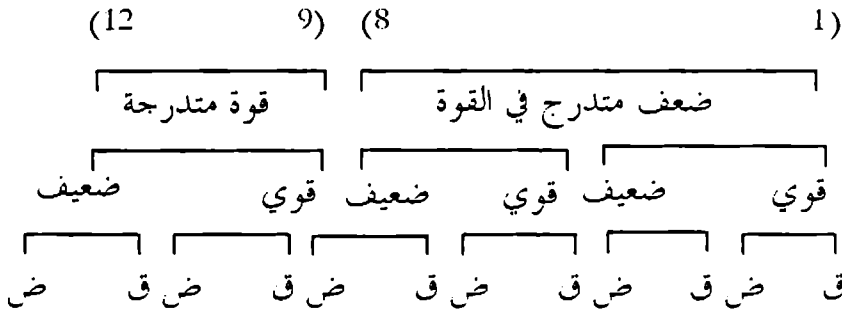
هكذا، فإن الطيور الحجارة إهلاك، وإبادة، وإحياء، وولادة، والحجارة مؤذية جارحة، ومعدن نفيس؛ وهي نصرة للمظلومين، وانكسار للطواغيت المتجبرين؛ لكنها لم تجد من يشد أزرها، وإنما ما هو مُجَرَّدُ أصوات، مثل عواء الذئاب، أو صمت مريب، أو ثرثرة متفهمة، أو عزف في فدغد، وصحراء..؛ إنه الأفق المسدود.

في هذا الأفق المسدود يبقى أمل في أحجار الواقع، والأحلام؛ حجارة الواقع طيور أبابيل، وحجارة الأحلام، والتمنيات، رعوذ، وصواعق مرسلة من السماء فتبيد الحرث، والنَّسْلُ؛ والليل مستودع الأحلام، والكوابيس، والهلع، والخوف، وهو مستقر الأحلام الوردية، والانتصارات المؤززة؛ إنه أحلام، واستيهامات، وتأملات في كيفية التوحيد بين المتضادات، وتحقيق الكرامات، وفرز بين الشكوك، واليقينيات؛ ومع ذلك، فإنه يتعين الاختيار حتى لا تكون هناك حيرة، وتوكل، وتيهان في بُنْيَاتِ الطريق؛ وقد تمزقت غشاوات الأفكار، فلم يبق هناك تردد في اختيار سبيل المقاومة، لأن الحجر الواقعي صار في كل بقعة، وساحة، إنه أمام كل واحد من الناس، وفي تناول كل شخص.

إذا صح فهمنا للأسطر، واستقامت قراءتنا إيّاها، فإننا نرى أنها تتحدّث، شعرياً، عن حركة الانتفاضة، الفلسطينية، وأطفال الحجارة؛ وهذه موضوعة تناولها كثير من الشعراء، والكتاب، والصحافيين؛ لكن كل واحد من الكاتبين فيها كان مشروطاً بنوع خطابه؛ وعليه، فإنه ليس من الصائب البحث عن مصادر القصيدة لأن هناك تراثاً مشتركاً يتحدث عن الطير الأبابيل، وعن الإسراء، والمعراج، وعن القدس.. وعن المقاومة، وأطفال الحجارة. لهذا، فإنه يصبح من الأهم أن تُبرَزَ الكيفيّة التي قدم بها الشاعر أطروحته.

2 - ألحان الحجارة

تحدث الشعريون، واللسانيون، عن الإيقاع، فقدموا مقترحات ذات أهمية؛ لكننا لن نكتفي بذلك، إذ سنعالج مسألة الإيقاع في إطار النظرية الموسيقية، على الرغم من صعوبة الأمر؛ وأول شيء علينا أن نتناوله هو تبیین الذروة الإيقاعية للقصيدة؛ وهذا يقتضي أن نجزي القصيدة إلى قسمين، فإلى أربعة... بناء على ما بين كل شذرة، وشذرة من بياض، وَمِنْ مؤشرات لغوية تفيد الاستقلالية؛ وهكذا، فإن الجزء الأول يتكون من ثماني شذرات (1 - 8)، والثاني يتألف من (9 - 12)؛ وبحسب الطرق المتبعة، فإنه يجب أن يُسند إلى كل من الجزأين إيقاع يتناوب بين القوة، والضعف⁽¹⁰⁾:



إلا أن البداية⁽¹¹⁾ يمكن أن تكون بـ(قوي)، ثم (ضعيف)، تبعاً للمقطع الأصلي، أو المزحلق في النظرية الموسيقية⁽¹²⁾، ولنوع المقطع في النظرية الكمية⁽¹³⁾؛ وفي كلتا الحالتين يمكن تحكيم البداية: (مُفَاعَلْتُنْ)؛ مُدْ فَا...؛ كما أن المعنى العام يعزز هذا؛ ذلك أن الجزء الأول تجزئاً (ض) (ق) لشذرات، والجزء الثاني جَمَعَهَا، وأن الجزء الأول توصيف، والجزء الثاني حَثْ ودعوة؛ يبتدئ الجزء الأول من:

(10) يقارن هذا بما في سبق في عدة مواضع من هذا المؤلف.

(11) ابتدأ بـ(ضعيف)، لأن بداية اللحن تكون متناقلة ثم تبدأ في الصُّعُود.

(12) نشير هنا إلى ما يدعى بالتوطية: (Anacrouse)، وإلى تأجيل النبر: (Syncope).

(13) الفرق بين (فعولن) و(فاعِلُنْ).

مَعِي حَجَرٌ . . .

وينتهي بـ:

فِي الْأَثَرِ الَّذِي يَبْقَى

وهو يتكون من أربع شذرات:

مَعِي حَجَرٌ - سَائِبُجٌ - نُجُومٌ مُثَلَّثٌ - هَلْ تَسَاوَتْ
(قوي) (ضعيف) (قوي) (ضعيف)

وينطلق الجزء الثاني من (أَنَا الرَّحَّالُ)، ويختتم بـ (يضع الطيوب عَلَى مِيَاهٍ)؛ وهو يتألف من أربع شذرات:

أَنَا الرَّحَّالُ - إِلَى لَيْلٍ - شَهِيْقُ الْأَحْجَارِ - أَضْدُقُ
(قوي) (ضعيف) (قوي) (ضعيف)

وأما الجزء الثاني فهو يتدشن بـ

واحة أخرى - لِيِ الْأَحْجَارِ - فَهَلْ تَتَوَقَّفُ الْأَنْفَاسُ . . . - غِشَاءُ أَفْكَارٍ . . .
(قوي) (ضعيف) (قوي) (ضعيف)

يمكن تقسيم هذه الشذرات على اثنين، أو أربعة للحصول على وزن ثنائي (قوي/ضعيف)، أو رباعي (قوي/ضعيف/قوي/ضعيف)، وهو ما نتج عنه الإيقاع المكتوب؛ على أنها يمكن أن تقسم على ثلاثة: (قوي/ضعيف/ضعيف)؛ لهذا، فإن الشذرات التي تصير قوية؛ هي:

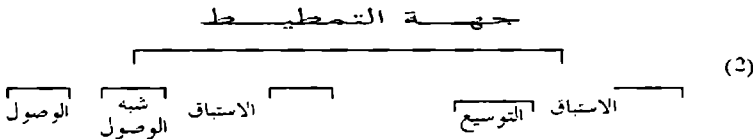
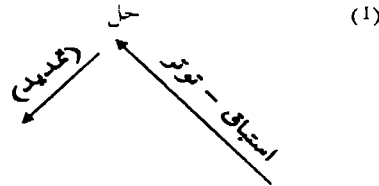
مَعِي حَجَرٌ - هَلْ تَسَاوَتْ . . . ؟ تَسْبِقُ الْأَحْجَارِ - لِيِ الْأَحْجَارِ
(قوي) (قوي) (قوي) (قوي)

ومعنى هذا أن: (معي حجر)، تَسْبِقُ الْأَحْجَارِ، قويتان في كل الأحوال؛ وعليه، فإن (قوي) (قوي)

النص جزئى إلى نصفين؛ أحدهما مِنْ (مَعِي حَجَرٌ - تَرَاهَا وَلَا تَرَاكَ)؛ وثانيهما من (تَسْبِقُ الْأَحْجَارِ - كله أحجار)؛ وبهذا تكون سِتُّ شذرات في كل جزء، مما يحقق التعادل على عكس ما اقترحناه في البداية؛ إن تقسيمنا ذلك مؤسس على البنية السطحية التي نتج عنها المعنى؛ إذ يتكلم الجزء الأول عن الصحراء، والثاني عن واحة أخرى، وعن المعراج.

على أن هذا التحليل يبقى عاماً؛ لذلك سننجز ما هو أدق منه بخطوات متتالية متدرجة؛ أولاها التَّمطيط، وثانيها التقطيع، وثالثها (التَّصْمِيت).

يقصد بالتَّمطيط أن تركيباً معيناً يحتوي على بداية، وقمة، ونهاية؛ هكذا يبدأ النص، ثم يأتي ما يعترض سيره فيقع توتر، ثم يأتي ما يُزيله، وهو الحل الذي عبارة عن نقطة الوصول، أو القمة التي تكون مسبقة بتراكيب صاعدة، ثم تتلوها أحياناً تراكيب نازلة؛ ويمكن تجسيم هذه الأقوال بأشكال مختلفة:



يساعدنا على تمييز مراحل التَّمطيط قواعد التجميع، والتركيب، والأسلوب من حيث هو وصف، أو سَرْد، أو حجاج؛ وكذلك الخبرة السَّابِقَة؛ أي البنيات اللسانية، وتواطآت القراءة؛ على أنها تبقى محكومة بالعمليات التأويلية؛ في ضوء هذا، نفترض أن الشذرات (1) استباق، (2)، (3)، (4) توتر، و(5) شبه وصول، و(6) وصول: أي (I-V-I).

يحدث في الاستباق عن الحجر، والصحراء، والأوراق، ثم يوسعه بتوتر للحديث عن الطيور، والأخجار، واللغة، وعن الليل، ونجومه، وبرودته، ثم يبدأ فيما يشبه الوصول.

أنا الرَّحَالُ

يَتَرَكُّنِي الْهَوَاءُ مُبَلَّلًا

ثم الوصول:

إِلَى لَيْلٍ أَقْبَسُ الْوَقْتَ بِالنُّسَيَانِ

سَهَرْتُكَ الْأَخِيرَةَ جَاءَنِي نَعَمٌ

ويمكن النسج على هذا المنوال لِتَبَيَّنِ تمطيط القسم الثاني بِاغْتِمَادٍ على بعض المؤشرات التركيبية والمعجمية، والدلالية، والأسلوبية؛ على أن هذه المقارنة تبقى عامة؛ لذلك يتعين إبرازُ التمطيط على مستوى كل شذرة؛ لكننا سنكتفي بتحليل الأولى ليقيس عليها من أراد:

I -] (1) مَعِي حَجَرٌ (بداية/ استباق)

] (2) تَكُونُ لَيْلَةٌ سِرْبٌ (تمديد/ توتر)

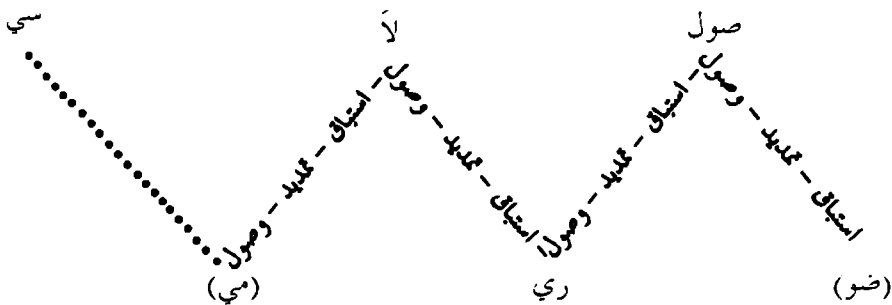
] (3) من الأحجار وَجْهٌ (تمديد/ توتر)

V -] (4) وحدهُ يمتد في أرضٍ هي الصَّخْرَاءُ (شبه قمة/ نهاية)

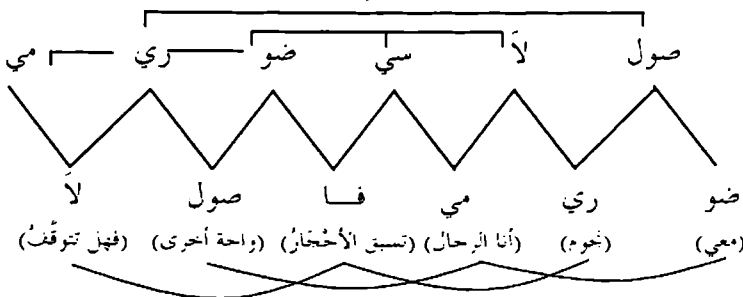
I -] (5) لِي أَوْزَاقٌ نَائِمَةٌ عَلَى كَتِفِي (وصول نهائي).

عى أنه من الجائز أن يكون (4) هو القمة، و(5) تمديد؛ والجمع بينهما يؤدي إلى (I-V-I). وإذ افترضنا أن القصيدة مترابطة الشذرات، فإن الوضع يصير كالآتي:

بداية/ استباق - تمديد/ توتر - وصول/ نهاية + بداية/ استباق/ تمديد/ توتر/ وصول/ نهاية وهكذا. وإن شئنا:



(سَأَتَّبِعُ) (هَلْ تَسَاوَتْ) (إِلَى لَيْلٍ) (أَصَدَّقُ) (لِي الْأَحْجَارُ) (غِشَاءُ)



أي:

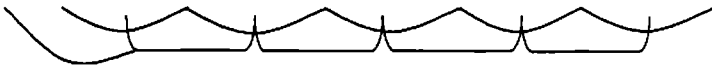
تعني هذه البنية أن هناك شبكة علاقات بين الشذرات من الناحية الموسيقية، والمعنوية؛ (1) تتحدث عن الذات المتكلمة التي لها حجر؛ و(3) تتكلم عن الليل، وبرده، ونجومه، والقوافل التي تسري فيه؛ و(5) تعيد القول في الليل البارد الذي ترتعش فيه الأغصاء بالقِرْ القارص، لكنه ليس إلا توطئة للحرارة الشديدة؛ و(2) تتعرض إلى وصف الرِّمَالِ الناعمة مثل جلد امرأة حسناء يُلمس على ضوء خافت في غياهب الليل؛ و(4) تومئ إلى الأحجار، والكلمات، والأشلاء، والقساوة؛ و(6) توحى بمجيء ليل ساكن لا صخب فيه تنزل فيه طيور الإنقاذ ترى، ولا تُرى.

يعيد الكرة إلى الحديث في (مي 7) عن العابرين الحَادِينَ، وعن الأحجار، وعن الشاعر المغني؛ وفي (صول 9) عن الأحجار، والمياه، والليل، والإسراء، والصحراء، والرمال، والناي، والذئب؛ وفي (سي 11) عن الليل الذي يوحد بين الأحجار، ويدحض الشك في جدوى المقاومة؛ وأما (فا 8) فتبشر بأن ما يظهر مستحيلاً سيتحقق، إنجازاً لِلْوَعْد، فتتغير الأحوال؛ وفي (لا 10) يرجع إلى ذكر الأحجار الباردة الملساء، والليل، والسكون، وَبَصِيص الضَّوء.

نستخلص من هذا التشابك ما يلي:

(1) (2) (3) (4) (5) (6) (7) (8) (9) (10) (11) (12)

● ضو - ري - مي - فا - صول - لا - سي - ضو - ري - مي - فا - صول



1. 3. 5 7. 9. 11

● ضو. مي. صول سي. ري. فا

● ري. فا. لا. ضو. مي. صول

● نسبة (ضو) إلى (مي) كنسبة (مي) إلى (صول) كُنُسْبَتِهِ إلى (سي) كُنُسْبَتِهِ إلى (ري)

كنُسْبَتِهِ إلى (فا).

● نسبة (ري) إلى (فا) كنسبة (فا) إلى (لا)، كنسبة (لا) إلى (ضو).

- ما لم يتكرر هو (لا - سي) من الناحية الأفقية.
- من الناحية العمودية هناك تناسب مثنوي: (3,5 : 7,9 : : 4,6 : 8,10)
- أن هذا التناسب هو التناص في تحليل الخطاب.
- أن الشعر المعاصر يثور على الزمن الخطي دون أن يحطمه بصفة مطلقة، وإنما يجمع بينه وبين الزمن العمودي، والمنحني.

لقد التجأنا إلى هذه المقاربة التي اعتمدت على علم الموسيقى، لأنّ التصورات اللسانية، والسميائية التقليدية، قد لا تُوصَل إلى أية نتيجة ذات أهمية. ذلك أن هناك تراكيب، وليست بتراكيب متعارف عليها؛ إذ هناك إقحام لمفردات، وإسنادات غريبة، وغياب علامات الرقم أحياناً، ووجودها بكثرة أحياناً أخرى. إن الشاعر المعاصر يعيد، ويكرر عناصر محدودة، لكنه يُقَلِّبُها في أوضاع مختلفة عديدة متداخلة تتفق في النواة وتختلف في التجليات؛ يتحدث الشاعر هنا على أطفال الحجارة، والانتفاضة، لكنه مَطَّطُها باستعارات، وتشبيهات، وبإدخال أجسام غريبة في أنسجة النص. والمثال الآتي يبين ما ذهبنا إليه:

سَاتَّبَعُ قُلْتُ

رَغَشْتَهَا

عَلَى جِلْدِ الرَّمَالِ نَكَادُ تَهْرُبُ

كُلَّمَا اقْتَرَبْتُ يَدَايَ

مِنْ التُّعُومَةِ تَحْتَ

ضَوْءٍ خَافِتٍ

يَسْرِي بَطِيئاً يَقْطِفُ الْغَنِمَاتِ مِنْ رَمْلِ إِلَى سَعَفِ

تَجَمَّعَ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ⁽¹⁴⁾

تتصل هذه الشذرة بما قبلها بالحديث عن الرمال الناعمة الموجودة في الصحراء؛ لكنه لا يلبث أن يضيف إلى ما سبق وجود النخيل ذي السَّعَفِ،

(14) محمد بنيس، المرجع المذكور، ص. 9.

والحرارة التي تفرض السفر ليلاً؛ وَقَدْ بَنَى هذا على تشبيهات، واستعارات، فذكر الجلد، والعرشة، والليل، والضوء الخافت، وقطف الغيمات، مما يُمَكِّنُ من صياغة التشبيهات/الاستعارات الآتية:

- الرمال النَّاعمة جِلْدُ امْرَأَةٍ مُرَقَّهَةٍ
- النَّخْلَةُ امرأة ذات قَوَامٍ ممشوق
- سَعَفُ النَّخْلِ دُؤَابَةٌ امرأة طَوِيلَةُ الشعر
- اللَّيْلُ الْحَالِكُ شعر امرأة سَمَرَاءَ
- قطف الغَيْمَاتِ الْقُبُلَاتُ
- الضوء الخافت الْمُدَاعِبَاتُ

وإذ ما اعتبرنا هذه التراكيب تعابير استعارية، فإن هناك استعارة تصويرية ولدتها؛ وهي: الأرض الحريم؛ وليست الأرض إلا فلسطين التي يجب الدفاع عنها. وإذا ما اقتنعنا بهذا التحليل، فإن الشذرة صارت متصلة بما قبلها، وبما بعدها، وأضحت الأجسام الغريبة مقوية لجسم النص باعثة الحيوية فيه. وهكذا، فإن كل مفردة يمكن أن تكون خلية لموضوعة معينة، مِمَّا يجعل النص الشعري مفتوحاً على تأويلات عديدة؛ على أن السياق الشعري العام، والثقافي، والسياسي، يعين على رَدِّ التشظيات إلى مركز جذب؛ ومركز الجذب هنا هو الانتفاضة، وأطفال الحجارة.

3 - استحجار الوجُود⁽¹⁵⁾

اتخذنا عنوان القصيدة مؤشراً للدخول إلى عالمها الذي يشمل الحديث عن الطيور، والصحراء، والليل، والنهار، والمطر...؛ وقد ادعينا، باعتماد على هذه المؤشرات، أن المقصود هو الانتفاضة، وأطفال الحجارة الذين يدافعون عن الأرض، والعرض؛ غير أن هذا السياق جد عام، لذلك يجب إسناده بسياق خاص؛ وهو قصائد الديوان.

(15) تعني صيغة (استَفْعَلَ) هنا: (ضار)، قياساً على (استنوق الجَمَلُ).

فلنبداً أولاً بـ(لك الأحجار)⁽¹⁶⁾ التي تضم: «عودة»، و«مزيج»، و«تذكير»، و«أطلال»، و«الصوت»، و«داخل»، و«نار»، و«سموم»؛ وهذه القصيدة تتداخل، وتتقاطع مع (أحجار وحدها)؛ وإذ إن كل مقطوعة ذات عنوان خاص، فإننا سندعي أنها بمثابة الشذرات التي تتداخل وتتسائد، وتتقاطع، وتتشارخ، على الرغم من انفصالها؛ لذلك، فإننا سنستخلص مدار حديث كل واحدة منها.

تحدث «عودة» عن الأحجار المرتبطة بالنشاط، وبالحركة، وبالشباب؛ واستعمال الحجارة دفاع عن الكرامة المهدورة، واسترجاع للسيادة المسلوبة، وهزم للظلم، وانتصار للعدل، ورمز للمستقبل الزاهر؛ وتكلم «مزيج» عن اندماج الكلمات بالأحجار، والأحجار بالمواويل، والأشعار، و«تذكير» عن تأخي الأحجار، والمياه، والطفولة، و«أطلال» عن تماثل الأحجار والكلمات؛ إلا أن الأحجار تتفوق على الكلمات إذا أحسن استغلالها، وإلا كانت مجرد بقايا خرائب، وأطلال، يذرف عليها الناس، والشعراء، الدموع، و«صوت»، عن الأحجار، والخصى التي يُطَيَّبُ الإمساك بها رائحة الأيدي، وتعيد الرجال إلى براءة الطفولة، وشجاعته، وتُشفي النفوس العليلية، وتطرد الظلموت، والطاغوت، و«نار» عن امتزاج الخصى، والأحجار، بالإنسان، فيتكون شواطئ الثورة التي تأتي على اليباس، والأخضر، و«سموم» عن الأحجار الممزقة للأجسام التي تؤدي إلى النصر المؤزر، على الرغم من كيد الكائدين، وتشكيك المترددين.

الأحجار أحجار طبعاً، لكن الكلمات أحجار أيضاً بحسب ما تقتضيه جبلتها؛ تبحث الكلمات عن مخبئها، فتزحف إليه، فتصدر أصواتاً تشظى إلى رئات، ومواويل، تهيب نفسها لتنخرط في المقاومة النشطة بعد أن تخرج من المخابئ، والغيران؛ ومع أنها ليست في مستوى الحجارة، فإنها أداة تخريض فعالة؛ إذ تصدر بها الأوامر، والنواهي، بل إنها في كل شيء، وفي كل مكان؛ إنها في الأحجار، وفي الأشجار، والحيوانات، والأفلاك، والأرواح؛ إنها هوية كل شيء.

تستعمل الأحجار، والكلمات، للدفاع عن الأرض؛ مهما كانت طبيعتها سواء أكانت أرضاً صحراوية جافة خلاء، أم كانت أرضاً طيبة تنبت من كل شيء زوجاً بهيجاً، ذات مروج خضراء تسر الناظرين؛ فيها أشجار الثَّقَّاح، والبرقوق، والتين،

(16) محمد بنيس، المرجع المذكور، ص. 46-29.

والزيتون . . ؛ وفيها أيضاً جَمَمُ البراكين ؛ أرض تنبجس منها العيون ذات الماء الرقاق في كل مكان، ويُسمع فيها خرير المياه في كل زمان، وينساب في الجداول، والوديان، وتنعكس أشعته على اللّامح والرّاني ؛ الماء ابن الحجارة وصنو الحصاة ؛ إنه يَبْلُلُهَا، وَيُرْطِبُهَا، وهي تُدَوِّرُهُ، فتجعل أصواته مُتَنَوِّعةٌ مُطْرِبَةٌ، أو متنافرةٌ مُقْرِفَةٌ.

اندمج خرير الماء بموسيقى ازرقاقه، وبرفرقة الطيور، وبأنغام الأرض، في لوحة اجتمعت فيها الألوان، وأطيافها ؛ هناك الأبيض/الأسود، وهناك الأخضر، والأزرق، وهناك تداخل الألوان في الرمادي، وفي الزرقة الخضراء . . ؛ كل ما في الكون له لونه: الأشجار، والأحجار، والرمال، والجبال، والفجر، والأصيل، والغروب، والعتمة، والليل، ونجومه، وقمره، ولون النهار، وشمسه ؛ لكن تلك اللوحة لا تحتوي على مكونات جامدة هامدة، وإنما هي حيوية ذات حرارة ؛ أو قل: إنها تجمع بين الحركة، والسكون. هناك «شمس تَلْعَبُ»، و«شمس تقود الراحلين إلى التّعارف»، وهناك قمر يبعث السكون، والراحة.

تلك موضوعات أساسية تتغلغل في ثنايا المقطوعات، فتتداخل، وتتقاطع، وتتبادل المواقع ؛ لهذا فإننا سنحاول أن نقدم ما يجمع بينها.

الإحيائية

ذلك أن كل ما في الكون له حياة، بحيث إنه يحس، أو يحس، ويدرك، أو يحس، ويدرك، ويعقل، أو يحس، ويدرك، ويعقل، ويستدل ؛ وهكذا، فإن الأحجار تحمل، وتذهب، وتجيء، وتتكلم، فتأمر، وتنهى ؛ والكلمات تفتش عن مخبئ، وتزحف، وتُغْنِي . . ؛ والأرض تستغيث، وتتحدث بلغة عربية مُبَيِّنَةٌ . . ؛ والشمس تقود، وتلعب . . ؛ والقمر يتسم، ويكُشِّر . . ؛ والماء يُبْدِلُ نُوبَهُ، ويُشِيدُ أَغَانِيَهُ . .

السُّلَيْيَّة

إن الناس الذين اعتادوا في حياتهم على أن يُفَرِّقُوا بين أشياء الكون، ويُمَيِّزُوا بعضها من بعض، فجزؤوها إلى مقولات، بناء على صفات، وأعراض، فارقة، يجدون صعوبة في تقبل هذه التعابير التي خالفت مجاري عاداتهم، وخصوصاً إذا لم تكن لهم أُلْفَةٌ بالشعر ؛ ذلك أن الشعر في كل زمان، وفي كل مكان، يُؤْخِذُ بين كل ما في الكون، بحيث يصير كل شيء يشبه كل شيء بجهة من الجهات، ويختلف معه بجهة من الجهات ؛ وإذا صح هذا، فإن كُلَّ شيء يدمج في كل

شيء، ويمزج كل شيء بكل شيء؛ هكذا أمكن الإدماج، أو المزج بين النار، والماء، فصار الممزوج حارّاً بارداً، وبين البياض والسود، فكان الرمادي...؛ وإذا ما جعلنا مقطوعة «مزيج» مثلاً، فإن ما قدمناه يتوضح: الكلمات أحجار؛ الكلمات بشر؛ الكلمات حَيَّات زَوَاجِف؛ الكلمات عِصِيّ؛ الرنات، والمواويل، حَيَّاتٌ في غيرانٍ...؛ إنها سلسلة غير متناهية من التشبيهات؛ بحيث يحدث أن يشبه شيء بشيء، ثم يشبه هذا «الشيء» بشيء آخر، وهكذا دواليك: الكلمات الشعرية بكلمات الوحي الأولى، وحدثت هذه بغار حراء للرسول ﷺ الذي حكى ذلك لبعض العارفين من أسرته، وأهله، ثم تلا ذلك من أحداث، وانتصارات، وانكسارات، ومصابرة، ومجاهدة: الشعر مقايسة تحطم الأزمنة، وتتعالى على الأمكنة، وتمرد على المعارف القانونية.

التناوبية

تَحَرُّرُ الشَّعْرِ من كل القيود الظرفية، والمعرفية، جعلته يؤسس مناوبة بين وسائل الإدراك، والتخيل، والتعقل؛ فإذا كانت هناك الحواس الخمس المعروفة ذات وظائف محددة لكل واحدة منها، كما هو شأن باقي الملكات الأخرى، فإنه منح لها منافع، ووظائف غير ما تعارف الناس عليه؛ وهكذا، فإذا وجدنا ما يلي معتاداً، فإنه يثور عليه:

- كَيْفَ تَرَكْتُ يَدَي تَلْمَسُ سَطْحاً

أَمْلَسَ

- اَمْتَحِنِي طَيْشَكَ

واشْمَمْنِي

فَأَنَا الطَّيْبُ الْعَائِدُ

- أَصَوَاتٌ تَظْهَرُ مِنْ صَوْتٍ

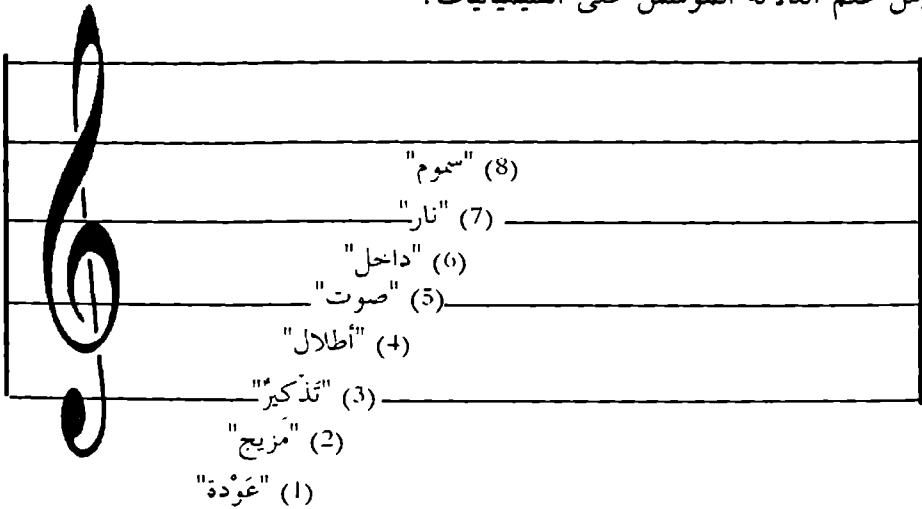
تَنْدَاحُ

كما يجد القارئ حديثاً عن الذوق، ويعثر على الاستعارات الإحيائية، والتشخيصية، والفضائية، والزمانية، والتعبير بأنواع الأحلام، والاستيهامات...؛

وبهذا يغيب العقل المعتاد ليحل محله ذهن وحدة الأكوان، فتصير العين «تشم»، والسمع «يرى»، والبصر «يدرك» الأصوات، والشم «يتذوق»، واللسان «يلمس» ويتخيل «العدم» وجوداً، و«الحلم» واقعاً، ويرى الأشياء في «تناقضها»، والتناسب في «التنافر»؛ ومغزى هذا هو خرق العادة التي تكونت من التجزيء، واقتراح الوحدة لعالم له «ذهنه» الخاص الذي يقوم على الوحدة، والتوحيد: الشعر المعاصر يقوم على المفارقة؛ التَشْطُّي، والتشرذم، والفوضى، والعماء... من جهة، والتوحيد، والوحدة، والانسجام من جهة؛ أي الوحدة المتكثرة.

4 - استنغام الكون⁽¹⁷⁾

«لك الأحجار» ثماني مقطوعات سنعتبرها بمثابة النغمات الثماني للسلم الموسيقي؛ على أننا ننبه إلى أن الشاعر ليس موسيقياً بالتعلم والاكتساب، لكنه موسيقي بالفطرة، والغريزة؛ لذلك، فإن ما يكتبه محكوم بقواعد موسيقية مركوزة في دماغه⁽¹⁸⁾؛ لهذا، فإن الشاعر، وهو يؤلف ألقانه، لا يكون خاضعاً لقواعد صارمة لِقْنَهَا في معاهد الدرس المختصة؛ ومن ثمة، فإنه لن يضير التحليل ما يوجد من اختلاف بين النَّتَاج، والقواعد. إذا ما استقرَّ هذا التوضيح في الأذهان، فإننا سَنَسْرِعُ نُبَيِّنُ وحدة المقطوعات، وانسجامها، مستوحين من علم الموسيقى، ومن علم الدلالة المؤسس على السيميائيات:



(17) استنغام: صَارَ نَغْمًا.

(18) الموسيقى مركوزة في كل كائن؛ لكن درجات المركز مختلفة.

هناك توافق بين	(1)	و(3)	و(5)	و(7)
	ضو	مي	صول	سي
وبين:	(2)	(4)	(6)	(8)
	ري	فأ	لأ	ضو

وبين هذا أن هناك علائق بين نغمات، أو درجات السلم كُلِّها؛ بناءً على وجود حركة تنطلق من نواة تُسري في كل ما تَوَلَّدَ منها؛ ومعنى هذا أن ما تحتوي عليه «عودة» يتكرَّرُ، أو يتردد صداه فيما يتلوهُ؛ وهو الأحجار، والكلمات، والأرض، والماء، والنار، والطيور، والزمان والمكان، والألوان، والصحراء.

المقطوعات	عودة	مزيج	تذكير	أطلال	صوت	داخل	نار	سموم
المشتركات								
الأحجار	+	+	+	+	+	+	+	+
الكلمات	+	+	+	+	+		+	(+)
الأرض	+	+	+	+	+	+	+	(+)
الماء والنار	+	+	+	+	+	+	+	+
الطيور	(+)		+		+		+	
الزمان والمكان	+	+	+	+	+	(+)	+	+
الألوان	+	+	+	(+)	+	+	+	+
الصحراء				+			+	+

نستنتج بعض الخلاصات إذا ما نظرنا إلى هذه الرقعة أفقياً، وعمودياً. تتردد أفقياً المفردات الأساسية كالأحجار، والكلمات، والأرض، والماء، والنار، والزمان، والمكان، والألوان، بعكس الطيور، والصحراء، وأما من الناحية العمومية، فإن «عودة»، و«تذكير» و«أطلال» و«صوت»، و«نار»، تحتوي على

مشاركات كثيرة؛ ودون ذلك «مزيج»، و«داخل»، و«سموم»؛ وعلى المستويين معاً، فإن هناك مفردات مشتركة بين كل المقطوعات يقتضيها التعبير باللغة الطبيعية ذات الإمكانيات المحدودة واللامحدودة في آن واحد، تبعاً للمدخرات وكيفيات التوليف فيما بينها، كما يرى ذلك التوليديون التحويليون؛ وهكذا إذا قَابَلْنَا بين: عودة/سموم؛ مزيج/نار؛ تذكير/داخل؛ أطلال/صوت، فإننا نرى بعض الاختلاف في بعض المفردات، وفي التراكيب، مما يجعل أن هناك اشتراكاً، واختلافاً، بين المقطوعات، حتى لكانها شبه مجموعة رياضية في تداخلها، وتقاطعها⁽¹⁹⁾.

إذا صح هذا التحليل، فإننا سنعرّضه بمقطوعة واحدة؛ وسنختار «عودة» لإنجاز هذه المهمة؛ ولحسن الحظ، فإن الشاعر ساعدنا، إذ جزأها إلى أربع مجموعات فَصَّلَ بينها بَيَاضٌ؛ على أننا لا نتبئى هذا إلا إذا أكدته المعطيات الحقيقية؛ وتحقيقاً للدقة المنشودة، فإننا سنقوم بضبط الهيكل العروضي، وإحصاء التفعلات، وتقسيمها لاستخراج عدد الدرجات، والمسافات؛ يظهر من بنية النص أن البياض لا يعني الاستقلال بين المجموعات، أو المقاطع، لأن الهيكل التفعلي لا يقبل ذلك؛ ولذلك فهو صمت فَاصِلٌ بين التفعلات، أو بين أجزائها؛ وعدد تفعلات المقاطع أربعون؛ إن هذا العدد يسهل علينا المأمورية إذا ما اعتبرنا المقطوعة من ذي الأربع الذي يتكون من طَينَيْنِ ونصف؛ وإذا إن كل طنين يجرأ إلى أربعة، فإن المجموع عشرة أجزاء؛ وهكذا، فإن $\frac{40}{4} = 4$. ومعناه أن كل طنين يتكون من ست عشرة تفعلة (16)، والنصف ثمان (8)، مما ينتج عنه أربعون (40)؛ وهذا يطابق تقسيم الشاعر إلى حَدِّ ما؛ على أن التسهيل والمطابقة لا ينبغي لهما أن يصرفانا عن الاهتمام بالصمت الذي هو قَسِيم الصوت؛ لذلك، فإننا نقترح إضافة طنين (16) مستخلص من الصمت لتُصبح المقطوعة من ذي الخمس. وتبعاً لهذا، فإننا نقترح أن يكون الطنين الأول من (12) للصوت و(4) للصمت = 16.

والثاني من (12) للصوت و(4) للصمت = 16.

والثالث من (12) للصوت و(4) للصمت = 16.

ونصف الطنين من (4) للصوت و(4) للصمت = 08.

(19) ننبه إلى أننا كلما دققنا لاستخراج سمات أخرى، فإن الفروق تظهر بارزة للعيان.

بناء على هذا يمكن اقتراح إعادة كتابة المقطوعة كما يلي :

<p>ثَمَّةَ أَحْجَارٍ تَهْرُبُ بِي نَحْوَ تِلَالٍ لَا أَخْضَرَ فِيهَا يَسْتَنْبِي (بياض) أَخْضَرَ مِنْ دَاخِلِ نَوْمِي أَسْمَعُهَا تَحْمِلُ بَغْضًا مِنِّي وَتَنْ هَذَا كُنْتُ صَغِيرًا أَتَخَيَّرُ وَاحِدَةً (بياض) مِنْ بَنِي الْأَحْجَارِ وَلَا أَذْرِي كَيْفَ تَرَكْتُ يَدِي تَلْمُسُ سَطْحًا أَمْلَسَ تِلْكَ الْأَحْجَارُ تَعُودُ إِلَيَّ (بياض) يَ الْيَوْمَ وَتَوْقُظُنِي أَحْجَا مُ الْأَخْضَرِ أَوْ رَقْرَقَةُ الْمَاءِ (بياض)</p>	<p>طنين</p> <p>طنين</p> <p>طنين</p> <p>نصف طنين</p>
--	---

إذا ما اقتنعنا بهذا، فَلْتَنَقِّذْمْ خطوة للحديث عن الإيقاع موظفين مفهوم اختزال التمثيط، أو تمطيط الاختزال؛ وإذ قدمت القصيدة نفسها في ثمانية مقاطع، فإننا نجعلها منطقاً لتمطيط اختزال يكون كالآتي:

القصيدة

(1)							
(2) قوي (ض)				(2) ضعيف (ض)			
(3) ض		(3) ق		(3) ض		(3) ق	
(4) ض		(4) ق		(4) ض		(4) ق	
ض	ق	ض	ق	ض	ق	ض	ق
↓	↓	↓	↓	↓	↓	↓	↓
سُمُومٌ	نَارٌ	صَوْتُ دَاخِلٍ	صَوْتُ دَاخِلٍ	أَطْلَالٌ	تَذْكِيرٌ	مَزِيحٌ	عَوْدَةٌ
VIII	VII	VI	V	IV	III	II	I

نقدم التوضيحات الآتية حول هذه الخطاطة:

- أننا ابتدأنا في القسم الثاني بـ(ضعيف/ قوي/ مسايرة لقواعد اللحن؛ إذ يبدأ صاعداً من الأثقل . . . إلى الأخف.

- أن التَوَتُّرَ والاسترخاء يفرض ما يلي:

(I - استباق)، و(II-III - توتر/ توسيع)، و(IV بين التوتر) الحل:

أُخْجَارُ مَمْلَكَةٍ تَهَاوَتْ

رُبَّمَا

(V) - (التوقف):

قِفْ

حيث الآن تَرَى سَفْحاً

أَسْفَلَ قِفْ

(VII) - شبه القمة):

أَخْجَارُ مَمْلَكَةٍ تَهَاوَتْ

رُبَّمَا

(VIII) - القمة):

أَبْدَأُ

تُمْزِقُ جِسْمَكَ

الْأَخْجَارُ

تلخيص ما تقدم في رسم متداول بين المهتمين، مع بعض التعديل:

جَهَّة التَّمْطِيطِ

استباق

توتر/ توسيع	بين بين	نحو التوقف	استباق	شبه القمة	القمة
I II III	IV	V	VI	VII	(I) VIII

إلا أن كل مقطوعة يمكن أن تُجَزَّأ إلى مقاطع؛ وكل مقطع يقسم إلى توتر/ استرخاء؛ هكذا يكون الوضع على الشكل الآتي:

جَهَّة التَّمْطِيطِ

استباق

توتر	توسيع	قمة
I	II	III
ثمة أَحْجَارٌ	تَهْرَبُ مِنِّي	لَا أَخْضَرَ فِيهَا
	نَحْوَ تَلَالٍ	يشبه أَخْضَرَ
		IV (صمت)

على أننا لن نكتفي بهذا، وإنما سنلتمس الإيقاع بواسطة التحليل الهيكلي العروضي، والمقطعي. فلنركز على نصف المقطوعة الذي يتكون من عشرين هيكلًا:

إذا اقتنعنا بما سبق، فإننا يجب أن نتقدم خطوة أخرى معتمدين على التقطيع العروضي :

- (1) مفاعَلَتُنْ
- (2) مُفَاعَلَتُنْ مُفَاعَلَتُنْ
- (3) مُفَاعَلَتُنْ مُفَاعَلْ
- (4) تُنْ مُفَاعَلَتُنْ مُفَاعَلَتُنْ مُفَاعَلَتُنْ مُ
- (5) فَاعَلَتُنْ مُفَاعَلَتُنْ مُفَاعَلَتُنْ




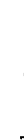


تحصل لنا من هذا التقطيع العروضي للشذرة إحدى عشرة تفعلة، وإذا إننا تبيننا ذا الخمس الذي يتألف من ثلاثة طنينات، ونصف، وإذا منحنا لكل طنين أربع تفعلات، فإننا نحتاج إلى أربع عشرة تفعلة؛ لذلك، فإننا مضطرون إلى إضافة ثلاث أخرى مستمدة من الصمت/ البياض لتستقيم القسمة؛ وبهذا يصبح الوضع كما يلي :

$$\begin{array}{ccccccc} \text{طينين} & + & \text{طينين} & + & \text{طينين} & + & \text{نصف طنين} \\ (4) & + & (4) & + & (4) & + & (2) \end{array}$$

وتبعاً لمقياس الوزن الثنائي، فإن هيئة الزمن كما يلي :

قوة/ضعف؛ قوة/ضعف؛ قوة/ضعف؛ قوة/ضعف؛ قوة/ضعف؛ قوة/ضعف؛ قوة/ضعف؛ قوة/ضعف.

على أننا لن نكتفي بهذا التحليل، لذلك، فإننا سنعالج المقاطع. ونذكر بأن أنواعها ما يلي :

فُصَّارٌ - أَقْصَرُ - قَصِيرٌ - طَوِيلٌ - أَطْوَلُ - طَوَالٌ					
مَ	أَحْ	تَدُّ	عِي	فِي	رَا (ء)
لي (أ)					
					
مستديرة	بيضاء	سوداء	ذات السن	ذات السنين	ذات الثلاث أسنان
4	2	1	$\frac{1}{2}$	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{8}$

في ضوء هذا ننظر في:

م	عي	ح	ج	رُن
قصار	طويل	قصار	قصار	أقصر
م	م	م	م	م
ذات	سوداء	ذات	ذات	ذات
الثلاث		الثلاث	الثلاث	السنين
أسنان		أسنان	أسنان	

$$1 \frac{5}{8} = \frac{1}{4} + \frac{1}{8} + \frac{1}{8} + 1 + \frac{1}{8}$$

وإذا ما انطلقنا من القيمة الزمنية الثابتة، وعدد الأزمنة: ، ونقصنا منها: $1 \frac{5}{8}$ ، فإن ما يتبقى: $2 \frac{3}{8}$ ؛ وهو خاص بالصمت؛ أي:

لحظة وثلاث برقات

$$\frac{1}{8} \frac{1}{8} + \frac{1}{8} + 2$$

أي من حيث طول المدة وقصرها:

معي حَجَرُ

النبضات:
المدة:

تَكْوَنَ لَيْلَةٌ سِرْبُ

.
.
.

مَن لَّ أ خ جَارٍ وَجُدْ هُنَّ
 وَخَدَّ هُوَ يَمْتَدُّ فِي أَرْضٍ هَيَّصَحْرَاءُ
 لِي أَوْ رَأَقُنْ نَائِمُنْ عَلَى كَتِفِي

إذا اتضح هذا، فلنمض إلى معرفة اللحن الذي تحكم في القصيدة؛ أول ما يشير الانتباه هو أن هناك اثنتي عشر شذرة تشجع على افتراض أن هناك روحاً تَسْلُسُلياً يسود فيها؛ على أن واقع النص يدحضه؛ فعلى الرغم من وجود بياض بين شذرة/مقطع، وشذرة/مقطع، فإن هناك ترابطاً، وتالياً، تحققه مفردات اللغة، وتراكيبها، وزمنها...؛ وعليه، فإن الأرجح هو تناولها بآلات الموسيقى التوافقية؛ وذلك ما فعلناه سابقاً؛ وصيغته القانونية هي كما يلي:

ضو	سي	لا	صول
لا	صول	فا	مي
فا	مي	ري	ضو

ذلك ما يتعلق بالصوت/السواد؛ وأما ما هو خاص بالصمت/البياض، فنوضحه بعد القيام بعملية تأطير وتتميم:

ثمة أحجارٌ تَهْرُبُ بِي
 نَحْوَ بِلَالٍ

(1) التأطير:

(2) التتميم: وخصوصاً ما يتعلق بالقيم:

تَهْ رُ بْ بِي

$$1 \frac{1}{1} = 1 + \frac{1}{8} + \frac{1}{8} + \frac{1}{4}$$

$$2 = \frac{1}{2} + 1 + \frac{1}{8} + \frac{1}{8} + \frac{1}{4} + \frac{1}{4} +$$

أي: $2 + 1 \frac{1}{2} = 3 \frac{1}{2}$ ؛ أي أن الصمت يمثل $(\frac{1}{2})$ إذا ما اعتبرنا: $\frac{4}{4}$

نَحْ وَ ت لِنْ

$$\frac{6}{8} = \frac{1}{4} + \frac{1}{8} + \frac{1}{8} + \frac{1}{4}$$

وهذا العدد هو مقدار الصمت؛ وإذا مانحنا للصمت علامات، فإنها تكون في السطر الأول:

ك ومضة $\frac{1}{2}$ ؛ وأما السطر الثاني، فتكون فيه — لحظة 2، وطرفة لح 1 ولحة $7 \frac{1}{4}$.

5 - استشكال العالم

انطلق تحليلنا للمقطوعات من افتراض أن هناك توحيداً، ووحدة عميقة، أو ما عبرنا عنه بالاتصالية، حتى لا ننخدع بالتشردم الظاهر؛ وقد برهنا على ذلك من خلال اللحن، والإيقاع، والدلالة، مستوحين من علم الموسيقى، والتحليل بالمقومات.

زيادة في الإيضاح، وتعميقاً للبحث، فإننا سنقارب النص الأخير من (هناك تبقى)⁽²⁰⁾ لتتجاوز الشعر المعبور، والمسطور إلى الشعر المنشور؛ والقصيدة هي (هناك تبقى) المعنون بها الديوان. وقد قسمها إلى واحد وعشرين مقطوعة، أو شذرة، أو (حجرة)، مع استعمال الأرقام الرومانية. وإذا ما استحضرننا ما أشرنا إليه من نزعة إحيائية، وتشخيصية، وأنسية، فإن كل ما يذكره مشبع بهذه الخواص مجتمعة، أو مفردة؛ الصحراء، والحجر، والألوان، واللغة، والليل، والنهار، والنار، والهواء، والماء، والتراب، والطير.

(20) محمد بنيس، المرجع المذكور، ص. 155-183.

تكاد لا تخلو أية شذرة من كلمة (الحجر) التي صارت لها دلالات رمزية؛ هي حجارة المقاومة، والحرب، وحجارة البناء، والتشييد، وحجار شواهد القبور، وحجارة تتفجر منها ينابيع وأنهار، وحجارة الأضرحة، والخرائب، والأطلال، وأحجار التبرُّك، والتيمُّم، واللمس... وإزالة النجاسة. وقد ارتبطت موضوعة الحجر بموضوعة الأرض، بل إنه وليد الأرض، فمنها خلق، ونشأ، وعليها يدافع حينما تشتعل المقاومة بالمقاومين؛ في الحجارة موعظة لأولي الألباب، إنها ناطقة بلسان الحال، وبما لها من ألوان، وأشكال؛ هي كتاب تاريخ الأجداد بكل ما فيه من فتن، ومقاومة، وجهاد؛ هي قصائد مديح للمنكوبين، والمَقْمُوعِينَ، وقصائد هجاء للجبروت، والطاغون الذي امتلأت بمذابحه الأرض.

ترددت في الشذرات علاقة الحجارة باللون، مما أحالها إلى لوحات تشكيلية؛ هناك اللون الأخضر الذي هو رمز للشرف، والسمو، والعزة، والأمل، والبياض الذي له لمعان يضيء الفضاء، والأزرق الذي في السَّماء، ولون الفجر، ولون الغسق، ولون الشفق...؛ تحافظ على دلالاتها، واستعمالاتها حيناً، وتتداخل أطيافها، وتتعاقد، وتترادف، وتتبادل تارات أخرى:

III

«أَخْجَارٌ فِي الْمُرْتَفِعِ ثَابِتَةٌ تَنْتَفَسُ الصُّمْتُ سَفْحٌ تَتَعَاقَبُ عَلَيْهِ الْأَلْوَانُ
أَزْرَقٌ يُعْطِي الْبُنْيَ أَخْضَرُ يَتَفَجَّرُ يَنْابِيعَ رَمَادِي يَنْفُذُ إِلَى الْأَخْضَرِ
الْغَمِيقِ»⁽²¹⁾.

وإذ اللغة مُرَادِفَةُ الحجرة، فإنها احتلت مكاناً مَرْمُوقاً؛ هكذا استعملت كل مكوناتها، مثل الصوت، والترنيم، والغناء، والمديح... وإلى كل ما يمكن إرجاعه إلى الحقل الدلالي الذي تكونه؛ كما أنه يوظف قسيمها، وهو الصمت. وهكذا، فإن الدموع كلمات، والسياب المزركشة ترانيم، وضوء القمر كِتَابٌ، وأوراق المدائح، وجدول الكلمات، وأصوات المرتلين:

(21) ما تقدم، ص. 157.

«الشعراء المجاذيبُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكَلَامِ مَشْهُدُ اخْتِرَاقٍ»
 «لَكَأَنَّمَا اللَّيْلُ يَدْعُونِي لِأَنِّي أَرْقُصُ
 كَلِمَةً جَنْبَ كَلِمَةٍ هِيَ
 اسْتِقْبَالُ مُنْمَنَاتٍ فِي صَفْحَةٍ أَرْجَاؤُهَا
 اللَّانِيَهَاءُ»⁽²²⁾.

موضوعة الحجارة، واللغة إلى جانب النار، والهواء، والماء، والتراب، أعضاء نبيلة في جسم القصيدة الشعرية؛ وهي كلها تمتازج، وتتداخل، فيصير كل شيء فيه شيء من غيره؛ على أن مدار الحديث الأهم هو الإنسان وجسمه؛ لكن إدراك الجسد عند الشاعر ليس هو عند الإنسان العادي! إن العين، والأذن، والأنف، واللسان، واللمس تتوهم، ولا تدرك بالمعنى المتعارف عليه؛ وإذا كانت هذه التوهمات غير مقبولة في الحياة العادية العملية، والبحث العلمي، فإنها هي لب العملية الشعرية الإبداعية: العطش ذئب، والروائح نساء... واليمين خلف، واليسار فوق، والأمام تحت...؛ ومن يَدْرِي أن تصير الأعالي أسافل، والأشجار، والأحجار، والجبال، والوديان... فوق، والشمس والنجوم، والكواكب، والأفلاك... تحت.

يرتوي الجسد من المقدس، والمدنس، بالسماع، وبالرقص، والملابسة؛ تجد النساء والشعراء، والمجازيب الضالّة، في الأضرحة؛ الأضرحة فضاء للجذبة، والحضرة، وامتزاج الأحاسيس الواقعية، والمتوهمة.

- «... فيه قطيعٌ مِنَ الإِخْسَاسَاتِ

يَزْعَى الشَّرَائِبِ»⁽²³⁾.

- «أَنْتِ الْآنَ فِي حَضْرَةِ الْمَكَانِ»⁽²⁴⁾.

- «الْمَوْتُ تَرَكْتُ يَدَيْكَ فِي وَطَنِ السَّيِّدِ»⁽²⁵⁾

(22) ما تقدم، ص. 173.

(23) ما تقدم، ص. 163.

(24) ما تقدم، ص. 176.

(25) ما تقدم، ص. 165.

الجسد يذبح، فتجري دِمَاؤُهُ أَنهَاراً، وأوديةً، أو يستحيل مجرد تابع لأفاعيل اللغة، والترتيل، والإنشاد:

«كَمَا لَوْ أَنَّ جَسَدِي

مُجَرَّدُ هَوَاءٍ كَبُرَ بَيْنَ تَرَائِمٍ تَتَأَلَّفُ

فَوْقَ شَفَتَيَّ

مِنْ جِينٍ إِلَى جِينٍ»⁽²⁶⁾.

الجسد محكوم بوعاء الزمان، والفضاء: فلق الفجر، وغسق الغروب، وناشئة الليل، وحمارة قيظ النهار...؛ وبهندسة البيوت الطينية ذات الأشكال الغربية، وبالقمم الشامخة، وبالمهاوي العميقة:

«جَسَدٌ يَلْتَقِي الْأَشْبَاحَ أَزْرَقُ يَشْرَبُ حُمْرَةَ الْغُرُوبِ لَا تَقُلْ

مِنْ أَيْنَ أَنْتَ سَمِعْتُ جَسَدِي يُكَلِّمُ جَسَداً فِي هَيْئَةِ طَائِرٍ خَرَجَ مِنْ

بَيْنِ أَغْصَانِ النَّشْتِ رَافِعاً صَدْرَهُ مُتَّصِداً هَبَّ فِي جَمْعٍ

طُيُوراً لَمْ أَكُنْ أَغْرِفُ»⁽²⁷⁾.

هناك زمان مقدس هو الأعياد الدينية، والدينية في أيام معلومات، وفي أشهر معلومات... وفضاء مقدس هو الجبل الضريح الشامخة قممه إلى السموات العلى، أو على وإد منهمرة مياهه، أو سَاحَاتِ جَذَابَةٍ لأُولِي الْمَآرِبِ. «حضرة الفضاء» تشرط الجسد، وأفعاله، وأشكاله الهندسية من دوائر، ومربعات، ومثلثات، تحدد التصرفات، والوظائف؛ الزمان، والفضاء المقدسان يشملان كل ما في الحمى: قداسة الحجر، وقداسة الشجر، وقداسة الحيات، وقداسة الحشرات؛ وبهذا، فإن الزمان، والفضاء، المقدسين، يصيران رمزاً لوحدة الوجود، بل يتوحد فيهما كل ما في الوجود: تنام الحية مع الإنسان، فلا تؤذيه، ولا يؤذيها، يقبل الإنسان الحجر فيشعر بحرارة، ويلثم الشجر، فيشم رائحة عطرة. تتحدث الحجرة، والشجرة، والحية، مع الإنسان حديثاً ودياً إذا كان من عباد الله المخلصين،

(26) ما تقدم، ص. 171.

(27) ما تقدم، ص. 174.

وتؤنّب إذا كان من القوم الضالين الظالمين؛ هكذا تصير الحية هي المرأة، والمرأة هي الحجرة، والحجرة هي الشجرة، والشجرة هي الأنثى... سلسلة مترابطة الحلقات يسلم بعضها إلى بعض في دائرة محيطة بكل شيء.

يرفض بعض الناس هذه الحلقة المفرغة التي تجعل كل ما في الكون يتصل، ويعود إلى حيث الواقع الذي ابتدأ منه؛ لكنها تقترح آفاقاً غير محدودة، وغير متناهية، وغير حتمية، كما كان يرى كثير من الحكماء السالفين، ومن المعاصرين، كالشعراء، والعلماء، والمجدوبين، والحالمين.

6 - تجليات الأشكال

إن ما قدمناه يمتح من إبداعات بشرية كثيرة اعتمدت على التراث الصوفي، والآداب الرومانسية، وما تولّد عنها من تيارات أدبية؛ وإذا ما توقفنا عند إبراز المضمون، فإننا نكون مقصرين بالقياس إلى الدراسات العميقة الضافية المنجزة حولها. لهذا، فإننا مضطرون، ومكروهون لوضع هذا المضمون في إطار النظرية الموسعة التي نقترحها.

عبر ديوان «هناك تبقى» عن هذه المضامين بشعر التفعلة الواحدة الذي يمكن تسميته بالشعر المعبور، وبتعدد التفعلات في الشعر المسطور، وبالمشور المتصاف المرصوف، أو المشتت الأصوات المتشظي؛ وإذ إننا حللنا نماذج من المعبور، والمسطور، فإننا الآن سنقارب المشور، وخصوصاً المقطوعة (I)⁽²⁸⁾.

تحتوي هذه المقطوعة على أربع فقرات يفصل بينها بياض، مما يجعل هناك ثلاث مسافات بيضاء، وليس هناك أية علامة رقمية من أي نوع، فلا قَوَاصِلَ، ولا نقط، ولا استفهام، ولا تعجب... وإنما هناك إركام للمفردات، والتراكيب، حتى إن القارئ لا يدري أين يقف، ويحتار في تحديد موقع فصل الجمل بعضها عن بعض إذا صح أن هناك جملاً بالمعنى المتعارف عليه. تتكون الفقرة الأولى من خمسة أسطر، وربع سطر، والثانية من سطر، وثلاثة أرباع، والثالثة من سطرين، وثلاثة أرباع، وكذلك الرابعة.

(28) ما تقدم، ص. 155.

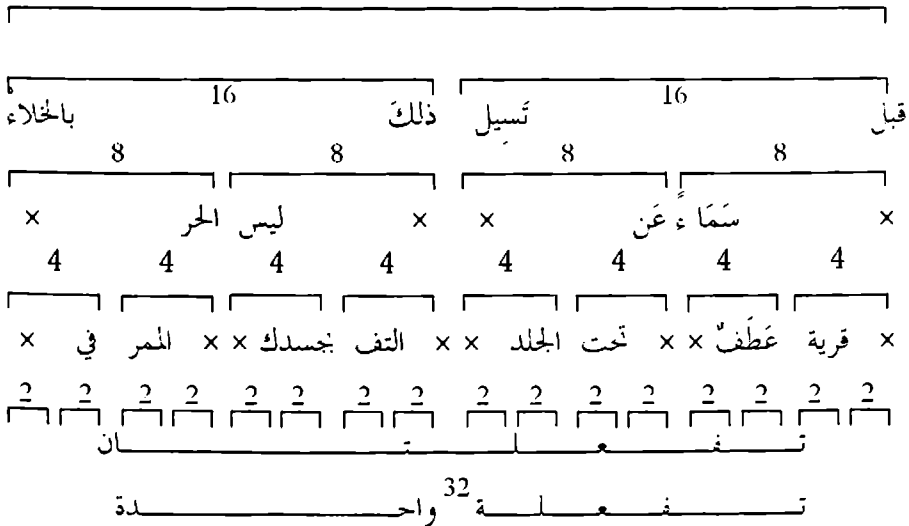
إذا كان الأمر هكذا، فكيف يمكن إنشاد هذا الشعر، أو قراءته؟ هل يكون الإنشاد، أو القراءة، بدون توقف، من بداية الفقرة إلى نهايتها؟ إذا كان الأمر صعباً، فما الحل؟ هل يمكن اقتراح وقف على شاكلة ما صُنِع بالتراث؟ ما هي معايير هذا الاقتراح؟ هل التركيب؟ هل المعنى؟ هل الإيقاع؟ هل انقطاع النَّفَس؟ ليس هناك تركيب، وإنما هناك تراكم تائر على القواعد النحوية أحياناً كثيرة، وليس هناك مَعَانٍ محددة، لكن هناك تواشجاً بينها، وليس هناك إيقاع مضبوط، بناء على وزن، أو تفعلة، مما يضطر القارئ إلى تبني إيقاع لا يخلو من الاختزال، والاعتباط، والذاتية.

تذليلاً لهذه الصعوبات ندعو القارئ إلى مراجعة ما قدمناه؛ وبتلخيص فيما يلي:

(1) التجزيء المتدرج المستند إلى مؤشرات تركيبية، ودلالية. (2) استخلاص الهياكل العروضية. (3) تقسيم ما حُصِّل على اثنين، أو ثلاثة، أو أربعة، بحسب الوزن المختار. (4) التحليل المقطعي. (5) تَدْرِيج النبر. (6) الإنشاد؛ بكل هذا تبين حدود الوقف، أو الصمت، والتوقف اللحني، والمعنى.

تحتوي المقطوعة على اثنين وثلاثين (32) هيكلًا عروضيًا؛ وبناء على هذا المعطى يمكن تقطيعها إلى ما يلي:

32



ثم تحليل التفعلة إلى مقاطع

أسماءها: ذات ذات ذات ذات ذات
السنين الثلاثاء الثلاث الثلاث الثلاث
أسنان أسنان أسنان أسنان أسنان
قيمها: $4 = 1 + \frac{1}{8} + 1 + \frac{1}{8} + \frac{1}{8} + 1 + \frac{1}{8} + \frac{1}{4} + \frac{1}{4}$

يضعنا هذا الوضع أمام إشكالٍ يحتاج إلى حل. ذلك أننا إذا اعتبرنا الوزن بسيطاً: $(\frac{4}{4})$. فإنه يكون هناك تطابق بين عدد الزمن (4)، وقيمة الزمن (4)؛ وهذا يعني أن ليس هناك صَمْتُ، وإنما يكون هناك نطق، أو إنشاد (قبل الوصول إلى هنا) دفعة واحدة؛ وخلاً للإشكال، فإننا سنجعل الوزن مُرَكَّباً: $(\frac{8}{4})$ ؛ وعلى هذا، تبقى أربعة تُخَصَّصُ للصمت الذي سنحدده فيما يلي:

قَبْ (صمت) لَبْ (صمت) وَ صُوْ (صمت) لِ إلى (صمت) هُ نَا (صمت)
 $(1) \frac{1}{2}$ $(1) \frac{1}{4}$ $(1) \frac{1}{4}$ $(1) \frac{1}{4}$

هناك تدرّج في الصمت كما كان هناك تدرّج في الصوت؛ وأطول ما كان عليه التوقف؛ وبنيته في التركيب كما يلي:

الأسماء: اللمة - اللمة - اللمة - اللمة - اللمة - اللمة

العلامات: 7 7 7 7 7 7

القيم: $4 = 1 \frac{2}{4} + 1 + 1 + 1 + \frac{1}{4} + \frac{1}{4}$

بناء على هذا التحليل المستند إلى الإيقاع استطعنا لا أن نُحدّد مواقع الصمت، بل منحنى قيماً زمنية لمقداره؛ ومع ذلك، فإنه يمكن الاستئناس ببعض الخصائص التركيبية أيضاً، مثل التكرار، والتماثل، والتوازي سواء أكانت بين الجمل الفعلية، أم بين الجمل الاسمية:

سُوقُ قرية	تَفْصِلُ
منعطف له	تسقط
الْحَرُّ في الجهة	تغسل
ضوء الشمس	تسيل
علامة بشر...	أتى إليك
	التف بجسدك
	التبس عليك
	ليس أَلْبَرْدُ
	ليس الحر

في ضوء هذا يمكن أن يكون هناك تضافر بين الأوزان، والإيقاع، والتراكيب، والمعنى، لاقتراح أوقاف دقيقة تعتمد على المسافة الزمنية، وأوقاف تقريبية تستند إلى الجمل، والمعنى. ذلك أن الاعتماد وحده على الجمل إذا وجدت يبخر الشعر خصائصه، والاستناد إلى الإيقاع وحده يخل بالتواصل الذي هو هدف كل رسالة، ويعدم هوية الشعر فيصير كأنه مجرد أصوات منظمة شبيهة بموسيقى مآ.

تتحدث المقطوعة الأولى في لغة سردية/وصفية عن مسافر إلى موقع مآ، ومعاناته شدائد، وأهوالاً، أثناء السير. ذلك الموقع هو أحد الأضرحة التي تقع في جبل العلم، العاج بالوافدين، والزائرين، ومقدمي القرايين المختلفة؛ وهذه المقطوعة هي نواة لما سيتلوها؛ حيث الحديث عن شمس الظهيرة، وعن الموقع الشامخ، وعن الأشجار، والأحجار، وعن الرجال، والنساء، والذكر، والحضرة، وترتيل القرآن، والألوان، والمياه...

إنه فضاء مقدس يفرض موسيقى تعبيرية من نوع خاص، حتى يتحقق الانسجام بين الجوّ الروحاني، والجسدي، وسنوضح هذا معتمدين على

المقطوعات جميعها؛ وعددها واحدة وعشرون؛ إلا أننا سنضيف إليها ثلاث مقطوعات صُمِّتْ ليصير المجموع أربعاً وعشرين؛ وبناء على هذا، فإننا أمام خيارين؛ إما أن نعتبر كل مقطوعة جزءاً من طنين، فيكون لنا سلم واحد مكون من ذي الأربع، ومن ذي الخمس؛ وإما أن نتبنى سلمين مُلوَّنين؛ على أننا نتبنّى الاختيار الأول حتى نغني المقاربة.

وعليه، فإن (I - IV) طنين⁽²⁹⁾

طنين (VIII - V)

طنين (XII - IX)

طنين (XVI - XIII)

طنين (XX - XV)

(XXI -) بياض طنين

والطريقة التي يمكن اتباعها لتحقيق تعادل الأبعاد ومعرفة نصفها، وتحديد مكانها هي: (1) أن نأخذ الجزء الأكثر فنحلله إلى هياكل عروضية، (2) أن نتخذ العدد الذي تحصل منه مرجعاً، (3) أن نتمم الجزء الناقص بهياكل البياض؛ وتبيان هذا سنختار المقطوعة الأولى التي عدد هياكلها ثمانون (80)؛ وليكن هذا العدد هو المرجع؛ ومعنى هذا أن كل طنين يجب أن يحتوي على $4 \times 80 = 320$ ، نصفه $(320 \div 160)$ ؛ أي أن ذا الأربع $(320 + 320 + 160 = 800)$ ، وأن ذا الخمس $(320 + 320 + 320 + 160 = 1120)$ ؛ وأما تحديد نصف البعد فهو يتعلق بطبيعة السلم، من حيث هو كبير، أو صغير، طبيعي، أو مُلون؛ موقعه في الطبيعي بعد الطنينين، والثلاثة، وفي غيره يكون في الأول، أو في الوسط؛ وقد أبنا ذلك مراراً في هذا المؤلف؛ ومع ذلك نعيده:

(29) يعرف القارئ أن السلم يتكون من طنين ونصف، وثلاثة طنينات ونصف؛ وكثيراً ما أشرنا إلى هذا، وسيأتي بيانه بعد أسطر.

سلم المقام الكبير (ضو)

سلم المقام الصغير (لا)

I II III IV V VI VII I
الأساس الأساس فوق الوسطى فوق تحت الثانية الثانية الثانية الشاعرة فوق حروب الشاعرة فوق الأساس

في المقطوعة الأساسية إشارة إلى الحجر، ثم بدأ يفصل الحديث عنها فتساءل عن كيفية تفتُّته، وعن أنواعها، ثم وصل إلى محطة السير التي هي تازورت فرحب به، ووعد بالطمأنينة، وبإنقاذه من الإحساسات القلقة، فإلى أرض الضريح المقدسة التي جاهدت للحفاظ على تلك القدسية؛ وأثناء الرحلة مرَّ بمسالك وعرة، إلى القمة؛ هكذا صعد من حجر إلى حجر في طريق متعرج سلكه الأجداد، ممتعاً نظره بمختلف النباتات، والحيوانات، والأناس، متنقلاً من جبل إلى جبل، متذكراً ما شهدته هذه الجبال، وشاهدته، من حروب طاحنة، مما خلَّد في الأوراق، وفي الأسفار.

ها هي قمة الجبل الصخرية، وها هو المكان المقدس، وها هي الموجودات، والمعدومات، المقدسة؛ وها هو الشيخ، وضريحه يُمثِّلان تاريخ

التضحية بالدم، وبالمال، في سبيل الحفاظ على الهوية؛ وها هم الزوار المزدحمون المحمّلون بالهدايا، والقرايين، ينتظرون قدوم الليل ليجتمعوا على الصلاة، ويتحلّقوا للذكر، ويجلسوا لترتيل القرآن، والأذكار؛ وبهذا تأخذ النسوة الزائر، في هذا الجو المفعم بالروحانيّات، والمادّيّات، فيتوهّم أنه صار كائناً آخر انفتحت له الحضرات، فعاش في الملكوت.

«أَنْتِ الْآنَ فِي حَضْرَةِ الْمَكَانِ كَيْفَ لَكَ أَنْ تَقِيَسَ سِرّاً مَا أَحَاطَ بِكَ نَزَلَ عَلَيْكَ وَأَنْتِ فِيهِ»⁽³⁰⁾.

إنه يعيش في الفراغ، وفي البياض، وليس فيما هو مليء، وسواد: «أَسْكُنْ فِي الْبَيَاضِ»⁽³¹⁾.

إنه بياض لا تدركه العين، لكنه يدرك بعين البصيرة التي يمتلكها الأولياء، والشعراء، والمجاذيب، هؤلاء الذين لبسوا أسارى الظواهر.

أظهر هذا التلخيص أن هناك علائق عضوية بين مقطوعات القصيدة أفقياً؛ إذ هناك صيرورة تتجلى في بداية، ومراحل، ونهاية؛ وهذه الصيرورة موجودة على مستوى القصيدة، وعلى مستوى كل مقطوعة؛ وقد أسمى الموسيقيون تلك المراحل بالمحطات التي فصلوا القول فيها؛ على أن ما ظهر لنا هنا هو المحط التام الآتي:

I	V	I
قَبْلُ الْوَصُولِ	شَيْئاً فَشَيْئاً	هُنَاكَ تَبَقَى
I	XX	XXI

وهو يوجد على مستوى المقطوعات أيضاً⁽³²⁾، كما تبين ذلك التعابير اللغوية الآتية:

(30) محمد بنيس، المرجع المذكور، ص. 176.

(31) ما تقدم، ص. 177.

(32) سنقدم أمثلة لقيس عليها من أراد.

● المحط

I - «... يَغْتَبِطُونَ بِالنُّومِ فِي مَجَارِ الذِّكْرِيَّاتِ»

II - «... تَطْفُو فَوْقَ الطَّرِيقِ»

III - «... وَبِنَفْسِهِ الْحَجَرُ يَكْتَفِي»

● التوتر

I - «... صَارَتْ شَهْوَةُ الصَّنَمِ أَعْتَفَ»

II - «... هَذَا الْقَلِيلَ الَّذِي يَلْتَهَبُ

فِي ظَهِيرَةٍ»

III - «... يَوْمَ اشْتَعَلَتِ الْأَرْضُ...»

● المنطلق

I - «قَبْلَ الْوَصُولِ...»

II - «لَكِنِ الطَّرِيقُ...»

III - أَحْجَارٌ فِي الْمَرْتَفَعِ...»

يقتضي هذا التناول الأفقي التَّعَرُّضُ إِلَى التَّمْطِيطِ الَّذِي يَتَأَسَّسُ عَلَى الاسترخاء، والتوتر؛ وهو يكون على مستوى القصيدة، وعلى مستوى كل مقطوعة؛ وإذ تناولناه بتفصيل⁽³³⁾، فإن الإشارة تكفي هنا إلى أن الدرجات الأساسية؛ هي: (I-IV-V)، والثانوية؛ هي: (II-III-VI-VII)؛ ولما تقع درجة ثانوية بعد أساسية تحدث توتراً يحل بأساسية.

وأما العلائق العمودية، فهي نتاج توافقات، وائتلافات بين الدرجات؛ وها نحن نقدم للقارئ خطاطة تلخص الوضع:

(33) انظر الفصول السابقة.

7 - مفارقة الحجارة

حرصنا فيما قدمنا أن نبرز الموسيقى التصويرية للرموز وأبعادها؛ وهي مستقاة مما ورد في التراث الإسلامي في سياق الدفاع عن الأرض، والعرض، والهوية الدينية، والتاريخية، والمعيشية؛ على أن ديوان «هناك تبقى» نبهنا إلى المفارقة المحايثة لهذا النوع من الاقتراض؛ إذ هناك جانب إيجابي، وهناك ناحية سَلْبِيَّة. يتجلى الجانب الإيجابي في المواقف النموذجية للرسول ﷺ وصحابته، وأولياء الله الصالحين من جهة، ومواقف أعدائهم من جهة ثانية.

كان الرسول: صحابته :: زعماء قريش: أتباعهم.

الرسول: الوحي :: زعماء قريش: الوسواس الخناس.

جند الرسول: الملائكة :: جند قريش: المشركون.

لقد كان النصر حليف الرسول ﷺ، وأتباعه، وحاقت الهزيمة الماحقة بالطاغوت الكافر؛ وقد صار هذا الواقع التاريخي نموذجاً يقاس عليه:

أطفال الحجارة: تحرير فلسطين :: القوة الغاشمة: الأرض المحتلة.

مقايضة الوضع الفلسطيني الراهن بالوضع الأولي للدعوة الإسلامية يجمع بينهما أكثر من مناسبة؛ وأهمها إسهام القوى الروحانية في تحقيق نصر المسلمين؛ وبهذا ستكون تلك القوة الغيبية بجانب أطفال الحجارة للتغلب على القوى الغاشمة الظالمة. انتصار الحق، والخير، والجمال، مؤكد، وهزيمة الجبروت، والشر، والقبیح، لا مناص منها؛ التمثيل، إذن، رسالة لبعث الأمل في النفوس، ولاستمرار الكفاح، استرجاعاً للحق المهضوم، والكرامة المُدَاسَة؛ على أن الأمل بلا عمل يؤدي إلى كوارث.

الموقف يتأرجح بين الأمل، واليأس؛ لذلك كانت المفردات الأساسية المعبرة عنه متمائلة بين الإيجاب، والسلب؛ تلك المفردات الرموز هي الطير، والصحراء، والأشجار، والألوان، والحجارة، والأشكال؛ الطير مُشْهِمَةٌ في النصر، ومصدر للعيش، لكنها تتسبب في الهزيمة، وفي المجاعة؛ الصحراء منبع الأديان، والصبر، والتحمل، والحرية.. من جهة، وهي مجال لانطلاق الغرائز، وخُلِقَ التهور، والطيش..؛ الأشجار مورد للرزق، وحمى من حمارة القيظ، ووسيلة تدفئة من

ناحية، وهي مادة أدوات قاتلة، وذات أثمار خبيثة سامة؛ الألوان إمتاع للمعيون، والنفوس، وفرقة بين أشياء المكون من جانب، وهي علامة على الحزن، والتكد، والخلط؛ الحجارة تُستَعْمَلُ في بناء الدور، والقصور... من صوب، وهي تشج بها الرؤوس، وتهشم بها العظام، من صوب آخر؛ الأشكال مربعة، ومثلثة، ودائرية... رامزة لمعانٍ نبيلة من صُقْع، وهي سِجْنٌ، وحصار... من صقع ثان.

إن هذا الموقف المزدوج يحد من خطر الوقوع في شرك التخدير، والتفاوت الساذج، كشأن بعض الطوائف؛ وبهذا، فإن النص الشعري استوحى من بنيات المقايسة الشكل لا المضمون؛ الأزمنة مختلفة، والأمكنة متباينة، والناس غير الناس، على الرغم من أن البشرية في كل عصر، وفي كل مِصْرٍ تتدافع لأجل إشباع الحياة المادية، والروحية؛ إن الأقوال، والتراتيل، والسماع، والأمداح، والأفعال، والحضرات، والرقص، والشعائر المفروضة، والنافلة، والمرقعات ذات الألوان المتنوعة، والضرائح صاحبة الأشكال الهندسية، هي نتاج الماديات.

أدّى اختيار الأنموذج الديني المطلق إلى إلغاء الصيرورة التاريخية؛ لأنه بُنِيَ على تمثيل خاطئ، وقياس شاهدٍ على غائب، فكانت النتيجة «مَجْدُ الْفَرَاغِ»، كما تَحْصُلُ، من عدم القدوة، الهلاك للسَّيْرِ في قِيَاٍ بدون دليل خَزِيَةٍ؛ هكذا وقع الإنسان العربي متأرجحاً بين الموقفين؛ لكن النص الشعري اتجه نحو الحرية، والاعتناق:

«هَنَّاكَ تَبَقَى

دُونَ أَنْ تَذَرِي

لِمَاذَا الشَّيْخُ يَرْفُضُ

قُبَّةً

لِمَاذَا يَرْفُضُ

اِكْتِمَالَ

أَسْوَارِ هُوَ اِنْتِغَالَقُ

مَعْنَى أَنْ يَكُونَ وَسَطَ أَخْجَارٍ

وَسَطَ كَثَافَةِ أَصْوَاتِ».

خاتمة

أدى بنا تحليلنا لديوان «هناك تبقى» أن نستخلص عدة موضوعات ذات أهمية بالغة؛ هي الاستحياء الشامل، والاستحجار، والاستنغام، والاستشكال؛ وقد داخلنا بين هذا الرابوع بتشبيهات، واستعارات، موظفين مناهج موسيقية، ولسانية، ورمزية، وسيميائية، متكاملة، في إطار رؤيا موحدة لا تفرق بين الشكل، والمضمون. وبذلك استطعنا أن نبرز بهاء الديوان، ورسائله التي تحث على الأمل، والعمل، لتغيير الواقع التعيس إلى مستقبل مزدهر.

خلاصة القسم الثاني

خصصنا هذا القسم (رموز) إلى تحليل ديوان («المسرح والمرايا» 1967) لأدونيس، و («أحد عشر كوكباً. على آخر المشهد الأندلسي»، 1992) لمحمود درويش، و («هناك تبقى»، 2007) لمحمد بنيس. وقد كان تحليلنا مؤسساً على منهجية مندمجة تتكون من علم الموسيقى، وتحليل الخطاب، واللسانيات؛ وهذه المنهجية تندرج ضمن النظرية السيميائية العامة.

نظرنا إلى «المسرح والمرايا» في إطار تدامج الشعر، والمسرح، والموسيقى، والتشكيل؛ وقد دعونا هذا التدامج بـ(التفان)؛ يمكن أن يدرك الشعر بالنسق السمعي، والبصري، وكذلك المسرح، والموسيقى، في حين أن التشكيل لا يتم إلا بالنسق البصري؛ على أن ما ركزنا عليه هو علم الموسيقى بما يحتويه من دلالات، وتقنيات مؤسسة على المنطق، والرياضيات، لكننا اخترنا بعض المقامات دون سواها، تبعاً لما أسند إليها من دلالات عبر العصور، لأن المناخ العام للنص الشعري يسمح بذلك، وركزنا على تقنيات الموسيقى التوافقية التي استطعنا بها الكشف عن البنية والدلالة. هكذا قسنا «المسرح والمرايا» على التأليف السمفوني، بما يقتضيه من تركيبات، وتوليفات؛ وقد عززنا المقاربة الجمالية ببيان الدلالات التي تتجمع لتعبر عن الكارثة العظمى.

لقد كانت هذه المنهجية هي العمود الفقري، أو حجر الزاوية في تناول «أحد عشر كوكباً»؛ كل كوكب مقطوعة قصيرة تكاد تشابه الشذرة، وقد فعلنا بها ما فعلنا بسابقتها، بحيث نظرنا إلى القصيدة في كلياتها، ثم رأيناها في جزئياتها، فإلى جُزئياتها، مُركّزين على البعد الموسيقي الذي يمتاز به شعر محمود درويش، والذي يتجلى في اختيار الأصوات، والمفردات الموسيقية، وفي طرائق التأليف، وفي الاقتصار على تفعللة واحدة؛ إنه شعر الإنشاد، والاستلذاذ، والتأثير في

المستمع، وفي المشاهد. لذلك، فإنه يتيح الفرصة أمام المحلل الموسيقي ليقوم بعمله؛ على أن ما فعلناه ليس إلا مجرد إشارات موجهة منبهة.

الشعر الموسيقي ذو جمهور واسع يتأثر بالشاعر فيستجيب إليه بالتأوه، والتصفيق، والمُكاء المستعجب، والتَّخْميس...؛ لكنه يؤثر في الشاعر الذي يتفاعل معه، فيُعِيدُ، ويكرر، ويُلَوِّنُ أَلْحَانَهُ، وينوع حركاتها؛ ومع أن جوهره الحديث، عن الكوارث، فإنه يحث على النهضة من الكبوة، وعلى الصحو من السبات العميق؛ إنه شعر يناغم بين الحجارة، والقيثارة.

حللنا ديوان «هناك تبقى» بقواعد موسيقية، ولسانية، وخطابية؛ على أن الخصوصية الشكلية للديوان المتجلية في الشذرات جعلتنا نُكَيِّفُ المنهاجية حتى تتلاءم معها؛ هناك شذرات معطاة في تجزيء للقصيدة؛ وقد اتخذنا صنيعه مؤشراً لَنُبَيِّنَ عليه التحليل، وهناك تشذيرٌ صنعناه. وقد جمعنا بين المعطى، والمصنوع، والبياض، والسواد، والصوت، والصمت، لبناء الطينينات، والتوافقات، والتركيبات، والدلالات، مبتدئين بالأعم، ومنتهين بالأخص: الديوان، فالقصيدة، فالمقطوعة، فأجزاؤها، فالتفعلة، فالمقطع، فالصمت، فأنواعه؛ وقد أتاح لنا هذا التحليل أن نستخلص البنية العامة ذات المكونات، والعناصر المتعددة، باعتبارنا كل مقطوعة اتفاقاً ثلاثياً، مما أدى إلى أربع وعشرين موضوعة/ مترددة تتألف منها تلك البنية.

ساير المضمون الشكل في «هناك تبقى»، فتشظى الحجر، فاستحجر الوجود، فاستأنس الحجر، فاستنغم الكون، فاستشكل، فاستلّون؛ كل ما في الوجود حجارة، وكل نغم حجارة؛ وإذن، فإن الحجارة نغم.

تحدث «المسرح والمرايا» عن الهزيمة النهائية، و«أحد عشر كوكباً» عن التَّيِّه، والأمل في العودة، و«هناك تبقى» عن المقاومة، والمراهنة؛ إنها أشعار رمزية لأوضاعٍ مستعصية؛ لكن كلاً منها تجلّى في أشكال جمالية خاصة.

خلاصة الجزء الثالث

زأوجنا في هذا الفصل بين التحليل الجمالي، وبين الكشف عن المحددات الأساسية للنص الشعري، بإشارات متعددة إلى السياق العام الذي انبثق منه. لهذا، فإننا نستحضر إلى القارئ ملامح من الخلفية الجمالية التي اعتمدنا عليها في المقاربة، ثم نذكره بالمناخ العام، ثم تبيان الغاية من تقريب المعنى

أولاً: لقد حرصنا على أن أعدنا الإلحاح على ما قدمناه من مبادئ معرفية، وحركية، وتوليفية، وتنظيمية؛ تجتمع هذه المبادئ كلها في النسق الموسيقي، وفي النسق الشعري؛ لكن النسق الموسيقي تطور عبر العصور، فصارت له مذاهب متعددة، كالمقامية، والتناظرية، والتوافقية، والتسلسلية، والتقليدية؛ وإذ إننا نؤمن بعدم وجود قطيعة مطلقة بين هذه المذاهب، فإننا كُنَّا نلجأ إلى توظيف بعض المبادئ الملائمة، من أي منها، ليجو النص، ومُنَاحه؛ على أن التوافقية كانت لها الهيمنة، باعتبارها مؤسسة على مبادئ رياضية منطقية قد تكون إنسانية؛ لهذا، صار ما نتج عنها من أعمال موسيقية تراثاً للبشرية جمعاء، فاهتمت به التحاليل الموسيقية، وعادت إليه الإبداعات المعاصرة.

لقد وظفنا التوافقية في فصول هذا الكتاب؛ هكذا يعثر القارئ على أحداث مفصلة عن المقاطع، والمصائب، والمساود، والمبايض، والموازين، وعن أنواع السلم، وعن التوافقات الخماسية، والسباعية، وعن أدوات تنمية المقطوعة، وعن محطاتها، وعن كيفية اختزالها، وعن الألحان، وتطقيها، ومسافاتها، وطينيئاتها، ودرجاتها؛ وقد أتاحت لنا أن نولد مفاهيم كثيرة جعلتنا أقدر على القراءة المتفحصة، وعلى ضبط التأويل الصحيح، واستخلاص البنيات العامة، والربط العميق بين مختلف الفنون، وإقامة جسور تربط بين الواقع، والإبداع.

ثانياً: لقد اخترنا مثنأً تسكنه روح عشرات السنين، بما فيها من نزاعات

سياسية، ونزعات ثقافية، وفنية؛ من الناحية السياسية، هناك القضية الفلسطينية التي هي مؤشر دال على الانحطاط العربي الإسلامي العام (الهزائم الحربية، والتدهور الحضاري، والرداءة الثقافية، والتدجيل، والتلبيس، وفرح كل حزب بما لديه)، حتى صاروا كأنهم من الأقوام الذين عَمِيَتْ أبصارهم، وبصائرهم؛ على أن ما خفف من هذا الوضع الكارثي هو الاتصال بالأمم الأخرى التي يظهر تاريخها كأنه مضمار سباقٍ للاجتهد، والابتداع في كل الميادين.

لقد استنشق المثقف العربي من غَيرها، وسعوطها، في آن واحد؛ هكذا يصادف قارئ الشعر العربي من كل اجتهد، وابتداع طرفاً، أو صدئاً، أو محاكاة؛ هناك التمزيج بين تَقْنِيَّاتِ الفنون التشكيلية، والشعرية، والموسيقية، والمسرحية؛ وهناك استيحاء من موضوعاتهم، كمنعطف الجسد، والتناص، والاهتمام بالحياة اليومية، وباللغة من أجل اللغة، وبقضية عجز اللغة، وتفضيل الصمت، والتشذير، والإزكّام، والتعمية...

ثالثاً: بكل هذا، صار النص الشعري سَديماً، وَعَمَاءً، وفَوْضَى... حتى إن القارئ المرتاض نفسه على مثل ذلك النص قد لا يمسك برأس الخيط لِيَرْقَعَ الخروق بين الأصوات، والكلمات، و«الراكيب» ليصير النص متسقاً، ومتماسكاً، ومُنْسَجِماً. لهذا، قد يلجأ إلى تعابير فضفاضة عامة مُضَلَّلَةٌ قد تقول كل شيء، ولا شيء في آن واحد؛ تَجَبُّباً لهذا التَمَوُّيه، ورغبة في تشجيع القراء على مثل ذلك الشعر، فإننا قَرَّبْنَاهُ لهم بالفاظٍ معتادة، في مرحلة أولى، ثم بمفاهيم إجرائية، في مرحلة ثانية؛ وقد اعتمدنا على مؤشرات لغوية (فاس، وباب المحروق، والوطاسيين، وعلال الفاسي، وابن حبوس...، و(الأندلس، وغرناطة، وجبل الفتاح، والفجر...))؛ كل مفردة من هذه المفردات موضوعة ذات مكونات، وعناصر، مخزنة في ذاكرة القارئ المطلع، مما يجعله يعيد بناء تصورات اجتماعية، وثقافية، وسياسية؛ على أن هذه المرحلة الابتدائية يتلوها ما هو أرقى منها، مثل استكشاف مكونات الجمال والدلالة، بناء على مؤشرات البياض، والسواد، والصوت، والصمت، وشكل الحروف...

إن النصوص الشعرية التي عالجنها تحدّثت عن قضايا شغلت، وما زالت، بال المثقفين، والمُثَقِّمِينَ. مَنْ مِنَ العرب، والمسلمين لا يشده الحنين إلى تاريخ الأندلس المجيد؟! من منهم من لا يهتم بالقضية الفلسطينية؟! من منهم من

لم يتأثر بالنكبات، والهزائم؟! من منهم من ليس على اطلاع، أو بعض اطلاع على المنجز العالمي في ميادين الفن بصفة عامة، وفي الشعر خاصة؟! وبناء على هذا، فإن الشعر الحديث، والمعاصر، ليس مجرد هذر محموم من الناحية المضمونية، كما أنه ليس فوضى ضاربة أطناها من الوجهة الجمالية، وإنما هناك تنظيم جمالي يتجلى في أشكال موسيقية عديدة (تفعلة واحدة، تعداد التفاعل...).

اللغة موسيقى من حيث هي، فما الحال إذا كان هناك تنظيم قصدي للغة؟! وعليه، فإن الشعر مهما كان نوعه يُعَبَّرُ بِتَغَمٍّ عن مَعْنَى. هذا هو المبدأ العام الذي يجب أن يقر في الأذهان؛ وأما ما هو كائن من ضروب الاختلاف، وأنواع التُّرَاع، بين المهتمين، فهو راجع إلى الاعتياد على نوع من الجمال، والموسيقى.

مخرج

الحصيلة والأفق

تمهيد

لقد تناول القدماء، والمحدثون، والمعاصرون، الخطاب الشعري: إيقاعاً، وأصواتاً، وحروفاً، ومفردات، وتراكيب، وبياضاً، وصمتاً، لاستخراج مَعَانٍ، ودلالات، تتسم بغرابة الصُّور، والكثافة... مِمَّا جعلهم يميزونه من غيره. وقد كان لنا بعض الإسهام في هذا المجهود المشكور في إطار نظرية سيميائية عامة مؤلفة من اللسانيات، والشعريات، وتحليل الخطاب؛ على أننا بذلنا قصارى جهودنا في هذا العمل لاقتراح نظرية شعرية أوسع مما فعلناه سابقاً، منهاجاً، ومادة؛ فمن حيث المنهاج حاولنا الكشف عن المكونات العميقة، والسطحية التي تجمع بين الموسيقى، والشعر، وبينه، وبين الفنون الأخرى، في إطار العلوم المعرفية المعاصرة؛ ومن حيث المادة، فإننا حلَّلنا نماذج شعرية لمغاربة ومشاركة.

تحقيقاً لهذه الغاية، خصصنا ثلاثة أجزاء؛ أولها مبادئ، ومسارات؛ وثانيها نظريات، وأنساق؛ وثالثها أنغام، ورموز؛ هكذا اقترحنا مبادئ معرفية، وحركية، وتوليفية، وتنظيمية، ثم جَلَّيناهما في فصول سحر الأعداد والأشكال، وتوليف الأنغام، وبلاغة الألحان، وتناغم الأكوان؛ ثم قدمنا النظرية التوليدية، والتعبيرية، والإيقاعية، والموحدة، مُرَدِّقَةً بأنساق الأصوات، والتراكيب، والدلالات، والتوحيد؛ ثم تَوَجَّنا ذلك بتحليلات لنصوص شعرية متنوعة، حتى يصدق الخُبَرُ الخُبْرُ.

1 - الحصيلة

تلك نظرة عامة حول ما أنجزناه، لكننا نسعى الآن إلى بعض التفصيل لنضع بين يدي القارئ حصيلة يمكن أن يوظفها، ويستثمرها، في تحليلاته؛ وها هي بعض معطياتها:

أ - الشعر في الدماغ

صار من التعابير المتداولة بين أهل العلوم المعرفية أن الموسيقى في الدماغ؛ وإذ هذا صحيح، فإن الشعر، والحب... في الدماغ أيضاً؛ على أن هذا القول الخفيف على اللسان ثقيل في ميزان العلوم المهمة بالدماغ، مثل علم الأعصاب، وعلم النفس العصبي، وعلم التشريح، وعلم وظائف الأعضاء... وفي فلسفة الذهن، والأناسة المعرفية، واللسانيات المعرفية؛ ذلك أن أطباء الدماغ، وفلاسفته، يقرّرون أن هناك باحات في الدماغ؛ بعضها في اليسار، وبعضها في اليمين؛ ومن بين الباحات اليسرى هناك ما هو خاص منها باللغة، ومن الباحات اليمنى هناك ما هو موقع للموسيقى؛ وقد تولّدت عن هذه التقارير أطروحات، وسجلات بين مختصين عديدين؛ هناك المقترح المَجْزُؤِي الذي يجعل كل باحة في الدماغ لها وظيفة معينة تقوم بها، استجابة لما يحصل لها بحافزاً، نتيجة إدراك الأنساق الحسية من بصر، وسمع، وذوق، وشم، ولمس، وبناء على ما هو مُخَزَّن في نسق الذاكرة بأنواعه، ومكوناته، وعناصره؛ وهناك أطروحة الاتصال التي تفرض علائق بين الباحات، مما يجعل الفعل، أو رد الفعل، حاصلًا عن سلسلة من المراحل، بدليل أن بعض الفعاليات ليس لها موقع خاص، وإنما توجد في أماكن متفرقة بالدماغ، مثل ذكر الدلالة التي هي موزعة توزيعاً واسعاً في القشرة، ومثل الخيال، ومثل الوعي⁽¹⁾...

جَمْعاً بين هذه الآراء المتقابلة، وضع بعض الباحثين فرض المصدر المندمج التركيبي المشترك؛ يعترف هذا الفرض بأن التمثيلات التركيبية الموسيقية، واللسانية، مُخَزَّنَة في باحات دماغية منفصلة من جهة، لكنها متداخلة الشبكات التي تقدم مصادر عصبية لتنشيط التمثيلات التركيبية المخزنة من جهة⁽²⁾؛ لكن هذا الفرض لا يحل المشكل، وإنما يُحَفِّزُ على طرح أسئلة عديدة؛ منها: هل البنية

(1) يراجع الفصل الأول (المبادئ المعرفية) من الجزء الأول (مبادئ ومسارات).

(2) يراجع الفصل الرابع (النظرية الموحدة) من الجزء الثاني (نظريات وأنساق).

العصبية الدماغية توجد دفعة واحدة في كل باحات الدماغ؟ وإذا وجدت متأنية، فهل هي مؤهلة للاستجابة بنفس المستوى؟ فهل رد فعل الأعصاب التي في باحة اللغة هو رد فعل الأعصاب الحسية الحركية التي توجد في باحة اللغة؟ إن الجواب لا يكون إلا من علماء الأعصاب، والمختصين في التصوير العصبي، وعلم نفس الأعصاب، في المقام الأول؛ بيد أن الباحث في الإنسانيات يمكن أن يُذلي بدلوه في هذا الشأن بالاستدلال، والمقايضة على ما توصل إليه أهل العلم الخالص؛ ومن باب الاستدلال، والمقايضة، نقول: إذا كانت كل باحة فيها أعصاب كثيرة يمكن أن يدْمَر بعضها، ويَبْقَى على آخر منها، فإنه يمكن أن يشغل بعضها، ويترك آخر منها خامداً، بحسب ما يقتضيه المُثير ! وَنَدْعِي أن أَوَّل ما يُحَفِّزُ منها هو ما يتعلق بالحركة، وبالانفعالات... ثم ما يتحكم في اللغة الانفعالية.. فالمفهومية؛ ومعنى هذا أن باحة الموسيقى أُنشِطُ، واسبق من باحة اللغة !.

يُمكن تعزيز هذا الاستدلال القياسي بما يلاحظ في أفعال البشر؛ إن الكائن الإنساني يتألم، ويصرخ، ويضحك.. فيعبر عن ذلك بأصواتٍ معبرة؛ ويستمتع إلى الأنغام، منذ أشهره الأولى، فينتبه إليها، وينجذب.. أكثر من انتباهه، وانجذابه إلى اللغة، لا باعتبارها لغة خالصة، وإنما لأنها نوع من الموسيقى أيضاً.

على أساس الأبحاث العلمية الخالصة، والمقايسات عليها، اشتغلنا بفروض؛ أحدها قوي يدعي أن كثيراً من قوانين الموسيقى، وقواعدها، هي ما يحكم اللغة الطبيعية؛ وثانيها ضعيف يفترض أن هناك مصدراً عصبياً مندمجاً مشتركاً بين الموسيقى، واللغة معاً؛ وثالثها أضعف يسلم بكليات جامعة بين اللغة، والموسيقى، لكن مواد كُلٍّ منهما مختلفة عن الأخرى كل الاختلاف؛ ويجد القارئ أبحاثاً تمثل كُلَّ افتراضٍ تعرضنا إليها، وناقشناها، ثم اقترحنا فرضنا الخاص؛ هو أن اللغة موسيقى؛ وإذا سلم بهذا الافتراض، فإن الشعر موسيقى بكل ما تدل عليه كلمة (الموسيقى) من مَعْنَى؛ وعليه، فإن الفرق بين اللغة العادية، والشعر من حيث الجوهر الموسيقي، يكمن في الدرجة لا في الطبيعة، وكذلك الأمر في الشعر من حيث هو شعر.

واقناعاً للقارئ، فإننا سنقدم له جملة تنتمي إلى الشعر المنثور حَلَّلْنَاهَا موسيقياً⁽³⁾، ثم أَلَفْنَا لها لَحْناً بثلاث صيغ ليختار ما يُريد:

(3) حَلَّلْنَاهَا المؤلف، ثم تداول مع الخبير في التأليف الموسيقي. أ. أحمد عبدون فاتفقنا على التدوين، الأول والثاني؛ وأما الثالث فهو بَيِّنٌ؛ وبه تأخذ مدرسة مكازني وبرنس.

أ - الجملة :

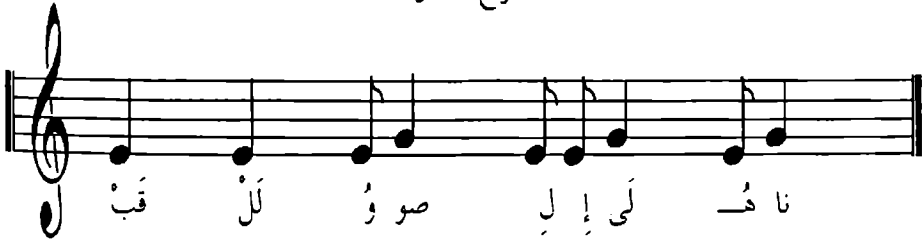


8 أزمنة

المجموع :



المجموع : 8 أزمنة



المجموع : 7 أزمنة

ب - في الحركة حياة

شعر الكائن الحي، منذ بداية وجوده، أنه يتحرك من مكان إلى مكان، يتعاقب عليه الليل، والنهار، والفصول، والسنوات... دفعه هذا الشعور إلى البحث عن جوهر الحركة؛ وأسبابها، وغاياتها؛ وتبعاً لهذا، فإن النبهاء من البشر ابتدعوا علماً للحركة ليتعرفوا على كيفية التحرك، وقوانينه؛ وقد أنشئت علوم تنتمي إليه، مثل الميكانيكا، والفيزياء، والكيمياء، والبيولوجيا، والعلوم

الاجتماعية، واللسانية؛ وقد تحدثت هذه العلوم عن سرعة الحركة، وتسارعها، وبطئها، وتباطئها، وعن الزمان الخطي، واللولبي، والدائري... والفوضى... وعن السببية، والحتمية، واللاحتمية، والتفسير، والتعليل، والتوقع، والتنبؤ...⁽⁴⁾ وعن طبيعة الأصوات العادية واللغوية، والموسيقية... وعن القوة الضاغطة، ورد الفعل عليها، ومدى تناسبه معها؛ وإذ كل شيء يتحرك، فإن ما يعيننا هو الحركة النصية، وطبيعتها.

1 - الحركة الموسيقية

اهتم باحثون عديدون بنمو النص الموسيقي من وجهات نظر متعددة؛ هكذا تكلم أهل علم النفس المعرفي المهتم بالموسيقى، وعلم النفس الخاص بالأصوات الموسيقية، عن نماذج تتحدث عن الحركة؛ وأهمها نموذج الساعة الداخلية، ونموذج البرامج الحركية، ونموذج الحركة المجردة⁽⁵⁾. يتعرض الأول إلى التناسق بين الأفعال، والحركات، التي تكون استجابة لدرجة النغمة، وموقعها؛ ذلك أن الأولى تحدد مسار ما يتلوها حينما يكون اللحن مُبْنِيّاً بطريقة عقلانية مضبوطة واضحة، أو حينما يكون على شاكلة تظهر فوضوية؛ في الطريقة العقلانية تكون هناك بداية، ونهاية بَيَوِيَّتَان، أو منطلق، ومحط، وأساس، وثابت، وجواب، واسترخاء، وتوتر، وحل، أو تناسب، وتنافر، والعودة إلى التناسب⁽⁶⁾؛ على أن هناك إبداعات ثور على هذه الطريقة، حتى لتظهر كأنها مجرد اختلاط، وتشوش، وعماء.

لاستخراج النظام من الفوضى اقترح نموذج البرامج الحركية، قياساً على البرامج الحاسوبية التي انعقد عليها الاستعمال، وتتبع خطوات مُتَرَاتِبَة، حتى تحقق الهدف المنشود؛ وهذا الترتيب الغائي يسمح بالتنبؤ، وبإِجْلِ الشغرات، وبالاعرف على الحشو، والدخيل⁽⁷⁾؛ وعليه، فإن ما يلائم القوانين البيولوجية من الحركة، وما تسمح به، هو ما يتكرر، ويترد، ويعاد إنتاجه، وهو ما ينبغي أن

(4) ينظر فصل (المبادئ الحركية) من الجزء الأول (مبادئ ومسارات).

(5) ما ذكر فويقه، والفصل الرابع (النظرية الموحدة) من الجزء الثاني (نظريات وأناسق).

(6) هذه بعض مكونات النظرية التوافقية التي وظفناها كثيراً في التحليل؛ سواء على المستوى الأفقي، أو على المستوى العمودي.

(7) يتضافر هنا علم النفس المعرفي مع تقنيات الحاسوب: (الإطار) المدونة، النماذج الذهبية...، (والاستلزام، الترتيب، الاسترجاع...).

يوضع له نحو؛ أي ما يكون حركة فطرية، أو مكتسبة، لأداء شيءٍ مُعَيَّن، أو طبيعية مرتبطة بنشاط خاص؛ وأما ما هو دخلي، أو حشَو، أو شديد الخصوصية، فإنه أعراض تفرز ثقافة من ثقافة، ومجموعة من مجموعة، وشخصاً من شخص.

2 - الحركة الجسدية المعبرة

أشرنا قبل إلى أن كل ما وَمَن في الكون يَتَحَرَّكُ؛ في الحركة حياة، وفي السُّكُونِ ممات؛ وما نَحْتَفِلُ به هنا هو الحركة الإنسانية الطبيعية/الثقافية التي اهتمت بها عدة علوم؛ على أن أوثق هذه العلوم هو علم الأعصاب؛ فهذا العلم هو الذي يتحدث عن مدخل الحركة، ثم عن المراحل التي تَمُرُّ بها إلى أن يحصل عنها مخرج يصير نتيجة علمية من الصعب دَخْضُهَا⁽⁸⁾، في حين أن العلوم الأخرى قد اكتفت بالكلام عن الحافز، ورد الفعل في لغة استعارية تشيئية، وتشخيصية⁽⁹⁾.

درس العلماء المختصون في علم الأعصاب مسببات الحركة، وعَدَّدُوا آلياتها، ورصدوا تجلياتها، تحت عنوان جامع هو الحركة الحسية، والمراقبة الحركية، في تفاصيل يصعب استيعابها إلا من قبيل أهل اختصاص الاختصاص؛ وما يهمنا منها هو الحركة، وتصميمها، وتنفيذها، ومراقبتها من قبل متحكمات قد تتعرض إلى أمراض، وآفات؛ وعليه، فإن بعضاً من الحركات الذي يُرَى حشَواً، أو دخيلاً غريباً، قد يُرَدُّ إلى مَرَضٍ، أو عَاهَةٍ، أو آفة من الآفات أصابت المُتَحَكِّمَات في الحركة، وفي ضَبْطِهَا، وفي ترتيب الأفعال، والأعمال، وفي تقسيم الشُّغْلِ⁽¹⁰⁾.

إن على الرّاصِدِ للحركة، والمحلِّل لها، أن يعتمد على تجاربه السابقة، ويراعي المؤثرات الخارجية، والبنى التركيبية الداخلية معاً، في رؤيا نسقية شمولية، بعد تجميع العناصر، وترتيبها؛ ذلك أن الإنسان يدرك كثيراً من المكونات، والعناصر، في أشكال، وأوضاع، وألوان، وامتدادات، وأعظام

(8) انظر الفصل الرابع (النسق الموحد. فقرة ب - الشعر والتمثيل...). من الجزء الثاني (نظريات وأنساق).

(9) لا يخلو أي علم يستعمل اللغة الطبيعية من الإحيائية، والتشيئية، والتشخيصية. لكن بدرجات متفاوتة.

(10) ينظر في هذا المرجع الذي اعتمدناه كثيراً:

مختلفة؛ لهذا، فإنه يلجأ إلى التحليل لتمييز الصفات الذاتية من اللوازم، والأعراض، والصفات من الأحوال، والملكات، لإنجاز تصنيف يدخل ضمن مقولات، ويساعد على معرفة التابع من المتبوع.

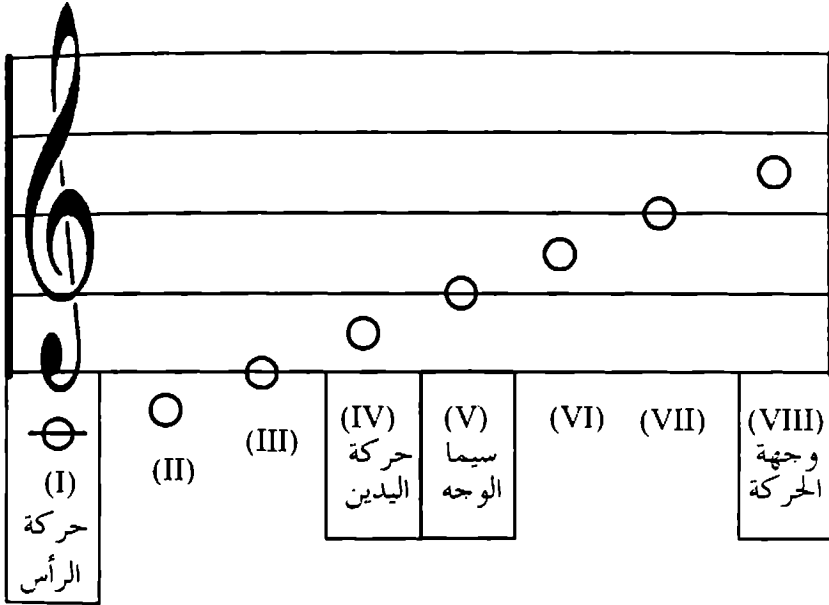
3 - دلالات الحركة

في ضوء كل هذا يجب النظر إلى حركات الشاعر، وهو ينشد، في سياق معين ذي خصوصيات، وهيات (قراءة شعرية عادية، أو لاحتفال، أو لتأبين، أو لتخميس...)، وفي فضاء معين (مسرح، أو ميدان، أو قاعة عروض...)، وفي زمان خاص (صيف، أو خريف، أو شتاء، أو ربيع.. الشهر.. المناسبة الدينية، أو الدنيوية...)، وشكل وقامة الشاعر (طويل، أو قصير، أو ربعة، بدين، أو نحيف...)؛ ذو صوت جهوري، أو حاد، وطبيعة انتمائه القومي، والوطني، والجهوي (عربي، مغربي، بيضاوي...)، ونوع حركاته (حركات الرأس، واليدين، واتجاه الحركة، وحركة الصدر، والأرجل...).

على أننا نقيس الحركة على بعض التأليف الموسيقي فنقسمها إلى أساسية، وثنائية؛ الأساسية هي حركة الرأس، وحركة اليدين، وسيما الوجه، على أفضل ما هو متداول في الموسيقى التوافقية: (I-IV-V)، وأما الثنائية، فهي (II-III-VI-VII) كأن يقدم رجلاً، ويؤخر أخرى، أو يتكئ على جانب، أو يتقدم إلى أمام، أو يرجع إلى القهقري، أو يتحاور مع الجمهور؛ على أنه يجب أن تسند إلى الرأس تأثيرات بحسب الوسامة، والدُمامة، وبحسب الجنس، من حيث هو ذكر، أو أنثى؛ إذ تأثير حركة رأس شاعر جميل في ثياب أنيقة، أو حركة رأس ذات شعر ذي لون معين، وعينين ذواتي لمعانٍ خاص، وابتسامة ساحرة... ليس هو تأثير شاعر دميم الخلق، في بزة خلق، ذي ضلعة، ووجه كالح، وعينين غمشاوين، وثغر مشغور، أو أثرم، أو أذرد؛ وأما حركة اليدين، ووجهتها، فقد تكون متصاعدة، أو متنازلة، أو أفقية، أو منحنية، أو إلى يسار، أو إلى يمين، أو إلى أمام، أو إلى خلف، أو متجهة صوب الذات، أو دافعة لشيء عنها، أو معانقة، أو ضاربة على شيء خارجي، أو على موضع من جسد الشاعر، براحة مبسوطة، أو مقبوضة، أو بيدين متضامتين متضامتين، أو منفصلتين.

الحركة فطرية لها نحو ذهني، كما للموسيقى نحو ذهني، ولغة نحو ذهني؛

وإذ الأذهان متماثلة، أو متشابهة على الأقل، من حيث المبدأ، فإن هناك نحواً ذهنياً في مثل هذه الأوصاف، لكن تجلياته تختلف؛ ففعل حركة الرأس، وسيمما الوجه، وحركة اليدين، متماثلة؛ لكن وجهة الحركة قد تختلف دلالاتها بحسب الثقافات، أو المجموعات، أو الاتفاقات⁽¹¹⁾؛ وتوضح هذا:



4 - حركة النص

أسهم علم الفيزياء، والبيولوجيا في صياغة نظرية نصية متعلقة بحركية النص، ونموه. ذلك أن بعض السيميائيين، ومحللي الخطاب، اقتبسوا مفاهيم منهما، وخصوصاً بعض مفاهيم الإبدال الكازيني، والإبدال التطوري؛ هكذا يجدهم القارئ يتحدثون عن الانشطار، والتشعب، والفوضى، والعماء، والتنبؤ، واللاتنبؤ، والاحتمية، والأختمية، والصعود، والتزول، والدورية، والتخلفية؛ وبصافهم يتكلمون عن النواة، والخلية، وتطورها، وانقسامها، وتشعبها،

(11) نركز على الحركات المشتركة، وأما ما هو مختلف منها، فهو كثير، قد يرجع إلى ثقافة الحركة السائدة في مجال معين، أو بلد، أو إلى حياة المتحرك، وأوضاعه، وأحواله، أو إلى نوع الجمهور المخاطب بالحركة...

والتوازن، والاختلال⁽¹²⁾؛ وقارئ أبحاثنا، منذ دينامية النص⁽¹³⁾، يرى أنا اقترضنا هذه المفاهيم، ووظفناها في تحليل نصوص مختلفة؛ وما نحن الآن نعيد الكرة لاستثمارها في سياق أكثر اتساعاً، وأعمق؛ والأمر يتعلق بالموسيقى، وباللغة، وبالحركة، في إطار العلوم المعرفية.

ج - تنظيم الحركة

الموسيقى حركة، واللغة حركة؛ ومقدار الحركة تابع لقوة ضغط المَحْرَك؛ وقد يكون شديد القوة، فيؤدّي إلى حركة متسارعة، كما أن مكونات العالم متعددة يصعب على الكائن البشري الربط بينها بدون وضع آليات، ووسائل؛ تلك هي الرياضيات، والمنطق، واللغة، والموسيقى، والفلسفة، والتصوف⁽¹⁴⁾.

لقد شاع في علم الكونيات أن العالم يتكون من عناصر أربعة؛ هي النار، والماء، والهواء، والتراب، بحسب نسبة وتناسب؛ وهكذا صار يقال التعبير المتداول: نسبة كذا إلى كذا كنسبة كذا إلى كذا: مل نسبة النار إلى الماء كنسبة الهواء إلى التراب إلخ، ثُمَّ عُبِّرَ عنها برموز: أ : ب : ج : د، ثم نقلت إلى

الاستعارة كما تحدث عنها أرسطو في كتاب «الشعر»، وأوضحها ابن رشد في «التلخيص». فقد بين أنها تؤخذ من أربعة أشياء؛ وهي إما أن ينقل شيء منسوب إلى ثان إلى شيء ثالث منسوب إلى رابع، مثل ما كان يسمى بعض القدماء الشيخوخة عشية العمر، ويسمى الغشية شيخوخة النهار؛ وذلك أن نسبة الشيخوخة إلى العمر نسبة العشي إلى النهار؛ وفي هذا تدخل الاستعارة الإبدالية، لأنها إبدال الشيخ من مناسبه: «أعني إذا كان شيء نسبته إلى الثاني نسبة الثاني إلى الرابع»؛ وإذا تناسب يؤخذ من أربعة أشياء، فإن هذه الأشياء الأربعة ينالها القلب، والحذف، والزيادة، والنقصان، والتقديم، والتأخير⁽¹⁵⁾.

(12) يراجع فصل (المبادئ الحركية) من الجزء الأول (مبادئ ومسارات).

(13) محمد مفتاح، دينامية النص. تنظيم وإنجاز، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، 1987، ثم صدرت له طبعات أخرى.

(14) نحيل هنا على الجزء الأول (مبادئ ومسارات).

(15) ابن رشد، تلخيص كتاب الشعر، تحقيق د. تشارلس بتروث، د. أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية للكتاب، 1987، ص. 55، 81، 114.

تداول هذا المفهوم فلاسفة المسلمين، ورياضيَّوهم، ومُوسِقيَّوهم، ومهندسوهم، وشعراؤهم، مثل ابن سينا، وإخوان الصفاء... وابن البناء، وحازم، والسجلماسي، وابن الخطيب، وابن خلدون، وابن عربي؛ والقولة الآتية ملخصة لرؤيا التناسب: «مَنْ لَنْ يَغْرِفِ النَّسَبَ لَمْ يَغْرِفِ اللَّهَ»⁽¹⁶⁾؛ ومعناها أن كُلَّ ما في الكون بينه نسبة، وتناسب؛ وبهذا صار كل شيء يُشَبَّهُ بكل شيء، وكل شيء يُسْتَعَارُ لكل شيء؛ وفي هذا الإطار تدخل نظرية المحاكاة. صناعة اللحن تحاكي صناعة عمل الأقاويل، وصناعة الأوزان تحاكي الفضائل، والردائل، والمعاني؛ الألحان، والأوزان، والأقوال، هي استقصات المحاكاة؛ هذا هو رأي القدماء، ولا نعتقد أن آراء المحدثين، والمعاصرين تخرج عن هذا الإطار من حيث المبدأ؛ وذلك ما أوضحناه.

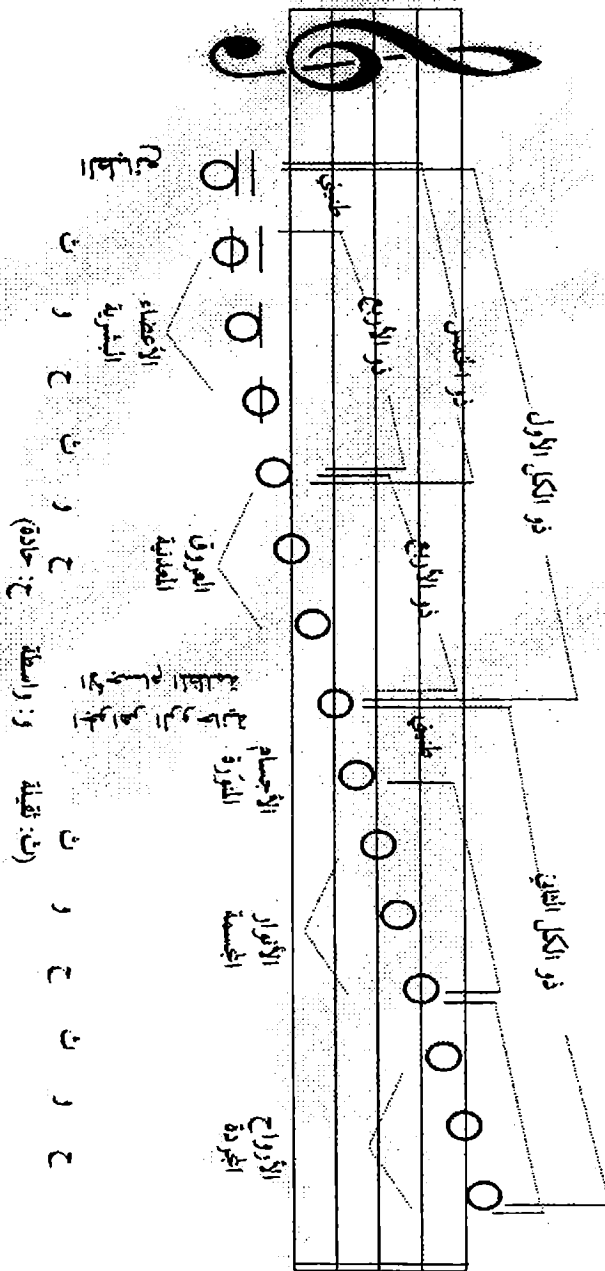
وكما يقع النسب بالتناسب، فإنه يَتِمُّ بالتقابل أيضاً؛ ذلك أن كل بنية تناسبية تحمل في طياتها تقابلاً؛ ذلك أن التقابل، والتناسب، وجهان لعملة واحدة؛ هي اتصال أشياء العالم، وترابطها؛ فإذا ما قلنا قبل: نسبة كذا إلى كذا، فإننا نصوغ الآن: مقابلة كذا إلى كذا كمقابلة كذا إلى كذا؛ ويتضح هذا في القلب، والعكس؛ أي كل ما يُنْتَقَلُ فيه من الضدِّ إلى الضدِّ، أو ما أسماه ابن رشد بـ(الإدارة) التي تتجلى في الانتقال من الشيء إلى ضِدِّه، ثم من الضد إلى ضِدِّه⁽¹⁷⁾؛ وقد أفاض الموسيقيون الحديث عن الاسترخاء، والتوتر، والتناظرات الموسيقية، ووضعوا لها قواعد، وجزأوا المقطوعات إلى متواليات هندسية، أو عددية.

لقد حضرت رؤيا التناسب، والتقابل، في كل فصول مؤلفنا، وخصوصاً عند دراسة عروض الخليل، وبلاغة حازم، وتصوف ابن الخطيب، وفي كل تحاليلنا للنصوص الشعرية؛ وتوضيحاً لما سبق نقدم التدوينات الموسيقية الآتية:

(16) قولة تنسب إلى ابن عربي. أنظر تجلياتها في فصل (سحر الأعداد والأشكال)، وفصل (تناغم الأكوان) من الجزء الأول (مبادئ ومسارات).

(17) ابن رشد، المرجع المذكور، ص. 81.

(18) مثال التناسب العام



(18) انظر فصل (بلاغة الأكوان) في الجزء الأول (مبادئ ومسارات).

(20) مثال التقابل

أنوع الأول (علامات ضد علامة)

أنوع الثاني (علامات ضد علامة)

أنوع الثالث (أربع علامات ضد علامة)

أنوع الرابع (أنوع النسخ)

أنوع الخامس (أربع علامات ضد علامة)

د - آليات التنظيم

ثبت، إذن، أن التناسب والتقابل مكوّنان أساسيان لتنظيم كل ما في الوجود؛ ونهتم هنا بالقصد الأول بتنظيم النص الشعري؛ فقد أبنّاه على مستوى التقطيع، والهيكل العروضية، والقوالب الصّرفية، والمقاطع الصوتية، والمساود المدادية، والمصاميت المكملة، والمبايض الصفحية، ثم محاكاة كل ذلك لواقعٍ ما.

قياساً على ما أنجز مُحلّلو الموسيقى من تقطيعات للنسيج الموسيقي على أساس نظرية النسبة، والتّناسب، جزأنا النصّ الشعري؛ هكذا يرى القارئ التقطيع الآتي: 1؛ 2؛ 4؛ 8؛ 16؛ 32...؛ على أن النص لا يكون دائماً مطابقاً للتناسب الهندسي إلا في حالات نادرة، وإلّا صار الشعر رياضيات مجردة يمكن أن تجسم في أشكال، وفي أعداد؛ لذلك، فإن التجزئة الأولى يمكن أن يقسم إلى أقسام غير متساوية، كأن يكون الأول أطول من الثاني، أو العكس.

على أن تقطيع المسافة الزمنية يجب أن يكون متساوياً، بحيث يجب أن يكون الوزن إمّا ثنائياً، أو ثلاثياً، أو رباعياً، مليئاً بالصوت، أو بالصمت، أو بهما معاً؛ يمكن أن ندعو هذا التحليل بـ«المحور الأفقي»؛ وها نحن نقدم خطاطة تُبيّنه من خلال قصيدة للمتنبّي؛ وهناك مستوى آخر؛ وهو التحليل العمودي المتآني الذي استخلصناه من قصيدة لمحمود درويش:

(1) خطاطة قصيدة المتنبّي⁽²¹⁾:

المسافات:

3 7 7 7 3 7 7

أجزاء الطنين:

2/1 4/3/2/1 4/3/2/1 4/3/2/1 2/1 4/3/2/1 4/3/2/1

(21) انظر فصل (بلاغة الألفان) في الجزء الأول (مبادئ ومسارات).

[illegible]

لقد كانت المسافة الزمنية وراء التقطيع إلى هياكل عروضية استخلصنا منها عدة نتائج؛ أولاها معرفة مقدار الانتظام القائم على التطابق، والتماثل، والتشابه... بين التفعلات التي تنتمي إلى نواة واحدة (فاعلن)، أو (فعولن)، وما يحدث بين تفعلات النواتين من قلب، وإبدال، وعكس؛ وثانيها ضبط تقطيع النص لتكون هناك مسافات زمنية متساوية؛ وثالثها مقدار الاتصال، والانفصال، بين الأسطر.

ليس التحليل إلى التفعلة إلا خطوة أولى في سبيل مقارنة أدق، وأعمق؛ تلك هي القوالب الصرفية للمفردة؛ إذ نَتَعَرَّفُ بواسطتها على عدد مقاطع الكلمة، وأنواعها، بناء على مقترح التصنيف الآتي:

- قُصَّار: صوت وحركة (م).

- أقصر: صوت وحركة وصوت ساكن (مَنْ)

- قصير: صوت وحركة وصوت ساكن مشدد (مَدَّ)

- طويل: صوت ومصوّت (مَآ)

- أطول: صوت ومصوت وصوت ساكن (مَالُ)

- طُوَّال: صوت ومصوت وصوت ساكن مشدد، أو مصوت بعده همز، أو

مصوت موقوف عليه (ضَالٌ - مَاءُ).

لقد استفدنا من صنيع الموسيقيين فمنحنا قيماً زمنية لكل مقطع، ومَضَمَتْ؛ وتبياناً لهذا نعيد كتابة الخطاطة الآتية:

طَوَّل	أَطول	طويل	قصير	أَقصر	قُصّر	أنواع المقاطع:
c v v ₁ c	c v v c	c v v	c v c c	c v c	C v	الهياكل:
○	م	م	م	م	م	علامات الزمن:
المستديرة	البيضاء	السوداء	ذاتُ السِّن	ذات السنين	ذات الثلاثة أسنان	رموز الصمت:
≡	≡	≡	5	7	7	أسماءها:
الوقفة	اللحظة	الطَّرْفَة	الْوَمْضَة	اللَّمْحَة	الْبَرْقَة	القيم الموحدة:
4	2	1	$\frac{1}{2}$	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{8}$	المقياس: 4

إذا اتفقنا على هذا فلنحلل الأمثلة الآتية:

(1) وَشُم:

- المقطع: (وَشْ) قصير
- الهيكل: CVC
- علامة الزمن: م
- إسماها: ذات السنين
- قيمتها: $\frac{1}{4}$
- المقطع: (مُنْ) قصير
- الهيكل: CVC
- علامة الزمن: م
- اسمُها: ذات السنين
- قيمَتُها: $\frac{1}{4}$

مجموع القيم: $\frac{1}{4} + \frac{1}{4} = \frac{2}{4} = \frac{1}{2}$ ؛ وإذا ما جعلنا مقياس أربعة على أربعة: $\frac{4}{4}$ ،
فإن ما يتبقى للصَّمْتِ هو: $\frac{1}{2}$ ، 3، أي: $\left(\frac{1}{2} - 5 \right) + \left(1 - \equiv \right) + \left(2 - \equiv \right)$ ؛ أي:

$$+ \left(\frac{1}{2} \right) = 2 + 1$$

وإذا جمعنا بين الصوت والصمت:

$$. \frac{1}{4} + \left[\quad + \quad \right] = 2 + 1 + 4. \text{ وبهذا يصير المقياس: } \frac{1}{4} .$$

(2) سِيَحْرَضُ)

• المقطع: (س) قصار

CV الهيكل:

• علامة الزمن:

• إسمها: ذات ثلاث أسنان

• قيمتها: $\frac{1}{8}$

• المقطع: (ي) قُصَّار

CV الهيكل:

• علامة الزمن:

• إسمها: ذات ثلاث أسنان

• قيمتها: $\frac{1}{8}$

• المقطع: (حَرّ) قصير

CVCC الهيكل:

• علامة الزمن:

• إسمها: ذات السن

• قيمتها: $\frac{1}{2}$

• المقطع: (ر) قُصَّار

CV الهيكل:

• علامة الزمن:

• إسمها: ذات ثلاث أسنان

• قيمتها: $\frac{1}{8}$

• المقطع: (ض) قُصَّار

CV الهيكل:


• علامة الزمن:

• اسمُها: ذات ثلاث أسنان

• قيمُتها: $\frac{1}{8}$

• المقطع: (ي) قُصَّار

• الهيكل: CV

• علامة الزمن: 

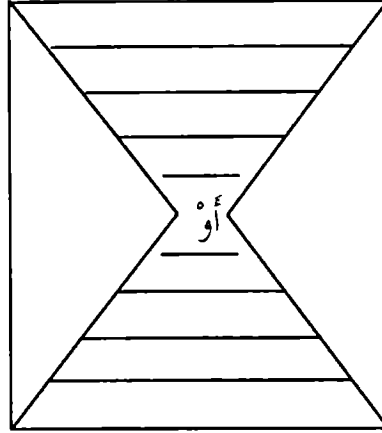
• اسمُها: ذات ثلاث أسنان

• قيمُتها: $\frac{1}{8}$

مجموع القيم الصوتية: $\frac{7}{8} = \frac{1}{8} + \frac{1}{8} + \frac{1}{2} + \frac{1}{8}$ ، وإذا ما طُرِحت من 4، فإن ما يتبقى من القيم الصوتية هو: $\frac{1}{8} \times 3$ ؛ أي: $(\frac{1}{8} = 7) + (1 = \frac{1}{8}) + (2 = \frac{1}{8})$ ؛ والجمع بين الصوت: $\frac{7}{8}$ والصمت: $\frac{1}{2} \times 3$ ، يكون الحاصل: 4؛ أي $\frac{4}{4}$

نكتفي بهذين المثالين البسيطين، مع التَّنبُّه إلى أن المحلَّ تعرضه أشكال عديدة شديدة التعقيد؛ لهذا، فإننا نقترح له أن يتبع الخطوات التالية: (1) أن يحدِّد الصَّوت، والصمت، أو البياض، والسواد، بشكل هندسي حتى يعرف حُدُودَهُمَا، (2) أن يحلل الصوت إل مقاطع حتى يتسنى له اتباع الطريق التي رسمناها، (3) أن يحدد قيمة الزمان وعدد أجزائه منذ البداية إذا كان السطر قصيراً، (4) أن لا يحدد عدد أجزاء الزمن إلا بعد تحليل أطول سطر.

لقد ساعدنا هذا الصنيع على ضبط المسافة الزمنية بصوتها، وبصمتها، معاً، مع التعرف على مقدار كل منهما؛ على أن معرفة الإيقاع بقيت منحصرة ضمن فضاء محدد بامتداد السَّوَادِ؛ وهذا الصنيع لا يتيح استخلاص إيقاع، ودلالة الصفحة كلها؛ وهذا التقصير يحث المحلل على الاهتمام بالبياض الذي هو خارج عن الصوت، والصمت معاً، وتجزئته إلى «مبايض» ذات درجات وقيم؛ ولعل المثال الآتي يسعفنا فيما نسعى إليه:



يتبين من هذا الشكل⁽²²⁾ أن هناك نواة أو جَوْهراً أو مركزاً هي (أَوْ) لها أمام وخلف، ويمين ويسار، وهي الجامع بين هذه الأشكال الثلاثية أو الهرمية، بعضها مليء سواداً، وآخر يَكْتَسِخُ البياض؛ والهرمان المتقابلان؛ أحدهما قاعدته في الأعلى ورأسه في الأسفل؛ وثانيهما عكسه، بحسب الموقع الذي ينظر منه الرائي؛ فإذا كان رأس الهرم (أو أصل الشجرة في الأرض) فتلك هي الرؤيا الشرقية (أَضْلُهَا ثابت وفرعها في السماء)، وإذا كان الأمر عكس هذا، فتلك الرؤيا الغربية. إن النواة انشطار لهما وتلاق بينهما. فإذا كان هذا على مستوى يكون إنسانياً، فما هي دلالة هذا الشكل؟ هل هو بعض ما تتزين به المرأة المغربية؟ هل يوحي بخصر المرأة وما يشمله هذا الخصر؟ إن كل هذه التأويلات لها ما يعززها في المقطوعة. (1) جِذْرُ الْكُونِ، (2) شهيقي البنائين والخدم والمعاول والقبّة، (3) الخصر والفخذان، والشعر، والمشط...

ومع كل هذه التأويلات، فإن الصمت يَبْقَى سيد الموقف والتأويل: الصمت الضدي... قبة هذا الصمت؛ لهذا، فإنه يجب توضيحه بتحليل النواة:

(22) محمد بنيس، الأعمال الشعرية، دار توبقال للنشر، 2002، ج 2، ص. 32.

أَوْ

• المقطع: (أَوْ) أقصر

CVC • الهيكل:

م

• علامة الزمن:

 $\frac{1}{4}$

• مقدارها:

وإذا ما جعلنا مقدار المقياس $\frac{4}{4}$ فإن الصمت يبقى له $4 - \frac{1}{4} = \frac{3}{4}$ 3 يمكن أن تقسم

على ما قبل الصوت وعلى ما بعده؛ وإذا ما فعلنا، فإن الوضع قد يكون كالآتي:

$$(1) \text{ ما قبل: } \left[\frac{1}{4} = 7 \right] + \left[\frac{1}{4} = 7 \right] + \left[\frac{1}{2} = 5 \right] + \left[1 = 3 \right] = 2$$

$$(2) \text{ ما بعد: } \left[\frac{1}{4} = 7 \right] + \left[\frac{1}{2} = 5 \right] + \left[1 = 3 \right] = 1 \frac{3}{4}$$

$$(3) \text{ المجموع: } \frac{4}{4} = 2 + 1 \frac{1}{4} + \frac{1}{4}$$

إن هذا الوضع الطباقى، التقابلي عبرت عنه المقطوعة بأيقونات شكلية، ومؤشرات صوتية/صمتية، أو بياضية/سوادية، للدلالة على وضع شديد التعقيد.

على أن ما قام بدور فعال في خلق هذه التوترات هو المكون الموسيقي، أو ما أسميناه بـ(الاستعارة البايانية)؛ ذلك أن من يقرأ ديوان (ورقة البهاء) يجد مظاهر كتابية جديدة تجعله يتساءل عن طبيعتها، ودلالاتها، وغاياتها؛ منها تجزيء الصفحة إلى قسمين؛ أحدهما على يمين الصفحة، وثانيهما على يسارهما يفصل بينهما بياض أحياناً، ويتداخلان في بعض المواضع؛ وقد يكون ما على اليمين مكتوباً بخط غليظ، وما على اليسار بخط دقيق، والعكس؛ كما أنهما يكونان مختلفين في مقدار الفضاء، وفي زيادة المكتوب بخط دقيق على المسطور بخط غليظ بِجَمَلٍ.

د - الوجود تنظيم

يتبين مما سبق أن كل ما في الوجود يكتسب هويته، ودلالته، وتأثيره، بالتنظيم، تبعاً لما يليق به منه؛ وما يهمنا هنا هو الموسيقى، واللغة؛ ووظائفها، من بين وظائف أخرى، هي التواصل بين الأنام؛ وليكون التواصل ذا فعالية، ونجاعة، فإنه يجب أن يكون مؤسساً على قواعد خاصة ذات تنظيم معين بوعي، أو بدون وعي. وإذ إن الدماغ البشري منظم، أو مبرمج، من أجل الاستجابة إلى المظاهر الانفعالية والنغمية الصادرة من الصوت الإنساني من جهة، ومن أجل إصدار أصوات، وأنغام، وألحان يستجاب لها من جهة ثانية، سواء أكان الدماغ مرسلأ أم متلقياً، فإن الأهم هو الانتظام: «الموسيقى تخلق النظام من الفوضى، والإيقاع يفرض التوافق على الاختلاف، واللحن يفرض الاتصال على الانفصال، والتناغم يفرض التناسب على التنافر»⁽²³⁾؛ وإذ افترضنا يتأسس على اعتبار الشعر موسيقى لغوية، فإن ما قيل عنها يشملها بالضرورة؛ لذلك حرصنا على إيجاد النظام من فوضى أصوات مبعثرة، وتراكيب مشتتة، أو متراكمة، وإيقاعاً يجمع بين الصوت، والصمت، والبياض، والسواد، وفي مقابلة البياض بالسواد، واتصالاً بين أصوات، ومفردات، وخلق انسجام بين المتنافرات.

وقد تطلب تحقيق الانتظام الشامل تَوليفَ منهاجية مكونة من السيميائيات، والتحليل الموسيقي، وتحليل الخطاب، صالحة لتأويل كل ظاهرة، أو فعل، أو قول، أو حركة؛ وإليكها أيها القارئ:

درجة الصفر	التطورات المكونات	الأولانية (الأيقون) (1)	الثانانية (المؤشر) (2)	الثالثانية (القانون) (3)
I - 0	الصوت (1) (do)	الكنسة (1.1) (Ré)	الاتفاق (2.1) (Mi)	المعنى (3.1) (Fa)
0	الحرف (2) (Mi)	اخاز (1.2) (Fa)	الكناية (2.2) (Sol)	الرّمز (3.2) (La)
0	الصوت / الحرف (3) (Sol)	المفرد (1.3) (La)	الحمل (2.3) (Si)	نهاية التأويل (3.3) (do)
II - 0	القصت (1) (Ré)	علامته (1.1) (Mi)	شكله (2.1) (Fa)	نوعه (3.1) (Sol)
0	قيمه (2) (Fa)	موقعه (1.2) (Sol)	علاقته (2.2) (La)	مضمونه (3.2) (Si)
0	معناه (3) (La)	تخمينه (1.3) (Si)	احتماله (2.3) (do)	ترجيحه (3.3) (Ré)
III - 0	التشكل (1) (Mi)	النقطة (1.1) (Fa #)	الخطوط (2.1) (Sol #)	الشكل (3.1) (La)
0	نواة المعنى (2) (Sol #)	احتمال المعنى (1.2) (La)	المحاكاة (2.2) (Si)	نوع المحاكاة (3.2) (do #)
0	بداية التأويل (3) (Si)	المؤوّل (1.3) (Do #)	توصيفه (2.3) (Ré #)	دلّاته (3.3) (Mi)

2 - الأفق

تلك عناصر مؤلفة من معطيات علمية خالصة، ومن علوم اجتماعية، وإنسانية؛ وقد عاثنا الأمرين في تحصيلها لنختار بعض ما يلائم وجهة نظرنا، والموضوع المدروس الذي هو الشعر؛ لهذا، فإننا نقترح أن يعاد النظر في مناهجنا الدراسية، وخصوصاً ما يتعلق باللغة، والشعر، وأن تحتوي على ما يلي:

أ - هندسة الدماغ

وجوب إعطاء جِصَصٍ للتلاميذ، والطلبة، تتعلق بعلم الأعصاب، وعلم التشريح، وعلم الوظائف، في إطار ما يسمى بالعلوم العصبية المعرفية، وبيولوجيا الدماغ، وفلسفة الذهن، ولا سيما الأسس العصبية للأنساق الإدراكية، والانتباه، والانتقاء، وأنساق الذاكرة، وعملية التعرف، وتخزين المعرفة، وكيفية تصريفها، ونظريات الباحات، ومراقبة المُحرّكات، والوظائف التنفيذية للفصوص الجبهية، ونمو الدماغ/الذهن البشري، ومرونته، وتطوره، وتكيفه مع المحيط، ومشكل الوعي.

إن هذا البرنامج هو ما يجده المُهْتَمُّ في الكتب الخاصة بهذا الميدان؛ على أننا ننبه إلى أنه من الممكن أن تُستغرق دراسته سنوات ذات عَدَدٍ، أو أن يقتصر منه على ما له أهمية؛ الأمر موكول إلى أهل التَّعْلِيمِيَّاتِ⁽²⁴⁾ الذين هم مؤهلون لأن يُعَيِّنُوا ما يهم الطالب غير المختص في الطَّبِّ، وجراحة الدماغ؛ بيد أن هناك ضروريات تجب معرفتها؛ وهي أنساق الإدراك، والباحات، والذاكرة، ومصادر الحركة، وتكيف الدماغ/الذهن مع المحيط.

اقترحنا هذا، لأن الخطاب الشعري وليد هذه المكونات جميعها؛ يدركُ بَنَسَقِي السمع، والبصر، ثم يخزن ما أذركَ وَنُظِّمَ وَعَلِمَ في الذاكرة، ليستثار بعض منه عندما تدعو الحاجة إليه، بقياس المجهول على المعلوم؛ إن الخزن في الذاكرة يتشكل في بنات نموذجية تُتَبَّحُ التكهن بما سَيَنْتَلُو بناء على ما ذكر من مؤشرات، ممّا يسهل حل المشكل⁽²⁵⁾؛ وإذ إن الدماغ له باحات ذات وظائف معينة، فإن دارس اللغة مطالب أن يعرف باحاتها الأساسية، والثانوية، وأن يعلم مَوْقِعَ الموسيقى، والعلائق بينهما، وما تجتمعان فيه، وما تفرقان فيه؛ وإذ كانت الحركة من خواص الكَوْنِ، فإن محلل الشعر مُلزَمٌ أن يرصد حركات الشاعر المنشد ليفرق بين سَليمها، وعَليْلِها، والطبيعي منها، والمصطنع، ومُطَرِّدِها، وشاذّها؛ وإذ إن الشاعر مُزوَّدٌ بِمُورَثَاتٍ تجعله مُمَاثِلًا لغيره من البشر، فإنه لا بد من مراعاة دور المحيط في تطوير تلك المورثات،

(24) التعلّمِيَّات: Didactique

(25) (المبادئ المعرفية) من الجزء الأول (مبادئ ومَسَارَات).

أو كبجها، أو قتلها. لأن هناك تفاعلاً بينهما ينعكس في الأفعال، والسلوك، والإبداع.

ب - منزلة الموسيقى

إن هذه النظرية التفاعلية الشاملة تفرض على الباحثين أن يعيدوا النظر في تصنيف العلوم العربية. لقد دأب الباحثون في هذا الميدان على أن يرتبوا العلوم، تبعاً لعدة مقاييس؛ وإذ إننا لا نشغل أنفسنا بتاريخ التصنيف للعلوم، وإنما نسعى إلى المناقشة، وإعادة النظر في صنيع القدماء، فإننا نكتفي بإحالات على ابن خلدون.

أصناف العلوم عند ابن خلدون نوعان؛ أحدهما العلوم الحكيمة التي يهتدي إليها الإنسان بطبيعة فكره؛ وثانيهما العلوم النقلية والوضعية المستندة إلى الخبر؛ وأصلها الكتاب والسنة، ولا مجال للعقل فيها إلا في إلحاق بوجه قياسي. إن ما نريد أن ننبه إليه، منذ البداية أن هذه القسمة غير وجيهة؛ ذلك أن العلوم كلها تفرعت، وتشعبت بالعقل؛ ودليل ذلك مفردات ابن خلدون نفسه، مثل القياس، والاستنباط، والاشتراك، ومدارك الناظرين، والاستخراج، والتنظير، والتفريق، والحُنبان، وتصحيح الفروض؛ ومعنى هذا أن «العلوم النقلية» تأسست على فنون الحساب كالجبر، والمقابلة، والتصرف في الجذور، وعلى قياس الأشباه بالأشباه، ومناظرة الأمثال بالأمثال.

وعلى هذا، فإن العلوم العقلية هي أساس «العلوم النقلية»؛ وهي المنطق، والأعداد، والهندسة، والهيئة، والموسيقى، والطبيعات، والإلهيات؛ وما ندعيه هو أن الموسيقى جماع كل هذه العلوم؛ إذ تتأسس على المنطق، والأعداد، والأشكال، والهيئة، والطبيعات، والإلهيات؛ من حيث إنها تقوم على النسبة، والتناسب، وترتبط بساعات الليل، والنهار، وبالفصول، وتُستخدَم للتحميم، والتهيج، وعلاج الأمراض، وتتواصل مع كل ما في الوجود من حيث هو وجود.⁽²⁶⁾

(26) انظر فصل (سحر الأعداد والأشكال) في الجزء الأول (مبادئ ومسارات).

عرف ابن خلدون الموسيقى بأنها: «معرفة نسبة الأصوات، والتَّغْم، بعضها من بعض، وتقديرها بالعدد؛ وثمرتها معرفة تلاحين الغناء»⁽²⁷⁾، وجعلها ثالث علم من التعاليم بعد الهندسة، والأرثماطقي؛ إلا أن ما لدينا من المقدمة ليس فيه حديث عن الموسيقى حيث يجب أن يكون؛ أي قبل علم الهيئة، وبعد الهندسة، والأرثماطقي؛ لكنه تكلم عن صناعة الغناء⁽²⁸⁾ من بين الصناعات؛ وهناك فرق بين العلم، والصناعة؛ ولعله اعتَبَر علم الموسيقى من قبيل الفلسفة التي هاجمها، وقبيل صناعة النجوم التي أبطلها لِضَغْفِ مداركها، وفساد غاياتها.

إذا صح ما قدمناه من أن العلوم العقلية هي أساس العلوم النقلية، وأن الموسيقى جُمَاع كل العلوم العقلية، فإنه يصير من الضرورات أن اللغة، والنحو، والبيان، والأدب، محكومة بالموسيقى؛ أو على الأقل، فإن الموسيقى، والشعر، كانا زَوْجَيْن لا ينفصلان؛ وهذا ما يجده القارئ في الثقافة الإغريقية، والثقافة العربية الإسلامية؛ وإذ الكلام يطول في هذه المسألة، فإننا نكتفي ببعض مذاهب التعليم في الأندلس، وعلاقة بعض أنواع الشعر لديهم بالغناء.

اقترح أبو بكر بن العربي⁽²⁹⁾ نموذجاً تعليمياً يُقدم فيه تعليم العربية والشعر على سائر العلوم، ثم الحساب؛ ومعنى هذا البداية بالعلوم التي هي أقرب إلى علم الموسيقى؛ وقد ذكر ابن رشد في «تلخيص كتاب الشعر» أن «الأقويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء: من قِبَلِ التَّغْم المتفقه ومن قبل الوزن، ومن قبل التشبيه نفسه... وجود النغم في المزامير، والوزن في الرقص، والمحاكاة في اللفظ؛ وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها - مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات، والأزجال، وهي الأشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل

(27) ابن خلدون، المقدمة، تصحيح وفهرسة (أبو) عبد الله السعيد المندوه، المجلد الثاني، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت- لبنان، ط. 2، 1996؛ انظر: الباب السادس في العلوم وأصنافها، والتعليم وطرقه وما يعرض في ذلك من الأحوال، وفيه مقدمة ولواحق، (ج 2، ص. 103-291).

(28) انظر فصل (سحر الأعداد والأشكال) من الجزء الأول (مبادئ ومسارات).

(29) ما ذكر، الباب الخامس من الكتاب الأول: في المعاش ووجوهه من الكسب، والصنائع، وما يعرض في ذلك كله من الأحوال، وفيه مسائل. الفصل الثاني والثلاثون في صناعة الغناء، ص. 96-102.

هذه الجزيرة - إذ كانت الأشعار الطبيعية هي ما جمعت الثلاثة الأمور؛ والأمور الطبيعية إنما توجد للأمم الطبيعيين»⁽³⁰⁾.

ج - الموسيقى والشعر

يظهر من قول ابن رشد أن الشيء الطبيعي هو تدامج اللحن - الوزن - اللغة؛ وهذا التدامج هو ما يكون الشعر الطبيعي للأمم الطبيعية مثل الإغريق، والأندلس. ذلك أن اللحن موجود طبيعياً في الأصوات اللغوية التي يُنتجها الصوت الإنساني المحدد عصبياً وفزيولوجياً، وهناك لحن اتفاقي، اصطناعي يصدر عن الآلات؛ وعلى أساس هذا نزع أن أصوات الآلات البدائية، وأنواعها ابتدعت على مقاس الجهاز الصوتي الإنساني، ومخارجه؛ الموسيقى، إذن، محددة عصبياً، وببيولوجياً في بَاحَةِ يُمْنَى مِنَ الدماغ تجلت في موقع من الجهاز الصوتي، واللغة لها فضاء في باحات يسرى من الدماغ تحققت في مخارج من الجهاز الصوتي؛ هما يشتركان، إذن، في المواقع؛ ولعل هذا البرهان هو لصاح الفرضية النظامية الصّرفية⁽³¹⁾.

حديث الإغريق عن مكونات الموسيقى، وكذلك ابن رشد، هو حديث عن الشعر؛ مكوناتها هي مكوناته: اللحن، والإيقاع، والنص الشعري، أو النص الشعري، والإيقاع، واللحن؛ اللحن نسيج أصوات يختلف بعضها عن بعض في الحدة، وفي الثقل؛ والإيقاع يتردد بين القوة والضعف؛ الأصوات اللغوية نغمات موسيقية؛ وهي تتوزّع في فضاء الجهاز الصوتي كما تتوزّع الآلات الموسيقية، وأدوارها، وأوقاتها في الجوقة. لهذا يجب أن تراعى هندسة الأصوات في فضاء النص، ومخارجها، وصفاتها؛ ذلك أن صوت الباء ليس هو صوت الطاء، والنون ليس هو العين... كما أن هناك ثلاثة أجناس في التأليف الموسيقي الشعري؛ هي الأسلوب الخاص بالجوقة والأسلوب ذو القوانين المحددة، وأسلوب أغاني المأساة⁽³²⁾؛ وقد يضاف إلى ثلوث اللحن، والإيقاع، والنص، الرقص، وحركات الجسد، وخصوصاً حركات الرأس، ومكونات الوجه،

(30) ابن رشد، المرجع المذكور، ص. 57.

(31) انظر (النظرية الإيقاعية) من الجزء الثاني (نظريات وأنساق).

(32) ابن رشد، ما ذكر، ص. 57؛ 77.

والأيدي، واتجاه الحركة؛ وعليه، فإن القول الشعري، وحده، غير كاف، وإنما هو عنصر في بنية تتألف، من اللحن، والوزن، والإشارات.

على أن سؤالاً يمكن أن يطرح ليناقد؛ وهو: ما الأسبق من هذه العناصر؛ أهو اللحن، فالإيقاع، فالبحث عن كلمات ملائمة؟ أهو القول الشعري، فتوليف لحن ملائم ذي إيقاع معين؟ إن تاريخ الممارسة الموسيقية - الشعرية يبين أن يكون الشعر أولاً، فاللحن، والإيقاع ثانياً، مثل ما هو في التقاليد الإغريقية، والسنن العربية الإسلامية التي لخصها كتاب الأغاني؛ وهذا لا يناقض أطروحتنا الأساسية التي تضع سبق الموسيقى للغة؛ إذ مهما كان الوضع، فإن الشعر تعبير موسيقي باللغة.

لهذا نزعم أن ما اقترحناه ليس إلا إزجاع الأمور إلى نصابها؛ أي أن الموسيقى أم العلوم، فاستعملت في التربية، والتهديب، والعلاج، والحث على مكارم الأخلاق، والكرم، والشجاعة؛ لكنها كأي شيء مؤسس تحتوي على المفارقة أيضاً؛ لذلك كانت حولها سجلات منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا. ولنغض الطرف عن الوجه الثاني للعملة، ولنقتصر برنامجاً تعليمياً يكون كالاتي: تعليم أوليات نغمية مصاحبة بإشارات جسدية معززة بأقوال عادية، أو شعرية، مُحللة إلى مقاطع، ثم تلقين ابتدائيات عديدة، وهندسية...؛ على أن يتولى أمر التلقين من هو مختص في الموسيقى، حتى يمكن إبعاد تلك الطرق العقيمة، وتخليص العروض، مما لحق به من تمحلات، وتفرعات غير مجدية كالزحافات، والعلل، التي تأسست على زعم نقاء الأوزان؛ لقد أدى هذا الزعم إلى ما أدى إليه، وخصوصاً التَّخْجِيرَ، والتَّحْجِيرَ، اللَّذَيْن لا سبيل إلى القضاء عليهما إلا بنظرية تناغمية تجعل الهَجَاةَ، والتضاد، والتقابل، من مكونات الخطاب الموسيقي، ومن سُبُلِ إغناثه، وإثرائه، وتَفْسُحِ المجال أمام التَّمْزِجِ بين التفعلات، والأوزان.

د - خصوصية الشعر

على أن الموسيقى، وإن كانت شرطاً ضرورياً في الشعر، فإنها غير كافية؛ فلو كانت هي المحدد الوحيد للشعر، فما كان للتفرقة بينهما من فائدة. لذلك، فإن القدماء من الإغريق، والعرب أضافوا مكونات أخرى ليصير الشعر كاملاً؛

ولعل أهمها هو التخيل الذي تحدث عنه بعض الفلاسفة والبلاغيين طويلاً، مثل ابن سينا، وحازم القرطاجني؛ على أننا نكتفي بإشارة إلى رأي ابن خلدون؛ يقول في تعريف الشعر: «وقول العروضيين في حده: إنه الكلام الموزون المقفى ليس يحد لهذا الشعر الذي نحن بصده، ولا رسم له؛ وصناعتهم إنما تنظر في الشعر باعتبار ما فيه من الإعراب، والبلاغة، والوزن، والقوالب الخاصة، فلا جرم أن حدهم ذلك لا يصلح له عندنا. فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية فنقول: الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف بأجزاء متفقة في الوزن، والرويّ مستقيل كل جزء منها في غرضه، ومقصده عما قبله، وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به»⁽³³⁾.

لم يكتف ابن خلدون بالوزن والقافية اللذين هما ضروريان، لكنهما غير كافيين، ولا يزاع حولهما لفصل الشعر من النثر؛ على أن المكونات الأخرى من استعارة، وأوصاف، وجزي على أساليب العرب تحكمها الأذواق؛ فإذا كان هناك شعراء مشهود لهم بالإجادة، مثل ابن خفاجة، والمتنبي، والمعري، فإن هناك من كان يعيب شعرهم؛ رأى أن ابن خفاجة يكثر من المعاني، فتأتي مزدحمة غير منسوجة على أساليب العرب، وأن المتنبي، والمعري لم يكن شعرهما إلا: «كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر؛ والحاكم بذلك هو الذوق»⁽³⁴⁾.

ما نريد أن نصل إليه من هذا هو أن طعن بعض المعاصرين في الشعر الجديد بحجة أنه ليس منسوجاً على أساليب العربية غير مؤسس، إذ يُمكن دحضه ببعض آراء القدماء أنفسهم الذين رأوا أن الوزن ليس كافياً، وأن الخواص الأخرى قائمة على الذوق، كما يمكن دفعه بأطروحتنا التي تجعل اللغة موسيقى؛ كل كلام موسيقى، ومع ذلك، فهناك ما يطلق عليه لقب شعر، وهناك ما يدعى باسم نثر؛ إن الشعر الجديد يتأسس على الإيقاع، وعلى تراكيب تسير أساليب العرب تارة، وتحالفها أخرى، وعلى الصمت، والصوت، وعلى بياض الصفحة، وسوادها، وعلى حركات الشاعر، اثناء الإنشاد، وكيفياتها (تارات)، وسكناته، وعلى هيأته الخلقية، والهندامية...؛ والحاكم بين الشعر، وغيره، هو الانتظام

(33) ابن خلدون، المقدمة، ص. 276-277.

(34) ما ذكر أعلاه.

المُعْطَى، أو القابلية لتشديد نظام، وتنظيم؛ وبهذه المرونة نسمح للمبدع أن يطلق العنان لغريزته الشعرية التي لَنْ تكون إلا ملائمة لقوانين الانتظام الكونية، وخالقة لانتظامات جديدة تتقبلها الفطر السليمة، فتصير قوانين، وقواعد، شأننا شأن الأمم ذات الإبداعات التي غيرت مجرى التاريخ.

هـ - التَّفَانُ

بين الموسيقى/الشعر علائق جوهرية متشابكة؛ على أننا ندعي أن هناك وشائج قوية مع الفنون الأخرى، مثل التشكيل، والنحت، والهندسة، باعتبارها تتأسس على قوانين رياضية، مثل النسبة، والتناسب، والأشكال، والأبعاد؛ وإذا النواة واحدة مشتركة تتسم ببعض الثبات، فإن التجليات في صيرورة دائمة؛ وعلى الرّغم من أن التطور لا يكون متساوياً، فإنه حاصل، لا محالة، في كل فن فن؛ وإذا صح هذا التصوّر، فإن الشعر يجب أن ينظر إليه ضمن الإبدال الفني العام، في كل عصر عصر؛ يوضع الشعر العُزْبِي في المقامية، أو التوافقية، أو الرومانسية، أو التسلسلية، أو التقليلية؛ وشعر العرب في موسيقى ما قبل الإسلام، والعصر الأموي، والعباسي، والأندلسي، والمملوكي، والنهضة، والموسيقى الحديثة، والمعاصرة.

إن المقطوعات الشعرية المدعوة بالشذرات يجب أن تدرك أبعادها في السياق العام، والخاص. ذلك أن شذرات الرومانسية ليست، من حيث الأبعاد، والمقاصد، هي شذرات آخر القرن العشرين، وما بعده؛ كانت شذرات الرومانسية ثورة على الضبط الكلاسيكي، وعقلانيته، في حين أن شذرات أواخر القرن ثورة على تعقيدات فن سنوات المنتصف الأول من القرن العشرين، فعاد تيار من الفنانين إلى البساطة، وإلى استعمال مواد قليلة⁽³⁵⁾..؛ وما قلناه في الشذرات يجري على ظواهر أخرى، كالبديع، وكتابة الشعر في أشكال مختلفة، وعلى مستندات متنوعة (الحيطان، والثياب، والمساجد)؛ وبهذا يراعي المحلل السياق التداولي، والدلالة، والتركيب.

(35) انظر فصل (الانفراد والاجتماع) من الجزء الثالث (أنغام ورموز).

و - المقارنة

علينا أن لا نكتفي، إذن، بدراسة الشعر داخل الثقافة الواحدة، لكن يجب القيام بها في علائقها مع ثقافات أخرى؛ وبناء على هذا، فإنه لا ينبغي الاقتصاد على دراسة شعر ما قبل الإسلام بسياق الجزيرة العربية وحده، وإنما يجب أن ينظر إليه في ضوء ثقافات الأمم الأخرى؛ مثل الأكاديين، والأشوريين، وبابليين، وما جوج... والمصريين، والفنيين...؛ وشعر العصر العباسي في إطار التقاليد الإغريقية/الرومانية، والفارسية، والهندية...؛ وموشحات الأندلس في سياق الثقافة الشعرية المشرقية، وفي التقاليد الشعرية المحلية، وفي العلاقة بين مَدُن الشمال: غالسيا، وجنوب فرنسا، وإيطاليا...؛ والشعر المعاصر في مناخ ما حصل من ثورات في فنون الغرب (ثم في الشرق الأقصى، مثل اليابان)؛ الدراسات المقارنة هي لب البحث العلمي المعاصر، وخصوصاً في ميدان اللغة. ذلك أن قارئ الأبحاث الجادة المعاصرة يجد مقارنات بين لغات مختلفة من كل أصقاع العالم، من حيث إيقاعها، وصرفها، وعروضها، وتركيبها؛ وأهداف هذه البحوث كثيرة؛ منها استخلاص كليات بشرية، وخصائص نوعية، لدحض بعض الأوهام التي تروج لها جماعات متطرفة، ولفتح آفاق أمام الإبداع النابع من الكفايات الإنسانية المتماثلة.

ز - أبدية الشعر

يظهر ما قدمناه أن التساؤل عن مصير الشرع مَجَّاني، إلا في ظروف استثنائية. الموسيقى/الشعر (أو الشعسقى) مركوزة في الجبلية الإنسانية؛ لأن الموسيقى لها باحة في الدماغ، واللغة لها باحة في الدماغ؛ ومن لم يمتلك الباحثين، فإنه من ذوي الاحتياجات الخاصة (معوق) بكل تأكيد؛ وإذا ما أصيبت باحة الموسيقى كلياً، فإن باحة اللغة تتأثر، بل إن الأمر لا يقتصر عليها وحدها، وإنما ينال بَعْضُ الْخَلَلِ القدرات الأخرى؛ فقد تضعف قدرة الرياضيات، والاستدلالات، والخيالات، والعواطف؛ أو لا يتحدث بعض المعاصرين عن شعرية الذهن البشري⁽³⁶⁾.

ح - أفق الأفق

وبعد، فإن الحديث عن الشعر مهما طال، واستطاب، فإنه يبقى عبارة عن «غيض من فيض»؛ ومهما بذل الباحث، فإنه لا يصل إلى الغرض المطلوب، يَبْدُ أَنَّنَا نَأْتِي يَقُولُ الشَّاعِرُ:

وَلَكِنَّا نَأْتِي بِمَا نَسْتَطِيعُهُ وَمَنْ بَذَلَ الْمَجْهُودَ حَقٌّ لَهُ الْعُذْرُ

وعليه، فإن ما اقترحنه في هذا المؤلف ليس إلا إطاراً للعمل نرجو من الباحثين، أفراداً، وجماعات، أن يطوروه، حتى تكون لنا - نحن المنتمين إلى الثقافة العربية الإسلامية - قَدَمُ صَدَقَ عِنْدَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ، وعند هذا العالم الذي نعيش فيه. والله هادينا ومرشدنا.

بعض المراجع المعتمدة

(1) بالعربية

- المهدي أخريف، بين الحِجْرِ وَبَيْنِي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، 2006 م.
- أدونيس، المسرح والمرايا، دار الآداب، بيروت - لبنان، 1988 م.
- عبد الرحمان بو علي، أعدني إلى رحم المحبرة، مطبعة تريفه، بركان - المغرب، 2007 م.
- محمد بنيس، هناك تبقى، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، 2007 م.
- عبد العزيز بومسهولي، الكائن الشعري، قراءة في تجربة الشاعر حسن نجمي، ندى كوم، مراكش، 2007 م.
- ابن خلدون، المقدمة، تصحيح وفهرسة المندوه، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، ط. 2، 1996 م.
- محمود درويش، الديوان، دار العودة، بيروت/لبنان، 1994 م.
- ابن رشد، تلخيص كتاب الشعر، تحقيق د. تشارلس بتورث. د. أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1987 م.
- عبد القادر الغزالي، الصورة الشعرية وأستلة الذات، قراءة في شعر حسن نجمي، دار الثقافة، الدار البيضاء/المغرب، 2004 م.
- صادق فرعون، المعجم الموسيقي المختصر، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 2007 م.
- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، 1980 م.

- محمد مفتاح، مجموع المؤلفات (1982 - 2005 م).
- رشيد المومني، هكذا سدى، مطبعة أنفو - برانت، فاس/المغرب، 2007 م.
- حسن نجمي، على انفراد، منشورات عكاظ، الرباط/المغرب، 2006 م.
- يحيى بن الوليد، شعر الرؤية، مسارات حسن نجمي منشورات فرائد، 2005 م.

(2) بغير العربية

- Jan Baetens, «Pour en finir avec la poésie dite Minimaliste», Intervalles 1, Automne/ Autumn centre interdisciplinaire de Poétique Appliquée-Université de Liège, pp. 104-109, 2004.
- Anne-Marie Cristin, *Poétique du Blanc*, Leuven/ Paris, (ed). Peeters vrin, 2000.
- Stôphane Dawans, et Al, *Minimalismes. Intervales?* Automne/Autumn, 2004.
- J.E. Dortier, *Le Dictionnaire des sciences humaines*, Delta, Paris, 2004.
- A.J. Geimas. J. Courtes, *Sémiotique. Dictionnaire Raisonné de la Théorie du Langage*, Hachette Université, Paris, 1979.
- Gazzaniga et Al. *Neurosciences Cognitives. La Biologie de L'esprit*. de Boeck, Université, Paris, 2001.
- Raymond W. Gibbs. J.R. *The Poetics of Mind. Figurative Thought, Language and Understanding*, Cambridge University Press, 1994.
- Stephen Mc dams, «Audition : Cognitive Psychology Music», R. Llinas et P. Churchland (eds), *the Mind-Brain Continuum*, pp. 215-279, MIT Press, 1996.
- Claude Naudin et Al, *Larousse Midical*, Larousse, Paris, 1998.
- Richard Parncutt, *Harmony : Apsychoacoustical Approach*, U.S.A, 1989.
- Aniruddah D. Patel, *Language and The Brain : Resources Sharing Framewark*, Cambridge Univesity Press, 2007.
- Anthony Storr, *Music and The Mind*, Herper Collins publishers, London, 1992.
- Georgy Yu. Somou, «Semiotic Systems of Works of Visual Art : Signs, Commotations, Signals», *Semiotica* 157-¼, (2005), 1-34.
- Moshe Tabachinick, «Sur la géométrisation de l'espace narratif dans le parcours interpretif du texte littéraire», *Semiotica* 154-¼ (2005), 39-55.

ألّفنا النموذج من مصادر مشتركة مندمجة تركيبياً؛ وهي أوليات معرفية، ورياضية، ومنطقية، وتنظيمية وحركية؛ وهذا التوليف جعلنا أقدر على توليد المفاهيم، وأدق في التحليل، وأضبط في التأويل، وأكثر إدراكاً للعلائق الوثيقة بين النص، ومبدعه، والمحيط؛

تعزيراً لما أنجزناه في الجزأين المذكورين خصصنا هذا الجزء الثالث: (أنغام ورموز) للقيام بتفكيكات دقيقة لنماذج شعرية مغربية، ومشرقية، للمهدي أخريف، وعبد الرحمان بو علي، ورشيد المومني، وحسن نجمي، ومحمد بنيس، وأدونيس، ومحمود درويش؛ وقد فصلناه إلى مدخل، وقسمين، ومخرج.